الآداب المعنوية للصلاة

المقالة الأولى

في الآداب التي تكون ضرورية في جميع الحالات الصلاتية بل في جميع العبادات والمناسك

وفيها اثنا عشر فصلاً

الفصل الأول

في التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية

من الآداب القلبية في العبادات والوظائف الباطنية لسالك طريق الآخرة التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية، وهذا التوجّه من المنازل المهمّة في السلوك للسالك بحيث تكون قوّة سلوك كل من السالكين بحسب قوة هذا النظر وبمقدارها، بل الكمال والنقص لإنسانية الإنسان تابع لهذا الأمر، وكلما كان النظر إلى الإنّية والأنانية ورؤية النفس وحبّها في الإنسان غالبا كان بعيدا عن كمال الإنسانية ومهجورا من مقام القرب الربوبي، وأن حجاب رؤية النفس وعبادتها لأضخم الحجب وأظلمها، وخرق هذا الحجاب أصعب من خرق جميع الحجب، وفي نفس الحال مقدمة له بل وخرق هذا الحجاب هو مفتاح مفاتيح الغيب والشهادة وباب أبواب العروج إلى كمال الروحانية، وما دام الإنسان قاصرا على النظر إلى نفسه وكماله المتوهم وجماله الموهوم فهو محجوب ومهجور من الجمال المطلق والكمال الصرف والخروج من هذا المنزل هو أول شرط للسلوك إلى الله بل هو الميزان في حقانية الرياضة وبطلانها. فكل سالك يسلك بخطوة الأنانية ورؤية النفس ويطوي منازل السلوك في حجاب الإنيّة وحب النفس تكون رياضته باطلة.

ولا يكون سلوكه إلى الله بل إلى النفس (أمّ الأصنام صنم نفسك) (مصراع بيت للعارف الرومي مشهور: مادربت هابت نفس شما است) قال تعالى: {ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله}. (النساء 100)

فالهجرة الصورية وصورة الهجرة عبارة عن هجرة البدن "المنزل الصوري" إلى الكعبة أو إلى مشاهد الأولياء، والهجرة المعنوية هي الخروج من بيت النفس ومنزل الدنيا إلى الله ورسوله، والهجرة إلى الرسول و إلى الوليّ أيضاً هجرة إلى الله، و ما دام للسالك تعلّق ما بنفسانيّته وتوجّه منه إلى إنّيّته فليس هو بمسافر وما دامت البقايا من الأنانية على امتداد نظر السالك وجدران مدينة النفس وأذان أعلام حبّ النفس غير مختفية فهو في حكم الحاضر لا المسافر ولا المهاجر.

وفي مصباح الشريعة قال الصادق (ع): (العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد في العبودية وجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أصيب في العبودية).

فمن سعى بخطوة العبودية ووسم ناصيته بسمة ذلة العبودية يصل إلى عزّ الربوبية، والطريق للوصول إلى الحقائق الربوبية هو السير في مدارج العبودية فما فقد من الإنّيّة والأنانية في عبوديّته يجده في ظّل الحماية الربوبية حتى يصل إلى مقام يكون الحق تعالى سمعه وبصره ويده ورجله كما في الحديث الصحيح المشهور عند الفريقين. فإذا ترك العبد التصرفات من عنده وسلم حكومة وجوده كلها إلى الحق وخلّى بين البيت وصاحبه وفني

في عزّ الربوبية فحينئذ يكون المتصرف في الدار صاحبها فتصير تصرفات العبد تصرّفا إلهيا، فيكون بصره بصراً إلهياً وينظر ببصر الحق ويكون سمعه سمعاً إلهياً فيسمع بسمع الحق، وكلما اكتملت ربوبية النفس وكان عزّها منظورا في نظرها نقص بمقدار من العزّ الربوبي لأن هذين: أي عزّ العبودية وعز الربوبية متقابلان "الدنيا والآخرة ضرتان" فمن الضروري للسالك أن يتفطّن إلى ذلّه ويكون ذلّ العبودية وعزّ الربوبية نصب عينيه.

وكلما قوي هذا النظر زادت روحانيته في العبادة وكانت روح العبادة أقوى، حتى إذا تمكن العبد بنصرة الحق وأوليائه الكُمّل عليهم السلام من الوصول إلى حقيقة العبودية، وكنهها فإنه يجد حينئذ لمحة من سرّ العبادة. وهذان المقامان ـ أعني مقام عزّ الربوبية الذي هو الحقيقة ومقام ذلّ العبودية الذي هو رقيقته ـ مرموزان في جميع العبادات وبالأخص في الصلاة التي لها مقام الجامعية. ومنزلتها بين العبادات منزلة الإنسان الكامل ومنزلة الإسم الأعظم بل هي عينه، وللقنوت، من الأعمال المستحبة. وللسجدة، من الأعمال الواجبة اختصاص بهذه الخصوصية وسنشير إليها فيما يأتي إن شاء الله.

وليعلم أن العبودية المطلقة من أعلى مراتب الكمال وأرفع مراتب الكمال وأرفع مقامات الإنسانية وليس لأحد فيها نصيب سوى الأكمل من خلق الله محمد صلى الله عليه وآله وأولياء الله الكمّل، فله صلى الله عليه وآله هذا المقام بالأصالة وللأولياء الكمّل بالتبعية وأما بقية العباد فهم في طريق العبادة عُرج وعبادتهم وعبوديّتهم معلّلة ولا ينال المعراج الحقيقي المطلق إلا بقدم العبودية ولهذا قال الله سبحانه: {سبحان الذي أسرى بعبده} (الاسراء 1) فقد أسرى الله سبحانه بتلك الذات المقدسة إلى معراج القرب والوصول بقدم العبودية والجذبة الربوبية.

وفي التشهد الصلاتي هو رجوع من الفناء المطلق الذي حصل للمصلّي في السجدة، التوجّه إلى العبودية أيضاً قبل التوجه بالرسالة.

ويمكن أن يكون إشارة إلى مقام الرسالة هو أيضا نتيجة لجوهرة العبودية ولهذا المطلب ذيل طويل خارج عن نطاق هذه الأوراق.

الفصل الثاني

في مراتب مقامات أهل السلوك

اعلم أن لاهل السلوك في هذا المقام وسائر المقامات مراتب ومدارج لا تحصى. ونحن نذكر بعض مراتبه على النحو الكلّي، وأما الإحاطة بجميع جوانبه وإحصاء جميع مراتبه فخارج عن عهدتي وفوق طاقتي، فإن "الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق". (قال الصادق عليه السلام: "الإيمان درجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه ومنه الناقص البيّن نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه".

وقال الباقر عليه السلام: "إن المؤمنين على منازل، منهم على واحدة ومنهم على اثنتين ومنهم على ثلاث ومنهم على أربع ومنهم على خمس ومنهم على ستّ ومنهم على سبع، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة اثنتين لم يقوَ، وعلى صاحب الاثنتين ثلاثا لم يقو" وساق الحديث ثم قال: "وعلى هذه الدرجات".)

فمن تلك المراتب مرتبة العلم وهي أن يثبت بالسلوك العلمي والبرهان الفلسفي ذلة العبودية وعزة الربوبية، وهذا لبّ من لباب المعارف. فقد اتضح في العلوم العالية والحكمة المتعالية أن جميع دار التحقق وتمام دائرة الوجود

إنما هو صرف الربط والتعلّق ومحض الفقر والفاقة أما العزّة والملك والسلطان فمختصة بذاته المقدس الكبريائي وليس لاحد من حظوظ العزة والكبرياء نصيب.

وذل العبودية والفقر ثابت في ناصيتهم وفي حاقّ حقيقتهم، وإنما حقيقة العرفان والشهود ونتيجة الرياضة والسلوك هي رفع الحجاب عن وجه الحقيقة ورؤية ذل العبودية وأصل الفقر والتدلي في نفسه وفي جميع الموجودات، ولعل في الدعاء المنسوب إلى سيّد الكائنات صلى الله عليه وآله: "اللهم أرني الأشياء كما هي" إشارة إلى هذا المقام بمعنى أنه صلى الله عليه وآله سأل الله سبحانه أن يشهده ذلة العبودية المستلزمة لشهود عزّ الربوبية.

فسالك طريق الحقيقة ومسافر سبيل العبودية إذا قطع هذا المنزل بالسلوك العلمي وركب مركب السير الفكري يقع في حجاب العلم ويصل إلى المقام الأول للإنسانية، ولكن هذا الحجاب من الحجب الغليظة وقد قالوا: العلم هو الحجاب الأكبر ولا بد ألا يبقى في هذا الحجاب وأن يخرقه ولعله إذا اقتنع بهذا المقام وسجن قلبه في هذا القيد يقع في الاستدراج، والاستدراج في هذا المقام هو أن يشتغل بالتفريعات الكثيرة العلمية ويجوّل فكره في هذا الميدان، فيقيم لهذا المقصد براهين كثيرة فيحرم من المنازل الأخر ويتعلق قلبه بهذا المقام ويغفل عن النتيجة المطلوبة وهي الوصول إلى الفناء في الله ويصرف عمره في حجاب البرهان وشعبه وكلما كثرت الفروع يصير الحجاب والاحتجاب عن الحقيقة أكثر.

فللسالك ألاّ يغترّ بمكايد الشيطان في هذا المقام ولا يحتجب بكثرة العلم وغزارته، ولا بقوة البرهان عن الحق والحقيقة ويتأخر عن السير في الطلب وله أن يشمّر الذيل بهمّته، ولا يغفل عن الجدّ في طلب المطلوب الحقيقي حتى ينال المقام الثاني.

وهو أن كل ما أدركه عقله بقوة البرهان والسلوك العلمي يكتبه بقلم العقل على صحيفة قلبه كي يوصل حقيقة ذل العبودية وعزّ الربوبية إلى القلب ويفرغ من القيود والحجب العلمية، ونحن نشير إلى ذلك المقام عن قريب أن شاء الله، فإذن، فنتيجة المقام الثاني هي حصول الإيمان بالحقائق.

والمقام الثالث هو مقام الاطمئنان والطمأنينة، وهو في الحقيقة المرتبة الكاملة من الإيمان، قال تعالى مخاطبا خليله {أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي} ولعلّنا نشير إلى تلك المرتبة أيضاً فيما سيأتي.

المرتبة الرابعة هي مقام المشاهدة، وهو نور الهي وتجلّ رحماني يظهر في سرّ السالك تبعا للتجليات الأسمائية والصفاتية وينوّر جميع قلبه بنور شهوديّ ولهذا المقام درجات كثيرة لا تتسع هذه الأوراق لذكرها.

وفي هذه المقام يبرز نموذج من قرب النوافل المعبّر عنه بـ "كنت سمعه وبصره".

ويرى السالك نفسه مستغرقا في البحر اللامتناهي ومن ورائه بحر عميق في غاية العمق تنكشف له فيه نبذة من أسرار القدر، ولكل من هذه المقامات استدراج يختص به وللسالك فيه هلاك عظيم. ولا بدّ للسالك في جميع هذه المقامات من تخليص نفسه من الأنانية وأن يتخلص من رؤية نفسه وحبّها، فإنه منبع أكثر المفاسد ولا سيّما للسالك وسنشير إلى ذلك المطلب إن شاء الله.

الفصل الثالث

في بيان الخشوع

إن من الأمور اللازمة للسالك في جميع عباداته ولا سيما في الصلاة التي هي رأس العبادات ولها مقام الجامعية، الخشوع. وحقيقته عبارة عن الخضوع التام الممزوج بالحب أو الخوف وهو يحصل من إدراك عظمة الجلال والجمال وسطوتهما وهيبتهما.

وتفصيل هذا الإجمال هو أنّ قلوب أهل السلوك بحسب الجِبِلّة والفطرة مختلفة، فبعض منها عشقّي ومن مظاهر الجمال ومتوجه إلى جمال المحبوب بحسب الفطرة فهؤلاء إذا أدركوا في سلوكهم ظل الجميل، أو شاهدوا أصل الجمال تمحوهم العظمة المختفية في سرّ الجمال فتصعقهم، لأنّ في كل جمال جلالا مختفيا وفي كل جلال جمالا مستورا.

ولعله إلى ذلك أشار مولى العارفين وأمير المؤمنين والسالكين صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين حيث قال: "سبحان من اتسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته، واشتدت نقمته لأعدائه في سعة رحمته" فتغشاهم هيبة الجمال وعظمته ويأخذهم الخشوع في حيال جمال المحبوب.

وهذه الحالة في أوائل الأمر توجب تزلزل القلب واضطرابه، وبعد التمكين تحصل للسالك حالة الأنس وتتبدل حالة الوحشة والاضطراب المتولدة من العظمة والسطوة إلى الأنس والسكينة وتجيئه حالة الطمأنينة، كما أن حالة قلب خليل الرحمن كانت كذلك.

وبعض من القلوب خوفّي ومن مظاهر الجلال، وأرباب تلك القلوب يدركون دائماً العظمة والكبرياء والجلال، وخشوعهم يكون من الخوف، ومن تجلي الأسماء القهرية والجلالية لقلوبهم، كما أن يحيى، على نبيّنا وآله وعليه السلام، كان هكذا. فالخشوع يكون ممزوجا تارة بالحب وأخرى بالخوف والوحشة، وان كان في حبّ وحشة، وفي كل خوف حبّ. ومراتب الخشوع على حسب مراتب إدراك العظمة والجلال والحسن والجمال، وحيث أن أمثالنا مع ما لنا من هذه الحالة، من نور المشاهدات محرومون فلا بد أن نكون بصدد تحصيل الخشوع من طريق العلم أو الإيمان. قال تعالى:

{قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون} (1 المؤمنون 2.1) فجعل الخشوع في الصلاة من حدود الإيمان وعلائمه. فكل من لم يكن خاشعا في الصلاة فهو خارج عن زمرة أهل الإيمان طبقا لما قاله الذات المقدسة الحق تعالى شأنه. (1 قال الصادق عليه السلام "إذا دخلت في صلاتك فعليك بالتخشّع والإقبال على صلاتك فإن الله تعالى يقول: {الذين هم في صلاتهم خاشعون}".

قال المحقق الكاشاني ((* . لقب العالم الفاضل الكامل العارف المحدّث الحكيم المتألّه محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن القاشاني صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة كالوافي والصافي والشافي والمفاتيح والنخبة والحقائق وعلم اليقين وعين اليقين وخلاصة الأذكار وبشارة الشيعة والمحجة البيضاء في إحياء الأحياء إلى غير ذلك مما يقرب من مئة تصنيف)).. في المحجة البيضاء ما حاصله: إن الخشوع في الصلاة على قسمين

الأول: الخشوع القلبي وهو أن يكون تمام همّته في الصلاة ومعرضا عما سواها بحيث لا يكون في قلبه سوى المحبوب.

والثاني: الخشوع في الجوارح وهو يحصل بأن يغمض عينيه ولا يلتفت إلى الجوانب ولا يلعب بأعضائه...

وبالجملة لا تصدر منه حركة سوى الحركات الصلاتية، ولا يأتي بشي من المكروهات.. ثم ينقل الروايات المتضمنة للأمور المكروهة في الصلاة.

وأقول: إن حقيقة الخشوع عبارة عن حالة قلبية تحصل للقلب من إدراك الجلال والجمال، وبمقدار ما يدرك القلب منهما تزول عنه الإنّيّة والأنانية فيخضع ويسلّم لصاحب الجلال والجمال.. وبهذه العناية نسب الخشوع إلى الأرض والجبال، فإن الأرض مسلّمة للعوامل الطبيعية وليس لها إرادة في إنبات النبات، بل هي تسليم محض، قال تعالى: {ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت} (فصلت 39). وهكذا الجبل بالنسبة إلى نزول القرآن فإن أنيّة الجبل تندكّ ولا يمكنه المقاومة، قال تعالى: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله} (الحشر 21).

وبما أن صلواتنا ليست مشفوعة بالخشوع فإن ذلك ناجم إمّا عن نقص الإيمان، أو فقدانه. وإن الاعتقاد والعلم مغايران للإيمان، فالعلم بالله وأسمائه وصفاته وسائر المعارف الإلهية الذي يوجد فينا، مغاير للإيمان وليس بإيمان.

والدليل على ذلك إن الشيطان كما يشهد له الذات المقدسة الحق عالم بالمبدأ والمعاد ومع ذلك فهو كافر، لأنه يقول:

{خلقتني من نار وخلقته من طين} فهو إذاً يعترف بالحق تعالى وخالقيته، ويقول أيضاً:

{أنظرني إلى يوم يبعثون} فيعتقد بالمعاد وهو كذلك عالم بالكتب والرسل والملائكة، ومع ذلك كله خاطبه الله سبحانه بلفظ الكافر، وأخرجه من زمرة المؤمنين.

فإذاً يمتاز أهل العلم من أهل الإيمان، وليس كل من هو من أهل العلم أهل للإيمان، فيلزم للسالك أن يدخل نفسه في سلك المؤمنين بعد سلوكه العلمي، ويوصل إلى قلبه عظمة الحق وجلاله وبهاءه، وجماله جلّت عظمته كي يخشع قلبه، وإلا فمجرد العلم لا يوجب خشوعا كما ترونه في أنفسكم فإنكم مع كونكم معتقدين بالمبدأ والمعاد، ومع اعتقادكم بعظمة الله وجلاله ليست قلوبكم خاشعة. وأما قوله تعالى:

{ألم يأن للذين آمنوا أن يخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} فلعلّ المراد منه هو الإيمان الصوري أي الإيمان بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله، وإلا فالإيمان الحقيقي يلازم مرتبة من الخشوع لا محالة أو أن المراد من الخشوع في هذه الآية، هو الخشوع بمراتبه الكاملة، كما أن العالم ربما يطلق على من وصل من حد العلم إلى حد الإيمان، ويحتمل أن تكون الآية الشريفة {إنما يخشى الله من عباده العلماء} إشارة إلى هؤلاء.

وقد أطلق العلم والإيمان والإسلام في الكتاب والسنة على المراتب المختلفة منها وبيانها خارج عن وظيفة هذه الأوراق، وبالجملة على السالك لطريق الآخرة وخصوصا على السالك بالخطوة المعراجية الصلاتية أن يحصّل الخشوع بنور العلم والإيمان وان يمكّن هذه الرقيقة الإلهية، والبارقة الرحمانية في قلبه بمقدار ما يمكنه، فلعله يستطيع أن يحتفظ بهذه الحالة في جميع الصلاة من أولها إلى آخرها.

وحالة التمكّن والاستقرار وان كانت لا تخلو في أول الأمر من صعوبة وأشكال لأمثالنا، ولكنها مع الممارسة والارتياض القلبي أمر ممكن جدّا.

عزيزي، أن تحصيل الكمال وزاد الآخرة يستدعي طلبا وجدا، وكلما كان المطلوب أعظم فهو أحرى بالجدّ.

ومن الواضح أن معراج القرب إلى حضرة الألوهية، ومقام جوار رب العزة، لا يتيسر مع هذه الرخوة والفتور والتسامح، فيلزمك القيام الرجولي حتى تصل إلى المطلوب، وطالما أنك تؤمن بالآخرة وتعلم بأن النشأة الآخرة لا يمكن أن تقاس بهذه النشأة من حيث السعادة والكمال ولا في جانب الشقاوة والوبال، لأن تلك النشأة عالم أبدي دائم لا موت فيه ولا فناء له سعيدة في راحة وعزة ونعمة أبدية وهي راحة لا يوجد لها شبيه في هذا العالم، وعزة وسلطنة الاهيان ليس لهما نظير في هذه النشأة، و نِعَمُ ما خطرت على مخيِّلة أحد وكذلك الأمر في جانب الشقاوة فإن عذابها ونقمتها ووبالها ليس لها في هذا العالم مثيل ولا نظير، وتعلم أن طريق الوصول إلى السعادة إنما هو إطاعة رب العزة، وليس في العبادات ما يضاهي هذه الصلاة فإنها معجون جامع إلهي يتكفل بسعادة البشر (وان قبلت قبلت جميع الأعمال) فلا بدّ لك من الجدّ التام في طلبها ولا تتضايق في السعي إليها ومن تحمل المشاق في سبيلها مع أنه ليس فيها مشقة بل انك إذا واظبت عليها مدة يسيرة، وحصل لقلبك الأنس بها لتجدنَّ في هذا العالم من المناجاة مع الحق تعالى شأنه لَذّات لا يقاس بها لذّة من لذّات هذا العالم كما يظهر ذلك من السير في أحوال أهل المناجاة مع الله سبحانه.

وبالجملة فخلاصة ما ذكرنا في هذا الفصل، أنه إذا علم الإنسان بالبرهان أو ببيان الأنبياء عليهم السلام عظمة الله وجماله وجلاله، فلا بدّ إن يذكِّر القلب بها حتى يدخل الخشوع شيئا فشيئا في القلب بواسطة التذكُّر والتوجه القلبي والمداومة على ذكر عظمة الله وجلاله حتى تحصل النتيجة المطلوبة. ولا بد للسالك ألاّ يقنع في حال من الحالات بالمقام الذي هو فيه، فإنه مهما حصلت المقامات لأمثالنا فلا تساوي اصغر نقد في سوق أهل المعرفة، ولا تقابل في سوم أصحاب القلوب حبة خردل.

فليتذكر السالك في جميع حالاته نقائصه ومعايبه، فعلّه ينفتح له طريق إلى السعادة من هذه السبيل والحمد لله.

الفصل الرابع

في بيان الطمأنينة

من الآداب المهمة المهمة القلبية للعبادات . وخصوصا العبادات الذكرية . الطمأنينة. وهذه غير الطمأنينة التي اعتبرها الفقهاء رضوان الله عليهم في خصوص الصلاة، فهذه عبارة عن أن السالك يأتي بالعبادة مع سكون القلب، واطمئنان الخاطر، لأن العبادة إذا أتي بها في حال اضطراب القلب وتزلزله فالقلب لا ينفعل بمثل هذه العبادة ولا يحصل أثر من العبادة في ملكوت القلب ولا تصير حقيقة العبادة صورة باطنية للقلب، والحال إن من إحدى جهات تكرار العبادات وتكثير الأذكار والأوراد أن يتأثر القلب منها وينفعل حتى يتشكل باطن السالك شيئا فشيئا من حقيقة الذكر والعبادة، ويتحد قلبه بروح العبادة، وطالما لم يكن للقلب اطمئنان وسكون وطمأنينة ووقار لم يكن للأذكار والنسك فيه تأثير ولا يسري أثر العبادة في ظاهر البدن وملكه إلى ملكوته وباطنه ولا يؤدي إلى القلب حظوظة من العبادة. وهذا من الأمور الواضحة التي لا تحتاج إلى بيان، ويعلم بأدنى تأمّل، وإذا كانت العبادة بهذه الكيفية بحيث لا يشعر القلب بها أصلا ولا يظهر منها أثر في الباطن لا يتحفظ عليها في سائر العوالم ولا تصعد من نشأة الملك إلى نشأة الملكوت، ومن الممكن أن تمحى صورتها بالكلية عن صفحة القلب (ونعوذ بالله) عند

شدائد مرض الموت وسكراته المهيبة والأهوال والمصائب التي تكون بعد الموت فيقدم الإنسان على الله وهو صفر اليدين.

ونذكر لذلك مثلا، وهو أن الذكر الشريف: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" إذا قاله أحد من قلبه وبإطمئنان من لبّه وراح يعلّم القلب هذا الذكر الشريف، فيتعلم القلب الذكر ويتكلم به شيئا فشيئا حتى يتبع لسان القلب اللسان الظاهر فيكون القلب ذاكراً أولا ثم يتبعه اللسان الظاهر، ويكون ذاكرا وإلى هذا المعنى أشار الإمام الصادق عليه السلام، على ما في رواية مصباح الشريعة قال:

"فاجعل قلبك قبلة للسانك لا تحركه إلا بإشارة القلب وموافقة العقل ورضى الإيمان".

ففي أول الأمر ما لم ينطق لسان القلب فلسالك طريق الآخرة إن يعلّمه النطق ويلقي عليه الذكر. مع طمأنينة وسكون، فإذا انفتح لسان القلب بالنطق يكون القلب قبلة للّسان ولسائر الأعضاء. فإذا شرع القلب في ذكر تكون مدينة وجود الإنسان بأسرها ذاكرة، وأما إذا قال هذا الذكر الشريف بلا سكون في القلب ولا طمأنينة منه ومع العجلة والاضطراب واختلال الحواس فلا يكون منه أيّ تأثير في القلب ولا يتجاوز عن حدّ اللسان والسمع الحيواني الظاهري، إلى الباطن والسمع الإنساني ولا تتحقق حقيقته في الباطن ولا يصير صورة كمالية للقلب غير ممكنة الزوال فإن إصابته الأهوال والشدائد وبالخصوص أهوال الموت وسكراته وشدائد نزع الروح الإنساني فينسى الذكر بالمرّة وينمحي الذكر الشريف عن صحيفة قلبه بل اسم الله سبحانه وتعالى واسم الرسول الخاتم والدين الشريف الإسلام، والكتاب المقدس الإلهي والأئمة الهداة وسائر المعارف التي ما أنهاها إلى القلب فينساها كلها وعند السؤال في القبر لا يحير جوابا، والتلقين أيضاً لا يفيد حاله لأنه لا يجد في نفسه من حقيقة الربوبية والرسالة وسائر المعارف أثراً. وما قاله بقلقلة لسانه وما حصلت له صورة في القلب قد انمحى من خاطره ولم يكن له نصيب من الشهادة بالربوبية والرسالة وسائر المعارف.

وفي الحديث أن طائفة من أمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، إذا أوردوهم في النار ونظروا إلى مالك: خازن جهنم نسوا اسم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من هيبته مع أنهم من أهل الإيمان كما هو في نفس ذلك الحديث.

قال المحدّث العظيم الشأن المجلسي (1 إذا اطلق، فهو شيخ الإسلام والمسلمين مروّج المذهب والدين الإمام العلامة المحقق المدقق محمد باقر بن محمد تقي بن المقصود علي المجلسي قدس الله أرواحهم. قال صاحب المستدرك المحدّث العلامة النوري قدس سرّه لم يوفق أحد في الإسلام مثل ما وفّق هذا الشيخ المعظم والبحر الخضم والطود الاشم من ترويج المذهب واعلاء كلمة الحق وكسر صولة المبتدعين وقمع زخارف الملحدين واحياء دارس سنن الدين المبين ونشر آثار أئمة المسلمين بطرق عديدة وانحاء مختلفة أجلّها وأبقاها التصانيف الرائقة الأنيقة الكثيرة التي شاعت في الأنام وينتفع بها في آناء الليل والأيام العالم والجاهل والخواص والعوام والعجمي والعربي مع ما خرج من مجلسه جماعة كثيرة من الفضلاء وصرّح تلميذه الاجّل الاميرزا عبدالله الاصبهاني في (ض) انهم بلغوا إلى ألف نفس. (انتهى). ومن أجلّ تأليفاته وأعظمها موسوعة بحار الأنوار وكل مؤلفاته الشريفة على ما وقع عليها التخمين تبلغ ألف ألف بيت وأربعة آلاف بيت وكسرا. توفي سنة 1110 (غقي) في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان وعمره إذ ذاك ثلاث وسبعون فانه ولد في سنة 1037 وهو يوافق عدد (جامع

كتاب بحار الأنوار) ومرقده الشريف الآن ملجأ الخلائق بأصبهان في الباب القبلي من جامعها العتيق الأعظم ومن المجرّبات استجابة الدعوات عند مضجعة المنيف قدّس الله نفسه الزكيّة.)

رحمه الله في مرآة العقول في شرح الحديث الشريف: (كنت سمعه وبصره) ما حاصله أن من لم يصرف بصره وسمعه وسائر أعضائه في سبيل إطاعة الحق تعالى لم يكن له بصر وسمع روحاني وهذا البصر والسمع الملكي الجسماني لا ينتقل إلى ذاك العالم ويكون الإنسان في عالم القبر والقيامة بلا سمع وبلا بصر، والميزان في السؤال والجواب في القبر تلك الأعضاء الروحانية (انتهى ملخصا).

والأحاديث الشريفة في هذا النحو من الطمأنينة وآثارها، كثيرة، ومن هذه الجهة أمر بترتيل القرآن الشريف، وفي الحديث: عن أبي عبد الله (ع) قال سمعته يقول: "من نسي سورة من القرآن مُثّلت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة، فإذا رآها قال من أنت ما أحسنك ليتك لي، فتقول: أما تعرفني، أنا سورة كذا وكذا لو لم تنسني لرفعتك إلى هذا المكان".

وفي الحديث قال: "من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بدمه ولحمه".

والسّر في ذلك أنّ اشتغال القلب وتكدره في أيام الشباب أقل. لذا يتأثر القلب من القرآن أكثر أسرع ويكون أثره أيضاً أبقى. وفي هذا الباب أحاديث كثيرة نذكر منها في باب القراءة إنشاء الله. وفي الحديث الشريف: "ما من شيء أحبّ إلى الله عزّ وجل من عمل يداوم عليه وإن قلّ" ولعل السر العمدة فيه أنه مع المداومة يكون العمل صورة باطنية للقلب كما ذكرنا.

الفصل الخامس

في بيان الحفاظ على العبادة من تصرف الشيطان

من الآداب المهمة القلبية للصلاة وغيرها من العبادات الحفاظ عليها من التصرفات الشيطانية، وهو في الوقت نفسه من أمهات الآداب القلبية والقيام به من عظائم الأمور ومشكلات الدقائق، ولعل الآية الشريفة في وصف المؤمنين الذين هم على صلواتهم يحافظون إشارة إلى جميع مراتب الحفظ التي تكون أحداها بل أهمها الحفاظ عليها من تصرفات الشيطان.

وتفصيل هذا الإجمال إن من الواضح عند أصحاب المعرفة وأرباب القلوب أنه كما أن للابدان غذاء جسمانيا تتغذى به، ولا بد أن يكون الغذاء مناسبا لحالها وموافقا لشأنها حتى تتيسر لها التربية الجسمانية والنمو النباتي، كذلك فإن للقلوب والأرواح غذاء لا بد أن يكون مناسبا لحال كل منها وموافقا لنشأتها كي تتربى به وتتغذى منه وتنمو نموا معنويا وتترقى ترقيا باطنيا. والغذاء المناسب لنشأة الأرواح هو المعارف الإلهية اعتبارا من مبدأ المبادئ للوجود إلى منتهى النهاية للنظام الوجودي كما قال أعاظم أرباب الصناعة الفلسفية في تعريف الفلسفة "هي صيرورة الإنسان عالما عقليا مضاهيا للعالم العيني في صورته وكماله". وهذا القول إشارة إلى هذا التغذي من المعارف الإلهية في حين أن تغذي القلوب يستمد من الفضائل والمناسك الإلهية.

وليعلم أن كلا من هذه الأغذية إذا خلص من تصرف الشيطان وأوعدّ على يد الولاية للرسول الخاتم وولي الله الأعظم صلوات الله عليهما وآلهما يتغذى الروح والقلب منه وينالا الكمال اللائق بالإنسانية، ويعرجان معراج القلوب إلى الله، ولا يحصل الخلاص من تصرف الشيطان الذي هو مقدمة للإخلاص بحقيقته إلا أن يكون السالك في

سلوكه طالباً لله. ويضع حب النفس وعبادتها الذي هو المنشأ للمفاسد كلها وأمُّ الأمراض الباطنية تحت قدميه، وهذا لا يتيسر بتمام معناه في غير الإنسان الكامل وبتبعية في خُلَّص أوليائه، وأما سائر الناس فغير ميسّر لهم هذا الخلاص، ولكن على السالك إلاّ ييأس من الألطاف الباطنية لله سبحانه فإن اليأس من روح الله رأس كل برودة وفتور ومن أعظم الكبائر. والذي يمكن من الإخلاص لصنف الرعايا هو أيضاً قرّة العين لأهل المعرفة، فعلى سالك طريق الآخرة لزوما حتما أن يخلص معارفه ومناسكه من تصرف الشيطان والنفس الأمارة مهما بلغ من الجهد وان يغوص في حركاته الباطنية، وتغذياته الروحية، ولا يغفل عن حيل النفس والشيطان وحبائل النفس الأمارة وإبليس وان يسوء ظنه سوء الظن الكامل في جميع حركاته وأفعاله، ولا يخلي نفسه على رسلها آنا ما، فربما تتغلب على الإنسان وتصرعه إذا تسامح معها وتوسقه إلى الهلاك والفناء، لأن الأغذية الروحانية إذا لم تكن خالصة من تصرف الشيطان وتدخلت يده في أعدادها فمضافا إلى أنه لا تتربى بها الأرواح والقلوب ولا تصل إلى الكمال اللائق بها، يحصل لها النقصان الفاحش أيضاً، ولعلها تجعل صاحبها منسلكا في سلك الشياطين والبهائم والسباع. وما هو السبب للسعادة ورأس المال لكمال الإنسانية والوصول إلى المدارج العالية ليعطي النتيجة المعكوسة ويسوق الإنسان إلى الهاوية المظلمة للشقاوة كما رأينا في بعض أهل العرفان الاصطلاحي أشخاصا انتهت بهم هذه الاصطلاحات والغور فيها إلى الضلالة وجعلت قلوبهم منكوسة وبواطنهم مظلمة وصارت الممارسة في المعارف موجبة لقوة أنانيتهم وإنيتهم وصدرت منهم الدعاوى غير اللائقة والشطحات غير المناسبة. وكذلك رأينا في أرباب الرياضات والسلوك أفرادا أوجبت رياضتهم واشتغالهم بتصفية النفس جعل قلوبهم أكدر وباطنهم أظلم وما جاءهم ذلك كله إلا من قبل أنهم لم يتحفظوا على سلوكهم المعنوي الإلهي ومهاجرتهم إلى الله وكان سلوكهم العلمي وارتياضهم بتصرف الشيطان والنفس وإلى الشيطان والنفس.

و كذلك رأينا في طلاب العلوم النقلية الشرعية أفراد أثّر فيهم العلم الأثر السيئ وزاد في المفاسد الأخلاقية لهم، والعلم الذي لابد أن يكون موجبا للفلاح والنجاة لهم صار سببا لهلاكهم ودعاهم إلى الجهل والمماراة والاستطالة.

وكذلك في أهل العبادة والمناسك، والمواظبين على الآداب والسنن ربما يكون أشخاص جعلت العبادة والنسك التي هي رأس مال إصلاح الأحوال والنفوس قلوبهم كدرة و مظلمة وحملتهم على العجب ورؤية النفس والكبر والتغمزّ وسوء الظن في عباد الله، وهذا كله أيضاً من عدم المواظبة على هذه المعاجين الإلهية، ومن المعلوم أن معجونا هُيئ وأعدّ بيد العفريت الخبيث وبتصرف النفس الطاغية لا يتولد منه إلا الخلق الشيطاني، وحيث أن القلب يتغذى من تلك الأغذية على أي حال وتصير الأغذية صورة باطنية للنفس، فبعد أن يداوم عليها مدة يصير الإنسان وليدا من مواليد الشيطان قد تربى بيد تربيته، ونشأ ونما تحت تصرفه، فإذا أغمضت عينه الملكية وانفتحت عينه الملكوتية يرى نفسه واحدا من الشياطين، فلا نتيجة في تلك الحال سوى الخسران ولا تغني عنه الحسرات والندامات شيئا.

فسالك طريق الآخرة في كل مسلك من المسالك الدينية، وفي كل طريق من الطرق الاهية عليه:

أولاً ـ أن يواظب بكمال المواظبة والدقة على حالة كطبيب رفيق ورقيب شفيق، ويفتش بالدقة عن عيوب سيره وسلوكه.

ثانياً ـ ألا يغفل في خلال هذه المراقبة والتفتيش عن التعوذ بالذات المقدسة الحق جلّ وعلا في خلواته والتضرع والاستكانة إلى جنابه الأقدس ذي الجلال.

اللهم انك تعلم ضعفنا ومسكنتنا، وتعلم أنا لا نستطيع الهرب من هذا العدو القوي القدير الذي قد طمع في السلطة على الأنبياء العظام والكمّل من الأولياء الرفيعي المقام، فإن فقدنا بارقة لطفك ورحمتك أوقعنا هذا العدو القوي في مصارعتنا إيّاه إلى أرض الهلاك والدمار وكنّا تائهين في الظلمة والشقاوة، فأسألك بالخاصة في جنابك والمحارم في حضرتك أن تأخذ بيدنا نحن المتحيرين في وادي الضلالة، والحائرين في صحراء الغواية وان تطهّر قلوبنا من الغلّ والغش والشرك والشك، انك وليّ الهداية.

الفصل السادس

في بيان النشاط والبهجة في العبادة

ومن الآداب القلبية للصلاة وسائر العبادات وله نتائج حسنة بل هو موجب لفتح بعض الأبواب وكشف بعض أسرار العبادات، أن يجتهد السالك في أن تكون عبادته عن نشاط وبهجة في قلبه وفرح وانبساط في خاطره ويحترز احترازا شديداً أن يأتي بالعبادة مع الكسل وأدبار النفس، فلا يكون لها تعب وفتور لأنه إذا حمل على النفس العبادة في حين الكسل والتعب، يمكن أن تترتب عليه الآثار السيئة ومنها:

أن ينضجر الإنسان من العبادة ويزيد تكلفة وتعسفه، ويوجب ذلك وبالتدريج تنفر طباع النفوس منها، وهذا مضافاً إلى أنه من الممكن أن يصرف الإنسان بالكلية عن ذكر الحق، ويؤذي الروح بالنسبة إلى مقام العبودية التي هي منشأ لجميع السعادات ينتج عنه إلا يحصل للعبادة بهذه الصفة نور في القلب، ولا ينفعل باطن النفس منها ولا تصير صورة العبودية صورة باطنية للقلب، وقد ذكرنا من قبل أن المطلوب في العبادات هو صيرورة باطن النفس صورة عبودية.

والآن نقول:

إن من أسرار العبادات والرياضيات ونتائجهما أن تكون إرادة النفس في ملك البدن نافذة وتكون دولة النفس منقهرة ومضمحلة في كبريائها وتتملك الإرادة القوى المنبثّة والجنود المنتشرة في ملك البدن وتمنعها عن العصيان والتمرد والأنانية والاستقلال وتكون القوى مسلمة لملكوت القلب وباطنه، بل تصير القوى بالتدريج فانية في الملكوت. ويجرى أمر الملكوت في الملك وينفذ فيه وتقوى إرادة النفس وتخلع اليد عن الشيطان والنفس الأمارة في المملكة وتساق جنود النفس من الإيمان إلى التسليم ومن التسليم إلى الرضا ومن الرضا إلى الفناء. وفي هذه الحالة تجد النفس رائحة من أسرار العبادة، ويحصل لها شيء من التجليات الفعلية وما ذكرنا لا يتحقق إلا بأن تكون العبادة عن نشاط وبهجة ويحترز فيها من التكلف والتعسف والكسل احترازا تامّا كي تحصل للعابد حالة المحبة والعشق لذكر الحق ولمقام العبودية ويحصل له الأنس والتمكن.

وان الأنس بالحق وبذكره من أعظم المهمات ولأهل المعرفة بها عناية شديدة وفيها المتنافسون من أصحاب السير والسلوك، وكما أن الأطباء يعتقدون بأن الطعام إذا أكل بالسرور والبهجة يكون أسرع في الهضم، كذلك يقتضي الطب الروحاني بأن الإنسان إذا تغذى بالأغذية الروحانية بالبهجة والاشتياق محترزا من الكسل والتكلف يكون ظهور آثارها في القلب وتصفية باطن القلب بها أسرع.

وقد أشير إلى الأدب في الكتاب الكريم الإلهي والصحيفة القويمة الربوبية حيث يقول في مقام تكذيب الكفار والمنافقين: {ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون} (التوبة 45.). وقد فسرت آية {لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى} (النساء 43)

في حديث بأن المراد من سكارى كسالى، وأشير في الروايات إلى هذا الأدب ونحن نذكر بعضا منها كي تفخر هذه الأوراق به.

محمد بن يعقوب (هو الشيخ الأجل قدوة الأنام وملاذ المحدثين العظام ومروّج المذهب في غيبة الإمام عليه السلام أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي الملقب ثقة الإسلام ألّف الكافي الذي هو من أجلّ الكتب الإسلامية وأعظم المصنفات الإمامة والذي لم يعمل للإمامة مثله. ألّفه في العشرين سنة ومات قدس الله سره ببغداد سنة 329 (شكط) وصلّى عليه محمد بن جعفر الحسني ابو قيراط ودفن بباب الكوفة.)

باسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: "لا تكرهوا إلى أنفسكم العبادة".

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "يا عليّ انّ هذا الدين متين فأوغل برفق ولا تبغّض إلى نفسك عبادة ربّك".

وفي الحديث عن العسكري (1 هو الإمام الحادي عشر وسبط سيد البشر ووالد الخلف المنتظر السيد الرضيّ الزكي أبو محمد الحسن علي العسكري صلوات الله عليه وعلى آبائه الكرام وخلفه خاتم الأئمة الأعلام. ولد عليه السلام بالمدينة الطيبة يوم العاشر أو الثامن من شهر ربيع الآخر وقيل في رابعه سنة اثنتين وثلاثين ومئتين، أمّه عليه السلام حُدَيق (مصغّرا) أو سليل ويقال لها الجدّة وكانت من العارفات الصالحات قال القطب الراوندي وأمّا الحسن بن علي العسكري عليه السلام فقد كانت أخلاقه كأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وكان رجلا أسمر حسن القامة جميل الوجه جيّد البدن حدث السّن له جلالة وهيبة وهيئة حسنة يُعظَّمه العامة والخاصة اضطرارا ويعظّمونه لفضله ويقدّمونه لعفافه وصيانة وزهده وعبادته وصلاحه واصلاحه وكان جليلا نبيلا فاضلا كريما يحمل الأثقال ولا يتضعضع للنوائب أخلاقه خارقة العادة على طريقة واحدة. (انتهى).

ومناقبه أكثر من أن تحصى وقبض عليه السلام بِسُرّ من رأى يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأول سنة ستين ومئتين (رس) في خلافة المعتمد وهو ابن ثمان وعشرين سنة ودفن في داره في البيت الذي دفن فيه أبوه عليه السلام بِسُرّ من رأى.)

عليه السلام: إذا نشطت القلوب فأودعوها وإذا نفرت فودّعوها.

وهذا دستور جامع منه عليه السلام بأن أودعوا في القلوب في وقت نشاطها وأما في وقت نفارها فخلّوها تستريح، فلا بد في كسب المعارف والعلوم أيضاً من رعاية هذا الأدب وألا يحمل على القلوب اكتسابها مع الكراهة والنفور. (ومن الروايات التي تشير إلى هذا الأدب ما رواه الصدوق عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم على يسر".

وقال الباقر ((* . الإمام الخامس ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب باقر علم النبيين، ولد بالمدينة يوم الاثنين ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة وقيل غرّة رجب، أمّه أم عبدالله فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب وهو هاشمي من هاشميين وعلوي من علويّين، سُمي أبو جعفر عليه السلام

باقرا لأنه بَقَرَ العلم بقْراً أي شقّه شقا وأظهره إظهارا وقال السبط ابن جوزي سمي الباقر من كثرة سجوده بَقَرَ السجود جبهته أي فتحها ووسعها. وقال لغزارة علمه، وقال الشيخ المفيد ولم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والآثار والسنة وعلم القرآن والسيرة وفنون الأدب ما ظهر عن أبي جعفر عليه السلام وقال ابن حجر في صواعقه في حقه عليه السلام: هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه صفا قلبه وذكا علمه وعمله وطهرت نفسه وشرف خلقه وعمرت أوقاته بطاعة الله وله من الرسوخ في مقامات العارفين ما تكلّ عنه السنة الواصفين وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحملها هذه العجالة. (انتهى كلام ابن حجر). توفي ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام بالمدينة يوم الاثنين سابع ذي الحجة سنة أربع عشرة ومئة (قيد) وله سبع وخمسون سنة ودفن في البقيع.))

عليه السلام: "ألا إنّ لكلّ عبادة شرة ثم تصير إلى فترة، فمن صارت شرة عبادته إلى سُنَّتي فقد اهتدى ومن خالف سنّتي فقد ضلّ وكان عمله في النار، أما إني أصلّي وأصوم وأفطر وأضحك وأبكي فمن رغب عن منهاجي وسُنَّتي فليس مني ".

ويستفاد من هذه الأحاديث وأحاديث أُخَر أدب آخر وهو أيضاً من المهمات في باب الرياضة وهو أدب الرعاية.

وكيفيته أن يراعي السالك في أي مرتبة هو فيها في الأعم من الرياضات والمجاهدات العلمية أو النفسانية أو العمليّة حاله ويتعامل مع نفسه بالرفق والمداراة ولا يحمّلها أزيد من طاقته وحاله، ورعاية هذا الأدب بالنسبة إلى الشباب وحديثي العهد من المهمات فإنه إذا لم يعامل الشباب أنفسهم بالرفق والمداراة ولم يؤدّوا الحظوظ الطبيعية إلى أنفسهم بمقدار حاجتها من الطرق المحللة يوشك أن يوقعوا في خطر عظيم لا يتيسر لهم جبره، وهو أن النفس ربما تصير بسبب الضغط عليها وكفها عن مشتهياتها

بأكثر من العادة مطلقة للعنان في شهواتها ويخرج زمام الاختيار من يد صاحبها، واقتضاءات الطبيعة إذا تراكمت ونار الشهوة الحارّة إذا وقعت تحت ضغط الرياضة خارجة عن الحد لاشتعلت لا محالة واحرقت جميع المملكة، وإذا صار سالك مطلق العنان أو زاهد بلا اختيار فإنه يقع في مهلكة لا يرى وجه النجاة أبداً ولا يعود إلى طريق السعادة والفلاح وقتا ما، فعلى السالك أن يتملك نفسه في أيام سلوكه كطبيب حاذق ويعاملها على حسب اقتضاءات الأحوال وأيام السلوك ولا يمنع نفسه الطبيعة في أيام اشتعال نار الشهوة وغرور الشباب من حظوظها بالكلية. وعليه أن يخمد نار الشهوة بالطرق المشروعة فإن في إطفاء الشهوة بطريق الأمر الإلهي إعانة كاملة على سلوك طريق الحق فلينكح وليتزوج فإنه من السنن الكبيرة الإلهية ومضافا إلى أنه مبدأ البقاء للنوع الإنساني فإنه له دوراً واسعا أيضاً في سلوك طريق الآخرة. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله "من تزوّج فقد أحرز نصف دينه" وفي حديث آخر: "من أحب أن يلقى الله مطهَّراً فليلقه بزوجة".

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال "وأكثر أهل النار العزّاب".

وعن عليّ عليه السلام قال "إن جماعة من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنهار والنوم بالليل فأخبرت أم سلمة رسول الله فخرج إلى أصحابه فقال:

(أترغبون عن النساء؟ إني آتي النساء، وآكل بالنهار، وأنام بالليل، فمن رغب عن سنّتي فليس مني. وأنزل الله "لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيّبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون").

وبالجملة يلزم لسالك طريق الآخرة رعاية أحوال إدبار النفس وإقبالها، فكما أنه لا يجوز له الكف عن الحظوظ مطلقا فإنه منشأ لمفاسد عظيمة لا ينبغي له أن يزعج نفسه في العبادات والرياضات العملية وألا يجعلها تحت الضغط خصوصاً في أيام الشباب وابتداء السلوك فإنه أيضاً يكون منشأ لانزعاج النفس ونفورها وربما ينصرف الإنسان به عن ذكر الحق. والإشارة إلى هذا المعنى في أحاديث كثيرة، ففي الكافي الشريف:

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: "اجتهدت في العبادة وأنا شابّ فقال لي أبي يا بنيّ دون ما أراك تصنع فإن الله عزّ وجلّ إذا أحبّ عبدا رضي منه باليسير".

وعن أبي جعفر قال: قال رسول الله "إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله فتكونوا كالراكب المنبتّ الذي لا سفرا قطع ولا ظهرا أبقى".

وفي حديث آخر "ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله".

وبالجملة الميزان في باب المراعاة أن يكون الإنسان ملتفتا إلى أحوال النفس ويسلك معها بنسبة قوتها وضعفها فإذا كانت النفس قوية في العبادات والرياضات وتقدر على المقاومة، فليجدّ ويسعى في العبادة. وأما الذين طووا أيام عنفوان الشباب، وانطفأت نائرة الشهوات شيئا ما لديهم فالمناسب لهم أن يجدّوا في الرياضات النفسانية أكثر ويدخلوا في السلوك والرياضة بخطوة رجولية فكلما عوّدوا النفس على الرياضات فتح لهم باب آخر إلى أن تغلب النفس القوى الطبيعية وتصير القوى الطبيعية مسخّرة تحت كبرياء النفس.

وما ورد في الأحاديث الشريفة: من الأمر بالجدّ والسعي في العبادة،

وما ورد فيها من المدح للذين يجتهدون في العبادة والرياضة، وما ورد في عبادات أئمة الهدى عليهم السلام، من جهة وما ورد من هذه الأحاديث الشريفة المادحة للاقتصاد في العبادة من جهة أخرى مبنيّ على اختلاف أهل السلوك ودرجات النفوس وأحوالها، والميزان الكلّي هو نشاط النفس وقوّتها أو نفور النفس وضعفها.

الفصل السابع

في بيان التفهيم

ومن الآداب القلبية في العبادات ـ وخصوصا العبادات الذكرية ـ التفهيم، وكيفيته:

إن الإنسان يعدّ قلبه في أول الأمر كطفل ما انفتح لسانه وهو يريد أن يعلّمه كلاّ من الأذكار والأوراد والحقائق وأسرار العبادات بكمال الدقة والسعي و يفهّم القلب الحقيقة التي أدركها في أيّ مرتبة هو فيها فإذا لم يكن من أهل فهم معاني القرآن والأذكار وليس له نصيب من أسرار العبادات فيفهّم القلب المعنى الإجمالي وهو أن القرآن كلام إلهي والأذكار مذكرات بالحق تعالى والعبادات والطاعة إطاعة لأمر الربّ ويفهم القلب هذه المعاني الإجمالية. وإن كان أهلا لفهم المعاني الصورية للقرآن والأذكار فيفهّم القلب المعاني الصورية من الوعد والوعيد والأمر والنهي ومن علم المبدأ والمعاد بالمقدار الذي أدركه.

وان كشفت له حقيقة من حقائق المعارف أو كشف له سرّ من أسرار العبادات فيعلّم القلب ذاك المكشوف بجدّ واجتهاد (الظاهر أن مراد الإمام دام ظله من الكشف، هو الكشف العلمي، وإلا، فالكشف الحقيقي لا يكون إلا للقلب، ولا يبقى بعده مجال للتفهيم. فتدبر.)، ونتيجة هذا التفهيم هو أنه بعد المواظبة بمدة ينفتح لسان القلب ويكون القلب ذاكراً ومتذكرا. ففي أول الأمر كان القلب متعلما واللسان كان معلّما والقلب كان ذاكرا بذكر السان

وتابعا له في الذكر، وأما بعدما انفتح لسان القلب فيكون الأمر معكوسا فيكون القلب ذاكرا أوّلا ويتبعه اللسان في الذكر والحركة.

بل ربما يتفق أن الإنسان في حالة النوم يكون لسانه ذاكرا تبعا للذكر القلبي لأنّ الذكر القلبي لا يختصّ بحال اليقظة فإذا كان القلب متذكرا يكون اللسان التابع له أيضاً ذاكرا ويسري الذكر من ملكوت القلب إلى الظاهر {قل كلّ يعمل على شاكلته} (الاسراء 84).

وبالجملة ففي أول الأمر لابد أن يلاحظ الإنسان هذا الأدب: أي التفهيم حتى ينفتح لسان القلب الذي هو المطلوب الحقيقي وعلامة انفتاح لسان القلب أن يرتفع تعب الذكر ومشقته ويحصل النشاط والفرح ويرتفع الملل والألم كشأن الإنسان إذا أراد أن يعلّم الطفل الذي لم يشرع في التكلّم، فما دام الطفل لم يتعلم التكلّم فإن المعلم يكون في تعب وملالة فإذا انفتح لسان الطفل وأدّى الكلمة التي علّمها له ارتفعت ملالة المعلم. ويؤدي المعلم الكلمة تبعا لأداء الطفل من دون ألم وتعب.

فالقلب أيضاً في أول الأمر طفل ما انفتح لسانه بالكلام ولابدّ له من التعليم وأن تلقّن له الأذكار والأوراد فإذا انفتح لسان القلب يكون تابعا له وترتفع مشقة الذكر وتعب التعليم وملالة الذكر، وهذا الأدب بالنسبة إلى المبتدئين ضروري.

وليعلم أن من أسرار تكرار الأذكار والأدعية ودوام الذكر والعبادة انفتاح لسان القلب فيكون ذاكراً وداعياً وعابداً وما دام لم يلاحظ الأدب المذكور لا ينفتح لسان القلب، وقد أشير إلى هذا المعنى في الأحاديث الشريفة كما في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام أن عليّاً عليه السلام قال في ضمن بيان بعض آداب القراءة: "ولكن اقرعوا به قلوبكم القاسية ولا يكن همّ أحدكم لآخر السورة". وفيه أيضاً أن أبا عبد الله الصادق عليه السلام قال لأبي أسامة: "يا أبا أسامة أوعوا قلوبكم ذكر الله واحذروا النكت".

وقد كان أولياء الله يلاحظون هذا الأدب حتى الكمّل منهم كما في الحديث أن مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كان في صلاته فغشي عليه فلمّا أفاق سئل عن سببه فقال: مازلت أردد هذه الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته. (والرواية على ما ذكرها العارف الفقيه جمال العارفين السيد بن طاووس ((*. ابن طاووس يطلق غالباً على رضي الدين ابي القاسم على بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني الحسيني السيد الأجل الاورع الازهد قدوة العرفين الذي ما اتفقت كلمة الأصحاب على اختلاف مشاربهم وطريقتهم على صدور الكرامات عن أحد ممّن تقدمه أو تأخّر عنه غيره. قال العلامة في إجازته الكبيرة: وكان رضي الدين علي صاحب كرامات حكى لي بعضها وروى لي والدي رحمة الله عليه البعض الآخر (انتهى).

قال المحدث النوري في المستدرك، ويظهر في مواضع من كتبه خصوصا (كشف المحجة): "ان باب لقائه الإمام الحجة عليه السلام كان مفتوحا". وقال رحمه الله: "وكان رحمة الله من عضماء المعظّمين لشعائر الله تعالى لا يذكر في أحد تصانيفه الاسم المبارك "الله" الاّ يعقبه بقوله جلّ جلاله". توفي رحمه الله يوم الاثنين خامس ذي العقدة سنة 664 (خسد) . في كتابه (فلاح السائل): فقد روي "إن مولانا جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام كان يتلو القرآن في صلاة فغشي عليه فلما أفاق سئل ما الذي أوجب ما انتهت حالتك إليه؟ فقال عليه السلام (ما معناه): ما زلت أكرر آيات القرآن حتى بلغت إلى حال كأنني سمعتها مشافهة ممّن أنزلها على المكاشفة والعيان فلم تقم القوة البشرية بمكاشفة الجلالة الإلهية". ثم يقول العرف المذكور: وإياك يا من لا تعرف حقيقة ذلك أن

تستبعده أو يجعل لك الشيطان في تجويز الذي رويناه عندك شكا بل كن مصدقا، أما سمعت الله يقول {فلمّا تجلى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً} (الاعراف 143) (انتهى)

وروي عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة يردّد قوله تعالى: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم}. (المائدة 118).

وبالجملة فحقيقة الذكر والتذكر هي الذكر القلبي. أما الذكر اللساني فهو بدونه ذكر بلا لبّ وساقط عن درجة الاعتبار بالمرة، كما أشير إلى ذلك في الأحاديث الشريفة غير مرة فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال لأبي ذرّ: "يا أبا ذرّ ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة والقلب لاه (ساه)".

وروي عنه صلى الله علية وآله أيضاً "أن الله سبحانه لا ينظر إلى صوركم بل ينظر إلى قلوبكم". وسيأتي في أحاديث حضور القلب أنه يقبل من الصلاة بقدر ما أقبل، وكلما كان القلب غافلا فبمقدار الغفلة كانت الصلاة غير مقبولة، وما لم يلاحظ الأدب المذكور لا يحصل الذكر القلبي ولا يخرج القلب من السهو والغفلة، وفي الحديث أن الصادق عليه السلام قال:

فاجعل قلبك للسانك لا تحركه إلا بإشارة القلب. ولا يتحقق كون القلب قبلة ولا يتحقق تبعية اللسان وسائر الأعضاء له إلا بملاحظة هذا الأدب، وان اتفق في مورد حصول الأمور المذكورة بدون هذا الأدب فهو من النوادر ولا يجوز للإنسان أن يغترّ به.

الفصل الثامن

في بيان حضور القلب

من الآداب القلبية حضور القلب الذي يمكن أن يكون كثير من الآداب مقدمة له والعبادة بدونه ليس لها روح وهو بنفسه مفتاح قفل الكمالات وباب أبواب السعادات وقلّ ما ذكر في الأحاديث الشريفة شيء بهذه المثابة، وقلّ ما اهتمّ بشيء من الآداب كهذا الأدب، ونحن وان ذكرنا في رسالة سر الصلاة، وهكذا في كتاب الأربعين قدرا مستوفى منه وبيّنا درجاته ومراتبه ولكن نذكر في هذا المقام أيضاً شيئا منه تتميما للفائدة وتحرزا عن الإحالة فنقول:

كما ذكرنا سابقا بأن العبادات والمناسك والأذكار والأوراد إنما تنتج نتيجة كاملة إذا صارت صورة باطنية للقلب وتخمّر باطن ذات الإنسان بها ويتصور قلب الإنسان بصورة العبودية ويخرج عن الهوى والعصيان، وذكرنا أيضاً أن من أسرار العبادات وفوائدها أن تتقوى إرادة النفس وتتغلب النفس على الطبيعة وتكون القوى الطبيعية مسخّرة تحت قدرة النفس وسلطنتها وتكون الإرادة الملكوتية نافذة في ملك البدن بحيث تكون القوى بالنسبة إلى النفس كملائكة الله بالنسبة إلى الحق تعالى {لا يعصون الله ما أمرهم} (التحريم . 6) {وهم بأمره يعملون} (الأنبياء . 27).

ونقول الآن: إن من أسرار العبادات وفوائدها المهمة التي تكون بقية الفوائد مقدمة لها. أن تكون مملكة البدن بجميعها، ظاهرها وباطنها، مسخّرة تحت إرادة الله ومتحركة بتحريك الله تعالى وتكون القوى الملكوتية والملكية للنفس من جنود الله وتكون كلها كملائكة الله بالنسبة إلى الحق تعالى، وهذه من المراتب النازلة لفناء القوى والارادات في إرادة الحق ويترتب على هذا بالتدريج النتائج العظيمة ويكون الإنسان الطبيعي إلهيا وتكون النفس

مرتاضة بعبادة الله وتنهزم جنود ابليس بالمرة وتنقرض ويكون القلب مع قواه مسلّما للحق ويبرز الإسلام ببعض مراتبه الباطنية في القلب وتكون نتيجة هذا التسليم لإرادة الحق في الآخرة أن الحق تعالى ينفذ إرادة صاحب هذا القلب في العوالم الغيبية ويجعله مثلا أعلى لنفسه تعالى، فكما أنه تعالى وتقدس يوجد كل ما أراد بمجرد الإرادة يجعل إرادة هذا العبد أيضاً كذلك كما راوه بعض أهل المعرفة عن النبي صلى اله عليه وآله في وصف أهل الجنة (ما معناه) أنه يأتيهم ملك فيستأذن للدخول عليهم وبعد الاستئذان يدخل فيبلّغ السلام من الله تعالى عليهم ويعطيهم رسالة مكتوباً فيها (يخاطب الإنسان الذي هو مخاطب به) من الحي القيوم الذي لا يموت إلى الحي القيوم الذي لا يموت أما بعد فإنني أقول للشيء كن فيكون وقد جعلتك تقول للشيء كن فيكون، فقال صلى الله عليه وآله: فلا يقول أحد من أهل الجنة للشيء كن إلا ويكون. (قال الشيخ الاكبر في باب الواحد والستين وثلاثمئة من الفتوحات وورد في الخبر في أهل الجنة أن الملك يأتي إليهم فيقول لهم بعد أن يستأذن عليهم في الدخول فإذا دخل ناولهم كتابا من عند الله بعد أن يسلّم عليهم من الله واذا في الكتاب لكلّ انسان يخاطب به: من الحّي القيوم الذي لا يموت إلى الحّي القيوم الذي لا يموت. أما بعد: فإني أقول للشيء كن فيكون وقد جعلتك... وقال أيضاً في السؤال السابع والاربعين ومئة من الباب ثلاثة وسبعين من الفتوحات، بعد أن نقل القول الشريف بسم الله من???العبد بمنزلة كن من الحق قال: اليوم تقول للشيء كن فيكون فقال صلى الله عليه وآله وسلم فلا يقول أحد من???أهل الجنة لشيء كن إلا ويكون. وقال الشيخ في الفصّ الاسحاقي من فصوص الحِكَم: العارف يخلق بهمته ما يكون له وجود من خارج محل الهمّة ولكن لا تزال الهمّة تحفظه.

تبصرة: الخبر المذكور لو كان صحيحا فليس من مختصات أهل المرتبة العالية من الجنة لان من أهل من يتلقّى السلام والكلام والمقام من الله سبحانه بدون واسطة كما أشير إلى ذلك في بعض الاحاديث والمتناولون الكتاب من الله في هذا الخبر بواسطة الملك فهذا المقام عام لجميع أهل الجنة ومن المقامات العامة، ولذلك قال فلا يقول أحد من أهل الجنة بشيء كن إلا ويكون. فافهم.)

وهذه هي السلطنة الإلهية التي أعطي العبد إياها لأجل تركه إرادة نفسه وتركه سلطنة الهوى النفسانية وتركه إطاعة ابليس وجنوده، ولا تحصل كل من هذه النتائج المذكورة إلا بالحضور الكامل للقلب، وإذا كان القلب في وقت العبادة غافلا وساهيا لا تكون عبادته حقيقية بل تشبيه اللهو واللعب ولا يكون لمثل هذه العبادة أثر في النفس البتة ولا تتجاوز العبادة من الصورة والظاهر إلى الباطن والملكوت كما أشير إلى ذلك في الأحاديث، ولا تكون القوى النفسانية بمثل تلك العبادة مسلمة للنفس ولا تظهر سلطنة النفس لها، كذلك القوى الظاهرية والباطنية لا تكون مستسلمة لإرادة الله ولا تنقهر المملكة تحت كبرياء الحق كما هو واضح جدا، ولذا ترون أنه بعد مضيّ أربعين أو خمسين سنة لا يحصل أثر في أنفسنا بل تزداد يوما فيوما ظلمة القلب وتعصيّ القوى ويزيد اشتياقنا إلى الطبيعة وإطاعتنا الأهواء النفسانية والوساوس الشيطانية آنا فآناً وليس هذا كله إلا من جهة ان عبادتنا قشور بلا لبّ وفاقدة للشرائط الباطنية والآداب القلبية، ولولا هذه الجهة ففي حين أننا نرى أن كتاب الله سبحانه قد نصّ على أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذا النهي ليس صوريا البتة بل لا بد أن يزهر مصباح في القلب ويضيء نور في الباطن يهدي الإنسان إلى عالم الغيب، ويوجد زاجر إلهي ينهى الإنسان عن العصيان والتمرد، وها نحن أولاء نحسب لأنفسنا في زمرة المصلين وقد مضت علينا سنون ونحن مشتغلون بهذه العبادة العظيمة ومع ذلك لا نرى في أنفسنا هذا النور ولا نجد في باطننا هذا الزاجر والمانع فالويل لنا يوم نعطى صور أعمالنا وصحيفة أفعالنا

في ذلك العالم بأيدينا ويقال {كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا} (الإسراء ـ 14) وانظر هل تليق تلك العبادات بالقبول من جنابه، وهل هذه الصلاة مع هذه الصورة المشوّهة الظلمانية مقرّبة لك إلى بساط الحضرة الكبريائية؟ وهل ينبغي لك أن تسلك مع هذه الأمانة الإلهية ووصية الأنبياء هذا السلوك، وهل يجوز أن تسمح للشيطان الرجيم الذي هو عدو الله أن يتدخل فيها بيده الخائنة؟ ولماذا صارت الصلاة التي هي معراج المؤمن وقربان كل تقيّ مبعدة لكم عن الساحة المقدسة ومهجرة لكم عن جناب القرب الإلهي؟ فهل لنا في ذلك اليوم سوى الحسرة والندامة والشقاوة والخجلة والانفعال نصيب؟ يا لها من حسرة وندامة ليس لها في هذا العالم شبيه، ويا لها من خجلة وانفعال لا نقدر أن نتصور لها نظيرا، فإن الحسرات في هذا العالم مهما بلغت ممزوجة بآلاف من الرجاء، وكذلك الخجلات في هذه النشأة سريعة الزوال وهذا بخلاف ذلك العالم فإنه يوم بروز الحسرة والندامة كما قال تعالى {وأنذروهم يوم الحسرة اذ قضي الآمر} (مريم ـ 39) فالأمر المنقضي لا يجبر والعمر التالف لا يستعاد فواحسرتاه على ما فرطت في جنب الله

فيا أيها العزيز: اليوم يوم الامهال والعمل وقد جاء الانبياء وأتوا بالكتب ودعوا بدعوات مع هذه التشريفات ومع تحملهم الآلام والشدائد كي يوقظونا من نوم الغفلة وينبهونا من سكر الطبيعة ويوصلونا إلى عالم النور ونشأة البهجة والسرور وإلى الحياة الابدية والنعم السرمدية واللذائذ الدائمة وينجونا من الهلاك والشقاوة والنار والظلمة والحسرة والندامة وكل ذلك لأجل أنفسنا ومن دون أن تعود عليهم ـ سلام الله عليهم ـ نتيجة ومن دون أن تكون لتلك الذوات المقدسة حاجة بإيماننا وأعمالنا، ومع ذلك ما أثّرت فينا دعوتهم وقد أخذ الشيطان بمسامع قلوبنا وتسلط على باطننا وظاهرنا بحيث لم يؤثر فينا شيء من مواعظهم أيّ أثر بل لم يصل إلى سمع قلوبنا شيء من الآيات والاخبار وما تجاوز ظاهر السمع الحيواني.

وبالجملة أيها القارئ المحترم الذي تطالع هذه الاوراق لا تكن ككاتبها خاليا من جميع الانوار وصفر اليد عن جميع الاعمال الصالحة ومبتلىً بالاهواء النفسانية وارحم أنت نفسك واكتسب من عمرك نتيجة وانظر بالدّقة في حال الانبياء والاولياء الكمّل وارم الرغبات الكاذبة والوعود الشيطانية ولا تغترّ بغرور الشيطان ولا تنخدع بخدع النفس الأمّارة فإن تدليسات الشيطان والنفس دقيقة وانما ليعمّيان على الانسان كل أمر باطل فيراه بصورة الحق ويغران الانسان حينما يأمل التوبة في آخر العمر وينتهيان بالانسان إلى الشقاوة. ومع أن التوبة في آخر العمر وعند تراكم ظلمات المعاصي وكثرة مظالم العباد وكثرة حقوق الله أمر صعب ومشكل للغاية. فاليوم مع ان الارادة في الانسان قوية والقوى الحيوانية على حالها وشجرة العصيان بعد لم تكبر وسلطنة الشيطان في النفس لم تستحكم والنفس جديدة العهد بالملكوت وقريبة الافق إلى فطرة الله وشرائط حصول التوبة وقبولها سهلة فهما لا يدعان الانسان يقوم بالتوبة ويخلع جذور هذه الشجرة الواهنة ويقضي على هذه السلطنة غير المستقلة ويعدانه بالتوبة في أيام الشيب التي تكون الارادة فيها ضعيفة والقوى نحيفة والاشجار المختلفة للمعاصي ذات جذور عميقة وقوية وسلطنة ابليس في الظاهر والباطن مستقلة ومستقرة وألفة الانسان للطبيعة شديدة والبعد عن الملكوت أزيد ونور الفطرة خافتا وشرائط التوبة صعبة وشديدة وليس هذا إلا الغرور والافتتان.

وحيناً آخر يبعدان الانسان بوعد شفاعة الشافعين عليهم السلام عن ساحة قدسهم ويجعلانه عن شفاعتهم مهجورا، فإن الانغمار في المعاصي يجعل القلب بالتدريج مظلما ومنكوسا ويجرّ أمر الانسان إلى سوء العاقبة، وانّ طمع الشيطان في أن يسرق إيمان الانسان وإنما يجعل الدخول في المعاصي مقدمة لها حتى يصل إلى

النتيجة المطلوبة. فهذا الانسان إن كان طمعه في شفاعة الشافعين فلا بدّ له أن يسعى ويجتهد في هذا العالم في الحفاظ على الرابطة بينه وبين الشافعين وأن يتفكر في حال شفعاء يوم الحشر كيف كان حالهم في العبادة والرياضة، ولو فرضنا أنكم ترتحلون من هذه الدنيا مع الايمان بالله ولكن إذا كانت أثقال الذنوب والمظالم كثيرة يمكن ألا يشفع فيكم في أنواع الذنوب في البرزخ والقبر، وكما نقل عن الصادق عليه السلام من أن البرزخ على عهدتكم وعذاب البرزخ لا يقاس بعذاب هذه الدنيا وطول مدة البرزخ لا يعلمه إلا الله ولعله يطول ملايين من السنين.

ويمكن أن يكون في القيامة أيضاً بعد مدة طويلة في أنواع العذاب التي لا تطاق، انكم لا تنالون الشفاعة، كما أن هذا المعنى وارد في الاحاديث أيضاً، فهذا الغرور من الشيطان يمسك الانسان عن العمل الصالح و يخرجه من الدنيا، إما بلا إيمان أو مع أثقال ذنوب كثيرة ويبتليه بالشقاوة والخسران.

وربما يعد الشيطان الانسان بالرحمة الواسعة لأرحم الراحمين، وبنفس هذا الوعد يقطع الشيطان يد الانسان عن ذيل الرحمة. وهذا الانسان غافل عن أن بعث الرسل وإرسال الكتب وإنزال الملائكة والوحي والالهام على الانبياء والهداية إلى طريق الحق كل ذلك من شؤون الرحمة لأرحم الراحمين، وقد اتسعت الرحمة الواسعة لجميع العالم ونحن على جانب عين الحياة نهلك من الظمأ، هذا القرآن هو أكبر رحمة الله فان كنت تطمع في رحمة أرحم الراحمين فتأمل رحمته الواسعة واستفد من هذه الرحمة فانه قد فتح طريق الوصول إلى السعادة وبيّن طريق الهداية من الضلالة، وأنت تلقي نفسك في الهلاك وتنحرف عن الطريق المستقيمة. فليس في الرحمة إذن أي نقصان، ولو كان من الممكن أن يُري الله الانسان طريق الخير والسعادة في طور آخر لكان سبحانه أراه إيّاه بمقتضى رحمته، ولو كان من الممكن أن يوصل الانسان إلى السعادة إكراها لكان الانبياء يوصلونه بالاكراه، لكن هيهات، ان طريق الاخرة طريق لا يمكن ان يسعى فيها الا بقدم الاختيار، وان السعادة لا تحصل بالجبر، وان الفضيلة والعمل الصالح بلا اختيار ليسا فضيلة ولا عملا صالحا، ولعل هذا معنى الآية الشريفة {لا إكراه في الدين} (البقرة ـ 256). نعم ما يمكن أن يعمل فيه الاكراه والاجبار هو صورة الدين الالهية لا حقيقته، وان الانبياء عليهم السلام كانوا مأمورين أن يفرضوا على الناس صورة الدين ما أمكنهم، وبأي نحو ممكن حتى صورة العالم صورة العدل الالهي، ولكنهم بالنسبة إلى الباطن فليس لهم إلا مجرّد الارشاد حتى يمشي الناس في هذه الطريق بأنفسهم وينالوا السعادة باختيارهم. وبالجملة، هذا الوعد بالرحمة الواسعة لأرحم الراحمين هو أيضاً من غرور الشيطان ليقطع يد الانسان عن الرحمة بطمع الرحمة.

الفصل التاسع

أحاديث في الترغيب في حضور القلب

في ذكر قليل من أحاديث أهل البيت العصمة والطهارة سلام الله عليهم في الترغيب في حضور القلب، ونحن نكتفي هنا بذكر بعضها:

فعن الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله: "اعبد الله كأنك تراه، وان لم تكن تراه فإنه يراك"، يستفاد من هذا الحديث مرتبتان من مراتب حضور القلب، الأولى: أن السالك يكون مشاهدا جمال الجميل في تجليات حضرة المحبوب على نحو تكون جميع مسامع قلبه مسدودة عن سائر الموجودات، وتكون بصيرته مفتوحة لجمال ذي

الجلال الطاهر ولا يشاهد غيره، وبالجملة يكون مشغولا بالحاضر وغافلا عن المحضر والحضور. والمرتبة الثانية التي هي دون تلك المرتبة أن يرى السالك نفسه حاضرا في محضرة ويلاحظ أدب الحضور والمحضر. فالرسول الاكرم كأنه يقول ان كنت تستطيع أن تكون من أهل المقام الأول وتأتي بعبادة الله على ذلك النحو فافعل والا فلا تغفل عن أنك في المحضر الربوبي. ولمحضر الحق تعالى أدب تكون الغفلة عنه لا محالة بعدا عن مقام العبودية، وإلى هذا أشير في???الحديث الذي رواه أبو حمزة الثمالي (الثمالي هو أبو حمزة ثابت بن دينار الثقة الجليل صاحب الدعاء المعروف في اسحار شهر رمضان. كان من زهّاد أهل الكوفة ومشايخها وكان عربيّا أزديّا، روى عن الفضل بن شاذان قال: سمعت الثقة يقول: سمعت الرضا عليه السلام يقول: أبو حمزة الثمالي في زمانه كسلمان الفارسي وذلك أنه خدم أربعة منّا علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمّد وبرهة من عصر موسى بن جعفر عليهم السلام. انتهى. (كش) عن علي بن ابي حمزة في خبر قال: قال الصادق عليه السلام لابي بصير: اذا رجعت إلى ابي حمزة الثمالي فأقرئه منّى السلام وأعلمه انه يموت في شهر كذا في يوم كذا. قال أبو بصير: جعلت فداك والله لقد كان فيه أنس، وكان لكم شيعة. قال: صدقت ما عندنا خير لكم. قلت: شيعتكم معكم؟ قال: ان هو خاف الله وراقب نبيّه وتوقى الذنوب فاذا هو فعل كان معنا في درجتنا. قال علّي: فرجعنا تلك السنة فلما لبث أبو حمزة الاّ يسيرا حتّى توفّي رحمه الله. مات في سنة خمسين ومئة (قن)) رضي الله عنه، قال: "رأيت علّي بن الحسين عليه السلام يصلي فسقط رداؤه عن منكبه فلم يسوّه حتى فرغ من صلاته، قال: فسألته عن ذلك، فقال: ويحك أتدري بين يديّ من كنت؟ ".

وفي حديث أيضاً عن الرسول صلى الله عليه وآله "إنّ الرجلين من أمتي يقومان إلى الصلاة وركوههما وسجودهما واحد وان ما بين صلاتهما ما بين السماء والأرض" وقال النبي صلى الله عليه وآله: "اما يخاف الذي يحول وجهة في الصلاة أن يحول الله وجهه إلى حمار". وقال صلى الله عليه وآله: "من صلّى ركعتين لم يحدّث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ذنوبه" وعنه صلى الله عليه وآله "ان من الصلاة لما يقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر وان منها لما تلفّ كما يلفّ الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها" وان "مالك في صلاتك الا ما أقبلت عليه بقلبك". وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "اذا قام العبد المؤمن في صلاته نظر الله اليه، أو قال أقبل الله عليه حتى ينصرف وأظلّته الرحمة من فوق رأسه إلى أفق السماء والملائكة تحفّه من حوله إلى أفق السماء ووكل الله به ملكا قائما على رأسه يقول أيها المصلّي لو تعلم من ينظر اليك ومن تناجي ما التفتّ ولا زلت من موضعك أبدا".

وقال الصادق عليه السلام: "لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلا وجبت له الجنة فإذا صلّيت فأقبل بقلبك إلى الله عزّ وجلّ فإنه ليس من عبد يقبل بقلبه على الله عزّوجلّ في صلاته ودعائه إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين وأيّده مع مودّتهم إيّاه بالجنة". وعن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أنهما قالا: "إن مالك في صلاتك إلا ما أقبلت عليه فيهما فإن أوهمها كلها أو غفل عن آدابها لفت فضرب بها وجه صاحبها". وعن أبي

جعفر عليه السلام قال: "ان العبد ليرفع له من صلاته نصفها أو ثلثها أو ربعها أو خمسها فما يرفع منها له إلا ما أقبل عليه منها بقلبه وإنما أمرنا بالنافلة ليتمّ لهم بها ما نقصوا من الفريضة".

وعن الصادق عليه السلام "اذا أحرمت في الصلاة فأقبل اليها لأنك ان أقبلت أقبل الله إليك وإن أعرضت أعرض الله عنك فربّما لا يرفع من الصلاة الا ثلثها أو ربعها أو سدسها بقدر ما أقبل المصلّي إليها وان الله لا يعطي الغافل شيئا". (أقول: نقلت الحديث الصادقي عن الترجمة للاستاذ دام ظله.)

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: "يا أبا ذر ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه (لاه)" والاحاديث في هذا الباب كثيرة وهذا المقدار كاف لارباب القلوب اليقظة وأصحاب الاعتبار. (قال المحدث الجليل الفيض الكاشاني.. إن قيل: المستفاد من هذه الآيات والاخبار أن الصلاة من يغفل عما يقول فيها ويفعل، ليست مقبولة إلا بقدر ما أقبل عليه منها. والفقهاء لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير والتوجّه عنده. فكيف التوفيق، وأيضا فإن المصلّي في صلاته ودعائه مناج ربّه كما هو معلوم. وقد ورد في الخبر أيضا، ولا شكّ أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة، والكلام إعراب عما في الضمير ولا يصحّ الاعراب عمّا في الضمير الا بحضور القلب فأي سؤال في قوله اهدنا الصراط المستقيم اذا كان القلب غافلا ولا شك ان المقصود من القراءة والاذكار، الحمد والثناء والتضرع والدّعاء. والمخاطب هو الله تعالى وقلب العبد بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة. فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرّعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله ورسوخ عقد الايمان بها هذا حكم القراءة والذكر، وأما الركوع والسجود فالمقصود التعظيم بهما قطعا. والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة؟ واذا خرج عن كونه تعظيما لم يبق الا مجرّد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ثم يجعل عماد الدين والفاصل بين الكفر والاسلام ويقدّم على ساير العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص.

فاعلم أن بين القبول والاجزاء فرقا، فإن القبول من العبادة ما يترتب عليه الثواب في الآخرة وتقرّب إلى الله زلفى، والأجزاء ما يسقط التكليف عن العبد وان يثب عليه، والناس مختلفون في تحمّل التكلف، فالتكليف انما هو بقدر حوصلة الخلق وقابليتهم في سعتهم وقصورهم، فلا يمكن أن يشترط عليهم جميعا إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يعجز عنه كل البشر الا الأقلين، وغذا لم يكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مردّ له إلا ان يشترط منه ما يطلق الاسم ولو في اللحظة الواحدة وأولي الخطاب به لحظة التكبير والتوجّه فاقتصر على التكليف بذلك، ونحن مع ذلك نرجو ان لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهرا وأحضر للقلب لحظة، وكيف لا والذي صلى مع الحديث ناسيا، صلاته باطلة عند الله ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر تصوّره وعذره، وقد ذكرنا في باب العقائد في الفرق بين العلم الباطن والظاهر ان قصور الخلق أحد الاسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع.

وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وان أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير، فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه يبسط الروح في أجزاء الصلاة، وكم من حيّ لا حراك به قريب من الميت. فصلاة الغافل في جميعها إلاّ عند التكبير حيّ لا حراك به.

وقال أيضا: اعلم أن المعاني الباطنة التي بها يتم حياة الصلاة بجمعها ست جمل وهي: حضور القلب والتفهّم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء. فالأول حضور القلب، ونعني به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ولا يكون الفكر جاريا في غيرهما، ومهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عنه فقد حصل حضور القلب ثم التفهّم لمعنى

الكلام وهو أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا مع معنى اللفظ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردنا بالتفهّم، وهذا مقام يتفاوت فيه الناس إذ ليس يشترك الناس في تفهّم المعاني للقرآن والتسبيحات، وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر فإنها تفهم أمورا، تلك الأمور من الفحشاء والمنكر لا محالة.

ثم التعظيم وهو أمر وراء حضور القلب والفهم، اذ الرجل، ربما يخاطب غيره بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له.

ثم الهيبة: وهي زائدة على التعظيم، اذ هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لان من لا يخاف لا يسمى مهابة، بل الهيبة خوف مصدره الاجلال.

ثم الرجاء: فالعبد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله.

ثم الحياء: ومبدؤه استشعار تقصير وتوهّم ذنب، ولنذكر أسباب هذه المعاني الستة:

فاعلم أن حضور القلب سببه الهمّه، فان قلبك تابع لهمّك فلا يحضر الا فيما يهمّك، ومهما أهمّك أمر حضر القلب شاء أم أبى فهو مجبول عليه ومسخّر فيه، والقلب اذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا بل كان حاضرا فيما الهمّة مصروفة اليه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب الاّ بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمّة لا ينصرف اليها ما لم يتبيّن أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الايمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وان الصلاة وسيلة اليه، فاذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهانتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة.

وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه ما هو إحضار القلب مع الاقبال على الفكر والتشمّر لرفع الخواطر الشاغلة، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تتحدث الخواطر إليها، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئا أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة، ولذلك ترى من أحب غير الله لا تصفو صلاته عن الخواطر.

وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد بين معرفتين، إحدهما معرفة جلالة الله وعظمته وهي من أصول الايمان، فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه.

الثانية: معرفة حقارة النفس وخسّتها وكونها عبدا مسخّرا مربوبا حتى يتولد من المعرفتين: الاستكانة والانكسار والخشوع لله، فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم يمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الربّ لا ينتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره، الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الاخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجيها لم تقترن بها.

وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس يتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به وانه لو أهلك الاولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة، هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع.

وبالجملة، كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة.

وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله وكرمه وعميم انعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة. وأما الحياء فباستشعار التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث داخلها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعاله مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله، والعلم بأنه مطّلع على السريرة وخطرات القلب، وان دقّت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقينا أنبعث منها بالضرورة تسمّى الحياء. (انتهى كلامه رفع مقامه)

الفصل العاشر

في طريق تحصيل حضور القلب

اذا عرفت الآن فضيلة حضور القلب وخواصّه عقلا ونقلا وفهمت الاضرار الكبيرة في تركه فلا يكفي العلم وحده بل يجعل الحجة عليك أتمّ، فشمّر عن ذيل الهمّة وكن في صدد تحصيل ما علمته وأخرج علمك إلى مرحلة العمل كي تستفيد منه وتربح فتفكر قليلا في أن قبول الصلاة شرط لقبول سائر الاعمال بحسب أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام الذين هم معادن الوحي وإنّ أقوالهم وعلومهم من الوحي الالهي والكشف المحمّدي صلى الله عليه وآله وسلم وان الصلاة إذا لم تكن مقبولة فلا ينظر إلى سائر الاعمال أصلا وإن قبول الصلاة بإقبال القلب فلو لم تكن الصلاة مشتملة عليه فهي ساقطة من درجة الاعتبار ولا تليق بمحضر الحق تعالى ولا تقبل كما علم ذلك من الاحاديث السابقة فمفتاح خزينة الأعمال وباب أبواب جميع السعادات حضور القلب فيه يفتح باب السعادة للإنسان ومن دونه تسقط جميع العبادات من درجة الاعتبار. فالآن تفكّر قليلا بنظر الاعتبار وانظر بعين البصيرة أهمية المقام وعظمة الموقف وقم بالامر بجدّ تامّ فإن مفتاح باب السعادة وأبواب الجنة ومفتاح باب الشقاوة جهنم لفي جيبك في هذه الدنيا فتستطيع أن تفتح أبواب الجنة والسعادة لنفسك وتستطيع أن تكون على خلاف ذلك فزمام الأمر بيدك ولله الحجة البالغة قد هدى سبيل السعادة والشقاوة وأعطى التوفيقات الظاهرية والباطنية فما منه تعالى ومن أوليائه فقد تمّ وانمّا الآن فرصتنا في الإقدام فإنهم الهادون إلى الطريق ونحن السائرون فيه إنهم قضوا ما عليهم على الوجه الاحسن ولم يتركوا لنا عذرا ولم يقصّروا ولو لمحة فانتبه أنت أيضاً من نومك واطْوِ طريق السعادة واستفد من عمرك وقوّتك فإن الوقت إذا انقضى وفاتك العمر الحاضر و الشباب الموجود وفقدت كنز القدرة والقوة فلا ينجبر أبدا فإن كنت الآن في عهد الشباب فلا تؤخر أمرك إلى الشيب فإن للشيب مصائب لا يعلمها إلا الشيب وأنت في غفلة عنها، ان الاصلاح في حال الشيب والضعف لمن الامور الصعبة جدا، وان كنت شابا فلا تدع بقية العمر تفوت منك فإنك مادمت في هذا العالم فلك طريق إلى السعادة ولك منها باب مفتوح فلا سمح الله إذا أغلق هذا الباب وانسدّ هذا الطريق فيخرج زمام الاختيار من يدك ولا يبقى لك نصيب سوى الحسرة والندامة والأسف على ما مضى من أمرك.

فأنت أيها العزيز ان كنت تؤمن بما ذكر بما أنه قول الأنبياء عليهم السلام وهيّأت نفسك لتحصيل السعادة وسفر الآخرة وعلمت بلزوم حضور القلب الذي هو مفتاح كنز السعادة فطريق تحصيله أن ترفع أولا موانع حضور القلب وتنحّي الاشواك عن طريق السلوك بجذورها وبعد رفع الموانع تقدم على تحصيل حضور القلب.

أما موانع حضور القلب في العبادات فهي تشتّت الخواطر وكثرة الواردات القلبية وهذه ربما تحصل من الامور الخارجية ومن طرق الحواس الظاهرية مثل أن يسمع في حال العبادة شيئا يتعلق الضمير به ويكون مبدأ للتخيلات والتفكرات الباطنية وتتصرف فيه الواهمة والمتصرفة فيطير الخيال من غصن إلى غصن.

أو أن عين الانسان ترى شيئا ويكون منشأ تشتّت الخاطر وتصرُّف المتصرفة أو أن سائر حواس الانسان تدرك شيئا فتحصل منه انتقالات خيالية. وطريق علاج هذه الامور، وان كان العلماء ذكروا أن العلاج هو رفع هذه الاسباب مثل أن يصلي الانسان في غرفة مظلمة أو مكان خال ويغضّ عينه ولا يصلي في المواضع التي تجلب النظر كما نقله الشهيد السعيد (هو الشيخ الأجل زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد بن جمال الدين بن تقي بن صالح بن مشرف العاملي الجبعي أمره في الثقة والجلالة والعلم والفضل والزهد والعبادة والورع والتحقيق والتبحّر وجميع الفضائل والكمالات أشهر من أن يذكر. ومحاسنه وأوصافه الحميدة أكثر من أن تحصر وُلِد الشيخ زين الدين ثالث عشر شوال سنة 911 (ظيا) وختم القرآن وعمره تسع سنين وقرأ على والده العربية وتوفي والده سنة 925 (ظكه) وعمره اذ ذاك اربع عشرة سنة وارتحل إلى ميس وهو أول رحلته فقرأ على الشيخ الجليل علي بن عبد العالي الميسي الشرايع والارشاد وأكثر القواعد. وله قدّس سرّه رحلات إلى كرك و إلى جبع و إلى دمشق ثم الرجوع إلى جبع والرحلة منها إلى دمشق يريد مصر فسافر إلى مصر يوم الأحد منتصف ربيع الأول سنة 942 واتفق له في الطريق ألطاف خفية وكرامات جليّة ذكرها تلميذه ابن العودي. ودخل مصر بعد شهر من خروجه واشتغل على جماعة منهم الشيخ ابو الحسن البكري صاحب كتاب الأنوار في مولد النبي صلى الله عليه وآله، ثم ارتحل إلى الحجاز في شوال 923، ولما قضي مناسكه زار النبي صلى الله عليه وآله وقد وعده بالخير في المنام بمصر ثم ارتحل إلى بلده جبع في صفر سنة 944 واقام بها إلى سنة 946 وتوشح ببرد الاجتهاد الا أنه بالغ في كتمان أمره إلى أن أقام ببعلبك بعد رحلات سنة 953 يدرس في المذاهب الخمسة واشتهر أمره وصار مرجع الانام ومفتي كل فرقة بما يوافق مذهبها وصار أهل البلد كلّهم في انقياده ورجعت إليه الفضلاء من أقاصي البلاد ثم انتقل بعد خمس سنين إلى بلده، بنيّة المفارقة وأقام في بلده مشتغلا بالتدريس والتصنيف. ومصنفاته كثيرة مشهورة أولها الروض وآخرها الروضة. ألّفها في ستة أشهر وستة أيام وكان غالب الايام يكتب كراسا ومن عجيب أمره انه كان يكتب بغمسة واحدة في الدواة عشرين أو ثلاثين سطرا وخلّف ألفَي كتاب منها مئتا كتاب كانت بخطه الشريف من مؤلفاته وغيرها مع أنه قال تلميذه الشيخ محمد بن علي بن الحسن العودي الجزيني في رسالة (بغية المريد في أحوال شيخه الشهيد): ولقد شاهدت منه سنة وردي إلى خدمته انه كان ينقل الحطب في الليل لعياله ويصلّي الصبح في المسجد ويجلس للتدريس والبحث كالبحر الزاخر ويأتي بمباحث غفل عنها الأوائل والأواخر.

وذكر أنه (ره) كان يتعلطى جميع مهمّاته بقلبه وبدنه مضافا إلى مهمّات الواردين ومصالح الضيوف المتردّدين اليه مع أنه كان غالب الزمان في الخوف الموجب لاتلاف النفس والتستّر والاخفاء الذي لا يسع الانسان أن يفكّر معه في مسألة من الضروريات البديهية. ولمّا كان في سنة 965 وهو في سن اربع وخمسين ترافع اليه رجلان فحكم لاحدهما على الاخر فذهب المحكوم عليه إلى قاضي صيدا واسمه معروف وكان الشيخ مشغولا بتأليف شرح اللمعة فأرسل القاضي إلى جبع من يطلبه وكان مقيما في كرم له مدة منفردا عن البلدة متفرّغا للتأليف، فقال بعض اهل البلد قد سافر عنا منذ مدّة فخطر ببال الشيخ ان يسافر إلى الحج. وكان قد حج مرارا لكنه قصد الاختفاء فسافر في محمل مغطّى وكتب القاضي إلى السلطان انه قد وجد ببلاد الشام رجل مبدع خارج عن المذاهب الاربعة فأرسل

السلطان في طلب الشيخ فقبض عليه، وروي أنه كان في المسجد الحرام بعد فراغه من صلاة العصر وأخرجوه إلى بعض دور مكة وبقي هناك محبوسا شهرا وعشرة أيام ثم ساروا به على طريق البحر إلى قسطنطنّية وقتلوه بها وبقي مطروحا ثلاثة أيام ثم ألقوا جسده الشريف في البحر .

وفي رواية ابن العودي قتلوه في مكان من ساحل البحر وكان هناك جماعة من التركمان، فرأوا في تلك الليلة أنوار تنزل من السماء وتصعد فدفنوه هناك وبنوا عليه قبة وحُمل رأسه إلى السلطان وسعى السيد عبد الرحيم العباسي في قتل فقتله السلطان.

وحكي عن شيخنا البهائي (ره) قال أخبرني والدي أنه دخل في صبيحة بعض الأيام على شيخنا الشهيد المعظّم فوجده متفكّرا فسأله عن سبب تفكره فقال يا أخي أظن أن أكون ثاني الشهيدين لأني رأيت البارحة في المنام ان السيد المرتضى علم الهدى رضي الله عنه عمل ضيافة جمع فيها العلماء الامامية بأجمعهم في بيت فلمّا دخلت عليهم قام السيد المرتضي ورحّب بي وقال لي يا فلان اجلس بجنب الشيخ الشهيد فجلست بجنبه فلما استوى بنا المجلس انتبهت. ومنامي هذا دليل ظاهر على أني أكون تالياً له في الشهادة.

(انتهى).

قيل في تاريخ وفاته:

تاريخ وفاة ذلك الأوّاه الجنة مستقرة والله)

رضوان الله عليه حيث قال: "كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعته بقدر ما يمكن الصلاة فيه ليكون أجمع للهمّ" ولكن من المعلوم أن هذا لا يرفع المانع ولا يقلع المادة لان العمدة هي تصرّف الخيال فإن الخيال يعمل عمله بحصول منشأ جزئي له بل ربما يكون تصرف الخيال والواهمة في البيت المظلم والصغير وفي حال الوحدة أكثر، ويتمسكان لاجل الدعابة واللهو بمبادئ اخرى فيتوقف حينئذ قلع المادة بالكلية على اصلاح الخيال والوهم ونحن نشير بعد ذلك إليه. نعم هذا النحو من العلاج ربما لا يكون في بعض النفوس بلا تأثير وخاليا من الاعانة ولكننا بصدد العلاج القطعي ونتطلب السبب الحقيقي للقلع وهو لا يحصل بما ذكر.

وربما يكون تشتت الخاطر والمانع عن حضور القلب من الامور الباطنية وعمدة المنشأ له على نحو كلّي أمران اليهما ترجع عمدة الامور الأخر.

الأول: ان طائر الخيال هو بنفسه فرّار يتعلق دائما كطائر من غصن إلى غصن ويطير من افريز إلى افريز وهذا ليس مرتبطا بحب الدنيا والتوجه بأمور دنيّة ومال دنيوي بل كون الخيال فرّارا مصيبة يبتلي بها الناس حتى التاركين للدنيا. وتحصيل سكون الخاطر وطمأنينة النفس وتوقف الخيال من الامور المهمة التي بإصلاحها يحصل العلاج القطعي، ونحن نشير إليه بعد ذلك.

الامر الثاني الموجب لتشتّت الخاطر هو حب الدنيا وتعلق الخاطر بالحيثيات الدنيوية التي هي رأس الخطايا وام الامراض الباطنية، وهذا التعلّق هو شوك طريق أهل السلوك ومنبع المصيبات، وما دام القلب متعلقا به، ومنغمرا في حب الدنيا فالطريق لاصلاح القلوب مسدود، وباب جميع السعادات في وجه الانسان مغلق ونحن نشير إلى رفع هذين المنشأين العظيمين والمانعين القويين ضمن فصلين ان شاء الله.

الفصل الحادي عشر

في بيان الدواء النافع في علاج كون الخيال فرار الذي يحصل منه حضور القلب ايضا

فاعلم أن كلا من القوى الظاهرية والباطنية من النفس قابل للتربية والتعليم بارتباض مخصوص، فعين الانسان مثلا لا تقدر أن تنظر إلى نقطة معيّنة أو إلى نور شديد كنور عين الشمس مدة طويلة من دون أن تغمض ولكن اذا ربّاها كبعض أصحاب الرياضات الباطلة لمقاصدهم فيمكن أن تنظر إلى عين الشمس ساعات مديدة من دون أن تغمض عينه أو يجد فيها تعبا، وكذلك يمكن له أن ينظر إلى نقطة معيّنة ساعات من دون أي حركة وكذلك سائر القوى حتى حبس النفس فإن في أصحاب الرياضات الباطلة أفرادا يحبسون أنفاسهم مدة زائدة عما هو متعارف عليه:

ومن القوى التي تقبل التربية قوة الخيال وقوة الواهمة فإنهما قبل التربية كطائر فرار ومتحرك بلا نهاية يطير من غصن إلى غصن ويتحرك من شيء إلى شيء آخر بحيث أن الإنسان اذا حاسبها دقيقة واحدة يرى أنها انتقلت مسلسلة إلى اشياء بمناسبات ضعيفة جدا وارتباطات غير متناسبة حتى ظنّ كثير من العلماء أن حفظ طائر الخيال طائعا من الامور الخارجة عن حيّز الامكان وملحق بالمحالات العادية، ولكن الامر ليس كذلك ويمكن تطويعه بالرياضة والتربية وصرف الوقت بحيث يكون طائر الخيال في قبضته لا يتحرك إلا بإرادته واختياره فيحبسه متى أراد في أي مقصد أو أي مطلب بحيث يكون في ذلك المقصد ساعات.

والطريق العمدة لهذا التطويع هو العمل على الخلاف وطريقه ان الانسان حينما يريد ان يصلي يهيء نفسه بأن يحفظ خياله في الصلاة ويحبسه في العمل وبمجرد أن الخيال يريد أن يفّر من يد الإنسان يسترجعه فورا ويلتفت إلى حاله في جميع حركات الصلاة وسكناتها وأذكارها وأعمالها ويفتش عن حاله ولا يدعه بحاله، وهذا في أول الأمر ربما يبدو أمرا صعباً، ولكنه بعدما عمل فيه مدة بدقة وعلاج يصير طائعا حتما ويرتاض على الاطاعة، فأنت لا تتوقع أن تتمكن في أول الأمر من حفظ طائر الخيال في جميع الصلاة فإن هذا أمر غير ممكن ومحال البتة ولعل الذين ادّعوا استحالة هذا الأمر كانوا يتوقّعون ذلك ولكن هذا الأمر لابد أن يكون بكمال التدريج والتأنّي والصبر والتأمل فيمكن أن يحبس الخيال في أول ألامر في عشر من الصلاة ويحصل حضور القلب في عشر منها وبالتدريج إذا كان الانسان بصدده ويرى نفسه محتاجا إليه فيصل إلى نتيجة أكثر. وشيئا فشيئا يتغلّب على شيطان الوهم وطائر الخيال بحيث يكون في أكثر حال الصلاة زمام الاختيار بيده، ولا بد للإنسان ألاّ ييأس فإن اليأس هو المنبع للوهن والضعف كله ونور الرجاء في القلب يوصل الانسان إلى كمال سعادته، ولكن العمدة في هذا الباب هو حسّ الاحتياج الذي هو فينا قليل وان قلوبنا لم تؤمن بأن رأس المال في سعادة العالم الاخر ووسيلة العيش في الايام غير المتناهية هو الصلاة، نحن نحسب ان الصلاة أمر مفروض علينا ونراها تكليفا وتحميلا.

إن حبّ الشيء يحصل من إدراك نتائجه فنحن نحب الدنيا فقد أدركنا نتيجتها وآمنت قلوبنا بها ولهذا لا نحتاج في اكتساب الدنيا إلى الدعوة والوعظ والاتعاظ.

وانّ الذين يظنّون ان الدعوة النبي الخاتم والرسول الهاشميّ صلى الله عليه وآله جهتين دنيوية وأخروية، ويحسبون هذا فخرا لصاحب الشريعة وكمالا لنبوّته، فهؤلاء ليس عندهم معرفة عن الدين وهم عن مقصد النبوّة ودعوتها غافلون.

ان الدعوة إلى الدنيا خارجة عن مقصد الانبياء العظام بالكلّية ويكفي في الدعوة إلى الدنيا حسّ الشهوة والغضب والشيطان الباطن والظاهر ولا تحتاج إلى بعث الرسل. إن إدارة الشهوة والغضب لا تحتاج إلى القرآن والنبي، وإنما الانبياء بعثوا لينهوا الناس عن التوجّه إلى الدنيا وانهم ليقيّدون إطلاق الشهوة والغضب ويحدّدون موارد المنافع. والغافل يظن أنهم يدعون إلى الدنيا، ان الانبياء يقولون إن المال لا يجوز تحصيله كيفما كان. ونار الشهوة لا يجوز إطفاؤها بأيّ نحو بل لا بدّ من إطفائها عن طريق النكاح، وهكذا تحصيل فلا بدّ يكون عن طريق التجارة والصناعة والزراعة مع أن في أصل الشهوة والغضب إطلاقا، فالانبياء يصدّون طريق إطلاقهما لا إنهم يدعون إلى الدنيا، فروح الدعوة إلى التجارة هو التقييد والنهي عن الأكل بالباطل، وروح الدعوة إلى النكاح هي تحديد الطبيعة والنهي عن الفجور وعن إطلاق قوة الشهوة.

نعم انهم عليهم السلام ليسوا مخالفين على الاطلاق، فإن المخالفة على الاطلاق مخالفة للنظام الأتمّ.

وبالجملة نحن لما أحسسنا الاحتياج إلى الدنيا وجدناها رأس مال للحياة ومنبعا للّذات نتوجّه اليها ونسعى في تحصيلها فاذا آمنّا بالحياة الاخرة وأحسسنا أنا محتاجون إلى العيش هناك والعبادات كلها والصلاة على الخصوص رأس مال للعيش في ذلك العالم ومنبع لسعادات تلك النشأة فلا محالة نسعى في تحصيله ولا نجد لانفسنا في هذا السعي والاجتهاد أي تعب أو مشقة أو تكلّف، بل نكون في صدد تحصيله مع الاشتياق والشوق الكامل ونحصّل شرائط حصوله و قبوله بإقبال من أرواحنا وقلوبنا، فهذه البرودة التي فينا إنما هي من برودة أشعة الايمان وهذا الوهن الذي نجده انما هو من وهن أساس الايمان ولو كانت أخبار الأنبياء والأولياء عليهم السلام وبراهين الحكماء والعرفاء عليهم الرضوان أوجدت في أنفسنا مجرد الاحتمال بالصدق لكان اللازم علينا أن نقوم بالامر ونجتهد في تحصله بأحسن مما نحن فيه ولكن مع الآلاف من الاسف فإن الشيطان قد تسلّط على باطننا وتصرّف بمجامع قلوبنا ومسامع باطننا وهو لا يدع كلام الحق وأنبيائه وكلمات العلماء ومواعظ الكتاب الالهي تصل إلى سمعنا، فسمعنا الان إنما هو السمع الحيواني الدنيوي ومواعظ الحق تعالى لا تتجاوز الحد الظاهر، ولا تصل إلى الباطن، وذلك لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد.

ومن الوظائف المهمة للسالك إلى الله والمجاهد في سبيل الله ان يرفع اليد بالكلية في خلال مجاهدته وسلوكه عن الاعتماد على نفسه ويكون بجبلته متوجها إلى مسبّب الاسباب وبفطرته متعلقا بمبدأ المبادئ ويتطلب من ذاته المقدسة العصمة والحفظ ويعتمد على تأييد ذاته الاقدس ويتضرع في خلواته إلى حضرته ويطلب إصلاح حاله مع كمال الجد في الطلب منه تعالى فانه لا ملجأ دون ذاته المقدسة والحمد لله.

الفصل الثاني عشر

في الاشارة إلى أن حب الدنيا منشأ لتشتت الخيال ومانع من حضور القلب وفي بيان علاجه بالمقدار الميسور

فليعلم ان القلب بحسب فطرته إذا تعلّق بشيء وأحبه يكون ذاك المحبوب قبلة لتوجّهه وان شغله أمر ومنعه عن التفكر في حال المحبوب وجمال المطلوب فبمجرّد أن يخفّ الاشتغال ويرتفع ذلك المانع يطير القلب شطر محبوبة فورا ويتعلق بذيله، فأهل المعارف وأرباب الجذبة الالهية إذا كانت قلوبهم قوية وصاروا متمكنين في الجذبة

والحب فيشاهدون في كل مرآة جمال المحبوب وفي كل موجود كمال المطلوب ويقولون: "ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه ومعه".

وان سيدهم ان قال "لَيُغان على قلبي واني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة" إنما ذلك لاجل أنّ مشاهدة جمال المحبوب في المرآة خصوصا المرائي الكدرة، كمرآة ابي جهل هي بنفسها موجبة للكدورة في قلوب الكمّل و إذا كانت قلوبهم غير قوّية ويكون الاشتغال بالكثرات مانعا عن الحضور، فبمجرد أن الاشتغال تطير قلوبهم إلى وكر القدس وتتعلق بجمال الجميل. والطالبون لغير الحق أيضا الذين هم عند أهل المعرفة كلهم طالبون للدنيا فما يكون مطلوبا لهم فهم يتوجهون إليه ويتعلّقون به فهؤلاء ان كانوا مفرطين في حب محبوبهم ويكون حب الدنيا آخذا بمجامع قلوبهم فلا ينسلبون عن التوجه اليه في وقت ويعيشون مع جمال محبوبهم على كل حال ومع كل شيء وامّا إذا كان حبّهم للحق قليلاً فقلوبهم في وقت الفراغ ترجع إلى محبوبها وأما الذين يكون في قلوبهم حب المال والرياسة والشرف فأولئك يشاهدون مطلوبهم في المنام ايضا ويتفكرون في محبوبهم في يقظتهم، وما داموا يشتغلون بالدنيا فهم يعتنقون محبوبهم فاذا حان وقت الصلاة وحصل للقلب فراغ فانه يتعلق بمحبوبه فورا فكأنما تكبيرة الإحرام هي مفتاح دكان أو رافعة للحجاب بينه وبين محبوبه فيتنبّه وقد سلم في صلاته وما توجّه اليها أصلا وهو في جميع الصلاة كان معتنقا فكر الدنيا، فلهذا نرى أن الصلاة في مدى أربعين أو خمسين سنة ما أثرت في قلوبنا غير الظلمة والكدورة وما هو معراج قرب جناب الحق ووسيلة الانس بذلك المقام المقدس قد صرنا مهجورين به من ساحة القرب وأبعدنا عن مقام الانس بفراسخ، ولو كان في صلاتنا رائحة العبودية لكانت ثمرتها المتربة والتواضع لا العجب والكبر والافتخار التى يصلح كل واحد منها سببا مستقلا وموجبا منفردا لهلاك الانسان وشقاوته.

وبالجملة فإن قلوبنا لما كانت مختلطة بحب الدنيا وليس لها مقصد ولا مقصود غير تعميرها فلا محالة أن هذا الحب مانع من فراغ القلب وحضوره في ذلك المحضر القدسيّ، وعلاج هذا المرض المهلك والفساد المبيد هو العلم والعمل النافعان.

أما العلم النافع لهذا المرض فهو التفكر في ثمراته ونتائجه والمقايسة بينها وبين مضاره ومهالكه الحاصلة منه. وكاتب هذه الاوراق قد كتب في شرح الاربعين شرحا في هذا الباب وفسّر الموضوع فيه بالمقدار الميسور، وهنا في هذا المجال ايضا نكتفي بشرح بعض أحاديث أهل بيت العصمة.

في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: "رأس كل خطيئة حب الدنيا". والروايات بهذا المضمون كثيرةمع اختلاف في التعبير ويكفي للانسان اليقضان هذا الحديث الشريف، ويكفي لهذه الخطيئة العظيمة المهلكة أنها منبع لجميع الخطايا وأساس جميع المفاسد، فبقليل من التأمل يعلم أن جميع المفاسد الخلقية والعملية على التقريب من ثمرات هذه الشجرة الخبيثة فما أسّس في العالم دين كاذب ولا مذهب باطل وما اتفق في الدنيا فساد الا بواسطة هذه الموبقة العظيمة. وإنّ القتل والنهب والظلم والتعدي هي نتائج هذه الخطيئة. وان الفجور والفحشاء والسرقة وسائر الفجائع وليدة هذه الجرثومة للفساد، والانسان الذي وقر فيه هذا الحب مجانب لجميع الفضائل المعنوية، وان الشجاعة والعفّة والسخاء والعدالة التي هي مبدأ جميع الفضائل النفسانية لا تجتمع مع حب الدنيا، وان المعارف الالهية والتوحيد في الاسماء والصفات والافعال والذات وتطلب الحق ورؤية الحق متضادة مع حب الدنيا وان طمأنينة النفس وسكون الخاطر واستراحة القلب التي هي روح السعادة في الدنيا لا تجتمع مع حب

الدنيا وان غنى القلب والكرامة وعزّة النفس والحرية كلها من لوازم عدم الاعتناء بالدنيا، كما أن الفقر والذلّة والطمع والحرص والرقّيّة والتملّق من لوازم حب الدنيا، وان العطف والرحمة والمواصلة والمودة والمحبة متعارضة مع حب الدنيا، وان البغض والحقد والجور وقطع الرحم والنفاق وسائر الاخلاق الفاسدة وليدة أم الامراض هذه .

وفي مصباح الشريعة قال الصادق علية السلام "الدنيا بمنزلة صورة رأسها الكبر وعينها الحرص وأذنها الطمع ولسانها الرياء ويدها الشهوة ورجلها العجب وقلبها الغفلة وكونها الفناء وحاصلها الزوال فمن أحبها أورثته الكبر ومن استحسنها أورثته الحرص ومن طلبها أوردته إلى الطمع ومن مدحها ألبسته الرياء ومن أرادها مكّنته من العجب ومن اطمأنّ إليها ألته الغفلة ومن أعجبته متاعها أفنته ومن جمعها وبخل بها ردّته إلىمستقرها وهي النار".

وروي الديلمي (هو أبو محمد الحسن بن ابي الحسن محمد الديلمي الشيخ المحدّث الوجيه النبيه صاحب كتاب إرشاد القلوب المعروف الذي قال في مدحه السيد عليخان كما في (ضا):

هذا كتاب في معانيه حسن للديلمي ابي محمد الحسن
اشهى إلى المضنى العليل من الشفا وألذّ في العينين من غمض الوسن

وله أيضا في مدحه:

اذا ضلت قلوب عن هداها فلم تدر العقاب من الثواب
فأرشدها جزاك الله خيرا بإرشاد القلوب إلى الصواب

وله كتاب غرر الاخبار ودرر الآثار، وأعلام الدين في صفات المؤمنين. و الظاهر أنه كان في عصر الشهيد الأول وينقل عنه الشيخ ابن فهد في عدّة الداعي بعنوان الحسن بن ابي الحسن الديلمي قيل إن حديث الكساء المشهور الذي يعدّ من منفردات منتخب الطريحي موجود في غرر هذا الشيخ.) في إرشاد القلوب عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في ليلة المعراج ممّا خاطب الله به نبيه "يا أحمد لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض وصام صيام أهل السماء والأرض وطوى من الطعام مثل الملائكة ولبس لباس العابدين ثم أرى في قلبه من حب الدنيا ذرة أو سمعتها أو رياستها أو حيلتها أو زينتها لا يجاورني ف داري ولأنزعنّ من قلبه محبّتي ولأظلمنّ قلبه حتى ينساني ولا اذيقه حلاوة محبّتي". (أقو: ما بين القوسين لم يكن في النسخة المطبوعة وانما نقلته من ترجمة الاستاذ دام ظلّه.)

والاحاديث في هذا الباب أكثر من أن تسعها هذه الأوراق، فاذا علم أن حبّ الدنيا هو مبدأ ومنشأ جميع المفاسد فعلى الانسان العاقل المعتني بسعادته أن يخلع هذه الشجرة بجذورها عن القلب.

وأما طريق العلاج العلمي فهي أن يعامله بالضدّ فاذا كان تعلقه بمال ومنال فانه يقطع جذورها عن القلب ببسط اليد والصدقات الواجبة والمستحبة، وان من اسرار الصدقات تقليل العلاقة بالدنيا، ولهذا يستحبّ للانسان أن يتصدّق بالشيء الذي يحبّه ويتعلق قبه به، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: {لن تنالوا البّر حتى تنفقوا مما تحبّون}. (آل عمران 92.)

وان كانت علاقته بفخر وتقدّم ورياسة واستطالة فليعمل ضدّها ويرغم النفس حتى تصير إلى الصلاح، وليعلم الانسان أن الدنيا بمثابة أنه كلّما اتبعها أكثر وكان في صدد تحصيلها أكثر تكون علاقته بها أكثر ويكون أسفه على فقدانها أزيد، فكأنّ الانسان دائما طالبك لشيء لا يناله فهو يظن أنه طالب للحد الفلاني من الدنيا فما دام فاقدا لذلك الحد فإنه يطلبه ويتحمل في سبيل تحصيله المشاق ويلقي بنفسه إلى المهالك، وبمجرد أن ينال ذلك

الحد من الدنيا يغدو في نظره أمرا عاديا. ويرتبط عشقه وعلاقته بشيء آخر فوق ذلك الحد فيتعب نفسه له ولا تطفأ نار عشقه أبداً بل تزداد اتّقادا يوما فيوما ويشتدّ تعبه ومشقّته أكثر وليس لهذه الفطرة والجبلة توقف أبدا، وأهل المعرفة قد أثبتوا بهذه الفطرة كثيراً من المعارف بيانها خارج عن مجال هذه الأرواق، وقد أشير إلى بعض هذه المطالب في الاحاديث الشريفة كما في الكافي الشريف عن باقر العلوم عليه السلام:

"مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القزّ كلما ازدادت من القزّ على نفسها لفّا كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً". وروي عن الصادق عليه السلام أه قال: "مثل الدنيا كماء البحر كلما شربه انسان عطشان يزيدعطشه حتى يقتله".

فأنت يا طالب الحق والسالك إلى الله إذا طوّعت طائر الخيال وقيّدت شيطان الواهمة وخلعت نعليَ حبّ النساء والأولاد وسائر الشؤون واستأنست بجذوة نار العشق لفطرة الله وقلت اني آنست نارا ووجدت نفسك خاليا من موانع السير وهيّأت أسباب السفر فقم من مكانك واهجر هذا البيت المظلم للطبيعة والمعبر الضيق المظلم للدنيا واقطع سلاسل الزمان وقيوده وانج بنفسك من هذا السجن وأطر طائر القدس إلى محفل الانس.

توراز كنكره عرش ميزنند صفير ندانمت كه دراين دامكه جه افتاده . (البيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي يقول:

تنادى من العرش العظيم ولا أدري لماذا مقيم أنت في ذلك الفخ)

فقو عزمك وأحكم إرادتك فان أول شرط للسلوك هو العزم وبدونه لا

يمكن أن يسلك طريق ولا ينال كمال، والشيخ الأجلّ شاه آبادي، روحي فداه كان يعبّر عنه بلبّ الانسانية بل يمكن أن يقال أن، من احدى الجهات المهمة للتقوى والتجنّب عن المشتهيات النفسانية وترك أهوائها والرياضات الشرعية والعبادات والمناسك الالهية تقوية العزم وانقهار القوى الملكية تحت ملكوت النفس كما ذكر من قبل، ونحن نختم الآن هذه المقالة بالتحميد والتسبيح للذات المقدسة الكبريائية جلّ وعلا وبالثناء على السيد المصطفى والنبي المجتبى وآله الاطهار عليم السلام، ونستمدّ لهذا السفر الروحاني والمعراج الايماني من تلك الذوات المقدسة.

المقالة الثانية

في مقدمات الصلاة

وفيها خمسة أبواب

الباب الأول: في التطهيرات والوضوء وآدابهما

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول

في التطهيرات الثلاثة

كما أشرنا سابقا أن للصلاة غير هذه الصورة لحقيقة، وغير هذا الظاهر لباطنا، فكما أن لظاهرها آدابا وشروطا صورية وكذلك لباطنها أيضا آدابك وشروطك ولا بد للسالك من مراعاتها فللطهارة الصورية آداب وشروط صورية خارج بيانها عن وظيفة هذه الأوراق، وفقهاء الجعفرية أعلى الله كلمتهم ورفع الله درجتهم قد بيّنوها. وأما الآداب الباطنية والطهور الباطني فنحن نبيّنها على نحو الاجمال.

فليعلم أنه طالما كانت حقيقة الصلاة هي العروج إلى مقام القرب والوصول إلى مقام حضور الحق جلّ وعلا فللوصول إلى المقصد الاعلى والغاية القصوى يلزم طهارات غير هذه الطهارات، وأشواك هذا الطريق وموانع هذا العروج هي قذارات لا يتمكن السالك مع اتصافه باحدى تلك القذارات من الصعود إلى هذه المرقاة والعروج بهذا المعراج وما يكون من قبيل تلك القذارت فهو موانع الصلاة ورجس الشيطان وما يكون معينا للسالك في السير، ومن آداب الحضور فهو من شروط هذه الحقيقة ويلزم للسالك إلى الله في بداية الامر رفع الموانع أولا كي يتّصف بالطهارة ويتيسّر له الطهور الذي هو من عالم النور، وما دام السالك لم يتطهّر من جميع القذارات الظاهرية والباطنية والعلنيّة والسرية لا يكون له أي حظ من المحضر والحضور.

فأول مرتبة من مراتب القذارات هي تلوّث الالات والقوى الظاهرية للنفس بلوث المعاصي وتقذرها بقذارة المعصية لوليّ النعم، وهذه هي الشبكة الصورية لابليس، وما دام الانسان مبتلى بهذه الشبكة فهو عن فيض المحضر وحصول القرب الالهي محروم ولا يظنّن أحد أنه يمكن أن يرقى إلى مقام حقيقة الانسانية من دون تطهير ظاهر مملكة الانسانية، أو انه يستطيع ان يطهّر باطن قلبه من دون تطهير ظاهره، وهذا الظّن غرور من الشيطان ومن مكائده العظيمة وذلك لان الكدورات والظلمات القلبية تزداد بالمعاصي التي هي غلبة الطبيعة على الروحانية، وما دام السالك ما افتتح المملكة الظاهرية فهو محروم بالكلية من الفتوحات الباطنية التي هي المقصد الاعلى ولا ينفتح له طريق إلى السعادة، فأحد الموانع الكبيرة لهذا السلوك هو قذارات المعاصي التي لابدّ أن تطهّر بماء التوبة النصوح الطاهر الطهور، وليعلم ان جميع القوى الظاهرية والباطنية التي أعطانا الله إياها وأنزلها من عالم الغيب هي أمانات إلهية كانت طاهرة عن جميع القذارات وكانت طاهرة مطهّرة بل كانت متنورة بنور الفطرة الالهية وبعيدة عن ظلمة تصرّف ابليس وكدورته، فلما نزلت إلى ظلمات عالم الطبيعة وامتدت يد تصرّف شيطان الواهمة ويد الخيانة الابليسية اليها خرجت عن الطهارة الاصلية والفطرة الاولية وتلوّثت بأنواع القذارات والارجاس الشيطانية. فالسالك إلى الله إذا تمسك بذيل عناية ولّي الله وأبعدها عن أن تتناولها يد الشيطان وطهّر المملكة الظاهرية وردّ الامانات الالهية كما أخذها فهو ما خان الامانة حينئذ وان صدرت منه خيانة فهو مورد للغفران والستارية فيستريح خاطره من ناحية الظاهر ويقوم بتخلية الباطن من أرجاس الاخلاق الفاسدة وهذه هي المرتبة الثانية من القذارات التي فسادها أكثر وعلاجها أصعب، وعند أصحاب الارتياض أهم لانه ما دام الخلق الباطني للنفس فاسدا والقذارات المعنوية محيطة بها لا تليق بمقام القدس وخلوة الانس بل مبدأ فساد المملكة الظاهرية للنفس هو الاخلاق الفاسدة والملكات الخبيثة لها وما دام السالك لم يبدّل بالملكات السيئة الملكات الحسنة فليس مأمونا عن شرور الاعمال. واذا وُفّق للتوبة والاستقامة عليها التي هي من المهمات لا تتيسّر له. فتطهير الظاهر ايضا متوقف على تطهير الباطن مضافا إلى أن القذارات الباطنية موجبة للحرمان من السعادة ومنشأ لجهنم الاخلاق التي هي كما يقول "أهل المعرفة" أشدّ حرّاً من جهنم الاعمال، وقد أشير كثيراً إلى هذا المعنى في أخبار أحاديث أهل بيت العصمة. فيلزم السالك إلى الله هذه الطهارة ايضا.

وبعد أن غُسل عن روح النفس التلوث بالاخلاق الفاسدة بماء العلم النافع الطاهر الطهور وبارتياض شرعي صالخ يشتغل حينئذ بتطهير القلب الذي هو أم القرى وبصلاحه تصلح المملكة وبفساده تفسد كلها. وقذارات عالم القلب مبدأ القذارات كلها وهي عبارة عن تعلّقه بغير الحق وتوجّهه إلى نفسه إلى العالم، ومنشؤها جميعا حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة وحبّ النفس الذي هو أمّ الامراض. وما دامت جذور هذه المحبة في قلب السالك لا يحصل فيها أثر من محبة الله ولا يهتدي طريقا إلى منزل المقصد والمقصود، ومادام للسالك في قلبه بقايا من هذه المحبة لم يكن سيره إلى الله بل يكون سيره إلى النفس و إلى الدنيا و إلى الشيطان، فالتطهير عن حب النفس والدنيا هو أول مرتبة تطهير السلوك إلى الله في الحقيقة لانه قبل هذا التطهير ليس السلوك سلوكا وانما يطلق السلوك والسالك على سبيل المسامحة (وقال بعض علماء الاخرة في المقام بعد ذكر بعض الآيات والروايات فتفطّن ذوو البصائر بهذه الظواهر، إن أهم امور تطهير السرائر اذ يبعد ان يكون المراد بقوله صلى الله عليه وآله: "الطهور نصفالايمان" عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإنقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحونا بالاخباث والقذارات هيهات هيهات.. ثم قال: والطهارة لها أربع مراتب. المرتبة الاولى: تطهير الظاهر عن الاحداث وعن الاخباث والفضلات. المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام. المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الاخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة. المرتبة الرابعة: تطهير السرّ عما سوى الله تعالى وهي طهارة الانبياء صلوات الله عليهم والصدّيقين. والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي هو فيها فان الغاية القصوى من عمل السرّ أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته ولن تحلّ معرفة الله تعالى بالحقيقة في السرّ ما ل يرتحل ما سوى الله تعالى عنه. ولذلك قال الله تعالى: {قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون} (الانعام 91).. لانهما لا يجتمعان في قلب واحد. {وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه} (الاحزاب 4) وأما عمل القلب والغاية القصوى فيه عمارته بالاخلاق المحمودة والعقائد المشروعة، ولن يتّصف بها ما لم ينظّف من نقائضها من العقائد الفاسدة والرذائل الممقوتة، فتطهيره أحد الشطرين، وهو الشطر الاول الذي هو شرط في الثاني فكان الطهور شطر الايمان بهذا المعنى، وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي أحد الشطرين وهو الشطر الاول الذي هو شرط في الثاني، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الاول وعمارتها بالطاعات الشطر الثاني.

فهذه مقامات الايمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية الا أن يجاوز الطبقة السافلة فلا يصل إلى طهارة السر من الصفات المذمومة وعمارته بالخلق المحمود، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ من طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات وكلما عزّ المطلوب وشرف، صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته. فلا تظن ان هذا الامر يدرك وينال بالهوينى.

انتهى موضع الحاجة من كلامه أقول:

ومن طلب العلى سهر الليالى) ومن وراء هذا المنزل منازل البلاد السبعة لعشق العطار يظهر النموذج منها للسالك وذاك القائل رأى نفسه في أول منعطف من زقاقها (اشارة إلى الشعر المعروف للعارفي الرومي يقول فيه:

هفت شعر عشق را عطّار كَشت ماهنوزاندرخم يك كوجه ايم

يعنى أن عطّار النيشابوري (العارف المعروف) سار ودار في المدن السبعة التي هي مدن العشق وبلاده ولكنّا مع الاسف إلى الان لم نتجاوز من منعطف زقاق واحد لتلك المدن.) ونحن وراء الاسوار والحجب الضخمة ونحسب تلك البلاد وحكامها من الاساطير .

أنا لست أركز على الشيخ العطار (هو فريد الدين محمد بن ابراهيم النيسابوري المعروف بالشيخ العطّار صاحب الاشعار والمصنّفات في التوحيد والحقايق والمعارف وله اشعار في مدح مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام وفي ذمّ الدنيا. توفي سنة 427 (خكز) بعد عمر طويل وقيل أنّه قُتل في فتنة التتر وقبره خارج نيسابور معروف. وميثم التمّار الصحابي المعروف.) أو على ميثم التمّار ولكن لا أنكر المقامات من أصلها وأتطلب صاحبها بالقلب والروح وأرجو الفرج لهذه المحبة وأنت كن كما شئت واتصل مع من شئت:

مدّعي خواست كه آيد بتماشاكه راز

دست غيب آمد وبرسينه نا محرم زد (البيت للعارف الحافظ الشيرازي يقول:

أراد المدّعي أن يدخل منتزه السرّ فظهرت اليد الغيبية وضربت في صدر المدعي وردّه عن الورود لأنه ما كان محرماً للسرّ. فبيّن أن من شروط الدخول في حرم سرّ الله رفض الدعوى وترك الأنانية.)

ولكن لم أكن خائنا للاحباء العرفانيين في الاخوة الايمانية ولا أضيق بالنصيحة لهم التي هي من حقوق المؤمنين.

فإن أعظم القذارات المعنوية التي لا يمكن تطهيرها بسبعة أبحر وأعجزت الانبياء العظام هي قذارة الجهل المركب الذي هو منشأ الداء العضال الا وهو انكار مقامات أهل الله وأرباب المعرفة ومبدأ سوء الظنّ لاصحاب القلوب، وما دام الانسان ملوّثا بهذه القذارة لا يتقدّم خطوة إلى المعارف بل ربما تطفىء هذه الكدورة نور الفطرة الذي هو مصباح طريق الهداية وينطفئ بها نار العشق التي هي براق العروج إلى المقامات ويخلّد الانسان في أرض الطبيعة، فاللازم على الانسان أن يغسل هذه القذارات عن باطن القلب بالتفكر في حال الانبياء والاولياء الكمل صلوات الله عليهم وتذكر مقاماتهم و الاّ يقنع بالحدّ الذي هو فيه فإن الوقوف على الحدود والقناعة في المعارف، من التلبيسات العظيمة لابليس والنفس الامّارة نعوذ بالله منها، وحيث أن هذه الرسالة كتبت على وفق ذوق العامة فقد أمسكنا عن التطهيرات الثلاثة للاولياء والحمد لله. (بالاستئذان من حضرة الاستاذ أشير إلى التطهيرات الثلاثة للاولياء وأن كان لا يخلو عن التجاسر وسوء الادب عند أرباب المعنى.

فأقول: المرتبة الاولى من التطهيرات الثلاثة للاولياء تطهير الاعضاء والجوارح من الاعمال والافعال البشرية، وهذا التطهير هو نتيجة قرب النوافل كما في الحديث المتفق عليه "لا يزال يتقرّب إلي عبدي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت أنا سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها".

فالسالك الكامل الواصل اذا خرج من بيت النفس المظلم وطوى عالم النفس بالكلية واندك جبل إنّيّته وأنانيته بتجلي الانوار الربوبية وخرق الحجب النورانية والظلمانية يتجلى الحق تعالى في وجوده فيسمع بالحق ولا يسمع غير الحق ويبصر بالحق ولا يبصر سوى الحق ويبطش بالحق ولا يصدر منه الا الحق وينطق بالحق ولا ينطق الا الحق.

فإذا تمكن في هذا المقام وتقرّب إلى الله سبحانه بقدر استعداده فتحصل له المرتبة الثانية من التطهير وهو التطهير من الصفات الخلقية فالجذبات الالهية الرحمانية تجذبه ويأنس بنار العشق من جانب طور تجلّي الاسماء فتقربه من بساط الانس، فإن جذبه من جذبات الرحمان توازن عمل الثقلين كما في الحديث ويكون كالحديدة المحماة كما في الحديث أيضاً، فكلما يتكمن من القرب يتأدّب بالاداب الربوبية المستفادة من قوله صلى الله عليه

وآله "أدّبني ربي فأحسن تأديبي". فتكمل فيه الصفات والملكات الخلقية وتصل جوهرة العبودية إلى كنها وتختفي العبودية وتظهر الربوبية وتتحقق بحقيقة "وتخلّقوا بأخلاق الله". ثم في منتهى قرب النوافل يصل إلى المرتبة الثالثة من التطهير وهي تطهير الذات وكشف سبحات الجلال ويحصل الفناء الكلّي والصعق التام والاضمحلال المطلق والتلاشي التام ويصير القلب الهيا ولاهوتيا وتتجلى حضرة اللاهوت في مراتب الباطن والظاهر فيصل على معدن العظمة ويصير روحه معلقا بعزّ القدس كما أشار عليه السلام في المناجاة الشعبانية: "الهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرنا اليك حتى تخرق ابصار القلوب حجب النور وتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك". فعند ذلك يكون وجوده حقانيا، والحق تعالى يشاهد الموجودات في مرآة وجوده، واذا كان انسانا كاملا فيوافق المشيئة المطلقة، كما ورد في زيارة الاولياء الكمّل "ارادة الربّ في مقادير أموره تهبط اليكم وتصدر من بيوتكم" وتكون روحانية عين مقام الظهور الفعلي للحق تعالى كما قال علي عليه السلام: "نحن صنائع الله والخلق بعد صنائعنا" فيه يبصر الحق تعالى وبه يسمع وبه يبطش كما في زيارة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: "السلام على عين الله الناظرة وأذنه الواعية ويده الباسطة السلام على جنب الله الرضي ووجهه المضيء" وربما تستفاد هذه اللطيفة الربانية من حديث قرب النوافل: "كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به.. إلى آخره.." فليتدبّر.. وفي دعاء رجب: "لا فرق بينك وبينها الا أنهم عبادك وخلقك".

وليعلم أنه يمكن تطهير الفطرة بعد تلوثها. وما دام الانسان في هذه النشأة فالخروج من تصرّف الشيطان له مقدور وميسور، والورود في حزب ملائكة الله التي هي جنود رحمانية الهية له ميسّر. وحقيقة جهاد أعداء الدين كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الخروج من تصرف جنود ابليس والورود تحت تصرّف جنود الله، فأول مرتبة الطهارة هي التسنّن بالسنن الالهية والائتمار بأوامر الحق.

والمرتبة الثانية هي التحلي بفضائل الاخلاق وفواضل الملكات. والمرتبة الثالثة هي الطهور القلبي وهو عبارة عن تسليم القلب إلى الحق تعالى، وبعد هذا التسليم يصير القلب نورانيا بل يكون القلب نفسه من عالم النور ومن درجات النور الالهي، ويسري نور القلب إلى سائر الاعضاء والجوارح والقوى الباطنية وتكون المملكة كلها نورا ونورا على نور وينتهي الامر إلى حد يكون القلب الهيا ولاهوتيا، وتتجلى حضرة اللاهوت في جميع مراتب الباطن والظاهر، وفي هذه الحال تفنى العبودية كل الفناء وتختفي، فتظهر الربوبية وتبين. ويحصل لقلب السالك في هذه الحال الطمأنينة والانس ويصير جميع العوامل محبوبا له وتحصل له الجذبات الالهية وتغفر له الخطايا والزلّات وتستتر في ظلّ التجلّيات الحبّيّة وتحصل له بدايات الولاية ويليق بالورود على محضر الانس، وللسالك بعد هذا منازل لا يناسب هذه الاوراق ذكرها.)

الفصل الثاني

في الاشارة إلى مراتب الطهور

اعلم أن الانسان مادام في عالم الطبيعة ومنزل مادة الهيولانية فهو تحت تصرفات جنود الهية وجنود ابليسية. والجنود الالهية هي جنود الرحمة والسلامة والسعادة والنور والطهارة والكمال، وجنود ابليس مقابلاتها، وحيث أن

الجهات الربوبية غالبة على الجهات الابليسية فللانسان في مبدأ الفطرة نور وسلامة وسعادة فطرية الهية كما صرّح بذلك في الاحاديث الشريفة وأشير اليه في الكتاب الشريف الالهي، وما دام الانسان في هذا العالم فهو بقدر الاختيار يستطيع أن يجعل نفسه تحت تصرّف أحد هذين الجندين، فاذا لم يكن لابليس من أول فطرة الانسان إلى آخرها تصرّف في فطرته فهو انسان الهي لاهوتي، وهو من قرنه إلى قدمه نور وطهارة وسعادة فقلبه نور الحق ولا يتوجّه لغير الحق وقواه الباطنية والظاهرية نورانية وطاهرة ولا يتصرف فيها سوى الحق وليس لابليس فيها حظ ولا لجنوده فيها تصرّف. ومثل هذا الموجود الشريف طاهر مطلقا ونور خالص وما تقدم من ذنبه وما تأخّر فهو مغفور له، وهو صاحب الفتح المطلق وواجد لمقام العصمة الكبرى بالاصالة وبقية المعصومين واجدون لذاك المقام تبعا لتلك الذات المقدسة وهو صاحب مقام الخاتمية الذي هو الكمال على الاطلاق، وحيث أن أوصياءه مشتقون من طينته ومتصلون بفطرته فهم أصحاب العصمة المطلقة بتبعه ولهم التبعية الكاملة. وأما بعض المعصومين من الانبياء والالياء عليهم السلام فليسوا أصحاب العصمة المطلقة ولم يكونوا خالين من تصرّف الشيطان، كما أن توجّه آدم عليه السلام إلى الشجرة كان من تصرفات ابليس الكبير ابليس الابالسة مع أن تلك الشجرة الجنة الالهية ومع ذلك كانت له الكثرة الاسمائية التي تنافي مقام الادمية الكاملة، وهذا أحد معاني الشجرة المنهي عنها أو أحد مراتبها و إذا تلوّث نور الفطرة بالقذارات الصورية والمعنوية فبمقدار التلوّث يبعد عن بساط القرب ويهجر من حضرة الانس حتى يصل إلى مقام ينطفئ فيه نور الفطرة بالكلّية وتصير المملكة شيطانية كلها ويكون ظاهرها وباطنها وسرّها وعلنها في تصرّف الشيطان فيكون الشيطان قلبه وسمعه وبصره ويده ورجله وتكون جميع أعماله شيطانية، واذا وصل أحد . والعياذ بالله . إلى هذا المقام فهو الشقّي المطلق ولا يرى وجه السعادة أبدا، وبين هاتين المرتبتين مقامات ومراتب لا يحصيها الا الله وكل من يكون إلى أفق النبوة أقرب فهو من أصحاب اليمين وكل من كان إلى أفق الشيطان أقرب فهو من أصحاب الشمال.

الفصل الثالث

في الآداب القلبية للسالك حينما يتوجه إلى الماء للطهارة

ونذكر في المقام الحديث الشريف لمصباح الشريعة كي يحصل للقلوب الصافية لاهل الايمان منه نورانية.

ففي مصباح الشريعة قال الامام الصادق عليه السلام: "اذا أردت الطهارة والوضوء فتقدم إلى الماء تقدمك إلى رحمة الله فإن الله قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ودليلاً على بساط خدمته، وكما أن رحمة الله تطهّر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لاغير"، قال الله تعالى: {وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا} (الفرقان 48). وقال الله تعالى: {وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون} (الأنبياء 30). فكما يحيي به كل شيء من نعيم الدنيا كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب الطاعات. وتفكر في صفاء الماء ورقّته وطهارته وبركته ولطيف امتزاجه بكل شيء واستعمله في تطهير الاعضاء التي أمرك الله بتطهيرها، وات بآدابها في فرائضه وسننه فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة، فاذا استعملها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالاشياء يؤدي كل شيء حقّه ولا يتغير معناه معتبرا لقول رسول الله صلى الله عليه وآله مثل المؤمن المخلص الخالص كمثل الماء، ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسمّاه طهورا وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء.

وفي هذا الحديث لطائف ودقائق وإشارات وحقائق تحيي قلوب أهل المعرفة وتعطي الارواح الصافية لاصحاب القلوب حياة جديدة. ففي هذا الحديث شبه الماء بل أوله إلى رحمة الحق فمن نكات هذا التشبيه أو التأويل أن الماء أحد المظاهر العظيمة لرحمة الحق التي أنزلها في عالم الطبيعة وجعلها سببا لحياة الموجودات بل أهل المعرفة يعبّرون بالماء عن الرحمة الواسعة الالهية التي نزلت من السماء رفيعة الدرجات لحضرة الاسماء والصفات فأحيا بها أراضي التعيّنات للاعيان. وحيث أن تجلّي الرحمة الواسعة الاهية في الماء الملكي الظاهري أكثر من سائر الموجودات الدنيوية جعله الله تعالى لتطهير القذارات الصورية بل ماء الرحمة للحق تعالى اذا نزل وظهر في كل نشأة من نشآت الوجود وفي كل مشهد من مشاهد الغيب والشهود يطهّر ذنوب عباد الله وفقا لتلك النشأة وبما يناسب ذلك العالم.

فماء الرحمة النازل من سماء الاحدية تطهر ذنوب غيبة تعينات الاعيان، وبماء الرحمة الواسعة النازلة من سماء الواحدية تطهر ذنوب عدمية الماهيات الخارجية في كل مرتبة من مراتب الوجود طبقا لتلك المرتبة، وفي مراتب نشآت الانسانية ايضا لماء الرحمة ظهورات مختلفة كما أنه بالماء النازل من حضرة الذات بالتعينات الجمعية البرزخية تطهر ذنوب سر الوجود "وجودك ذنب لا يقاس به ذنب" وبالماء النازل من حضرات الاسماء والصفات وحضرة التجلي الفعلي تطهر رؤية الصفة والفعل وبالماء النازل من سماء الحضرة الحكم العدل تطهر القذارات الخلقية الباطنية، وبالماء النازل من

سماء الحضرة الحكم العدل تطهر القذارات الخلقية الباطنية، وبالماء النازل من سماء الغفارية تطهر ذنوب العباد، وبالماء النازل من سماء الملكوت تطهر القذارات الصورية، فعلم أن الحق تعالى جعل الماء مفتاح قربه ودليل بساط رحمته ثم يعين عليه السلام في الحديث الشريف وظيفة أخرى ويفتح طريقا آخر لاهل السلوك والمراقبة.

يقول عليه السلام: "تفكَّرْ في صفاء الماء ورقته وطهره وبركته ولطيف امتزاجه بكل شيء واستعمله في تطهير الاعظاء التي أمرك الله بتطهيرها وائت بآدابها في فرائضه وسننه فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة فاذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب".

اشار عليه السلام في هذا الحديث الشريف إلى مراتب الطهارة بالطريق الكلية وبيّن أربع مراتب كليّة احدها ما ذكر في الحديث الشريف إلى حد الذي ذكرناه وهو تطهير الاعضاء، وأشار عليه السلام إلى أنّ أهل المراقبة والسلوك إلى الله يلزم الاّ يتوقّفوا عند صور الاشياء وظواهرها بل لابدّ أن يجعلوا الظاهر مرآة للباطن ويستكشفوا من الصور الحقائق ولا يقنعوا بالتطهير الصوري فإن القناعة بالتطهير الصوري فخّ ابليس فينتقلوا من صفاء الماء إلى تصفية الاعضاء ويصفونها بأداء الفرائض والسنن الالهية ويرققون الاعضاء برقة الفرائض والسنن ويخرجونها من غلظة التعصي ويسرون الطهور والبركة في جميع الاعضاء ويدركون من لطف امتزاج الماء بالاشياء كيفية امتزاج القوى الملكوتية الالهية بعالم الطبيعة ولا يدعون القذارات الطبيعية تؤثّر فيها فاذا تلبست أعضاؤهم بالسنن والفرائض الالهية وآدابها تظهر فوائدها الباطنية بالتدريج وتنفجر عيون الاسرار الالهية وتنكشف لهم لمحة من أسرار العبادة والطهارة.

ولما فرغ عليه السلام من بيان المرتبة الاولى من الطهارة وكيفية تحصيلها شرع في بيان الوظيفة الثانية وقال: ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالاشياء يؤدي كل شيء حقه ولا يتغّير عن معناه معتبرا لقول رسول الله

صلى الله عليه وآله "مثل المؤمن المخلص (الخالص) كمثل الماء" فبيّن عليه السلام في الحكم الاول ما يربط بتعامل الانسان السالك مع قواه الداخلية وأعضائه، والحكم الثاني الذي هو في هذه الفقرة من الحديث الشريف يرتبط بتعامل الانسان مع خلق الله وهذا هو حكم جامع يبيّن كيفية معاشرة السالك للمخلوق ويستفاد منه ضمنا حقيقة الخلوة وهي أن السالك إلى الله في نفس الحال الذي يعاشر كل طائفة من الناس بالمعروف ويرد الحقوق الخلقية ويراود كل أحد ويعامله بطور يناسب حاله فهو في الوقت نفسه لا يتجاوز عن الحقوق الالهية ولا يترك المعنى من نفسه وهو العبادة والعبودية والتوجّه إلى الحق وفي نفس الحال التي يكون فيها في الكثرة يكون في الخلوة وقلبه الذي هو منزل المحبوب خاليا من الاغيار وفارغا من كل صورة ومثال. (أقول: وقد أشير إلى هذا المعنى في كثير من الاحاديث، ففي نهج البلاغة لعلي عليه السلام في خطبته المعروفة التي يصف فيها المتقين قال (ع): "ان كان من الغافلين كتب الذاكرين وان كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين" وفي الكافي الشريف روايات متقاربة المضمون: ان الله سبحانه أوحى لموسى بن عمران: "يابن عمران لاتدع ذكري على كل حال". وقال الصادق عليه السلام: قال الله تعالى "يابن آدم اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي". إلى أن قال "اذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملئك". وقال "ما من عبد يذكر الله في ملأ من الناس الا ذكره الله في ملأ من الملائكة" وأيضا في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام قال: "الذاكر لله عز وجل في الغافلين كالمقاتل في المحاربين الغازين".)

ثم ذكر عليه السلام الحكم الثالث وهو كيفية تعامل السالك مع الحق تعالى، يقول: "ولتكن صفوتك مع الله في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من السناء وسمّاه طهورا" يعني يلزم للسالك إلى الله أن يكون خالصا من تصرف الطبيعة ولا يكون لكدورتها وظلمتها طريق إلى قلبه، وتكون جميع عباداته خالية عن جميع الشرك الظاهري والباطني، وكما أن الماء في وقت نزوله من السماء طاهر وطهور وما امتدّت اليه يد تصرف القذارات كذلك قلب السالك الذي نزل من سماء عالم غيب الملكوت طاهراً ومنزّهاً لا يتركه يقع تحت تصرّف الشيطان والطبيعة ويتلوث بالقذارات.

وبعد هذا بين عليه السلام الحكم الاخير وهو وظيفة لأهل الرياضة والسلوك ويقول: "وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند تطهير جوارحك بالماء" وفي هذا إشارة إلى مقامين شامخين لأهل المعرفة. الأول: التقوى وكماله ترك غير الحق. والثاني: اليقين وكماله مشاهدة حضور المحبوب.

الفصل الرابع

في الطهور وهو اما الماء وهو الاصل في هذا الباب واما الارض

(قال العارف السعيد القاضي سعيد القمّي ((*. هو محمد بن مفيد القُمّي العالم الفاضل الحكيم المتشرع العارف الربّاني والمحقّق الصمداني من أعاظم علماء الحكمة والادب والحديث. انتهى اليه منصب القضاء في بلده قم.

كان من تلامذة المحقق الفيض الكاشاني والمولى عبد اللازّاق الاهيجي له مصنفات فائقة منها شرحه على كتاب توحيد الصدوق في مجلّدات والاربعينيّات وغير ذلك. وأشهر مصنفاته شرحه على التوحيد وهو مشتمل على الفوائد الكثيرة فلنذكر فائدة مختصرة منها:

روى الصدوق عن أبي عبدالله عليه السلام قال لمّا امر الله عز وجل ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ببنيان البيت وتمّ بناؤه أمره ان يصعد ركنا ينادي في الناس الا هلمّ الحجّ فلو نادى هلمّوا إلى الحج لم يحجّ إلا من كان يومئذ انسيّا مخلوقا ولكن نادى هلمّ الحجّ فلبّى الناس في أصلاب الرجال لبيك داعي الله لبيك داعي الله فمن لبىّ عشرا حجّ عشرا ومن لبّى خمسا حج خمسا ومن لبّى اكثر فبعدد ذلك ومن لبى واحدا حجّ واحدا ومن لم يلبّ لم يحج.

قال القاضي سعيد في معنى الخبر: عندي ان الوجه فيه ان استعمال هلم لمجرّد الامر وطلب الحضور مع تجريد من خصوصية المخاطب بالافراد والتذكير والتأنيث، والمعنى ليكن اتيان بالحجّ وليصدر قصد إلى البيت ممّن يأتي منه هذا القصد من أفراد البشر وهذا إنّما يصحّح في صيغة المفرد حيث لم يكن فيه علامة الزيادة لاجل التأنيث والتثنية والجمع بخلاف صيغة الجمع فان الزيادة فيه مانعة عن ذلك كما لا يخفى على المتدرّب في العلوم (انتهى).)) وهو (أي الطهور) امّا الماء الذي هو سرّ الحياة التي هي العلم ومشاهدة الحيّ القيّوم، قال الله تعالى: {وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به} (الفرقان 48 و 49). وقال جل وعلا: {وينزل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان} (الانفال 11) وأما التراب الذي هو أصل نشأة الانسان قال عزّ من قائل {منها خلقناكم} (طه 55). وقال جلّ جلاله: {فلم تجدوا ماء فتيمّموا صعيدا طيّبا} (النساء 43) وذلك لتتفكر في ذاتك لتعرف من أوجدك ومم أوجدك ولم أوجدك، فتخضع له وترفع التكبّر من رأسك لان التراب هو الاصيل في الذلّة والمسكنة.

ثم اعلم ان ماء الغيث لطيف في غاية الصفا وله مزاج واحدا ولا يمازجه شيء في الخارج فهو في الباطن العلم اللدني الذي له طعم واحد اذ الانبياء والاولياء كلهم على قول متحد وان اختلفت المشارب والمناهل فليكن معتمدك في طهورك الظاهري والباطني هذا الماء، وأما ماء العيون والآبار فهو مختلف الطعم بحسب تلك البقعة والأرض التي خرج منها وامتزج بتربتها فهو العلم المستفاد من الافكار الصحيحة التي لاتخلو من شائبة التغيّر بحسب مزاج المتفكر لانه ينظر في مواد محسوسة تقوم عليها البراهين، فاختر لنفسك أي الماءين يقرب من ذوقك ويناسب مشربك.. (انتهى).

وكأنّ الامام أطال الله بقاه ينظر إلى كلام هذا العارف في هذا المبحث ولكن شتّان ما بين الكلامين، فتأمّل تعرف.)

إعلم أن للانسان السالك في الوصول إلى المقصد الأعلى ومقام القرب الربوبي طريقين على نحو كلي أحدهما وله مقام الكلّية والأصالة وهو السير إلى الله بالتوجّه إلى مقام الرحمة المطلقة وخصوصا الرحمة الرحيمية وهي رحمة توصل كل موجود إلى كماله اللائق به، ومن شعب الرحمة الرحيمية ومظاهرها بعث الانبياء والرسل صلوات الله عليهم الذين هم هداة السبل والمساعدون للمتأخرين عن السير، بل ان دار التحقق في نظر أهل المعرفة وأصحاب القلوب هي صورة الرحمة الالهية، والخلائق دائما مستغرقون في بحار رحمة الحق تعالى ولكنهم لا يستفيدون منها.

فهذا الكتاب العظيم الإلهي الذي نزل من عالم الغيب الإلهي والقرب الربوبي، ولأجل استفادتنا نحن المهجورين وخلاصنا نحن المسجونين في سجن الطبيعة والمغلولين في سلاسل أهواء النفس والآمال وقد صار في صورة

اللفظ والكلام هو أحد مظاهر العظيمة للرحمة المطلقة الإلهية، وما استفدنا نحن الصم العمي منه بشيء ولا نستفيد. وان الرسول الخاتم والوليّ المطلق الأكرم الذي شرّفنا وقد من محضر القدس ومحفل القرب والانس الإلهي إلى هذا المنزل منزل الغربة والوحشة وابتلي بمعاشرة أمثال أبي جهل وشرّ منه مراودته وان أنين ليغان على قلبي منه صلى الله عليه وآله قد أحرق قلوب أهل المعرفة والولاية ويحرقها الان أيضا هو الرحمة الواسعة والكرامة المطلقة الالهية التي كان قدومها في هذه الدويرة للرحمة على الموجودات وعلى سكنة العالم الاسفل الادنى واخراجهم من هذه الدار دار الغربة والوحشة، فهو صلى الله عليه وآله كالحمامة المطوقة التي تلقي نفسها إلى الفخ لتنجي رفقاءها منه.

فلابد للسالك إلى الله أن يرى التطهير بماء الرحمة صورة لاستفادته من الرحمة الالهية النازلة، وما دامت الاستفادة له ميسورة، لابد أن يقوم بأمرها واذا قصرت يده عنها بسبب القصور الذاتي أو تقصيره وبسبب فقد ماء الرحمة لم يكن له بدّ من التوجّه بذلّه ومسكنته وفقره وفاقته، فاذا جعل ذلّة عبوديته نصب عينيه وتوجّه باضطراره الذاتي وفقره الذاتي وإمكانه الذاتي وخرج من التعزز والغرور وحب النفس ينفتح له باب آخر من الرحمة وتبدل بأرض الطبيعة أرض الرحمة البيضاء ويصير التراب أحد الطهورين ويصير موردا لترحم الحق تعالى وتلطفه، وكلما قوي هذا النظر في الانسان أي النظر إلى ذلّة نفسه يكون موردا للرحمة أكثر. وأما اذا أراد الانسان أن يسلك هذا الطريق بقدم الاعتماد على النفس وعلى عمله فهو هالك لامحالة لانه من الممكن الا يؤخذ بيده فمثله كالطفل الذي يتجاسر على المشي ويغتر بقدمه، ويعتمد على قوته، فمثل هذا الطفل لا يكون موردا لعناية أبيه ويكله الاب إلى نفسه وأما إذا عرض اضطراره وعجزه على جناب الأب الشفيق وخرج عن الاعتماد على نفسه وعلى قوّته بالكلّية فيصير حينئذ موردا لعناية الاب ويأخذ الاب بيده بل يأخذه في حضنه ويمشي به بقدمه فالاحرى بالسالك إلى الله ان يكسر رجل سلوكه وان يستدعي البراءة من الاعتماد على نفسه وارتياضه وعمله بالكلّية وينفى عن نفسه وقدرته وقوّته، ويجعل فناءه واضطراره دائما نصب عينيه حتى يقع دائما موردا للعناية، فربما يسلك حينئذ طريقا يطول سيره مئة سنة في ليلة واحدة بالجذبة الربوبية , وحينما يفنى عن نفسه وقوته وقدرته ويقول في محضر القدس الربوبي بلسان باطنه وحاله بالعجز والافتقار: "أمّن يجيب المضّطر اذا دعاه ويكشف السوء". (النمل . 61)

الفصل الخامس

في نبذة من آداب الوضوء الباطنية والقلبية

فمن ذلك ما ورد عن الامام الرضا (هو الامام الثامن من أئمة الهدى بضعة سيد الورى مولاي علي بن موسى الرضا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين المعصومين، ولد عليه السلام حادي عشر ذي القعدة يوم الخميس أو يوم الجمعة بالمدينة سنة 148 ثمان وأربعين ومئة بعد وفاة جدّه الصادق عليه السلام بأيام قليلة ومكارم أخلاقه ومعالي أموره أكثر من أن تحصى وتذكر فعن ابراهيم بن العباس قال: ما رأيت أبا الحسن الرضا عليه السلام جفا أحدا بكلامه قطّ ولا اتّكى بين يدي جليس له قطّ ولا رأيته شتم أحدا من مواليه ومماليكه قطّ ولا رأيته تفل قط ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط بل كان ضحكه التبسّم وكان اذا خلا ونصبت مائدته أجلس معه على مائدته مماليكه حتى البواب والسايس، وكان عليه السلام قليل النوم بالليل كثير السهر يحيي أكثر لياليه من أولها إلى

الصبح وكان كثير الصيام فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر ويقول ذلك صوم الدهر. وكان عليه السلام كثير المعروف والصدقة في السرّ وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقوه (انتهى).

وقبض ابو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام في آخر صفر كما اختاره ابن الاثير والطبرسي والسيد الشبلنجي من سنة 203 (رج) ثلاثة ومئتين وهو ابن خمس وخمسين سنة وتوفي بطوس في قرية يقال لها سناباد من نوقان على دعوة ودفن بها صلوات الله عليه. وكتب المأمون إلى أهل بغداد وبني العباس والموالي يعلمهم بموته عليه السلام وانّهم انّما نقموا ببيعته وقد مات وسألهم الدخول في طاعته فكتبوا اليه أغلظ جواب.

وقال الصدوق: ولعلي بن أبي عبدالله الخوافي يرثي الرضا عليه السلام:

يا أرض طوس سقاك الله رحمته ماذا حويت من الخيرات ياطوس
طابت بقاعك في الدنيا وطاب بها شخص ثوى بسنا آباد مرموس
شخص عزيز على الاسلام مصرعه في رحمة الله مغمور ومغموس
ياقبره أنت قبر قد تضمّنه حلم وعلم وتطهير وتقديس
فخرا بانك مغبوط بـجثّته لملائكة الابرار محروس)

عليه السلام: "انما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهرا اذا قام بين يدي الجبّار وعند مناجاته ايّاه مطيعا له فيما أمر نقيّا من الارجاس والنجاسة مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبّار".

فبيّن عليه السلام إلى هنا النكتة (النُكتةْ: المسألة العلمية الدقيقة، يُتَوَصَلُ اليها بدقة، وانعام فكر (المعجم الوسيط) (الناشر)) من أصل الوضوء ونبّه اهل المعرفة وأصحاب السلوك بأن للوقوف في محضر الحق جلّ وعلا وللمناجاة مع قاضي الحاجات آدابا لابد أن تلاحظ حتى أنه مع القذارات الصورية والكثافات وكسالة العين الظاهرة ايضا لا يحضر في ذلك المحضر فكيف اذا كان القلب معدنا للكثافات ومبتلىً بالقاذورات المعنوية التي هي أصل القذارات مع أن في الرواية: "ان الله تعالى لا ينظر إلى صوركم بل ينظر إلى قلوبكم". ومع أن ما يتوجّه به الانسان إلى الحق تعالى وما يليق من العوالم الخلقية أن ينظر إلى كبرياء ونصيب مع ذلك ما أهملت الطهارة الصورية والنظافة الظاهرية فقرروا صورة الطهارة لصورة الانسان وباطنها لباطنه ومن جعله عليه السلام تزكية القلب في هذا الحديث الشريف من فوائد الوضوء يعلم ان للوضوء باطنا يكون به تزكية الباطن ويعلم ايضا الرابطة بين الظاهر والباطن والشهادة والغيب ويستفاد ايضا ان الطهور الظاهري والوضوء الصوري من العبادات واطاعة للرب ومن هذه الجهة الطهور الظاهر موجب للطهور الباطن ومن الطهارة الصورية تحصل تزكية الفؤاد.

وبالجملة السالك إلى الله لابد أن يتوجه في وقت الوضوء إلى انه يريد التوجّه إلى المحضر المقدّس لحضرة الكبرياء ومع هذه الحالات القلبية التي له لا يليق للمحضر بل أنه يطرد من جناب العزّ الربوبي فيشمّر ذيله بأن يسري الطهارة الظاهرية إلى الباطن ويجعل قلبه موردا لنظر الحق بل منزلا لحضرة القدس ويطهره من غير الحق ويخرج من رأسه التفرعن وحب النفس الذي هو أصل أصول القذارات كي يليق للمقام المقدّس. (أقول: اعلم ان النجاسة التي يجب ازالتها للصلاة على أنواع منها ماهو على اللباس وظاهر البدن، وهذه النجاسة تغسل بالماء المطلق وتحصل الطهارة من الخبث التي هي من شروط الصلاة، ونظير هذه النجاسة في عالم الباطن والمعنى التلوث بقذارة المعاصي الصغيرة التي تصدر من المؤمن، وحيث أن مرتبة النجاسة فيها ضعيفة فتطهّر بالالام

الدنيوية وتوجب رفعها الابتلاءات في عالم الطبيعة. قال تعالى: {ان تجتنوا كبائر ما تُنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم} (النساء 31) ومنها ما يسري ويجري إلى باطن الجسد وهو ايضا على قسمين:

القسم الأول: ما يسري في جميع الجسد وهو مايسمى بالحدث الأكبر والتطهير من هذه النجاسة والخباثة يحتاج إلى غسل جميع البدن بنيّة القربي إلى الله تعالى والتعبد له حتى يكون بواسطة اقتران الغسل بقصد القربة وانتسابه إلى حضرة الباري جلّ شأنه، تأثير الماء في رفع النجاسة أقوى وأنفذ وان كان على حساب المقدار والوزن قليلا فيكون مثله مثل الاكسير الذي يؤثر قيراط منه في قنطار من النحاس فيصير ذهبا خالصا، ومن المعاصي ماهو بمنزلة الحدث الاكبر في الروح وهي المعاصي التي رسخت جذورها في القلب وصارت منشأ للملكات الخبيثة والرذائل النفسانية من الكبر والحسد والشرك ونحوها وتسمّى بالموبقات وقد أوعد الله سبحانه صاحبها النار وآثار تلك المعاصي لا تزول عن القلب بسهولة بل لابدّ من التوبة الحقيقة بشرائطها والا فآخر الدواء الكيّ، أعاذنا الله منه.

والقسم الثاني: النجاسة التي تسري إلى الباطن ولكن بمرتبة ضعيفة من السراية بحيث لا تصل إلى جميع البدن ويكفي في تطهيرها غسل بعض الاجزاء توأما بقصد القربة والعبودية كما ذكرنا في الغسل وتسمى بالحدث الأصغر، ونموذج هذه النجاسة في عالم الروح بعض المعاصي الكبيرة التي ليس لها جذر نفساني وكبعض المعاصي الذي قد يتفق للانسان وخصوصا في عهد الشباب ولكن حيث العصيان أمر عارضي وليس ناشئا عن ملكة التعصي لقرب العهد من الفطرة فهو أقرب إلى رحمة الله والتوبة من أسهل. وقد أشير إلى ذلك في الروايات. منها ما رواه الصدوق قدس سره في الامالي عن الصادق عليه السلام أنه قال: "ان العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة فاذا بلغ أربعين سنة أوحى الله عزّ وجلّ إلى ملكية انّي قد عمّرت عبدي عمرا فغلّظا عليه وشددا وتحفضا واكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره."

فاذا لم يتمكن المصلي من الماء لتطهيره فقد جعل الله سبحانه التراب احد الطهورين لان التراب أذلّ الاشياء على وجه الارض يطؤه الناس بأقدامهم فلا بدّ للعبد أن يتّصف بصفته في جناب الحق فيمسح جبينه ويسمه بسمة الذّلة والافتقار والعبودية، ويرمز بهذا أيضا إلى أن ناصية الخلق بيد قدرته يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، كما قال سبحانه: {ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها} (هود 56).فلعله باظهار الخضوع والمسكنة يجلب رحمة الله يوم يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام ثم يمسح يديه بالتراب وهما مظهر قدرته فيذلّله في حضرة القادر المطلق ويقف بعد ذلك في صف الحاضرين في المحضر.

وقال فقيه الفرقة الناجية الشهيد الثاني (قدّس سره):

فأمّا الطهارة، فليستحضر في قلبه ان تكليفه فيه بغسل الأطراف الظاهرة و تنظيفها لاطلاع الناس عليها و لكون تلك الأعضاء مباشرة للأمور الدنيوية منهمكة في الكدورات الدنية فلأن يطهر مع ذلك قلبه الذي هو موضع نظر الحق تعالى فإنه لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم.. و لأنه الرئيس الاعظم لهذه الجوارح و المستخدم لها في تلك الأمور المبعدة عن جنابه تعالى و تقدس أولى و أحرى، بل هذا تنبيه واضح على ذلك و بيان شاف على ما هنالك، و ليعلم من تطهير تلك الأعضاء عند الاشتغال بعبادة الله تعالى و الاقبال عليه و الالتفات عن الدنيا بالقلب والحواس لتلقي السعادة في الأخرى إن الدنيا والآخرة ضرتان كلما قربت من إحداهما بعدت عن الأخرى، فلذلك أمر بالتطهير من الدنيا عند الاشتغال و الاقبال على الأخرى. فأمر في الوضوء بغسل

الوجه لأن التوجه و الاقبال بوجه القلب على الله تعالى به و فيه أكثر الحواس الظاهرة التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا فأمر بغسله ليتوجه به و هو خال من تلك الادناس و يترقى بذلك إلى تطهيرها ما هو الركن الأعظم في القياس ثم أمر بغسل اليدين لمباشرتهما أكثر أحوال الدنيا الدنية و المشتهيات الطبيعية ثم بمسح الرأس لان فيه القوة المفكرة التي يحصل بواسطتها القصد إلى تناول المرادات الطبيعية و تنبعث الحواس للإقبال على الأمور الدنيوية المانع من الاقبال على الآخرة السنية، ثم يمسح الرجلين لأن بهما يتوصل إلى مطالبة و يتوصل إلى تحصيل مآربه على نحو ما ذكر في باقي الأعضاء، فيسوغ له الدخول في العبادة و الاقبال عليها فائزا بالسعادة، و أمر في الغسل بغسل جميع البشرة لأن أدنى حالات الانسان و أشدها تعلقا بالملكات الشهوية حالة الجماع و موجبات الغسل و لجميع بدنه مدخل في تلك الحالة و لهذا قال صلى الله عليه و آله: {ان تحت كل شعرة جنابة}.. فحيث كان جميع بدنه بعيدا عن المرتبة العلية منغمسا في اللذات الدنية كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة و الدخول في العبادة المنيفة و يبعد عن القوى الحيوانية و اللذات الدنيوية. و لما كان للقلب من ذلك الحظ الأوفر و النصيب الاكمل كان الاشتغال بتطهيره من الرذائل و التوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير تلك الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل. و أمر في التيمم بمسح تلك الأعضاء بالتراب عند تعذر غسلها بالماء الطهور وضعا لتلك الأعضاء الرئيسية و هضما لها بتلقيها بأثر التربة الخسيسة، و هكذا يخطر أن القلب إذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق و الرذيلة و تحليته بالأوصاف الجميلة فليقمه في مقام الهضم و يسقه بسياط الذل و الأعضاء عسى أن يطلع عليه مولاه الرحيم و سيده الكريم و هو منكسر متواضع فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع فإنه عند القلوب المنكسرة كما ورد في الأثر فترق من هذه الاشارات و نحوها إلى ما يوجب لك الاقبال أو تلافي سالف الاهمال.)

ثم بيّن الرضا سلام الله عليه وجه اختصاص الاعضاء المخصوصة للوضوء فقال:

"وانّما وجب على الوجه واليدين والرأس والرجلين لان العبد اذا قام بين يدي الجبار فانما يكشف من جوارحه ويظهر ما وجب به الوضوء وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتّل وبرأسه يستقبله في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم ويقعد".

وحاصل ما قاله عليه السلام انه حيث أن لهذه الاعضاء دخلا في عبودية الحق تعالى والعبودية تظهر من هذه الاعضاء فلهذا وجب تطهيرها.. وبعد هذا بيّن عليه السلام الامور التي تظهر من هذه الاعضاء، وبهذا فتح باب الاعتبار والاستفادة لاهلهما، وأرشد أهل المعارف إلى اسرارها بأن ما هو محل للعبودية في محضر الحق تبارك لا بد أن يكون طاهرا ومطهرا والاعضاء والجوارح الظاهرية التي يكون لها حظ ناقص من تلك المعاني لا تليق لذلك المقام من دون طهارتها ومع أن الخضوع ليس من صفات الوجه على الحقيقة والسؤال والرغبة والرهبة والتبتل والاستقبال ليس شيء منها من شؤون الاعضاء الحسيّة ولكن حيث أن هذه الاعضاء مظاهر تلك الامور لزم تطهيرها، فعلى هذا فإنّ تطهير القلب الذي هو محل حقيقي للعبودية ومركز واقعي لتلك المعاني يكون ألزم، وبدون تطهير القلب لو غسلت الاعضاء الصورية بسبعة أبحر ما تطهّرت ولا توجد فيها لياقة لذلك المقام بل يكون للشيطان فيها تصرّف ويكون المرء مطرودا من حضرة العزّة. (يجب على السالك الطالب أن يراعي آداب الوضوء كما قال الصادق عليه السلام: "وات بآدابها في فرائضه و سننه" ليستعد للحضور و يستفيد من عيون فوائده كما وعدها الامام الصادق عليه السلام فالأدب الأول أن يتوجه إلى القبلة و مركز العبادة و نقطة التوحيد التي هي من

عمدة الشرائط الصلاتية ليستفيد من فوائد الاستقبال التي سنذكرها في محلها، و قد أشير إلى هذا الأدب في الرواية: "و ان من توضأ حيال القبلة كان له ثواب صلاة ركعتين" و ينبغي أن يكون وقوفه الوقوف في مقام الحمد حيث أذن له رب العزة و السلطان بالحضور و هو الآن في مقام تحصيل مقدمات التشرف لينال هذا الشرف فيأخذ غرفة من الماء و يغسل يديه من المرفقين و ليتفطن أنه كما يغسل بالماء الظاهر الذي هو سبب حياة لكل حي ظاهره كذلك يغسل باطنه بالعلم و هو الموجب لحياة القلوب و الأرواح فينور به قلبه وروحه، فأخذه الماء صورة تناول الرحمة الإلهية ليطهر بها من كل عيب و نقص و يغسل يديه من العيوب و من حوله و قوته اشواك طريق السلوك و لعل غسل اليد اليسرى يرمز إلى أنه لا حول عن المعاصي إلا بالله، و اليد اليمنى إلى أنه لا قوة على الطاعات إلا بالله.

وأيضا أن اليد مظهر الامساك والقبض وبواسطة الحرص والبخل تمسك عن البسط في الخيرات، قال تعالى: {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بها قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء} (المائدة 64). فليتنبه بأن قبض اليد الظاهرية مانع عن اغتراف الماء النازل من سماء الدنيا كذلك قبض اليد المعنوية مانع عن تناول ماء الرحمة النازل من سماء العلم والحكمة وبصبّ الماء باليمنى على اليسرى يتنبّه انه لابد له من بسط اليد في البذل والاعطاء والايثار في سبيل رضى المحبوب، ولا يمسك يده، قال تعالى: {لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبون} (آل عمران 92).

وأيضا يرمز بغسل اليد إلى غسل يده عمّا نهى عنه الشارع وبالخصوص المنهيات التي تتحقق باليد كالسرقة والتعدّي والغصب وأمثالها.

ويتفطن أيضا إلى أنه كما أن النوم في الليل أو النهار حدث يوجب هذا الوضوء الذي هو بصدده كذلك الغفلة عن مقام الغيب والشهود حدث لابد لك من رفعة فبغسل يديه مستمدا من مقام الرحمانية والرحيمية للحق تعالى شأنه يرفع ذاك الحدث. وقد ورد في الحديث "لا وضوء لمن لا يسمّ الله" فيغسل يديه قائلا بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقول: "الحمد لله الذي جعل الماء طهورا ولم يجعله نجسا" وهذا اشارة إلى مقام الحمد الذي ذكرناه، ثم يتنبه إلى الجهات التي ذكرها الاستاذ في الطهارة ويقول: "اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين" ويجدّد التوبة على حسب المرتبة التي هو فيها ويسأل التوبة من الله ثم يتمضمض ويجري ذكره الجميل على اللسان بقوله: "اللهم لقّني حجّتي يوم ألقاك وأطلق لساني بذكرك" ومعنى تلك المضمضة التي يطّهر بها فمه من فضول الطعام أنه يطهر فمه ولسانه من الذكر القبيح ومن فضول الكلام (وفضول الكلام يميت القلب) وممّا يجري على لسانه ويخرج من فمه ممّا يمقته الله ويدخله النار كما قال صلى الله عليه وآله: "وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار الا حصائد ألسنتهم". فيزيده بذكر الله وتلاوة القرآن.

ثم يستنشق، وحقيقة اخراج الكبر والتعالى من دماغه كما يخرج بالاستنشاق فضولات الدماغ من طريق أنفه وينقي مجراه ويستعد لشم الروائح العطرة المعنوية التي تهب من حي الحبيب ووجدان نفس الرحمن من جانب اليمن والوادي الايمن، ويقول بلسانه رمزا لذلك المعنى:

"اللهم لا تحرمني ريح الجنة وأجعلني ممن يشم ريحها وروحها وطيبها" ثم يغسل وجهه ويتوجّه إلى أنّ ذلك يرمز إلى بياض الوجه وتحصيل ماء الوجه عند الله سبحانه فيتذكّر قصوره وتقصير وخجلته وسواد وجهه ويستجير بالله من أن يلقى الله سبحانه بهذه الحالة كما يحكيها الله سبحانه:

"ويوم القيامة. ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة" (الزمر 60).. وقال تعالى: {وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة} (عبس 40 . 41). وليستحي من الله سبحانه لما رآه حيث نهاه ولما توجّه إلى غير مولاه. ونعم ما قيل:

قالوا غدا نأتي ديار الحمى ... وننزل الركب بمغناهم
فكلّ من كان محبّا لهم ... يصبح مسرورا بلقياهم
قلت فلي ذنب وما حيلتي ... بأي وجه أتلقّاهم
قالوا أليس العفو من شأنهم ... لاسيما عمّن ترجّاهم

وقد ورد في الحديث أنه يقول عند غسل وجهه "اللهم بيّض وجههي يوم تسودّ الوجوه ولا تسوّد وجهي يوم تبيضّ الوجوه".

ويتذكر عندما يغسل اليدين ان باطنه غسل الايدي من مرافق رؤية الاسباب التي هي أيادي صنع المعبود إلى منتهى أنامل المباشرة والاكتساب.

وأيضا هو غسل اليد عن الخلق وتفويض الامر إلى الله والاستعداد للتمسك بذيل المحبوب وقرع بابه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في حق عباد الله وأصحاب الذكر "لكل باب رغبة إلى الله منهم يد قارعة".

ويتذكر أيضا موقف القيامة وتطاير الكتب وأحوال الناس في ذاك الوقت كما قال تعالى: {فأمّا من أوتي كتابه بيمينه} (الحاقة 25) {وأمّا من أوتي كتابه بشماله} (الحاقة 25).. فيقول عند غسله اليمنى "اللهم اعطني كتابي بيميني والخلد في الجنان بيسارى وحاسبني حسابا يسيرا".

ويقول أيضا عند غسله اليسرى: "اللهم لاتعطني كتابي بشمالي ولا من وراء ظهري ولاتجهلها مغلولة إلى عنفي وأعوذ بل من مقطّعات النيران".

ويمسح رأسه من الخضوع لغير الله ومن الكبرياء العارضة له اذ عدّ نفسه شيئا ومن التشمخ الذي عرض له من النظر إلى نفسه ويتذكر عند مسح رأسه خطيئة أبيه آدم وميله إلى الشجرة المنهية ووضعه يد الذّلة والافتقار على أمّ رأسه كما في الرواية يجيء شرحها وينادي ربه كما نادى أبوه ربّنا ظلمنا أنفسنا ليشمله غفران الرب الرحيم من قرنه إلى قدمه، ويتحقق معنى الدعاء الوارد عند مسح الرأس من قوله: "اللهم غشّني برحمتك وبركاتك وعفوك ومغفرتك".

ويمسح رجليه من المشي إلى دار الغربة وأرض المذّلة، ويطهّرها أيضا عن المشي بالكبر. قال تعالى: {ولا تمش في الأرض مرحا} (الاسراء 37) ويمشي بقدم العبودية والهوان ليصدق عبوديته للرب الرحمن.. قال تعالى: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا} (الفرقان 63) ويلزم تصميماً على الثبات في طريق الجهاد وميدان الجهاد الأصغر والأكبر والمشي على الصراط المستقيم ويقول بلسان قاله "اللهم ثبّت قدمي على الصراط يوم تزلّ فيه الاقدام واجعل سعيي فيما يرضيك عني".

وبالجملة، فانه يراعي حالة الخضوع والحضور في جميع حالات الوضوء فانه من العبادات، والعبادة بلا حضور كجسم بلا روح.

ونتبرك في ختام هذا البحث بذكر رواية شريفة حاوية لاسرار عظيمة وهي ما وراه العارف السعيد القاضي سعيد القمّي بعد كلام له قال في كتاب المعراج للشيخ أبي محمد الحسن رضي الله عنه في حديث طويل، قال رسول الله

صلى الله عليه وآله: "ثم قال لي ربي يا محمد مدّ يديك فيتلقاك ما يسيل من ساق العرش الايمن فنزل الماء فتلقيته باليمين ثم قال: يا محمد خذ ذاك الماء فاغسل به وجهك وعلة غسل الوجه انك تريد أن تنظر إلى عظمتي وأنت طاهر ثم اغسل ذراعيك اليمين واليسار وعلة ذلك أنك تريد أن تتلقى بيديك كلامي وامسح رأسك بفضل ما بيدك من الماء ورجليك إلى كعبيك وعلة المسح أني أريد اوطئك موطئا لم يطأه أحد قبلك ولا يطوؤه أحد غيرك".)

وصل: ومن ذلك ما عن العلل باسناده قال: "جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه عن مسائل، وكان فيما سألوه أخبرنا يا محمد لايّ علّة نتوضأ هذه الجوارح الاربع وهي أنظف المواضع في الجسد؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: لما أن وسوس الشيطان إلى آدم ودنا من الشجرة فنظر اليها فذهب ماء وجهه ثم قام ومشى اليها وهي أول قدم مشت الى الخطيئة ثم تناول بيده منها ماعليها وأكل فتطاير الحلي والحلل عن جسده فوضع آدم يده على أمّ رأسه وبكى فلما تاب الله عليه فرض الله عليه وعلى ذريته تطهير هذه الجوارح الاربع فأمر الله عزّ وجلّ بغسل الوجه لما نظر الى الشجرة وأمره بغسل اليدين الى المرفقين لما تناول بهما وأمر بمسح الرأس لما وضع يده على أمّ رأسه وأمره بمسح القدمين لما مشى بهما الى الخطيئة".

وفي باب علّة وجوب الصوم ايضا:

عن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهما السلام قال:

"جاء نفر من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن مسائل، فكان فيما سأله أن قال له: لايّ شيء فرض الله عز وجل الصوم على أمّتك بالنهار ثلاثين يوما وفرض على الامم السالفة أكثر من ذلك؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله ان آدم لما أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوما ففرض الله تعالى على ذرّيته ثلاثين يوما الجوع والعطش والذي يأكلونه تفضّل من الله تعالى عليهم" (الحديث).

فمن هذه الاحاديث لاهل الاشارات واصحاب القلوب استفادات منها أن خطيئة آدم عليه السلام مع أنها ما كانت من قبيل خطايا غيره بل لعلها كانت خطيئة طبيعية أو أنها كانت خطيئة التوجّه إلى الكثرة التي هي شجرة الطبيعة أو كانت خطيئة التوجّه إلى الكثرة الاسمائية، بعد جاذبة الفناء الذاتي ولكنها ما كانت متوقعة من مثل آدم عليه السلام الذي كان صفيّ الله والمخصوص بالقرب والفناء الذاتي ولهذا أعلن الذات المقدسة وأذاع بمقتضى الغيرة الحبية عصيانه وغوايته في جميع العوالم وعلى لسان الانبياء عليهم السلام، وقال تعالى: {وعصى آدم ربّه فغوى}. (طه ـ 2). ومع ذلك لا بد من التطهير والتنبيه بهذه المثابة له ولذرّيته التي كانت مستكنة في صلبه ومشتركة في خطيئته بل اشتركوا في الخطيئة بعد الخروج من صلبه أيضا فكما أن لخطيئة آدم وأبنائه مراتب ومظاهر فأول مرتبتها التوجه إلى الكثرات الاسمائية وآخر مظهرها الاكل من الشجرة المنهية التي صورتها الملكوتية شجرة فيها أنواع الثمار والفواكة وصورتها الملكية هي الطبيعة وشؤونها، وان حب الدنيا والنفس هما موجودان باستمرار في الذرية لمن شؤون هذا الميل إلى الشجرة والأكل منها كذلك لتطهيرهم وتنزيههم وطهارتهم وصلاتهم وصيامهم للخروج من خطيئة الاب الذي كان هو الاصل ايضا مراتب كثيرة مطابقة لمراتب الخطيئة.

وقد علم من هذا البيان ان جميع أنواع المعاصي القالبية لابن آدم هي من شؤون أكل الشجرة، وتطهيرها على نحو خاص: وان جميع أنواع المعاصي القلبية لهم ايضا من شؤون تلك الشجرة وتطهيرها بطور آخر. وان جميع أنواع المعاصي الروحية من تلك وتطهيرها بطور خاص وان تطهير الاعضاء الظاهرية هو ظلّ الطهارات القلبية والروحية للكمّل ووظيفة ووسيلة لتطهير القلب والروح لاهل السلوك. وما دام الانسان في حجاب تعيّن الاعضاء

وطهارتها وواقف في ذلك الحد فليس هو من أهل السلوك، وهو باق في الخطيئة، فاذا اشتغل بمراتب الطهارات الظاهرية والباطنية وجعل الطهارات الصورية القشرية وسيلة للطهارات المعنوية اللبية ولاحظ في جميع العبادات والمناسك حظوظها القلبية وتمتع منها بل اهتم بالجهات الباطنية أكثر من الظاهرية وعرف أنها هي المقصد الاعلى دخل في باب سلوك الانسانية كما أشار اليه في الحديث الشريف في مصباح الشريعة حيث يقول فيه: "وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء" فيلزم للانسان السالك العلمي كي يشخص ببركة أهل الذكر عليهم السلام مراتب العبادات ويرى العبادات الصورية مرتبة نازلة للعبادات القلبية والروحية ثم يشرع في السلوك العملي الذي هو حقيقة السلوك، وغاية هذا السلوك هي تخلية النفس عن غير الحق وتحليتها بالتجليات الاسمائية والصفاتية والذاتية، فاذا حصل للسالك هذا المقام فحينئذ ينتهي سلوكه وتحصل له الغاية في السير الكمالي فينال اسرار النسك والعبادات ولطائف السلوك وهي التجليات الجلالية التي هي اسرار الطهارات والتجليات الجمالية التي هي غايات العبادات الاخر، وتفصيلها خارج عن مجال هذه الاوراق.

الفصل السادس

في الغسل وآدابه القلبية

يقول أهل المعرفة ان الجنابة هي الخروج عن وطن العبودية والدخول في الغربة و اظهار الربوبية و دعوى المنيّة والدخول في حدود المولى و الاتصاف بوصف السيادة و الغسل للتطهير من هذه القذارات و الاعتراف بالتقصير. و قد ذكر بعض المشايخ في ضمن عشرة فصول، مئة و خمسين حالا لابد للعبد السالك التطهير منها في خلال الغسل يرجع أغلبها أو كلها إلى العزة و الجبروت و كبرياء النفس و حب النفس و رؤيتها.

يقول كاتب هذه الأوراق: الجنابة هي الفناء في الطبيعة و الغفلة عن الروحانية و الغاية القصوى لكمال السلطنة الحيوانية و البهيمية، و الدخول في أسفل السافلين و الغسل هو التطهير من هذه الخطيئة و الرجوع عن حكم النفس التي فنيت في الطبيعة و ابتليت بغرور الشيطان.

فالآداب القلبية للغسل هي ألاّ يتوقف السالك في حين غسله بتطهير الظاهر و غسل البدن الذي هو القشر الأدنى و الحظ الدنيوي، و تكون جنابة باطن القلب و سرّ الروح موردا لعنايته، و يكون غسله اهم في نظره فيتجنب عن غلبة النفس البهيمية و الشأن الحيواني على النفس الرحمانية و الشؤون الرحمانية و يتوب عن رجز الشيطان و غروره و يطهر باطن الروح الذي هو نفخة إلهية و قد نفخ فيه بالنفس الرحماني عن الحظوظ الشيطانية و هي التوجّه إلى الغير الذي هو أصل الشجرة المنهية حتى يليق بهذا التطهير للدخول على جنة أبيه آدم عليه السلام.

و ليعلم أن الأكل من هذه الشجرة شجرة الطبيعة و الاقبال على الدنيا و التوجه إلى الكثرة هو أصل أصول الجنابة، و ما دام لم يطهر من هذه الجنابة بانغماسه في ماء الرحمة للحق تعالى أو تطهيره التام بذاك الماء الذي يجري عن ساق العرش الرحماني و الخالص عن التصرف الشيطاني لا يليق للصلاة التي هي حقيقة معراج القرب فإنه لا صلاة إلا بطهور، و قد أشار إلى ما ذكر في الحديث الشريف في الوسائل عن الشيخ الصدوق رضوان الله عليه قال:

و بإسناده قال: "جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فسأله أعلمهم عن مسائل، و كان فيما سأله أن قال: لأي شيء أمر الله تعالى بالاغتسال من الجنابة و لم يأمر بالغسل من الغائط و البول؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله أن آدم لما أكل من الشجرة دبّ ذلك في عروقه و شعره و بشره فإذا جامع الرجل أهله خرج الماء من كل عرق و شعرة في جسده، فأوجب الله عز وجل على ذريّته الاغتسال من الجنابة إلى يوم القيامة". الخبر.

و في رواية أخرى عن الرضا عليه السلام: "إنما أمروا بالغسل من الجنابة و لم يأمروا بالغسل من الخلاء و هو أنجس من الجنابة و أقذر من أجل أن الجنابة من نفس الإنسان و هو شيء يخرج من جميع جسده، و الخلاء ليس

هو من نفس الإنسان و إنما هو غذاء يدخل من باب و يخرج من باب".

وظاهر هذه الاحاديث وان كان عند أهل الظاهر هو أن النطفة لما كانت تخرج من جميع البدن فوجب غسل جميعه. وهذا مطابق لرأي جمع من الاطباء والحكماء الطبيعيين ولكن تعليله عليه السلام بأكل الشجرة كما في الحديث الأول ونسبة الجنابة إلى النفس كما في الحديث الثاني يفتح طريقا إلى المعارف لأهل المعرفة والإشارة لأن قضية الشجرة و أكل آدم منها من أسرار علوم القرآن وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، و كثير من المعارف مرموز فيها، ولذا جعلوا عليهم السلام في الاحاديث الشريفة قضية آدم، والاكل من الشجرة علّة لتشريع كثير من العبادات ومن جملتها باب الوضوء والصلاة والغسل وصوم شهر رمضان وكونه ثلاثين يوما وكثير من مناسك الحج، وفي نيّتي منذ سنين أن أفرد رسالة في هذا الباب ولكن الاشتغالات الاخر منعتني عن ذلك، وأسأل الله تعالى التوفيق والسعادة لذلك.

وبالجملة، فأنت يا ابن آدم وقد جعلت بذرا للّقاء وخلقت للمعرفة واصطفاك الله تعالى لنفسه وخمّرك بيدي جماله وجلاله وجعلك مسجودا للملائكة ومحسودا لابليس اذا أردت أن تخرج عن جنابة أبيك الذي هو أصلك وتليق للقاء حضرة المحبوب وتحصل استعدادا للوصول إلى مقام الانس وحضرة القدس فلا بد لك من أن تغسل باطن قلبك الذي هو محفل لجناب الجميل وجمال الجليل عن حب الدنيا وشؤونها الخبيثة التي هي رجز الشيطان فان جنة لقاء الحق تعالى محل الاطهار ولا يدخل الجنة الا الطيب.

* شست وشوئي كن وآنكه بخرابات خرام *. (مصراع من بيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي يقول: تنظف عن القذارات ثم بقصد الخرابات. الخرابات في الادب الفارسي محل اجتماع السكارى وفي الادب العرفاني يعبّر به عن مجتمع المجذوبين والمصعوقين من تجليات الجلال والجمال).

الفصل السابع

في نبذة من الآداب الباطنية لازالة النجاسة

والتطهير من الخبائث

فاعلم أن إزالة الحدث كما مرّ هي في الخروج من الإنّيّة والأنانيّة والفناء عن النفس بل هي الخروج من بيت النفس بالكلية، وما دام في العبد بقايا من نفسه فهو محدث للحدث الاكبر والعابد والمعبود فيه هو الشيطان والنفس. وان منازل سير أهل الطريقة والسلوك اذا كانت لاجل الوصول إلى المقامات وحصول المعارج والمدارج

فليست خاجة عن تصرف النفس والشيطان وانما السير والسلوك معللة، فالسلوك اذن في منازل النفس والسير في جوف البيت ومثل هذا السالك ليس بمسافر ولا سالك وليس مهاجرا إلى الله ورسوله، وما طهّر من الحدث الاكبر الذي هو عينيّة العبد فاذا تطهّر من هذاالحدث بالكلية يكون العابد والمعبود هو الحق تعالى ويحصل نتيجة قرب النافلة أي: كنت سمعه وبصره.. فمن هذه الجهة يلزم غسل جميع البدن في الطهارة من الحدث الاكبر لانه مادامت عينيّة العبد باقية بوجه من الوجوه لم يرتفع الحدث فان تحت كل شعرة جنابة فالتطهير من الحدث هو التطهير من الحدوث، ثم الفناء في بحر القدم وكما له الخروج من الكثرة الاسمائية التي هي باطن الشجرة ويخرج بهذا الخروج من الخطيئة السارية لادم أصل الذرية، فالحدث هو من القذارات المعنوية وتطهيره ايضا من الامور الغيبية الباطنية وهو نور لكن الوضوء نور محدود والغسل نور مطلق، وأيّ وضوء أنقي من الغسل (قال فقيه الامة الشهيد الثاني (قدّس سرّه): "وأما إزالة النجاسة فالكلام فيها نحو الكلام في الطهارة في التزكية بتطهير القلب من نجاسة الاخلاق ومساوئها فانك اذا أمرت بتطهير ظاهر الجلد وهو القشر وبتطهير الثياب وهو أبعد عن ذاتك فلا تغفل عن تطهير لبّك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له بالتوبة والندم على ما فرط وتصميم العزم على ترك العود في المستقبل، وطهّر بها باطنك فانها موقع نظر المعبود).وأما هذه المكانة فليست لازالة الخبث والنجاسات الظاهرية لانها تنظف صوري وتطهير ظاهري والاداب القلبية لها هي أن يعلم السالك الذي يريد الحضور في محضر الحق انه لا يمكن التطرق إلى محضر الحق مع رجس الشيطان ورجس هذا الخبيث. وما لم يحصل الخروج من أمهات المذام الأخلاقية التي هي مبدأ لفساد المدينة الفاضلة الانسانية ومنشأ للخطيئات الظاهرية والباطنية لم يجد السالك طريقا إلى المقصد ولا سبيلا إلى المقصود.

ان الشيطان الذي كان مجاورا للعالم القدس ويعد في سلك الكروبيين فانه آخر الامر بواسطة الملكات الخبيثة أبعد عن جناب مقام المقربين وأرجم بنداء فأخرج منها فإنك رجيم (ص 77 والحجر 34). فاذاً نحن المتأخرين عن قافلة عالم الغيب والساقطين في بئر الطبيعة العميق والمردودين إلى أسفل السافلين كيف نقدر مع وجداننا الملكات الخبيثة الشيطانية أن نليق لمحضر القدس ونكون مجاورين للروحانيين ورفقاء للمقربين.

ان الشيطان رأى نفسه ورأى ناريته وقال انا خير منه، وهذا الاعجاب بالنفس صار سببا لعبادة نفسه وتكبره وتحقير آدم وإهانته وقال خلقته من طين، وقاس قياسا باطلا ولم ير حسن آدم وكمال روحانيته بل رأى ظاهره ومقام طينته وترابيته ورأى من نفسه مقام ناريته وغفل عن الشرك وحب النفس ورؤيتها، فصار حب النفس حجابا لرؤية نقصه وشهود عيوبه وصارت هذا الرؤية للنفس والحب لها سببا للتعبد لنفسه والتكبر والتظاهر والرياء والاستقلال في الرأي والعصيان وأبعد عن معراج القدس إلى تيه الطبيعة المظلمة. فاللازم للسالك إلى الله أن يطهّر نفسه من أمهات الرذائل والارجاس الباطنية الشيطانية عند تطهيره الارجاس الصورية وان يغسل المدينة الفاضلة بماء رحمة الحق وارتياض شرعي ويصفّي قلبه الذي هو محلّ لتجلّي الحق ويخلع نعلي حبّ الجاه والشرف كي يليق للدخول في الوادي المقدس الايمن ويكون قابلا لتجلي الرب، وما دام لم يحصل التطهير من الارجاس الخبيثة لا يمكن له التطهير من الاحداث لأن تطهير الظاهر مقدمة لتطهير الباطن، وما لم تحصل التقوى التامة الملكية الدنيوية على وفق دستور الشريعة المطهّرة لم تحصل التقوى القلبية، وما لم تحصل التقوى القلبية من الامور التي ذكرناها لم تحصل التقوى الروحية السرية الحقيقية. وجميع مراتب التقوى مقدمة لهذه المرتبة وهر ترك غير الحق، ومادام في السالك بقية باقية من الانانية فلن يتجلّى الحق عن سرّه.

نعم ربما يكون بمقتضى سبق الرحمة وغلبة جهة يلي اللّهى يدرك السالك الامداد الغيبي ويحرق بالجذوة الالهية ما بقي من الانانية ان كانت، ولعل في كيفية تجلي الحق للجبل واندكاكه وصعق موسى اشارة لما ذكر، وهذا الفرق ايضا موجود بين السالك المجذوب والمجذوب السالك.

وقد يتفطّن أهل الحقيقة مما ذكر إلى نكتة قابلة لان تعلم ومطلب مهم والجهل به منشأ لكثير من الضلالات والغوايات والتأخر عن سلوك طريق الحق ولا ينبغي لطالب حق الجهل به ولا يجوز له الغفلة عنه، وهو أن السالك وطالب الحق لابد أن يبرئ نفسه من الافراط والتفريط اللذين يكونان في بعض جهلة أهل التصوّف وبعض غفلة أهل الظاهر حتى يمكن السير إلى الله لان بعضهم يعتقد أن العلم والعمل الظاهري القالبي حشو وهما للجهّال والعوام، وأما الذين هم أهل السر والحقيقة وأصحاب القلوب وأرباب السابقة الحسنى فلا يحتاجون إلى هذه الاعمال، وان الاعمال القالبية لاجل حصول الحقتئق القلبية والوصول إلى المقصد فاذا وصل السالك إلى المقصد فالاشتغال بالمقدمات تبعيد له والاشتغال بالكثرات حجاب له. والطائفة الثانية قامت في قبال هذه الطائفة فوقعوا في جانب التفريط وأنكروا جميع المقامات المعنوية والاسرار الالهية وسوى محض الظاهر والصورة والقشر أنكروا سائر الامور ونسبوها إلى التخيلات والاوهام ولا زال التنازع والمجادلة والمخاصمة بين الطائفتين، كل يرى الاخر على خلاف الشريعة والحق أن كلتا الطائفتين قد تجاوز عن الحد ووقعوا في الافراط والتفريط، ونحن أشرنا في رسالة سرّ الصلاة إلى هذا الموضوع، وفي هذا المقام أيضا نُرى حدّ الاعتدال الذي هو الصراط المستقيم في (الكافي عن علي بن الحسين عليهما السلام ((* . هو الامام الرابع زين العابدين وسيد الساجدين ومصباح المتهجدين وقدوة المتّقين أبو محمد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ولد عليه السلام بالمدينة المنوّرة يوم النصف من جمادى الاولى سنة 36 ستّ وثلاثين يوم فتح البصرة ونزول النصر على أمير المؤمنين عليه السلام وغلبته على أصحاب الجمل. وقيل في الخامس من شعبان سنة 38 وأمّه ذات العلى والمجد شاه زنان بنت يزدجرد. وهو ابن شهريار بن كسرى ذو سؤدد ليس يخاف كسرى، وقيل كان اسمها شهربانويه وفيه يقول ابو الاسود:

وان غلاما بين كسرى وهاشم لاكرم من نيطت عليه التمائم

قال الزهري ما رأيت هاشميا أفضل من علي بن الحسين عليه السلام وعن ابي جعفر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة وكانت الريح تميله بمنزله السنبلة، وكان اذا توضأ للصلاة يصفرّ لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول تدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟!

وعن أبن عايشة قال: سمعت أهل المدينة يقولون: فقدنا صدقة السرّ حين مات علي بن الحسين عليه السلام وكان عليه السلام اذا حضرت اقشعرّ جلده واصفر لونه وارتعد كالسعفة وكان اذا قام في صلاته غشى لونه لون آخر، وكان قيامه في صلوته قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل، كانت أعضاؤه ترتعد من خشية الله وكان في الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه الا ما حركت الريح منه واذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفضّ عرقا. واذا كان شهر رمضان لم يتكلم الا بالدعاء والتسبيح والاستغفار والتكبير وكان له خُريطة فيها تربة الحسين (ع) وكان لا يسجد الاّ على التراب وكان اذا قرأ "مالك يوم الدين" يكرّرها حتى يكاد أن يموت. وفضائله ومكارم أخلاقه أكثر من أن تعدّ ومعجزاته أكثر من أن تحصى وله الصحيفة السجادية زبور آل محمد. توفي عليه السلام يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت او مضت من المحرّم سنة 95 خمس وتسعين من الهجرة وله يومئذ سبع وخمسون سنة

سمّة هشام بن عبد الملك وكان في ملك الوليد بن عبد الملك. وسمّيت سنة وفاته سنة الفقهاء لكثرة من مات فيها من العلماء والفقهاء. قال السبط في التذكرة وكان عليه السلام سيّد الفقهاء مات في أولها وتتابع الناس بعده سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وعامة فقهاء المدينة وقبره بالبقيع في القبة التي فيها العباس وعمّه الحسن بن على عليه السلام وعن أبي الحسن عليه السلام قال: ان علياً بن الحسين لمّا حضرته الوفاة أغمي عليه ثم فتح عينيه وقرأ "إذا وقعت الواقعة" و"إنا فتحنا لك"، وقال: {الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين} (الزمر 74) ثم قبض من ساعته ولم يقل شيئا)).: "ان الله تعالى أوحى إلى دانيال عليه السلام: إنّ أمقت عبيدي إليّ الجاهل بحق أهل العلم التارك للاقتداء بهم، وإنّ أحب عبيدي إليّ التقيّ الطالب للثواب الجزيل اللازم للعلماء التابع للحكماء القابل عن الحكماء" وأهل العلم هم الأئمة المعصومون. وقال الحكيم والفيلسوف الاسلامي أبو نصر الفارابي ((* . الفارابي ابو نصر محمد بن طرخان الفارابي التركي الحكيم المشهور صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى قالوا انه كان من أكبر فلاسفة المسلمين ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه ويحكى أنه كان منفردا بنفسه لا يجالس الناس وكان مدّة مقامه بدمشق لا يكون غالبا الا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ويؤلف هناك كتبه ويتناوبه المشتغلون عليه. وكان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال اربعة دراهم وهو الذي الذي اقتصر عليها لقناعة ولم يزل على ذلك إلى أن توفي بدمشق سنة 339 (شلط) وقد ناهز ثمانين سنة وصلى عليه سيف الدولة في أربعة من خواصه ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير.

"ينبغي لمن أراد أن يشرع في الحكمة أن يكون صحيح المزاج متأدّبا بآداب الاخيار قد تعلّم القرآن واللغة وعلوم الشرع أولا، ويكون عفيفا صدوقا معرضا عن الفسق والفجور والغدر والخيانة والمكر والحيلة فارغ البال عن مصالح المعاش مقبلا على أداء الوظائف الشرعية غير مخلّ بركن من أركان الشريعة ولا بأدب من آدابها معظّما للعلم والعلماء ولا يكون عنده لشيء قدر الا الحكمة وأهلها ولا يتخذ العلم حرفة واذا كان بخلاف ذلك فهو عنده لشيء قدر الا الحكمة وأهلها ولا يتخذ العلم حرفة واذا كان بخلاف ذلك فهو عالم زور وحكيم كذب بل لا يعدّ منهم"). فليعلم ان المناسك الصورية والعبادات القالبية ليس لحصول الملكات الكاملة الروحانية والحقائق القلبية فقط بل هي احدى ثمراتها لكن عند أهل المعرفة وأصحاب القلوب جميع العبادات هي اسراء المعارف الالهية من الباطن إلى الظاهر ومن السرّ إلى العلن، وكما أن نعمة الرحمة الرحمانية بل الرحيمية منبسطة إلى جميع النشآت القلبية والقالبية للانسان ولكل من المراتب حظ من النعم الجامعة الالهية ولكل منها حظ ونصيب من ثناء الحق وشكر النعمة الرحمانية والرحيمية للواجب المطلق وما دام للنفس حظ من النشأة الصورية الدنيوية ولها من حياة الملك نصيب، ولا ينطوي بساط الكثرة بالكلية ولا ترتفع حظوظ الطبيعة. والسالك إلى الله كما أنه لا بد ألاّ يكون قلبه مشغولا بغير الحق كذلك لابد الا يكون صدره وخياله وملك الطبيعة مصروفه في غير الحق حتى يكون للتوحيد والتقديس في جميع النشآت قدم راسخ، واذا كان للجذبة الروحية في ملك الطبيعة نتيجة غير التعبد والتواضع للحق ففي النفس بقية من الانانية. وسير السالك انما هو في جوف بيت النفس وليس سيرة إلى الله وغاية سير أهل الله هي أن تكون الطبيعة وملك البدن منصبغة الله.

ولعل من المراتب والبواطن للحديث الشريف الذي يحكي عن لسان الحق تعالى شأنه أن الله قال: {وأنا الرحمان خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته" فلعلها هي قطع الطبيعة التي هي أم الارواح عن موطنها الاصلي ووصلها هو ارتياضها وارجاعها إلى موطن العبودية.

وفي الحديث عن أبي عبدالله عليه السلام قال: "استوصوا بعمّتكم النخلة خيرا فانها خلقت من طينة آدم". وهذا الحديث يشير إلى الرحم الذي ذكرناه.

وبالجملة اخراج مملكة الظاهر عن موطن العبودية وارسالها على رسلها من غاية الجهل لمقامات أهل المعرفة ومن تسويلات الشيطان الرجيم فانه يمنع كل طائفة عن الحق تعالى بطريق خاص، كما أن إنكار المقامات وسدّ طرق المعارف التي هي قرّة عين أولياء الله عليهم السلام وتحديد الشرائع الالهية بالظاهر الذي هو حظ الدنيا وملك النفس ومقام حيوانيتها والغفلة عن الاسرار والاداب الباطنية للعبادات التي توجب تطهير السرّ وتعمير القلب وارتقاء الباطن من غاية الجهالة والغفلة وكل من هاتين الطائفتين بعيد عن طريق السعادة والصراط المستقيم للانسانية ومهجور عن مقامات أهل المعارف. والعارف بالله والعالم بالمقامات لابد له أن يراعي جميع الحقوق الباطنية والظاهرية ويوصل إلى كل صاحب حق حقه ويطهّر نفسه من الغلوّ والتقصير والافراط والتفريط ويزيل عن نفسه قذارة انكار صورة

1. الشريعة الذي هو في الحقيقة تحديد ويزيل عن نفسه خباثة انكار باطن الشريعة الذي هو تقييد وكلاهما من الوساوس الشيطانية ومن أخباث ذلك اللعين حتى يتيسّر له طريق السير إلى الله والوصول إلى المقامات المعنوية. فإزالة أخباث الاوهام الفاسدة المانعة من القرب إلى الله ومن معراج المؤمنين احدى مراتب ازالة الخبث، وان من احدى معاني جامعية النبوّة الخاتمية ومقاماتها بل من دلائل الخاتمية أنه في جميع المقامات النفسية قد استوفى جميع حقوقها وحظوظها من جميع شؤون الشريعة، وكما أنه في معرفة شؤون الربوبية جلّت عظمته عُرّف الحق سبحانه في العلّو الاعلى والدنو الادنى لمقام الجامعية وقال: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن} (الحديد 3). و{الله نور السموات والأرض} (النور 35) إلى آخره، ولو دليتم بحبل من الأرضين السفلى لهبطتم على الله {فأينما تولّوا فثمّ وجه الله} (البقرة 115). إلى غير ذلك مما يحصل به للعارف بالمعارف الالهية والمجذوب بالجذبات الرحمانية طرب ملكوتي ووجد لاهوتي.

كذلك فقد أسرى التوحيد العملي القلبي إلى آخر مراتب أفق الطبيعة وملك البدن ولم يحرم موجودا من حظ معرفة الله. وبالجملة أهل التصوف يترنّمون بالحكمة العيسوية من حيث لا يشعرون، وأهل الظاهر يتكلمون بالحكمة الموسوية، والمحمديون يتبرّؤون من هذين بطريق التقييد، وتفصيل هذا الاجمال خارج عن مجال هذا المقام ولا ينبغي ذكره في هذه الاوراق.

وصل: عن مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام:

"سمي المستراح مستراحا لاستراحة النفوس من أثقال النجاسات واستفراغ الكثافات والقذر فيها، والمؤمن يعتبر عندها أن الخالص من حطام الدنيا كذلك يصير عاقبته فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويفرّغ نفسه وقلبه عن شغلها ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر ويتفكر في نفسه المكرمة في حال، كيف تصير ذليلة في حال، ويعلم أن التمسّك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين وان الراحة في هوان الدنيا والفراغ من التمتع بها وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته اياها، ويفرّ من

الذنوب ويفتح باب التواضع والندم والحياء ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه طلبا لحسن المآب وطيب الزلفى ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات إلى أن يتصل بأمان الله في دار القرار ويذوق طعم رضاه، فان المعوّل ذلك وما عداه لا شيء". (انتهى كلامه الشريف).

وفي هذا الكلام الشريف حكم (دستور) جامع لاهل المعرفة والسلوك وهو أن الانسان اليقظان السالك إلى دار الآخرة لابد أن يستوفي في كل حال من الحالات حظوظة الروحانية ولا يغفل في حال عن ذكر مرجعه ومآله، ولهذا قالت الحكماء: النبي خادم القضاء كما أن الطبيب خادم البدن. فان الانبياء العظام والاولياء الكرام عليهم السلام حيث أنهم لا يرون الا القضاء الالهي ولا ينظرون سوى الجهة يلي اللهي. والحاكم في قلوبهم هو ملكوت القضاء الالهي فيرون جريان الامور بأيدي ملائكة الله التي هي جنود الله ويجدونها كذلك والطبيب والطبيعي حيث أنه بعيد عن هذه المرحلة ومهجور عن هذا الوادي فينسب جريان الامور الطبيعية إلى القوى الطبيعية. الانسان الالهي يرى في كل شيء الحظ الالهي. و العين المشاهدة للحق والبصيرة العارفة بالله تشاهد في كل موجود نور الحق، كما روي عن أمير المؤمنين والامام جعفر الصادق سلام الله عليهما: "ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه".

موسئي نيست كه دعوى انا الحق شنود

ورنه اين زمزمه درهر شجرى نيست كه نيست (البيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي يقول: ليس ثمة شجرة خالية من نداء "أنا الحق" ولكن ليس هناك كموسى حتى يسمع هذا النداء).

وبالجملة الانسان السالك في جميع أحواله ومن جميع أموره لابد ان يستفيد حظوظ سلوكه، فاذا رأى ان الحطام الدنيوي ولذائذ عالم الملك كلها زائلة ومتغيرة وعاقبة أمرها إلى الفساد والأفول فيعرض قلبه عنها بسهولة ويفرغ قلبه عن الاشتغال بها وجمعها ويستنكف عنها كما يستنكف عن القذارات. ان باطن عالم الطبيعة هو القذارة وتعتبر الكثافة والقذارة في الرؤيا التي هي باب من المكاشفة تعبيرا عن الدنيا والمال، وفي المكاشفة العلوية: "الدنيا جيفة وميتة" (قال علي عليه السلام: "اقبلوا على جيفة افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبّها" وقال أيضا: يتنافسون في دنيا دنيّة ويتكالبون على جيفة مريحة"). فالمؤمن كما يفرغ نفسه عن الاثقال والفضولات الطبيعية ويريح المدينة الطبيعية من أذاها كذلك يريح قلبه من التعلق والاشتغال بها ويرفع عن القلب ثقل حب الدنيا والجاه ويريح ويفرغ المدينة الفاضلة الروحانية منها، ويتفكر في الاشتغال في الدنيا كيف أذلّ النفس الشريفة بعد ساعات وأحوجها إلى أقبح الحالات وأفضحها، كذلك الاشتغال القلبي بالعالم بعدما يرتفع حجاب الملك والطبيعة وما هو ببعيد يذلّ الانسان ويبتليه بالحساب والعقاب، ويعلم أن التمسّك بالتقوى والقناعة موجب راحة الدارين، وأن الراحة في هوان الدنيا، فلذلك لا يلتذّ ولا يتمتع منها وكما أنه طهّر نفسه من النجاسات الصورية كذلك سيطهّر نفسه من نجاسات المحرّمات والمشتبهات، واذا عرف نفسه ووجد ذلّة احتياجها فيغلق باب الكبر والتعظيم عن نفسه ويفر من العصيان والذنوب ويفتح على نفسه باب التواضع والندامة ويجدّ ويجتهد في اطاعة أوامر الحق ويجتنب عن عصيانه حتى يكون له حسن المآب إلى الحق ويتقرب إلى مقام القدس بطهارة النفس وصفائها وليسجن هو بنفسه نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات النفسانية كي يأمن من سجن العذاب الالهي ويلحق إلى الحق في دار القرار و إلى كنف ذاته المقدسة فيذوق في تلك الحال طعم رضا الحق تعالى وهذا غاية آمال أهل السلوك وليس لغيره أي قيمة.

الباب الثاني
في نبذة من آداب اللباس

وفيه مقامان

المقام الأول

في آداب مطلق اللباس

اعلم ان النفس الناطقة الانسانية حقيقة، هي: ـ في عين الوحدة وكمال البساطة ـ ذات نشآت عمدتها كلّيّة ثلاث:

الأولى: النشأة الملكية الدنيوية الظاهرة ومظهرها الحواس الظاهرة والقشر الادنى لها هو الحواس الملكيّة.

الثانية: النشأة البرزخية المتوسطة ومظهرها الحواس الباطنية والبدن البرزخي والقالب المثالي.

الثالثة: النشأة الغيبية الباطنية ومظهرها القلب والشؤون القلبية.

ونسبة كل من هذه المراتب إلى الاخرى نسبة الظاهرية والباطنية، ونسبة التجلي والمتجلي، ومن هذه الجهة تسري الاثار والخواص والانفعالات من مرتبة إلى أخرى، فمثلا اذا أدركت حاسّة البصر شيئا يقع منه أثر في الحسّ البصري البرزخي مناسب لتلك النشأة ويقع منه أثر في البصر الباطني القلبي يناسب تلك النشأة، وهكذا الاثار القلبية تظهر في النشأتين الاخيرتين. وهذا المطلب مضافاً إلى أنه مطابق للبرهان القوي المتين مطابق للوجدان ايضاً، فمن هذه الجهة يكون لجميع الآداب الصورية الشرعية في الباطن أثر بل آثار، ولكل من الاخلاق الجملية التي هي من حظوظ مقام برزخية النفس أيضا آثار في الظاهر والباطن ولكل من العارف الالهية والعقائد الحقّة في النشأتين البرزخية والظاهرة آثار.

فمثلا الايمان بأن المتصرف في مملكة الوجود وعوالم الغيب والشهود هو الحق تعالى وليس لسائر الموجودات فيها تصرّف الا التصرّف الادنى الظلّي يوجب كثيرا من الكمالات النفسانية والاخلاق الفاضلة الانسانية مثل التوكل والاعتماد على الحق وقطع الطمع من المخلوق التي هي أمّ الكمالات، ويوجب كثيرا من الاعمال الصالحة والافعال الحسنة وترك كثير من القبائح، وهكذا سائر المعارف التي تعدادها وتعداد تأثيراتها خارج عن مجال هذه الاوراق، والقلم القاصر للكاتب، ويحتاج إلى تحرير كتاب ضخم لمؤلف صاحب قلم قويّ من أهل المعرفة، أو من نفس حار لاحد أهل الحال (دست ماكوتاه وخرما بر نخيل) (مصراع معروف يعد كمثل دارج مضمونة: ان ايدينا قصيرة والتمر على النخل فلا تصل اليه ايدينا).وهكذا مثلا خلق الرضا فانه من الاخلاق الكمالية الانسانية وله تأثيرات كثيرة في تصفية النفس وتجلياتها، ويجعل القلب موردا للتجليات الخاصة الالهية ويوصل الايمان إلى كماله، وكمال الايمان إلى الطمأنينة، والطمأنينة إلى كمالها وكمالها إلى المشاهدة، والمشاهدة إلى كمالها، وكمالها إلى المعاشقة، والمعاشقة إلى كمالها و كمالها إلى المراودة، والمراودة إلى كمالها وكمالها إلى المواصلة، والمواصلة إلى كمالها ويرتقي إلى ما لا يسعه وهمي ووهمك.

وفي ملك البدن والاثار والافعال الصورية التي هي أغصان وأوراق تلك الشجرة تأثيرات غريبة فيصير السمع والبصر وسائر القوى والاعضاء الهية ويظهر سرّ كنت سمعه وبصره شيئا ما كما أن لتلك المراتب في الظاهر تأثيرا بل تأثيرات وللهيئة الظاهرة وجميع الحركات والسكنات عادية وغير عادية ولجميع التروك والافعال ايضا فيها تأثيرات عجيبة بحيث ربما يتفق أن السالك يسقط من الاوج الاعلى إلى اسفل السافلين بنظرة واحدة تحقيرية إلى عبد من عباد الله ولا يستطيع جبران هذا السقوط في السنين المتوالية، وحيث أن قلوبنا نحن المساكين ضعيفة خفيفة وضئيلة ومثل شجرة الصفصاف (لهذه الشجرة صنف خاص يقال له بالفارسية (بيد مجنون) أي الصفصاف المجنون لها أغصان ضئيلة جدا متدلية إلى الارض وهي كما مثل بها الاستاذ تتحرك بأدنى نسيم).

تضطرب بالنسيم الرقيق وتفقد حالة السكون، فاللازم لنا أن نلاحظ الحالات القلبية حتى في الامور العادية وأحدها، اتخاذ اللباس ونتحفظ على القلب، وحيث أن للنفوس والشيطان حبائل مستحكمة وتسويلات دقيقة جدا والاحاطة بها خارجة عن طاقاتنا فلا بد لنا أن نقوم في مقابلها بقدر قوّتنا ونطاق وسعنا ونطلب التوفيق والتأييد من الحق تعالى.

فنقول بعدما اتضح ان للباطن في الظاهر وللظاهر في الباطن تأثيرا لابد للانسان الطالب للحق والارتقاء الروحاني أن يحترز في انتخاب مادة اللباس وهيئته مما يكون له تأثير السوء في الروح ويخرج القلب عن الاستقامة ويغفله عن الحق ويجعل وجهة الروح دنيوية، ولا يتوهّم ان تسويل الشيطان وتدليس النفس الامّارة انما هو في اللباس الفاخر الجميل فقط وفي التجمّل والتزين فحسب بل اللباس الخلق الذي لا قيمة له ربما يسقط الانسان عن درجة الاعتبار، ومن هذه الجهة لابد للانسان ان يحترز من لباس الشهرة بل من مطلق المشي على خلاف المعمول والمتعارف، كما أنه لابدّ أن يحترز عن الالبسة الفاخرة التي تكون مادتها وجنسها فيمة وتكون هيئتها وخياطها جالبة للانظار ومشارا اليها بالبنان لان قلوبنا ضعيفة وغير ثابتة، فبمجرد الامتياز والتعين يزلّ وينحرف عن الاعتدال فالانسان المسكين الضعيف العاري من جميع مراحل الشرف والانسانية وعزة النفس وكمال الادمية والبرىء منها ربما يتفق أنه بواسطة أذرع من الثوب الابريسم أو من الصوف وقد قلّد في خياطته الاجانب مع أنه تمكن منه بقيمة هي بيعه شرفه وارتكابه العارات، ينظر إلى عباد الله بنظر الحقارة والكبر ولا يعيّن لموجود قيمة، وهذا ليس الا من كمال ضعف نفسه وقلّة ظرفيّته حيث يتوهّم ان فضلات القزّ ولباس الغنم موجبة لاعتباره وشرفه.

2. ايها الانسان المسكين، ما هذا الضعف؟ وما هذه المسكنة فيك؟ فشأنك ان تكون فخرا لعالم الامكان وخلاصة للكون والمكان، أنت ابن آدم وشأنك أن تكون معلّما للاسماء والصفات، انت ابن خليفة الله وشأنك أن تكون من الآيات الباهرات (تورا زكنكره عرش ميزنند صفير) (مصراع بيت للحافظ الشيرازي يقول: أنت الطائر الذي تركت مكانك فمن أعالي العرش يصفرون لك كي ترجع إلى وكرك). أيها الشقيّ والخلف غير الصالح غصبت مقدارا قليلا من فضلات الحيوانات وملبوساتها وتفتخر بها. لو كان هذا فخرا فهو للقزّ والغنم والابل والسنجاب والارنب. لماذا تفتخر بلباس غيرك وتدلّل بما هو فخر لهم وتتكبّر به؟ وبالجملة كما أن لمادة اللباس وجنسه وكونه قيّما ومزيّنا تأثيرا في النفوس، ومن هذه الجهة قال أمير المؤمنين عليه السلام كما رواه القطب الرواندي (هو أبو الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن العالم المتبحّر الفقيه المحدّث صاحب الخرائج والجرائح وقصص الانبياء ولب اللباب وشرح النهج وغيره وهو أحد مشايخ ابن شهر آشوب يروي عن جماعة كثيرة من المشايخ. توفي القطب 4

شوال سنة 573 (تعج) كما في البحار نقلا عن خطّ الشهيد وقبره ببلد قُم في جوار الحضرة الفاطمية عليها السلام، مزار معروف).عليه الرحمة: "من لبس ثوبا عاليا فلا بد من التكبر ولابد للمتكبّر من النار".

كذلك في هيئته وكيفيّة قصّه وخياطته آثار ربما يحصل للانسان بواسطة أنه شبّه لباسه بالاجانب عصبية جاهلية للاجانب ويتضجّر ويتنفّر من الله ورسوله ويكون أعداء الله وأعداء رسوله محبوبين عنده ولذا ورد في الرواية عن الصادق عليه السلام: "ان الله تبارك وتعالى أوحى إلى بعض أوليائه: قل للمؤمنين لا تلبسوا ملابس أعدائي ولا تأكلوا كأعدائي ولا تمشوا كأعدائي فتكونوا أعدائي كا هم أعدائي".

فكما أن للالبسة الفاخرة جدا في النفوس تأثيرا، كذلك للالبسة الدنية جدا من حيث المادة والجنس ومن حيث الهيئة والشكل في النفوس تأثير، وربما يكون فساد هذا اللباس أشد بمراتب من تلك الالبسة الفاخرة لان للنفس مكائد دقيقة جدا فبمجرد أن يرى السالك نفسه من النوع الممتاز بأنه لبس اللباس الخشن والكرباس ولبس سائر الناس الالبسة اللينة اللطيفة، فبواسطة حب النفس يغفل هو عن عيوبه ويحسب هذا الامر العرضي وغير المربوط به سببا لافتخاره، وربما يعجب بنفسه ويتكبّر على عباد الله ويحسب سائر الناس مبعدين عن ساحة القدس للحق ويرى نفسه من المقربين ومن خلّص عباد الله وربما يبتلى بالرياء وسائر المفاسد العظيمة، فالمسكين اقتنع من جميع مراتب المعرفة والتقوى والكمالات النفسانية باللباس الخشن ولبس الخلق وغفل عن الآلاف من عيوبه التي من أعظمها هذا العيب الذي حدث فيه من سوء تأثير هذا اللباس، وحسب نفسه من أهل الله مع أنه من أولياء الشيطان وحسب عباد الله لا شيء وبلا قيمة.

وكذلك ايضا ربما يكون أن هيئة اللباس وكيفيته يبلي الانسان بمفاسد مثل أن يرتّب اللباس على نحو يشتهر بالزهد والقدس، وبالجملة لباس الشهرة سواء في جانب الافراط أو في جانب التفريط من الامور التي تزلزل القلوب الضعيفة وتخلعها من مكارم الاخلاق وتوجب العجب والرياء والكبر (وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لابي ذرّ: "يا أبا ذرّ البس الخشن من اللباس والصفيق من الثياب لئلا يجد الفخر فيك مسلكه"). التي كل واحد منها من أمهات الرذائل النفسانية والموجب للركون إلى الدنيا. وعلاقة القلب بها الذي هو رأس كل الخطيئات ومنبع جميع القبائح.

وفي الاحاديث أيضا أشير إلى كثير من الامور المذكورة كما في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام: "ان الله يبغض شهرة اللباس".

وعنه أيضا قال: "الشهرة خيرها وشرها في النار". وعنه عليه السلام: "ان الله يبغض الشهرتين، شهرة اللباس وشهرة الصلاة".

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما معناه: "من لبس ثياب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثياب الذلّ يوم القيامة".

المقام الثاني
في نبذة من آداب لباس المصلى

وفيه

فصلان

الفصل الأول

في سر طهارة اللباس

اعلم ان الصلاة هي مقام العروج إلى مقام القرب والحضور في محضر الانس، ويلزم للسالك مراعاة آداب الحضور في محضر القدس لملك الملوك، وحيث أن أدنى المراتب والمراحل لظهور النفس التي هي قشر القشور والبدن الصوري الملكي إلى أعلى المقامات والحقائق التي هي لبّ اللباب ومقام سرّ القلوب كما أنها حاضرة في المحضر المقدس للحق، فالسالك أيضا لابد أن يستحضر ويُرى جميع الجنود الباطنة والظاهرة لممالك السر والعلن إلى محضر الحق جلّ وعلا ويقدم إلى محضره المقدس جميع الامانات التي وهبها الله سبحانه بيدي قدرة الجمال والجلال له وكانت تلك الامانات في كمال الطهارة والصفاء ومن دون تصرف أحد من الموجودات ويرد الأمانات إليه كما أعطاه سبحانه إياها. ففي أدب الحضور خطرات كثيرة لا يجوز للسالك أن يغفل عنها لحظة واحدة ولا بد له أن يجعل طهارة اللباس الذي هو ساتر للقشر بل قشر القشر وسيلة لطهارة الالبسة الباطنية وليتفطّن أنه كما أن هذا اللباس الصوري ساتر فهو لباس للبدن الملكي، فالبدن ساتر للبدن البرزخي والبدن البرزخي موجود الان ولكنه في ستر البدن الدنيوي وحجابه وهذا البدن ساتر له والبدن البرزخي ساتر ولباس وحجاب للنفس وهي ساترة للقلب والقلب ساتر للروح والروح ساتر السر وهو ساتر اللطيفة الخفية إلى غير ذلك من المراتب وكل مرتبة نازلة ساترة للمرتبة العالية ومجموع هذه المراتب وان كان موجودا خلّص أهل الله وسائر الناس عنها محرومون، ولكن حيث أن بعض المراتب موجودة في الكل فلهذا نشير اليه فقط.

فليعلم أنه كما لا تتحقق صورة الصلاة بدون طهارة اللباس والبدن وأن القذارات التي هي رجس للشيطان ومستبعد محضر الرحمن هي من موانع ورود المحضر. وكما أنه يبعد المصلّي الملوّث لباسه وبدنه برجز الشيطان عن محضر القدس ولا يترك أن يدخل إلى مقام الانس، كذلك قذارات المعاصي وعصيان الحق التي هي من تصرفات الشيطان ومن رجس ذاك الخبيث وقاذوراته من موانع ورود المحضر، فالمتلبّس بالمعاصي قد نجّس ساتر البدن البرزخي ولا يتمكن مع هذه القذارة أن يرد إلى محضر الحق، وتطهير هذا اللباس من شرائط تحقق الصلاة الباطنية وصحتها وما دام الانسان في حجاب الدنيا لا يطّلع على ذلك البدن الغيبيّ وطهارة لباسه وقذارته وشرطية الطهارة ومانعية القذارة فيها، ولكن في اليوم الذي خرج عن هذا الحجاب ورائد السلطنة الباطنية، ويوم الجمع طويا بساط تفرقة الظاهر وطلعت شمس الحقيقة من وراء الحجب المظلمة الدنيوية وانفتحت البصيرة الباطنية الملكوتية وأغلقت البصيرة الحيوانية الملكية فهو يدرك بعين البصيرة أن صلاته كانت فاقدة للطهارة إلى نهاية الامر وكان مبتلى بآلاف من الموانع التي كان كل واحد منها سببا مستقلا للتبعيد عن محضر الحق المقدس، ومع آلاف الاسف أنه ليس في ذلك اليوم طريق للجبران ولا حيلة للانسان بل ما يبقى له حين ذاك فقط هو الحسرات والندامات، ندامات لا نهاية لها وحسرات لا انتهاء لها {وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الامر} (مريم 39).

فاذا حصلت الطهارة للباس الباطني فيلزم طهارة البدن الملكوتي ايضا من رجز الشيطان وهو عبارة عن التطهير من أرجاس الاخلاق الذميمة التي يلوّث كل منها الباطن ويبعّد الانسان عن المحضر ويهجّره من بساط قرب الحق، وهي أيضا من رجس الشيطان البعيد عن الرحمة، وإنما أصول جميع الذمائم ومبادئها هي العجب وحبّ النفس والتكبّر والتظاهر والتعصّب، وكل منها مبدأ كثير من الذمائم الاخلاقية ورأس كثير من الخطيئات، فاذا فرغ السالك

من هذه الطهارة وطهّر لباس التقوى بماء التوبة النصوح والرياضة الشرعية فيلزمه أن يشتغل بتطهير القلب الذي هو الساتر الحقيقي، وتصرّف الشيطان فيه أكثر وقذاراته سارية إلى سائر الالبسة والسواتر وما لم يطهّر ذاك لا تتيسرّ سائر الطهارات ولتطهيره مراتب يشار إلى بعضها الذي يناسب هذه الاوراق:

أحدها: التطهير من حبّ الدنيا الذي هو رأس كل الخطيئات ومنشأ جميع المفاسد، وما دامت هذه المحبة في قلب الانسان لا يتيسّر له الورود إلى محضر الحق ولا تتحقق المحبة الالهية التي هي أم الطهارات مع هذه القذارة ولعله ما اهتم بشيء في كتاب الله ووصايا الانبياء والاولياء عليهم السلام وخصوصا أمير المؤمنين عليه السلام مثلما اهتم بترك الدنيا والزهد فيها والاتقاء منها الذي هو من حقائق التقوى. ولا تحصل هذه المرتبة من التطهير الا بالعلم النافع والرياضيات القوية القلبية وصرف الهمّة في التفكر في المبدأ والمعاد وانشغال القلب بالاعتبار في أفول الدنيا وخرابها وكرامة العوالم الغيبية وسعادتها "رحم الله امرءاً علم من أين وفي أين و إلى أين؟" ومنها التطهير من الاعتماد على الخلق الذي هو شرك خفيّ بل هو عند أهل المعرفة شرك جليّ، ويحصل هذا التطهير بالتوحيد الفعلي للحقّ جلّ وعلا الذي هو منبع الطهارات القلبية ولا بد أن يعلم أن مجرد العلم البرهاني والقدم التفكّري في باب التوحيد الفعلي لا ينتج النتيجة المطلوبة بل ربما تكون كثرة الاشتغال بالعلوم البرهانية سببا لظلمة القلب وكدورته وتمنع الانسان من المقصد الاعلى، وفي هذا المقام قالوا العلم هو الحجاب الاكبر، وفي عقيدة الكاتب أن جميع العلوم هي عملية حتى علم التوحيد ولعله يستفاد كونه عمليا من كلمة التوحيد التي هي تفعيل لانه بحسب ما يناسب الاشتقاق التوحيد عبارة عن التوجه من الكثرة إلى الوحدة وجعل جهات الكثرة مستهلكة ومضمحلة في عين الجمع ولا يحصل هذا المعنى بالبرهان بل يلزم أن ينّبه القلب بالرياضيات القلبية والتوجّه الغريزي إلى مالك القلوب ما أفاده البرهان نقطع حتى يحصل حقيقة التوحيد نعم، ان البرهان يقول لنا لا مؤثر في الوجود إلاّ الله وهذا أحد معاني لا إله إلا الله وببركة هذا البرهان نقطع يد تصرف الموجودات عن ساحة كبرياء الوجود ونردّ ملكوت العوالم وملكها إلى صاحبها ونظهر حقيقة كبرياء الوجود ونردّ ملكوت العوالم وملكه إلى صاحبها ونظهر حقيقة له ما في السموات والارض وبيده ملكوت كل شيء وهو الذي في السماء اله وفي الأرض اله ولكن ما لم يصل هذا المطلب البرهاني إلى القلب ولم يعد صورة باطنية للقلب، لم نصل من حد العلم إلى حد الايمان ولم يكن لنا من نور الايمان الذي ينوّر مملكة الباطنية والظاهرية سهم ونصيب، فلهذه الجهة لنا نحن مع العلم بالبرهان لهذا المطلب الشامخ الالهي واقع في التكثير وليس عندنا خبر من التوحيد الذي هو قرّة عين أهل الله، ندق طبل لا مؤثر في الوجود الا الله ومع ذلك نمد عين الطمع ويد الطلب إلى كل مستأهل وغير مستأهل:

باي استدلاليان جوبيـن بود

باي جوبين سخت بي تمكين بود (بيت شعر للمولى الرومي يقول: "ان للاستدلاليّين رِجلاً من خشب ولا يمكن الاعتماد على الرجل الخشبية".)

وهذا التطهير من المقامات الجليلة للسالكين وبعد هذا المقام مقامات أخر خارجه عن حدودنا ولعله في خلال هذه الاوراق يجيء منها ذكر بما يناسب هذه الاوراق.

الفصل الثاني

في الاعتبارات القلبية لستر العورة (قال الشهيد قدّس سرّه: "واما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فإن ظاهر بدنك موقع نظر الخلق فما رأيك في عورات باطنك ومقابح سرّك التي لا يطلّع عليها الا ربك فاحضر تلك المقابح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله تعالى ساتر وانما يسترها ويكفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد باحضارها من مكانها في قلبك انبعاث جنود الخزف والحياء من مكانها فتذل به نفسك وتسكن تحت الخجلة وتقوم بين يدي الله قيام العبد المجرم المسيء الآبق ندم فرجع إلى مولاه بانكسار رأسه من الحياء والخوف".

اذا رأى السالك نفسه حاضرا في محضر الحق المقدس جلّ وعلا بل وجد باطنه وظاهره وسره وعلنه عين الحضور. كما روي عن الكافي والتوحيد أن الصادق عليه السلام قال: "ان روح المؤمن لأشدّ اتصالا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها" بل ثبت بالبرهان القوي المتين في العلوم العالية ان جميع دائرة الوجود من أعلى مراتب الغيب إلى أدنى مراتب الشهود هي عين التعلق والروابط ومحض التدلي والفقر إلى القيوم المطلق جلّت عظمته، ولعلة أشير إلى هذا المعنى في الآية المباركة: {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد} (فاطر 15) فاذا كان موجود من الموجودات في حال من الحالات وآن من الآناث وحيثيّة من الحيثيّات غير متعلّق بعزّ القدس الربوبي يخرج عن بقعة الامكان الذاتي والفقر ويدخل في حريم الوجوب الذاتي والغني، وعلى العارف بالله والسالك إلى الله أن يكتب هذا المطلب الحق البرهاني وهذه اللطيفة الالهية العرفانية في لوح القلب بواسطة الرياضات القلبية ويخرجها من حد العقل والبرهان إلى حد العرفان حتى تتجلى في قلبه حقيقة الايمان ونوره، فان أصحاب القلب وأهل الله لا يقفون في حد الايمان بل يقدمون منه إلى منزل الكشف والشهود وهو يحصل بالمجاهدة الشديدة والخلوة مع الله والعشق لله، كما في مصباح الشريعة أن الصادق عليه السلام قال: "العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله لو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقا اليه، والعارف أمين ودائع الله وكنز أسراره ومعدن نوره ودليل رحمته على خلقه ومطية علومه وميزان فضله وعدله، قد غني عن الخلق والمراد والدنيا ولا مؤنس له سوى الله ولا نطق ولا اشارة ولا نفس الا بالله لله من الله مع الله".

وبالجملة إذا رأى السالك نفسه بجميع شؤونه عين الحضور يستر جميع عوراته الظاهرية والباطنية لحفظ المحضر وذلك اذ وجد أن كشف العورات الباطنية في محضر الحق أقبح وأفضح من كشف العورات الظاهرية بمقتضى الحديث "ان الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم".. وهذه العورات الباطنية والذمائم الاخلاقية وخبائث العادات والاحوال الرديئة الخلقية هي التي تسقط الانسان عن لياقة المحضر وأدب الحضور وهذه هي المرتبة الأولى من هتك الستور وكشف العورات، وليعلم ان الانسان ان لم يستر نفسه بحجاب الستارية والغفارية من الحق جلّ وعلا ولم يقع تحت اسم الستّار والغفار مع طلبة الغفارية والستارية. فبعد انطواء ساتر الملك وارتفاع حجاب الدنيا فربما تهتك ستوره في محضر الملائكة المقربين والانبياء المرسلين عليهم السلام ولا يعلم قباحة كشف تلك العورات الباطنية وفضاحتها ونتن سوى الله.

أيها العزيز لا تقس أوضاع عالم الآخرة بهذا العالم فإن هذا العالم لا يتسع لظهور نعمة من نعم ذاك العالم أو نقمة من نقماته، هذا العالم مع ما فيه من سعة السموات والعوالم لا يتسع لظهور حجاب من الحجب الملكوتية السفلى التي من جملتها عالم القبر فكيف بالملكوت الاعلى الذي يكون عالم القيامة أنموذجا منه. ففي الحديث المفصّل والذي رواه الشيخ الشهيد الثاني رضوان الله عليه في منية المريد عن الصديقة الكبرى سلام الله عليها

قالت: "سمعت أبي صلى الله عليه وآله يقول: ان علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدّهم في ارشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف خلعة من نور.. إلى أن قالت عليها السلام: ان سلكا من تلك الخلع لأفضل مما طلعت عليه الشمس ألف ألف مرة". هذا بالنسبة إلى النعيم، وأما بالنسبة إلى العذاب فقد روى الفيض رحمه الله في العلم اليقين عن المرحوم الصدوق باسناده عن الصادق عليه السلام في ضمن حديث "ان جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعا وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها ولو أن قطرة من زقّومها وضريعها قطرت في مياه أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها" نعوذ بالله من غضب الرحمن.

فيلزم على السالك إلى الله أن يبدّل أوصافه وأخلاقه السيّئة إلى الاوصاف والاخلاق الكاملة ويفنى في بحر الاوصاف الكمالية للحق، هذا البحر المتلاطم غير المتناهي ويبدّل الارض المظلمة الشيطانية بأرض بيضاء مشرقة ويجد في نفسه {وأشرقت الارض بنور ربها} (الزمر 69) ويحقق في مملكة وجوده مقام اسماء الجمال والجلال للذات المقدسة فيقع في هذا المقام في ستر الجمال والجلال ويتخلّق بأخلاق الله ويستر مقابح التعينات النفسية والظلمات الوهمية فاذا تحقق هذا المقام يقع موردا للعنايات الخاصة للحق جلّ جلاله ويؤيده الحق بلطفه الخفيّ الخاص ويستره تحت حجاب كبريائه على نحو لا يعرفه غيره وهو أيضا لا يعرف غير الحق "ان أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري" وفي الكتاب المقدس الالهي اشارات كثيرة في هذا الموضوع لأهله كما في قوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور} (البقرة 257) ان أهل المعرفة وأصحاب السابقة الحسنى يعلمون أن جميع التعينات الخلقية والكثرات العينية ظلمات والنور المطلق لا يحصل الا بإسقاط الاضافات وكسر التعينات التي هي أصنام طريق السالك فاذا اضمحلت وانطمست ظلمات كثرات الفعلية والوصفية في عين الجمع تكون جميع العورات مستورة ويتحقق الحضور المطلق والوصول التام.

والمصلي في هذا المقام كما أنه مستور بالحق فهو مصلّ بصلاة الحق ولعل صلاة معراج خاتم الرسل صلى الله عليه وآله وسلم كانت بهذه الطريقة في بعض المقامات والمدارج، والله العالم.

وصل: عن مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام: "أزين اللباس للمؤمنين لباس التقوى وأنعمه الايمان". قال الله عز وجل: {ولباس التقوى ذلك خير} (الأعراف 26). وأما اللباس الظاهر فنعمة من الله يستر عورات بني آدم وهي كرامة أكرم الله بها عباده ذرية آدم لم يكرم غيرهم وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم وخير لباسك ما لا يشتغلك عن الله عزّ وجلّ بل يقرّبك من شكره وذكره وطاعته ولا يحملك فيها إلى العجب والرياء والتزين والمفاخرة والخيلاء فانها من آفات الدين وموروثة القسوة في القلب، فاذا لبست ثوبك فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته والبس باطنك بالصدق كما ألبست ظاهرك بثوبك وليكن باطنك في ستر الرهبة وظاهرك في ستر الطاعة واعتبر بفضل الله عز وجل حيث خلق أسباب اللباس لتستر العورات الظاهرة وفتح أبواب التوبة والانابة لتستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء (في الكافي باسناده إلى معاوية بن وهب قال: سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول: "اذا تاب العبد توبة نصوحا أحبّه الله فستر الله عليه في الدنيا والاخرة، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب و(ثم خ ل) يوحي إلى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه ويوحي إلى بقاع الارض اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب") ولا تفضح أحدا حيث ستراللهُ عليك أعظم منه (ان الستّارية من أوصاف اله تعالى وطوبى لعبد تخلّق

بأخلاق الله.. وقد شدّد النكير في الروايات على من كان بصدد إفشاء عيب من أخيه المؤمن كما قال الصادق عليه السلام: "من أطلّع من مؤمن على ذنب أو سيئة فأفشى ذلك عليه ولم يكتمها ولم يستغفر الله له كان عند الله كعاملها وعليه وزر ذلك الذي أفشاه عليه وكان مغفورا لعاملها وكان عقابه ما أفشى عليه في الدنيا مستور عليه في الاخرة ثم يجد الله أكرم من أن يثنّي عليه عقابا في الاخرة".

وقال عليه السلام: "من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروّته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان". والروايات في ذلك أكثر من أن تذكر.

وذكر المحدّث القمّي في السفينة في مادة عيب عن سفيان بن عيينة ((* . ابن عيينه بضم عينه أبو محمد سفيان بن عيينه ابن ابي عمر ان الكوفي المكي تابعي التابعين كان جدّه أبو عمران من عمّال خالد بن عبدالله القسري فلّما عزل خالد عن العراق وولى يوسف بن عمر طلب عمّال خالد فهرب منه إلى مكة فنزلها وولد سفيان سنة 107 ذكره الخطيب في تاريخه وأثنى عليه، وقال: كان له في العلم قدر كبير ومحلّ خطير وأدرك نيّفاً وثمانين نفساً من التابعين وسمع ابن شهاب الزهري وعمرو بن دينار وابا اسحاق السبيعي ثم ذكر جماعة كثيرة من نظرائهم (انتهى). وهو عندنا كسفيان الثوري وينقل منه بعض الكلمات الحكيمة التي ينبغي أخذها فان الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها. حكي أنه كتب إلى أخ له: أما آن لك يا أخي ان تستوحش من الناس ولقد أدركنا الناس وهم اذا بلغ أحدهم أربعين سنة جن (أي ستر) عن معارفه وصار كأنه مختلط العقل من شدّة تأهّبه للموت وكان اذا أعطاه الناس شيئا قال أعطون لفلان فإنه أحوج مني.

وقال خصلتان يعسر علاجهما: الطمع فيما بأيدي الناس واخلاص العمل لله. ويقول: اذا كان نهاري نهار سفيه وليلي ليل جاهل ماذا أصنع بالعلم الذي كتبت؟. توفّي في غرّة رجب سنة 198 (فصح) بمكة ودفن بالحجون بتقديم الحاء المهملة على الجيم موضع بمعلاة مكة ومعلاة مقبرة بها دفنت خديجة رضي الله عنها)). قال في قوله تعالى: الاّ أمم أمثالكم.. ما في الارض آدمي الا وفيه شبه من بعض البهائم، فمنهم من يقدم اقدام الاسد ومنهم من يعدو عدو الذئب ومنهم من ينبح نباح الكلب ومنهم من يتطوّس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنزير، فانه لو ألقي اليه الطعام الطيّب تركه واذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه، وكذلك نجد الادميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها فإن أخطأت مرة واحدة حفظها ولم يجلس مجلسا الا رواه عنه.. ثم قال: فاعلم يا بنيّ انك انما تعشر البهائم والسباع فبالغ في الاحتراز. قال المحدث القمي بعد نقل هذا الكلام أقول وأحسن من هذا ما قال أمير المؤمنين عليه السلام: "ان الاشرار يتتبّعون مساوىء الناس ويتركون محاسنهم كما يتتبّع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصحيح"). واشتغل بعيب نفسك واصفح عمّا لا يعنيك حاله وأمره واحذر أن تفني عمرك لعمل غيرك ويتّجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل وأوفر أسباب العقوبة في الآجل وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله تعالى ومعرفة عيوب نفسه وترك ما يشين في دين الله فهو بمعزل عن الآفات خائض في رحمة الله عز وجل يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان وما دام ناسيا لذنوبه جاهلا لعيوبه راجعا إلى حوله وقوته لا يفلح اذا أبدا.

ان مقاصد الحديث الشريف وان اتضحت في الجملة في البيانات السابقة ولكن الاشارة إلى بعض اشاراته بعنوان شبه الترجمة موجب لصفاء القلوب.

يقول الامام عليه السلام: أزين اللباس للمؤمنين هو لباس التقوى وألطفه لهم هو لباس الايمان، كما قال الله تعالى: ولباس التقوى ذلك خير.. وأما لباس الظاهر فهو من نعم الله تعالى فانه يستر عورة بني آدم، وهذه الكرامة كرامة خاصة لذرية آدم عليه السلام ولم يعطها سبحانه إلى سائر الموجودات ولكن المؤمنين يصرفون هذه النعمة ايضا في أداء الواجبات الالهية، وخير لباسك ما لا يغفلك عن الله ولا يشغلك بغير الله بل يقربك إلى شكره وذكره وطاعته، فلا بد لك أن تحترز في مادة اللباس وهيئته مما يوجب الغفلة والبعد عن ساحة قدس الحق وتعلم أن في اللباس بل في جميع الامور العادية أمورا تغفل الانسان عن الحق وتشغله بالدنيا وتؤثر في قلبه الضعيف تأثيرات السوء وتبتله بالعجب والرياء والتزين والفخر والكبر وكل ذلك آفات للدين وموجبة لقسوة القلب، واذا لبست اللباس الظاهر فتذكر ان الله تعالى ستر بساتر رحمته ذنوبك ومعاصيك، وكما أنك لبّست ظاهرك باللباس الظاهري فلا تغفل عن الالبسة الباطنية ولبّس باطنك بلباس الصدق ولا بد لك أن تجعل باطنك في ستر الخوف والرهبة وظاهرك في ستر الطاعة وتعتبر من فضل الله تعالى حيث أنه تعالى أعطى اللباس الظاهر كي تستر به عيوبك الظاهرة وفتح لك أبواب التوبة والانابة كي تستر بها العورات الباطنية التي هي المعاصي والاخلاق الذميمة. ولا تفضح أحدا كما أن الله سبحانه لم يفضحك فيما أهو أعظم واشتغل بعيب نفسك كي ينفتح لك باب الاصلاح واصفح عما لا يكون معينا لك (اقول: ويمكن أن يكون الاشتقاق من عني فيكون المعنى: واصفح عما لا يفيدك والمعنيان متقاربان) واحذر ان تفني عمرك لعمل غيرك وتكتب نتيجة أعمالك في صحيفة أعمال غيرك ويتّجر الاخرون برأس مالك وتلقي بنفسك إلى الهلاك لان نسيانك ذنوبك من أعظم العقوبات التي ابتلى الله تعالى الانسان في الدنيا بها لانه اذا نسي ذنوبه لم يقم بإصلاح نفسه، ونسيان الذنوب من أوفر أسباب العذاب في الاخرة وما دام العبد مشتغلا بطاعة الحق عز وجل ومشغولا بمعرفة عيوب نفسه وتاركا للامور التي هي عيب في دين الله فهو بمعزل عن الآفات وغائص في بحر رحمة الله وفائز بجواهر الحكمة والبيان، وما دام العبد ناسيا ذنوبه وجاهلا بعيوبه ومعتمدا على حوله وقوته لا يحصل له الفلاح أبدا.

الباب الثالث
في الآداب القلبية لمكان المصلّى

وفيه

فصلان

الفصل الأول

في معرفة المكان (قال الشهيد رضوان الله عليه: وأما المكان فاستحضر فيه أنك كائن بين يدي ملك الملوك تريد مناجاته والتضرّع اليه والتماس رضاه ونظره اليك بعين الرحمة، فانظر مكانا يصلح لذلك كالمساجد الشريفة والمشاهد المطهّرة مع الامكان فانه تعالى جعل تلك المواضع محلاّ لاجابته ومظنّة لقبوله ورحمته ومعدنا لمرضاته ومغفرته على مثال حضرة الملوك الذين يجعلونها وسيلة لذلك فادخلها ملازما للسكينة والوقار ومراقبا للخشوع والانكسار سائلا أن يجعلك من خاص عبادة وان يلحقك بالماضين منهم وراقب الله كأنك على الصراط جائز وكن

مترددا بين الخوف والرجاء وبين القبول والطرد فيخشع حينئذ قلبك ويخضع لبّك وتتأهل لان تفيض عليك الرحمة وتنالك يد العاطفة وترعاك عين العناية.

وقال العارف القاضي سعيد القمّي: ان للاماكن أثرا في حجاب القلب عن الله وإقباله اليه تعالى اللهم الاّ لاصحاب الاحوال حيث لا يشغلهم حال عن حال فانظر في أي مكان ومرتبة بالنظر إلى حضرة ذي الجلال فإن لم تكن خارجا عن مقام الحسّ فذلك كمال النقص، فاجهد ان تسعى إلى مسجد القلب لتفوز بصلاة جميع القوى وجماعة المشاعر والاعضاء، وان اجتهدت ان تدخل كعبة الروح فتصلي مع جماعة الارواح المقدسة والنفوس القدسية فتلك الصلاة نور، وان ارتقيت بروحك إلى الملأ الاعلى وتدخل المسجد الاقصى والعالم الالهي العقلي فذلك نور على نور).

اعلم ان للسالك إلى الله بحسب النشآت الوجودية أمكنة، ولكل منها آداب مخصوصة ما لم يتحقق السالك بها لم يتوصّل إلى صلاة أهل المعرفة.

المقام الأول: النشأة الطبيعية والمرتبة الظاهرية الدنيوية ومكانها أرض الطبيعة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "جعلت لي الارض مسجدا وطهورا ".. فالسالك في هذه المرتبة أدبه في أن يفهم قلبه أن نزوله من النشأة الغيبية وهبوط النفس من المحل الأعلى الارفع إلى أرض الطبيعة السفلى ورده من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين لاجل سلوكه الاختياري إلى الله وعروجه إلى معراج القرب ووصوله إلى فناء الله والجناب الربوبي الذي هو غاية الخلقة ونهاية المقصد لاهل الله. العارف يقول من الله وفي الله و إلى الله فللسالك أن يفهم نفسه ويذوق بذائقة روحه أن دار الطبيعة هي مسجد عبادة الحق وأنه قدم إلى هذه النشأة لاجل هذا المقصد كما يقول الحق جلّ وعلا: {وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون }.. فاذا وجد دار الطبيعة مسجدا للعبادة ورأى نفسه معتكفا فيه لا بدّ وأن يقوم بآدابه ويصوم عن تذكر غير الحق وألاّ يخرج عن مسجد العبودية الا بقدر الحاجة فاذا انقضت حاجته يعود ولا يستأنس بغير الحق ولا يتعلق قلبه بغيره، فان هذا كله خلاف آداب العكوف على باب الله، وللعارف بالله في هذا المقام حالات لا يصح كتابتها وحيث أن الكاتب خارج عن الفطرة الانسانية، ومستغرق في بحر المسجور والظلماني للطبيعة وعار عن الحق والحقيقة وعن جميع مقامات السالكين والعارفين فالأفضل ألاّ يفضح نفسه أكثر من هذا المقام ويشكو من النفس الامارة إلى جناب ذي الجلال المقدّس لعله يؤيد باللطف العام والرحمة الشاملة ويجبر ما سبق من عمره في بقيّته ربنا ظلمنا أنفسنا وان تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين.

المقام الثاني: مرتبة القوى الظاهرة والباطنة التي هي جنود ملكية وملكوتية للنفس ومحلّها الارض الطبيعية الانسانية وهي هذه البنية والبدن وأدب السالك في هذا المقام أن يفهم باطن قلبه بأن أرض الطبيعة نفسه وهي مسجد الربوبية ومحل السجدة للجنود الرحمانية فلا ينجسها بقاذورات تصرف ابليس ولا يجعل الجنود الالهية تحت تصرف ابليس كي تشرق ارض الطبيعة بشروق نور الرب وتخرج عن ظلمة البعد عن الساحة الربوبية وكدورته فيرى قواه الملكية الملكوتية معتكفة في مسجد البدن ويعامل بدنه معاملة المسجد ومع قواه بعين العكوف إلى فناء الله، وتكليف السالك في هذا المقام أكثر لأن تنظيف المسجد وطهارته ايضا على عهدته كما أنه بنفسه أيضا يتكفل أدب المعتكفين في هذا المسجد.

المقام الثالث: النشأة الغيبية للسالك: ومحلها البدن البرزخي الغيبي للنفس الذي يتكون بانشاء النفس وخلاّقيتها، والادب للسالك في هذا المقام ان يذوّق نفسه ان التفاوت بين هذا المقام والمقامات الاخر كثير وحفظ

هذا المقام هو من مهمات السلوك لان القلب هو امام المعتكفين في هذا الجناب وبفساده يفسد الجميع اذا فسد العالم فسد العالم فقلب العالِم عالَم صغير وعالم القلب هو العالم الكبير وتكاليف السالك في هذا المقام تكون أكثر من ذين المقامين لانه قد كلف بناء المسجد ايضا بنفسه ومن الممكن لا سمح الله ان يكون مسجده مسجد ضرار وكفر وتفريق بين المسلمين ولا يجوز في هذا المسجد عبادة الحق ويجب تخرينه، فاذا أسّس السالك المسجد الملكوتي الالهي بيد التصرف الرحماني ويد الولاية وطهّر بنفسه هذا المسجد عن جميع القاذورات والتصرفات الشيطانية واعتكف فيه فلا بد له أن يجاهد حتى يخرج نفسه من العكوف في المسجد ويعتكف بفناء صاحب المسجد فاذا تطهّرعن التملّق بالنفس وخرج عن قيد نفسه يصير هو بنفسه منزلا للحق بل مسجدا للربوبية ويثني الحق على نفسه في ذاك المسجد بالتجليات الفعلية ثم الاسمائية ثم الذاتيّة وهذا الثناء هو صلاة الرب يقول سبّوح قدّوس رب الملائكة والروح، وللسالك إلى الله في جميع مقامات السلوك مهمة أخرى لا يجوز له الغفلة عنها مطلقا بل هذه المهمة هي غاية السلوك ولب لبابة وهي أن لا يغفل في جميع الحالات والمقامات عن ذكر الحق ويطلب في جميع المناسك والعبادات معرفة الله ويطلب الله في جميع المظاهر ولا تمنعه النعمة والكرامة عن الصحبة والخلوة فانه نوع من الاستدراج.

وبالجملة يرى روح العبادات والمناسك وباطنها معرفة الله ويتطلب فيها المحبوب ولعله تستحكم في قلبه علاقة المحبة والمحبوبية ويكون موردا للعنايات الخفية والمراودات السرية.

وصل: في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: "اذا بلغت باب المسجد فاعلم أنك قد قصدت باب ملك عظيم لا يطأ بساطه الا المطهرون ولا يؤذن لمجالسته الا الصدّيقون" (قد تفطّنت بفضل الله تعالى لنكتة لطيفة في المقام وهي أن الرواية الشريفة كأنها قررت للوافدين إلى حضرة ذي الجلال مرحلتين، الاولى: الوفود على حضرته والورود إلى جنابه والثانية: المجالسة والمؤانسة معه جلّت وعظمت نعماؤه. فخصّت الاولى بالمطهّرين والثانية بالصدّيقين كما أن في القرآن الكريم اشارة لطيفة إلى هاتين، أما بالنسبة إلى الاولى فهو قول الله سبحانه في شأن مريم الطاهرة: {واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهّرك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} (آل عمران 43)، حيث أن الامر بالقنوت والسجود والركوع مع الراكعين وقيامها في صفّهم بعد اصطفائها وتطهيرها وخصوصا اذا جعلنا الواو في وطهّرك للعطف التفسيري وهو أفضل لئلاّ يلزم التكرار في قوله تعالى واصطفاك على نساء العالمين.. فيكون المعنى ان قيامها عليها السلام في مجلس الذكر بعد كونها مطهّرة، وان جعلها الواو لمطلق العطف فلا يضرّ أيضا بالمعنى الذي نحن بصدده وهو أنه لابد للوافد على الله أن يكون مطهّرا كما اشار اليه في الرواية الشريفة بقوله: "لا يطأ بساطه الا المطهّرون".

وأما بالنسبة إلى المرحلة الثانية، فقوله تعالى: {أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم} (الحديد 19). فان فيها ايضا إشارة في غاية اللطافة لما ذكرنا وهي أن الكون عند الربّ تعالى يختصّ بالصدّيقين سواء جعلنا الظرف متعلقا بالشهداء كما هو الظاهر لكونه أقرب أو جعلناه متعلقا بأولئك، وان كان بعيدا لبعده وعلى كلا التقديرين يستفاد ما ذكرنا من الآية الشريفة فافهم واغتنم ولله الحمد). فهب القدوم إلى بساط خدمة الملك هيبته فانك على خطر عظيم ان غفلت فاعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك فان عطف عليك برحمته وفضله قبل منك يسير الطاعة وأجزل لك عليها ثوابا كثيرا (في الكافي الشريف عن أبي عبدالله عليه السلام قال: "مرّ بي

أبي وأنا بالطواف وأنا حَدَث وقد اجتهدت في العبادة فرآني وأنا أتصابّ عرقا فقال لي: يا جعفر يا بنيّ ان الله اذا أحب عبدا يدخله الجنة ورضي عنه باليسير".

وفيه أيضا عن حنان بن سدير قال: "سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول: ان الله اذا أحبّ عبدا فعمل قليلا جزاه بالقليل الكثير ولم يتعاظمه ان يجزي بالقليل الكثير له".

أقول: ذكر صاحب الوسائل (قدّس سرّه) هاتين الروايتين في الوسائل في باب (استحباب الاقتصاد في العبادة) وعندي أنها لا تناسب الباب بل الاولى أن ينعقد باب في كتب الاحاديث بعنوان: (باب أنّ الاصل في اشتراط القبول في الاعمال محبة الله عز وجل للعبد) وتذكر هاتان الروايتان في ذلك الباب). وان طالبك باستحقاق الصدق والاخلاص عدلا بك حجبك ورد طاعتك وان كثرت فهو فعال لما يريد واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه فانك قد توجّهت للعبادة والمؤانسة به واعرض اسرارك عليه ولتعلم أنه لا يخفى عليه اسرار الخلق أجمعين وعلانيتهم وكن كأفقر عباده بين يديه وأخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك فانه لا يقبل الا الاطهر والاخلص، فانظر من أي ديوان يخرج اسمك فان ذقت حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن إقباله عليك وإجابته فقد صلحت لخدمته فادخل فلك الاذن والأمان، والا فقف وقوف من انقطعت عنه الحيل وقصر عنه الامل وقضي عليه الاجل فان علم الله عز وجل من قلبك صدق الالتجاء اليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة واللطف، ووفقك لما يحب ويرضى فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطّرين اليه المحترقين على بابه لطلب مرضاته.

قال تعالى: {أمّن يجيب المضطّر اذا دعاه ويكشف السوء}.

وحيث أن هذا الكلام الشريف دستور جامع لاصحاب المعرفة وأرباب السلوك إلى الله نقلته بتمامه فلعله يحصل حال من التدبّر فيه، ومحصل قوله عليه السلام أنه اذا وصلت إلى باب المسجد فانتبه إلى أيّ باب وصلت؟ وأيّ جناب قصدت؟ فاعلم أنك وصلت إلى جناب السلطان العظيم الشأن الذي لا يضع أحد قدمه على بساط قربه الا اذا طهر وتطهر من جميع أرجاس عالم الطبيعة والارجاس الشيطانية ولا يصدر الاذن لمجالسته الا الذين يقدمون عليه بالصدق والصفاء والخلوص من جميع أنواع الشرك الظاهر والباطن، فاجعل عظمة الموقف والهبة والعزّة والجلال الالهي نصب عينك ثم ضع قدمك إلى جناب القدس و بساط الانس فانك واقع في مخاطرة عظيمة (باخبر باش كه سر ميشكند ديوارش) فانك وردت إلى جناب القادر المطلق يجري ما يشاء في مملكته فاما أن يعاملك بالعدالة ويناقش في الحساب فيطالب بالصدق والاخلاص وتحجب عن الجناب وتردّ طاعتك وان كثرت، واما ان يعطف اليك طرفه ويقبل بفضله ورحمته طاعتك التي هي لا شيء ولا قيمة لها ويعطيك ثوابه العظيم فاذا عرفت الان عظمة الموقف فاعترف بعجزك وتقصيرك وفقرك واذا توجهت إلى عبادته وقصدت المؤانسة معه ففرّغ قلبك عن الانشغال بالغير الذي يحجبك عن جمال الجميل وهذا الاشتغال بالغير قذارة وشرك ولا يقبل الحق تعالى الا القلب الطاهر الخالص، واذا وجدت في نفسك حلاوة مناجاة الحق وذقت حلاوة ذكر الله وجرعت من كأس رحمته وكراماته ورأيت حسن اقباله واجابته في نفسك فاعلم انك صرت لائقا لخدمته المقدسة، فادخل فانك مأذون ومأمون واذا ما وجدت في نفسك هذه الحالات فقف بباب رحمته كالمضطر الذي انقطعت عنه جميع العلاجات وبعد عن الامال وقرب إلى أجله فاذا عرضت ذلّتك ومسكنتك والتجأت إلى بابه ورأى سبحانه منك الصدق والصفاء

فينظر اليك بعين الرحمة والرأفة ويؤيدك ويوفّقك لتحصيل رضاه فانه الذات المقدسة لكريم ويحب الكرامة لعباده المضطرين كما يقول تعالى: أمّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء.

(اعلم ان المصلي في الحقيقة ونفس الامر العقل لان مقام العقل مقام العبادة وهو الواقف في مقام اياك نعبد واياك نستعين، ومقام العقل اول مقام الصحو، وما قبله مقام السكر والفناء والزوال وفقدان النفس ووجدان الربّ. قال تعالى: {هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا}. قال الباقر عليه السلام: "كان شيئا ولم يكن مذكورا".

في المجمع عن الباقر والصادق عليهما السلام: "كام مذكورا في العلم ولم يكن مذكورا في الخلق". وروايات أخر تقرب من هذا المعنى.

فالمصلي هو العقل فقط ولذا ترى أن المجنون والصبي والنائم والمغمى عليه والسكران ليسوا مكلّفين بالصلاة وان كان بالنسبة إلى السكران من باب الامتناع بالاختيار وهو لا ينافي الاختيار.. فليتدبّر.

ثم أن عدم التكليف في الموارد المذكورة من جهة أن الاصل الذي عليه مدار الصلاة وسائر التكاليف مفقود في هذه الموارد وان المكلّف الاصلي هو العقل كما قاله تعالى حين خلقه: "اقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر فقال بك أثيب وبك أعاقب"، وأما غير العقل فالتكليف له تبعي وبالعرض.

ومكان العقل ومحلّه القلب الذي هو عرش الرحمن، وحيث أن حقيقة الصلاة عبارة عن توجّه العقل بكينونته إلى الله سبحانه فالمسجد ومكان الصلاة والعبادة هو القلب، ولا بدّ أن يكون المسجد ومحل العبادة طاهرا من لوث النجاسات كما في الحديث: "جنّبوا مساجدكم عن النجاسات". فمن الواجب أن يكون المصلّى الواقعي ومحل المصلي الحقيقي طاهرا من لوث الكفر والنفاق والشرك بجميع مراتبها ومن كل ما هو مكروه للمحبوب من قبيل الحسد والعجب والكبر وحبّ الرئاسة وأمثالها. وحيث أن الصلاة معراج المؤمن فاذا كان في القلب شيء من ظلمة الكفر والفسق وأثقالها فذلك القلب لا يقدر على العروج. فالواجب ان تصدر الصلاة عن قلب خاص مزكّى وذي بصيرة تامة ومعرفة كاملة لله سبحانه وصفاته وأسمائه ومعرفة أنبيائه وأوليائه ومعاداة أعدائه، ويكون مؤمنا بكل ما جاء به الانبياء والرسل {والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله} (البقرة 136).. ولا يصحّ صدور الصلاة عن القلب الكافر غير البصير وغير المؤمن بالله وأوليائه وغير المعادي لاعداء الله سواء كان عدم ايمانه في هذا العالم أو في العالم الأول، فان صلاته حينئذ من لطخ اصابه في العالم الأول من طينة الاولياء وصار سببا لايمانه الصوري وحسن خلقه العرضي غير الذاتي كما في الرواية عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل: من أن حسن شيم أعداء الله من لطخ أصحاب اليمين كما أن الصورة الانسانية للكافر مغصوبة عنده في هذه الدنيا لينال بواسطتها شهواته ومقاصده الحيوانية، وفي يوم تبلى السرائر وتنكشف الحقائق تؤخذ الصورة منه ويحشر على غير صورة الانسان، فما في وجودهم من النور والخير والصلاح مغصوبة وكله من مقتضيات لباس التقوى المختصّ بالمؤمنين، فأعمال هؤلاء تقع في المكان المغصوب ولا تنفعهم شيئا بل نفعها عائد إلى صاحب اللطخ ومتعلقة به، فان الغاصب يؤخذ بأشدّ الاحوال وترجع الاعمال إلى أصلها والاعمال غير المرضية الصادرة عن المؤمن فهي من اللطخ الذي أصابه من أصحاب الشمال وظلّه وشعاعه فترجع اليهم لا محالة كرجوع شعاع الشمس اليها كما صرّح بذلك في الرواية التي رواها الصدوق في العلل عن الباقر عليه السلام وفيها: "اخبرني يا ابراهيم عن الشمس اذا طلعت وبدا شعاعها في البلدان أهو بائن في القرص؟ قلت: في حال

طلوعه بائن. قال: أليس اذا غابت الشمس اتصل ذلك الشعاع بالقرص حتى يعود اليه؟ قلت: نعم. قال: كذلك يعود كل شيء إلى سنخه وجوهره وأصله، فاذا كان يوم القيامة نزع الله عز وجل سنخ الناصب وطينته مع أثقاله وأوزاره من المؤمن فيلحقها كلها بالناصب وينزع سنخ المؤمن وطينته مع حسناته وأبواب برّه، واجتهاده من الناصب فيلحقها كلها بالمؤمن".

فبالتدقيق فيما ذكرنا، وفي الروايات الواردة في باب الطينة والميثاق ربّما يتّضح حقيقة الامر في الايمان المستقر والمستودع وانه لابد للايمان المستودع أن يزول وهذا مقتضى عدله سبحانه لتجزى كل نفس بما كسبت ومن هذه الجهة فقد ركز في روايات الباب على العدل الالهي والحكمة الربانية كقول الباقر عليه السلام في الرواية المتقدمة فاذا عرضت هذه الاعمال كلها على الله عز وجل قال: أنا عدل لا أجور ومنصب لا أظلم وحكم لا أحيف ولا أميل ولا أشطط الحقوا الاعمال السيئة التي اجترحها المؤمن بسنخ الناصب وطينته والحقوا الاعمال الحسنة التي اكتسبها الناصب بسنخ المؤمن وطينته وردّوها كلها إلى أصلها فاني أنا الله لا إله الاّ أنا عالم السرّ وأخفى وأنا المطّلع على قلوب عبادي لا أحيف ولا أظلم ولا ألزم أحدا الا ما عرفته منه قبل أن أخلقه.

وحيث أن الرواية مشتملة على أسرار من العارف ممّا يصعب على القلوب فهمه وعلى القلوب إدراكه كما صرّح عليه السلام في آخرها بقوله: خذها إليك يا أبا اسحاق فوالله انه لمن غرر أحاديثنا وباطن سرائرنا ومكنون خزائننا فنقرّبها إلى الاذهان البسيطة ببيان بسيط وهو انّا نفرض ان انسانا يريد أن يعلّم ولده ويربّيه فاستأجر له معلّما ومربيّا وهيأ له جميع ما له دخل وتأثير في تعلّمه وتربيته ولكن انسانا أخر منع الولد عن التعلّم باغوائه وتدليساته وأخذ من ماله واتّجر لنفسه فأصبح الولد جاهلا وفقيرا، أليس مقتضى العدل حينئذ أن يكون وزر جهل الولد وفقره على ذلك الغاصب ويؤخذ منه ما اتّجر لنفسه بمال الولد فأصبح هو غنيّا والولد فقيرا فيعطى المال للولد ليجبر ما أصابه من الظلم والحرمان فعلى ذلك فما جزاء الكفّار والمنافقين وأمثالهم الذين ضيّعوا ما تحملّ الانبياء والاولياء في سبيل اصلاح المجتمع وأفسدوا على المؤمنين آراءهم وأعمالهم، وفي نفس الوقت استفادوا لأنفسهم فوائد كانت نتيجة مشاقّ الانبياء ومساعيهم وكان المؤمنون أحقّ بها منهم، أليس جزاؤهم ما ذكر في الرواية الشريفة من نزع حسناتهم وإعطائها للمؤمنين؟ وكذلك نزع سيّئات المؤمنين وإعطاؤها لهم. وقد أشير إلى هذا الحكم العدل في موارد كثيرة تأويلا وتصريحا.

فمن التأويل ما أشار اليه الباقر عليه السلام وقال: يا ابراهيم اقرأ هذه الآية قلت يا بن رسول الله أيّه آية؟ قال قوله تعالى قال "معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون" (يوسف 79) هو في الظاهر ما تفهمونه وهو الله في الباطن هذا بعينه يا ابراهيم ان للقرآن ظاهرا وباطنا ومحكما ومتشابها وناسخا ومنسوخا إلى أن قال عليه السلام وان ما أخبرتك لموجود في القرآن كلّه قلت هذا بعينه يوجد في القرآن؟ قال نعم يوجد في أكثر من ثلاثين موضعا في القرآن أتحب أن أقرأ ذلك عليك؟ قلت: بلى يا بن رسول الله فقال قال الله عز وجل: {وقال الذين كفروا للذين آمنو أتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انّهم لكاذبون وليحملّن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم..} الآية (العنكبوت 130) أزيدك يا ابراهيم؟ قلت بلى يا بن رسول الله قال: {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم الا ساء ما يزرون} (النحل 25). أتحب أن أزيدك؟ قلت: بلى يا بن رسول الله. قال: {فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما} (الفرقان 70) إلى أن قال عليه السلام: ألم أبيّن لك أمر المزاج والطينتين من القرآن؟ قلت: بلى يا بن رسول الله. قال: اقرأ

يا ابراهيم: {الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللّمم ان ربك واسع المغفرة هو أعلم اذ أنشأكم من الارض... يعني من الارض الطّيبة والارض المنتنة فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى} (الاعراف 29 ـ 30). يقول لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه لان الله عز وجل أعلم بمن اتّقى منكم فإن ذلك من قبل اللمم (وهو المزاج).

ازيدك يا ابراهيم؟ قلت بلى يا بن رسول الله. قال: "كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حقّ عليهم الضلالة انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.. أئمة الجور دون أئمة الحق ويحسبون أنهم مهتدون"، خذها اليك يا أبا اسحاق فوالله انه لمن غرر أحاديثنا. "الحديث" فعلى المتعلم البصير والقارئ الخبير أن يتأمل في الحديث الشريف ويتفحّص القرآن الكريم ليقف على بقية الآيات الدالّة على ما ذكرنا وهي على ما ذكره الامام باقر العلوم عليه الصلاة والسلام ما يزيد على ثلاثين موضعا في القرآن.

وسيجيء الاشارة إلى بعض ما ذكرنا من المؤلف دام ظلّه في تفسير إياك نعبد وإياك نستعين فانتظر)

الفصل الثاني

في بعض آداب اباحة المكان (منها ما رواه الكلبي (ره) في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: وجدنا في كتاب علي {ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين} (الاعراف 128) أنا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الأرض ونحن المتقون والأرض كلها لنا.

ورواية أخرى فيه أيضا ومفادها أوسع من الأولى قال عليه السلام: "الدنيا وما فيها لله تبارك وتعالى ولرسوله ولنا.. وفي ثالثة ومفادها أوسع من السابقتين عن أبي بصير قال: قلت له: أما على الامام زكاة؟ فقال: أحلت يا أبا محمد علمت أن الدنيا والاخرة للامام يضعها حيث يشاء ويدفعها إلى من يشاء جائز له وذلك من الله.").

اذا فهم السالك إلى مراتب المكان بحسب المقامات والنشآت الوجودية لنفسه فله أن يجتهد في آدابه القلبية لاباحتها حتى تخرج صلاته من التصرفات العصبية لابليس الخبيث فيقوم في المرتبة الاولى بآداب صورية للعبودية والرقّية ويفي بالعهود السابقة في عالم الذرّ ويوم الميثاق ويبعّد يد تصرف ابليس عن ملك طبيعة حتى تحصل له المراودة والمخاطبة مع صاحب البيت ولا تكون تصرفاته في عالم الطبيعة غصبا. يقول بعض أهل الذوق: ان معنى الآية الشريفة: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلّت لكم بهيمة الانعام...} بحسب الباطن أن حليّة بهيمة الانعام موقوفة على الوفاء بعهد الولاية. وقد روي في الاحاديث ان جميع الارض للامام وغير الشيعة غاصبة لها، وأهل المعرفة يرون ولّي الامر مالكا لجميع ممالك الوجود ومدارج الغيب والشهود ولا يجوّزون تصرّف أحد فيها بدون اذن الامام.

يقول الكاتب: ان ابليس اللعين هو عدّو الله وتصرفاته وكل تصرف ابليسيّ في عالم الطبيعة جور وغصب فالسالك إلى الله إن أخرج نفسه من تصرفات ذلك الخبيث يكون تصرّفه تصرّفا رحمانيا ويباح ويطهر مكانه وملبسه ومطعمه ومنكحه وبمقدار ما يقع تحت تصرف ابليس يخرج عن الحلّيّة ويتصرّف فيه شرك الشيطان، فاذا وقعت الاعضاء الظاهرة للانسان في تصرف ابليس تكون أعضاؤه ابليسية ويكون غاصبا لمملكة الحق كما أنه عكوف القوى الملكوتية في مسجد البدن يكون مباحا وعدلا اذا كانت القوى من الجنود الرحمانية والا فجنود ابليس ليس لها الحق بأن تتصرف في مملكة البدن الانساني التي هي ملك للحق تعالى، فاذا قصّر يد تصرف الشيطان عن

مملكة القلب الذي هو منزل خاص للحق تعالى وخلّص قلبه لتجليات الحق ولا يترك أحدا غير الحق يتطرق اليه . فان غير الحق ابليس الطريق . يباح له المساجد الظاهرة والباطنة والامكنة الملكية والملكوتية وتكون صلاته صلاة اهل المعرفة وتتضح بهذا الميزان طهارة المسجد أيضا.

الباب الرابع
في الآداب القلبية للوقت

وفيه
فصلان

الفصل الأول
في آداب أوقات الصلاة

اعلم أن لاهل المعرفة وأصحاب القلوب على قدر قوة معرفتهم للمقام المقدس الربوبي واشتياقهم إلى مناجاة حضرة الباري عز اسمه مراقبة ومواظبة لاوقات الصلاة التي هي ميقات المناجاة وميعاد الملاقاة مع الحق، ولا يزالون يراقبون ذلك فالمجذوبون لجمال الجميل والعاشقون للحسن الازلي والمشغوفون به والسكارى من كأس المحبة والمصعوقون من قدح ألست الذين فرغوا عن الكونين وأعرضوا عن جميع أقاليم الوجود وتعلقوا بعز قدس جمال الله فلهم دوام الحضور وليسوا مهجورين عن الذكر والفكر والمشاهدة و المراقبة لحظة واحدة.

والذين هم أصحاب المعارف وأرباب الفضائل والفواضل وهو شرافاء النفس وكرماء الطينة فلا يختارون على المناجاة مع الحق شيئا ويطلبون من الخلوة مع الحق ومن مناجاته نفس الحق ويرون أن العزة والشرف والفضيلة والمعرفة كلها في تذكر الحق ومناجاته فهم اذا توجهوا إلى العالم ونظروا إلى الكونين يكون توجههم ونظرهم اليها توجه العارفين لها ونظرهم، ويتطلبون

الحق في العالم ويطلبونه ويرون جميع الموجودات جلوة للحق ولجمال الجميل (عاشقهم برهمه عالم كه همه عالم ازاوست) (مصراع بيت للشاعر المعروف السعدي الشيرازي يقول: أنا للعالم عاشق حيث منه الكون أجمه).

فهم يواظبون على أوقات الصلاة بتمام أرواحهم وقلوبهم وينتظرون وقت المناجاة مع الحق ويحضّرون أنفسهم ويهيئّونها لميقات الحق فقلوبهم حاضرة ويطلبون من المحضر الحاضر ويحترمون المحضر لاجل الحاضر ويرون ان العبودية هي المراودة والمعاشرة مع الكامل المطلق فاشتياقهم إلى العبادة من هذا الباب والذين يؤمنون بالغيب وعالم الاخرة ويعشقون كرامات الحق جل جلاله ولا يستدلون النعم الابدية الجنانية واللذات والبهجات الدائمة السرمدية بالحظوظ الداثرة الدنيوية واللذائذ الناقصة المؤقتة المشوبة، فهؤلاء أيضا في وقت العبادة التي هي بذور النعم الاخروية يحضرون قلوبهم ويقومون بالامر باقبال واشتياق وينتظرون أوقات الصلاة فانها وقت حصول النتائج واكتساب الذخائر ولا يختارون على النعم الدائمة شيئا فهؤلاء ايضا حيث أن قلوبهم خبيرة بعالم الغيب وقد آمنت قلوبهم بالنعم الابدية واللذائذ الدائمة لعالم الاخرة يغتنمون أوقاتهم ولا يضيّعونها اولئك اصحاب الجنة وأرباب النعمة هم فيها خالدون.

هذه الطوائف التي ذكرت، وبعضها التي لم يذكر لهم من العبادة نفسها ايضا لذائذ على حسب مراتبهم ومعارفهم وليس لهم كلفة وتكليف فيها أصلا.

وأما نحن المساكين المبتلين بالآمال والاماني والمقيدين بسلاسل الهوى والهوس والمنغمرين في البحر المسجور الظلماني للطبيعة الذين ما وصلت إلى شامّة أرواحنا رائحة من المحبة والعشق وما ذائقة قلوبنا لذة من العرفان

والفضيلة، فلسنا لا من أصحاب العرفان والعيان ولا من أرباب الايمان والاطمئنان، نرى العبادات الالهية تكليفا وكلفة والمناجاة مع قاضي الحاجات تحميلا وتكلّفا لا نركن إلى شيء غير الدنيا التي هي معلف للحيوانات ولا نتعلق بسوى دار الطبيعة التي هي معتكف للظالمين قد عميت أبصار قلوبنا عن جمال الجميل وهجرت ذائقة أرواحنا ذوق العرفان.

نعم ان رئيس سلسلة أهل الحق وخلاصة أصحاب المحبة والحقيقة يترنم بقوله: أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني فيا رب ما هذه البيتوتة التي كانت لمحمد صلى الله عليه وآله معك في دار الخلوة والانس؟. وما هذا الطعام والشراب الذي أذقته بيدك هذا الموجود الشريف وأخلصته من جميع العوالم، ففي شأن ذلك السيد العظيم أن يقول: "لي مع الله وقت لا يسعه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل" فهل هذا الوقت من أوقات عالم الدنيا والاخرة أو أنه وقت الخلوة في قاب قوسين وطرح الكونين..

ان موسى عليه السلام صام صوما موسويا أربعين يوما ونال إلى ميقات الحق، وقال تعالى: {فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة} (الاعراف 142)، ومع ذلك أين هذا الميقات من الميقات المحمدي ولا نسبة بينه وبين الوقت الاحمدي.

ان موسى في الميعاد خوطب بخطاب فاخلع نعليك وقد فسّر بمحبة الاهل، والرسول الخاتم قد أمر في ميعاده بأن يحب عليا، وفي القلب من هذا السر جذوره ما أبرو منها شيء (توخود حديث مفصل بخوان ازاين مجمل) (مصراع معروف. مضمونه: انت اقرأ بنفسك الحديث المفصل عن هذا المجمل).

الفصل الثاني

في الآداب القلبية للصلاة

فأنت أيها العزيز اغتنم وقت المناجاة هذا بالقدر الميسور والمقدار المقدور وقم بآدابه القلبية وفهّم قلبك أن وسيلة الحياة الابدية الاخروية ومنبع الفضائل النفسانية ورأس مال الكرامات غير المتناهية هو المراودة والمؤانسة مع الحق ومناجاته وخصوصا الصلاة فانها معجون روحاني قد هيّئ بيدي الجمال والجلال للحق وأجمع وأكمل من جميع العبادات، فبقدر ما يمكنك حافظ على أوقاتها وانتخب أوقات فضيلتها فإن فيها نورا ليس في غيرها من الاوقات وأقلل فيها من الاشتغالات القلبية بل اقطعها، وهذا يحصل بأن تقسم وتعيّن أوقاتك وتعيّن للصلاة المتكفّلة لحياتك الابدية وقتا خاصا لا يكون لك فيه أشغال أخر ولا تكون للقلب تعلّقات اخرى، ولا تجعل الصلاة تزاحم الامور الاخر كي تستطيع أن تريح القلب وتحضره، والان نذكر الاحاديث الواردة في أحوال المعصومين عليهم

السلام على قدر اقتضاء المقام فلعلّه بالتدبّر في حالات أولئك الاكرمين يتمّ التنبيه وتدرك عظمة الموقف وأهمية المقام وخطره وتستيقظ من نوم الغفلة.

فعن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله أنها قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه فاذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلا بالله عن كل شيء".

وروي عن علي عليه السلام: "كان اذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلوّن، فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول عليه السلام: جاء وقت الصلاة وقت أمانة عرضها الله على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها".

ونقل السيد ابن طاووس في فلاح السائل: كان الحسين عليه السلام "اذا توضأ يتغير لونه ويضطرب مفاصله فقيل له في ذلك فقال: حق لمن يقف بين يدي ذي العرش أن يصفرّ لونه وتضطرب مفاصله" ونقل عن الحسن عليه السلام أيضا مثل ذلك.

وعن علي بن الحسين عليه السلام: "كان اذا حضر للوضوء اصفرّ لونه فيقال له ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: ما تدرون بين يدي من أقوم؟".

ونحن ايضا اذا تفكرنا قليلا وفهّمنا قلبنا المحجوب أنّ أوقات الصلاة هي أوقات الحضور في جناب القدس بحضرة ذي الجلال، وأن الحق تعالى ملك الملوك والعظيم المطلق في تلك الاوقات دعا عبده الضعيف الذي هو لا شيء إلى مناجاته وأذن له بالدخول إلى دار الكرامة حتى يفوز بالسعادات الابدية ويجد السرور والبهجات الدائمية لكنّا مبتهجين ومسرورين من دخول وقت الصلاة بمقدار معرفتنا واذا استشعر القلب عظمة المقام وخطره فيحصل فيه الخوف والخشية بمقدار فهمه العظمة وحيث أن قلوب الاولياء مختلفة وحالاتهم متفاوتة على حسب التجليات اللطفيّة والقهرية واستشعار العظمة والرحمة فحينا يحملهم اشتياق الملاقاة واستشعار الرحمة والجمال على السرور والبهجة ويقولون: ارحنا يا بلال، وحينا يجعلهم التجليات بالعظمة والقهر والسلطنة في حالة الصعق ويرتعشون ويرتعدون.

وبالجملة أيها الضعيف ان الاداب القلبية للاوقات هي أن تهيىء نفسك للورود إلى حضرة مالك الدنيا والاخرة ومخاطبة الحق جل وعلا ومكالمته، فانظر بعين إلى ضعفك ومسكنتك وذلّتك وعجزك و إلى العظمة والجلال والكبرياء للذات المقدسة جلّت عظمته، ذلك أن الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين في جناب عظمته مصعوقون، وبالعجز والمسكنة والذلّة معترفون فاذا نظرت هذه النظرة وفهّمت قلبك فليستشعر القلب الخوف ويرى نفسه وعباداته لا شيء وانظر بعين أخرى إلى سعة رحمة الذات المقدسة وكمال عطفها وإحاطة رحمانيتها حيث أنه أذن للعبد الضعيف مع ما له من أنواع التلوّثات وكمال عجزه ومسكنته في الدخول إلى حضرة قدسه ودعاه إلى مجلس أنسه بتشريفات من اهباط الملائكة وانزال الكتب السماوية وبعث الانبياء والمرسلين من دون أن يكون لهذا الممكن المسكين سابقة استعداد أو يتصورّ لحضرته جل وعلا ونعوذ بالله أو لملائكة الله أو الانبياء عليهم السلام في هذه الدعوة والحضور نفع فاذا توجّه القلب إلى ذلك فيحصل له الانس البتة ويستشعر الرجاء فهيئ نفسك للحضور بقدمي الخوف والرجاء والرهبة والرغبة بقلب خجل وفؤاد وجل واستشعار الانكسار والذلة والضعف والمسكنة ولا ترَ لنفسك أية لياقة للحضور في هذا المحضر ولا تعدّ نفسك لائقا للعبادة والعبودية وترّ الاذن في

الدخول في العبادة والعبودية من شمول الرحمة وعميم اللطف فحسب لحضرة الاحدية جلّت قدرته، فانك اذا جعلت ذلّتك نصب عينيك وتواضعت لذات الحق المقدسة بروحك وقلبك وعرفت نفسك وعبوديتك كلا شيء يتلطف الحق تعالى ويرفعك ويخلّعك بخلعة كراماته.

الباب الخامس
في بعض آداب الاستقبال

وفيه
فصلان

الفصل الأول
في السر الجملي للاستقبال

اعلم أن ظاهر الاستقبال متقوّم بأمرين: أحدهما المقدمي وهو صرف الوجه الظاهر عن جميع الجهات المتشتتة، والاخر النفسي وهو الاستقبال بالوجه إلى الكعبة أم القرى ومركز بسط الارض، ولهذه الصورة باطن وللباطن سرّ بل أسرار وأصحاب الاسرار الغيبية يصرفون باطن الروح عن الجهات المتشتتة لكثرات الغيب والشهادة ويجعلون جهة السرّ والروح أحدية التعلق ويجعلون جميع الكثرات فانية في سرّ أحدية الجمع، فاذا تنزّل هذا السر الروحي في القلب فيظهر الحق في القلب بظهور الاسم الاعظم الذي هو مقام الجمع الاسمائي، وتفنى الكثرات الاسمائية وتضمحل في الاسم الاعظم وتكون وجهة القلب في هذا المقام إلى حضرة الاسم الاعظم فاذا ظهرت هذه عن باطن القلب إلى ظاهر الملك فينتقش افناء الغير في الانصراف عن غرب عالم الملك وشرقه وينتقش التوجه إلى حضرة الجمع في التوجه إلى مركز بسط الأرض الذي هو يد الله في الأرض، وأما بالنسبة إلى السالك الذي يسير من الظاهر إلى الباطن ويترقى من العلن إلى السر فلا بد له أن يجعل هذا التوجّه الصوري إلى مركز البركات الارضية وترك الجهات المتشتتة المتفرقة التي هي الاصنام الحقيقية، ويتوجّه إلى القبلة الحقيقية التي هي أصل أصول بركات السموات والأرض ويرفع رسوم الغير والغيرية حتى يصل شيئا ما إلى سرّ وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ويحصل في قلبه انموذجة من تجليات عالم الغيب الاسمائي وبوارقة وتحترق الجهات المتشتتة والكثرات المتفرقة ببارقة الهية ويؤيده الحق تعالى وتنحط الاصنام الصغيرة والصنم الاعظم عن باطن القلب بيد الولاية، ولا انتهاء لهذه القصة فاتركها وامضِ.

الفصل الثاني
في بعض الآداب القلبية للاستقبال

اعلم أيها السالك إلى الله انك اذا صرفت وجهك الظاهر من الجهات المتشتتة لعالم الطبيعة وتوجهت إلى النقطة الواحدة فقد ادّعيت فطرتين من الفطر التي خمّرت بيد الغيب واختفيت في ذاتك وقد خمّر الحق تعالى طينتك بها بيد الجلال والجمال وقد أظهرت هاتين الحالتين الفطريتين بصورة ظاهرة دنيوية وأشهدتهما بها وأقمت البينة

على عدم احتجابك من نور هاتين الفطرتين الالهيتين، والبينتان هما صرف الظاهر عن الغير والتوجه إلى القبلة التي هي محل ظهور يد الله وقدرة الله، وهاتان الفطرتان الالهيتان احداهما هي التنفّر عن النقص والناقص، والثانية هي العشق للكمال والكامل، وهذان اللذان أحدهما أصلي ذاتي والثاني تبعي ظلّي من الفطر التي خمرت بها جميع عائلة البشر ومن دون استثناء أحد منهم. ففي جميع سلسلة البشر مع اختلافهم في العقائد والاخلاق والطبائع والامزجة والامكنة والعادات في البدوي منهم والحضري والوحشي والمتمدن والعالم والجاهل والالهي والطبيعي. هاتان الفطرتان مخمرتان وان كانوا هم محجوبين عن هذه الفطرة ويختلفون في تشخيص الكمال والنقص والكامل والناقص، فذاك الوحش السفّاك الفتّاك القتّال يرى الكمال في أن يغلب على نفوس الناس وأعراضهم ويرى السفك والقتل كمالا فيصرف فيه عمره، وذاك الطالب للدنيا الطالب للجاه والمال يرى الكمال بالمال والجاه ويعشقهما.

وبالجملة فصاحب كل مقصد يرى مقصده كمالا وصاحبه كاملا ويعشقه ويتنفّر عن غيره. فالانبياء عليهم السلام والعلماء بالله وأصحاب المعرفة قد جاؤوا ليخرجوا الناس عن الاحتجاب ويخلصوا نور فطرتهم من ظلمات الجهل ويفهموهم الكامل والكمال، فانهم بعدما عرفوا شخص الكمال والكامل فالتوجّه اليه وترك غيره لا يحتاج إلى الدعوة بل نور الفطرة هو أعظم هاد الهي وهو موجود في جميع سلالة البشر.

وفي هذا المعجون الالهي، أعني الصلاة التي هي معراج القرب الالهي الاستقبال إلى القبلة والتوجه إلى النقطة المركزية ورفع اليد وصرف الوجه عن الجهات المتفرقة ادعاء بأن الفطرة قد تيقّظت وخرج نور الفطرة عن الاحتجابات وهذا الادّعاء حقيقي بالنسبة إلى الكمّل وأصحاب المعرفة. وأما بالنسبة الينا أصحاب الحجاب فأدبه أن نفهّم القلب أنه لا كمال ولا كامل في جميع دار التحقق سوى الذات المقدسة الكاملة على الاطلاق فان تلك الذات المقدسة كمال بلا نقص وجمال بلا عيب وفعلية بلا شوب القوة وخير بلا اختلاط بالشرّ ونور بلا شوب ظلمة، وما يوجد في جميع دار التحقق من الكمال والجمال والخير والعزّة والعظمة والنورانية والفعلية والسعادة فهو من نور جمال تلك الذات المقدسة وليس لاحد شركة للذات المقدسة في كمالها الذاتي، وليس لموجود جمال ولا كمال ولا نور ولا بهاء الا بجمال تلك الذات المقدسة وكمالها ونورها وبهائها.

وبالجملة، ان العالم قد تنوّر بجلوة جماله المقدس وأعطي له الحياة والعلم والقدرة والا فجميع دار التحقق كانت في ظلمة العدم وكمون الليس وبكون بل من كان قلبه منورا بنور المعرفة يرى كل شيء غير نور جمال الجميل باطلا ولا شيء، ومعدوما أزلا وأبدا.

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما سمع هذا الشعر للبيد: * الا كل شيء ما خلا الله باطل * قال صلى الله عليه وآله: "هذا الشعر أصدق شعر قاله العرب" فاذا فهّمت قلبك بطلان جميع دار التحقّق وفهّمته كمال الذات المقدسة فلا تحتاج في توجّه القلب إلى القبلة الحقيقية والعشق لجمال الجميل على الاطلاق والتنفّر من جميع دار التحقق سوى جلوة الذات المقدسة إلى إعمال رويّة بل فطرة الله بنفسها تدعو الانسان اليه بالدعوة الجبلّيّة الفطرية وتكون وجّهت وجهي للذي فطر السموات والارض لسان الذات والقلب والحال وتكون اني لا أحب الافلين لسان فطرة الانسان.

فاعلم أيها الفقير ان العالم بوجهته السوائية زائل وداثر وفانٍ وباطل ليس لاحد من الموجودات من قبل نفسه شيء وليس في ذاته جمال ولا بهاء ونور وسناء، والجمال والبهاء منحصر بالذات المقدسة، فتلك الذات المقدسة

كما أنها متفردة في الالوهية ووجوب الوجود، متفردة بالجمال والبهاء والكمال أيضا بل متفرّدة بالوجود، وان الذلّ والعدم الذاتي والبطلان ثابتة في ناصية ما سواه، فاصرف قلبك الذي هو مركز لنور فطرة الله من الجهات المتشتتة للاباطيل والاعدام والنواقص ووجهه إلى مركز الجمال والكمال وليكن لسان فطرتك في ضميرك الصافي.. ما يقوله العارف الشيرازي:

در ضمير ما نمى كنجد بغير ازدوست كس

هر دو عالم رابد شمن ده كه مارادوست بس (لا تسع قلوبنا أحد غير الحبيب فدع الكونين للعدوّ فان الحبيب يكفينا).

وصل: عن الامام الصادق عليه السلام: "اذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه واستفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله تعالى وعاين بسرّك عظمة الله تعالى واذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كل نفس ما أسلفت وردّوا إلى الله مولاهم الحق وقف على قدم الخوف والرجاء".

وهذا الدستور الشريف دستور جامع لامثالنا المحجوبين الذين لا نستطيع أن نحافظ دائما على حالات قلوبنا ونجمع بين الوحدة والكثرة ونتوجّه إلى الحق والخلق فحينئذ لا بد لنا أن نيأس من الدنيا وما فيها عند التوجّه إلى الحق واستقبال القبلة ونقطع طمعنا عن الخلق وشؤونه ونخرج عن روحنا وقلبنا المشاغل القلبية والشواغل الروحية لنصير لائقين للحضور في الحضرة ويتجلى في سر روحنا جلوة من جلوات العظمة، فاذا وجدنا نور العظمة على مقدار استعدادنا نتذكر رجوعنا إلى الحق ووقوفنا في محضره المقدس يوم يظهر لكل نفس ما عملت وردّوا إلى الله مولاهم الحق ويقع خط البطلان على جميع الاهواء النفسانية والمعبودات الباطلة، ففي محضر هذا العظيم الشأن الذي جميع دار التحقق هي جلوة من جلوات فعله فإن مسكينا مثلك ومثلي لا بد وان يرد بقدمي الخوف والرجاء ويقوم على تينك القدمين وإذا رأينا الضعف والفتور والمسكنة والفقر والذلّة لانفسنا والعظمة والحشمة والجلال والكبرياء في الذات المقدسة فنقع في الخوف والخشية على خطر المقام واذا وجدنا الرحمة والعطوفة والالطاف غير المتناهية والكرامات اللانهائية نكون راجين وآملين

المقالة الثالثة

في مقارنات الصلاة

وفيها

ثماثية أبواب

الباب الأول

بعض آداب الأذان والإقامة

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في سرّهما الجملي وآدابهما الاجمالية (روى الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) في كتابه من لا يحضره الفقيه عن عبدالله بن علي قال: "حملت متاعي من البصرة إلى مصر فقدمتها فبينا أنا في بعض الطريق فاذا أنا بشيخ طويل شديد الادمة (شديد السمرة) أبيض الرأس واللحية عليه طمران أحدهما أسود والاخر أبيض فقلت من هذا؟ قالوا: بلال مولى رسول الله فأخذت ألواحي فأتيته".

أقول: الظاهر ان الراوي وهو عبدالله بن علي كان تاجرا، وقوله أخذت ألواحي فأتيته مما يلفت النظر إلى أن المسلمين في الصدر الأول كانوا حريصين على أخذ العلم والحديث. فهذا الرجل التاجر في حين انه كان يدور البلدان في تجارته فان له ألواحا معدّة لكتابة الحديث كمتعلم مستعدّ للدراسة، وبمجرد أن عرف بلالا أخذ ألواحه وأسرع في حضور مجلس الدرس.

قال: فأتيته فسلّمت عليه فقلت له: السلام عليك أيها الشيخ. فقال: وعليك السلام. فقلت: يرحمك الله حدّثني بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: وما يدريك من أنا؟ فقلت: أنت بلال مؤذن رسول الله. قال: فبكى وبكيت حتى اجتمع الناس علينا ونحن نبكي.

أقول الظاهر أن بلالا لما سمع اسم رسول الله، تذكّر تلك الايام الذهبية ومثل له رسول الله بسيمائه الملكوتيّة وتجدّدت له خواطر اللطف و المحبة التي كانت له من رسول الله فبكى حتّى أبكى الرجل التاجر أيضا وانجذب الناس اليه ينظرون ويتفكرون في امره.

قال: ثم قال: يا غلام من أي البلاد أنت؟ قلت: من أهل العراق. قال: بخ بخ ثم سكت ساعة ثم قال اكتب يا أخا أهل العراق: بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: المؤذنون أمناء المؤمنين على صلاتهم وصومهم ولحومهم ودمائهم لا يسألون الله عز وجل الا أعطاهم ولا يشفعون في شيء الا شفعوا.

أقول: إن قبول الشفاعة وإعطاء السؤال للمؤذنين في مقابل ما لهم من كلفة المسؤولية ومشقة أداء الوظيفة التي على عهدتهم كالشرطة في المدينة والدرك في البرّ فانهم وان كانوا متعهدين حفظ اموال الناس ونفوسهم والوفاء بهذا العهد أمر صعب ولكنه في مقابل هذا التعهدّ تقبل تقريراتهم وشهاداتهم عند الحكومة، فكذلك المؤذنون موظّفون ان يعلنوا اسلام أهل المدينة او القرية عندما يمرّ عليهم جند الاسلام، وكذلك أن يعلنوا ان اللحوم التي تباع في سوقهم يجوز أكلها لان السوق سوق المسلمين، وفي الافطار في الصوم وكذلك الامساك عن الاكل والشرب وسائر المفطرات الاعتماد على أذانهم وكذلك دخول أوقات الصلاة فلابد أن يكونوا أمناء وأن يتحملوا ويراقبوا الوقت وهذا يلازم المشقة ويازاء هذه المشقة تكون شفاعتهم مقبولة ودعاؤهم مستجابا.

رجعنا إلى الحديث:

قلت: زدني رحمك الله تعالى. قال: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "من أذن أربعين عاما محتسبا بعثه الله عز وجل يوم القيامة وله عمل أربعين صدّيقا عملا مبرورا مستقبلا".

قلت: زدني رحمك الله. قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "من أذن عشرين عاما بعثه الله عز وجل يوم القيامة وله من النور مثل زنة السماء".

أقول: ان تلقين توحيد الله وعظمته جل جلاله للنفس طوال عشرين سنة كل يوم من أيامها خمس مرات مرافقاً للتقلين السمعي يوجد في سماء الروح والقلب نوراً أضاء صراطه في الآخرة ظهوراً تاماً عند مروره بالصراط الجسر الممدود بين الجنة والنار فتقول لهم جهنم جَزْياً فلان فقد أطفأ نورك ناري.

رجعنا إلى الحديث:

قلت: زدني رحمك الله. قال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "من أذن عشر سنين أسكنه الله مع ابراهيم الخليل في قبّته أو درجته.".

قلت: زدني يرحمك الله. قال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "من أذن سنة واحدة بعثه الله عز وجل يوم القيامة وقد غفرت له ذنوبه كلّها بالغة ما بلغت ولو كانت مثل زنة جبل أحد".

قلت: زدني يرحمك الله. قال: نعم فاحفظ واعمل واحتسب. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "من أذّن في سبيل الله صلاة واحدة ايمانا واحتسابا وتقرّبا إلى الله تعالى غفر الله له ما سلف من ذنوبه ومنّ عليه بالعصمة فيما بقي من عمره وجمع بينه وبين الشهداء في الجنة".

أقول: هذا تفضّل من الله سبحانه بأنه يعطي لمن أذن في سبيل الله صلاة واحدة وقام بالايثار والفداء والتفدّي لله سبحانه ولو بهذا المقدار اليسير أجر الذين ضحوّا بأنفسهم ودمائهم واستشهدوا في سبيل الله وان الله يجمع بينه وبنيهم في الجنة ولا يذهب عليك ان الاجتماع مع الشهداء في الجنة لا يلازم الاشتراك معهم في المقام والمرتبة والتنعّمات الروحانية كما هو كذلك في هذا العالم فإن الاجتماع روحاني أو كبير من الكبراء وان كان فخرا وشرفا في حدّ نفسه لكنه لا يلازم البلوغ إلى مرتبته كما هو واضح.

بقية الحديث:

قلت: زدني يرحمك الله، حدّثني بأحسن ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: ويحك يا غلام قطعت نياط قلبي.

وبكى وبكيت حتى اني والله لرحمته ثم قال:

أقول: لا ندري مِمَّ كان بكاء بلال وهذه الجذبة الجديدة من أين كانت له أكان من مضمون الحديث الذي ذكره بعد هذا السؤال أو أن كيفية سؤال الراوي جدّدت في قلبه خواطر كانت منسيّة؟ وعلى كل حال ثم قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "اذا كان يوم القيامة وجمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد بعث الله إلى المؤذنين ملائكة من نور ومعهم ألوية وأعلام من نور يقودون نجائب أزمّتها من زبرجد أخضر وخفائفها المسك الاذفر يركبها المؤذنون فيقومون عليها قياما تقودهم الملائكة ينادون بأعلى صوتهم بالاذان.".

أقول: اهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله بتعريف الازمة والخفائف فلعله من جهة أن الزمام والخفّ يرمزان إلى المبدأ والمنتهى، فالاذان الذي هو يبدأ بالتكبير والتعظيم لله سبحانه ويختتم بكلمة التوحيد ففي عالم تجسّم الاعمال وتبدّل الاعراض بالجواهر ينبغي أن يتمثّل هذا العمل النوراني ووسيلة السلوك إلى الله بمركوب من نور يكون مبدؤه جوهرة قيّمة وعظيمة كزبرجد باللون الاخضر الذي هو مبتدأ اللون للجماد عند تحوله إلى عالم الحياة وهو عالم النبات ويكون منتهاه وخفّه من المسك الاذفر الذي يرمز إلى تعطّر فضاء الروح بعطر التوحيد أو أنّ الزمام يرمز إلى الامام والمقصد هو سيادة الاسلام ولواء الفتح الاخضر وان الاذان يفوح كالمسك الاذفر حيثما حلّ وقدم ويكون أثر قدومه تعطير ذاك المحيط. وعلى أي حال فالمؤذنون يركبون تلك المراكب النورية وهم قيام عليها وعلى هيئة موقرة وبعظمة وجلال لانهم أذنوا في الدنيا وهم قائمون وأظهروا عظمة الاسلام وجلاله.

(قال الراوي): ثم بكى بكاء شديدا حتى انتحب وبكيت فلما سكت قلت: ممّ بكاؤك؟ فقال: ويحك ذكّرتني أشياء سمعت حبيبي وصفيّي صلى الله عليه وآله يقول: "والذي بعثني بالحق نبيّا إنهم يمرون على الخلق قياما على الجنائب فيقولون: الله أكبر فاذا قالوا ذلك سمعت لأمّتي ضجيجا فسأله اسامة بن زيد عن ذلك الضجيج ما هو؟ قال: الضجيج: التسبيح، والتحميد، والتهليل. واذا قالوا أشهد أن لا إله إلا الله قالت أمتي إيّاه نعبد في الدنيا. فيقال: صدقتم. واذا قالوا: أشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله: قالت أمتي: هذا الذي أتانا برسالة ربنا جل جلاله وآمنّا به ولم نره فيقال لهم صدقتم هذا الذي أدّى إليكم الرسالة من ربّكم وكنتم به مؤمنين فحقيق على الله عز وجل أن يجمع بينكم وبين نبيّكم فينتهي بهم إلى منازلهم وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". ثم نظر اليّ فقال: ان استطعت ولا قوّة الا بالله ألا تموت الا وأنت مؤذن فافعل.

فقلت يرحمك الله، تفضّل علّي وأخبرني فإني فقير محتاج وأدّ إليّ ما سمعت من رسول الله فانك قد رأيته ولم أره وصف لي كما وصف لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بناء الجنة.

فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "أن سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطه المسك الاذفر وشرفها الياقوت الاحمر والاخضر والاصفر". قلت: فما أبوابها؟ قال: ان ابوابها مختلفة.

أقول: ان الرجل التاجر شرع في السؤال عن بناء الجنة وتضرّع إلى بلال أن يحدّثه بما سمع من رسول الله فأجابه بلال بما تحمّله من التكلّف كما يظهر من الحديث فحدّث بلال عن الجنة المأوى وجنة عدن وجنة الفردوس ولكنه قبل أن يحدّث عنهذه الجنّات حدّث عن بناء الجنة وأبوابها ومن أجل فهم أسرار الحديث وبالخصوص كلمة الباب لابد أن نتوجّه إلى معنى الباب في المقام وما معنى باب الجنة؟

نحن نرى في المجتمع أن أبواب المدينة تسمّى باسم الناحية التي يفتح الباب اليها ففي طهران مثلا يقال باب خراسان أو باب مازندران أو باب شميران مع أن الباب على مدينة طهران لا على خراسان ومازندران وشميران فإن خراسان مثلا منطقة وسيعة ومحافظة كبيرة لا يمكن نصب الباب عليها وكذلك مازندران وشميران فالباب انما هو لأهل طهران وانهم اذا أرادوا أن يصلوا إلى خراسان مثلا فيمرّون بذلك الباب، فكذلك باب الجنة ليس على الجنة بل هو باب لأهل الجنة وعلى مدينة أهل الجنة وبلدهم وعلى اوضاعهم الاخلاقية وأفراد ملّتهم وكذلك باب الرحمة الالهي أو باب مغفرته فانه أطوار وأحوال لنا لا ان الرحمة الالهية عليها باب فإن الرحمة غير المتناهية لا تقبل الباب، وهكذا أبنية الجنة هي الابنية التي تبنى في مجتمع كل ملّة يوجب استحقاقها الجنة، وهكذا سيد شباب أهل الجنة مع أن أهل الجنة بأجمعهم شبّان، فمعنى سيد شباب أهل الجنة أنّ شباب هذه الدنيا اذا أرادوا أن يكونوا من أهل الجنة فلا بد أن يكون سيدهم وأميرهم وقائدهم الحسين عليه السلام والا لم يكونوا من أهلها، فهذا معنى باب الجنة وسورها والا فالجنة أعلى وأعظم من أن نقول عليها باب أو سور، فان الجنة ليست محلا وسيعا ومكانا عظيما فحسب بل هي عالم وسيع وغير متناه وأوسع من السموات والارض وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض (آل عمران 133) كعالم الحياة فباب عالم النطفة مفتوح للنطفة واذا مرتّ النطفة به وهو الاحوال والاوضاع والشرايط المعيّنة فتدخل في عالم الحياة الوسيع الذي لا مبدأ له ملا منتهى، كعالمنا هذا بل أوسع.

ولكن حيث أن العالم الوسيع الشريف لكل فرد وأمّة في حياتهم لا يتيسّر الا بصرف الذهب والفضة وتأسيس المشاريع الخيرية بهما وتقديم مهجته الياقوتية ولا يتمكن أحد من أن يدخل الجنة الا من هذا الطريق. وأيضا حيث أن أهل الجنة هم مبادئ الخير والصلاح لمجتمعهم وأهلهم وعوائلهم وحيثما كانوا يعطّرون فضاءه بعطر الخدمات الحسنة فلهذا صار سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطه المسك الاذفر. فالتاجر وذوو الثروة يتمكنون أن يحصروا الجنة بالذهب والفضة وصرف مهجتهم الياقوتية أن يجعلون أنفسهم من أهل الجنة والا فالبناء والقصر والحصن والسور ممّا يتعلّق بهذا العالم لا الجنة التي هي أوسع من السماء والارض فانها لا تقبل السور والجدار الا من جهتها التي إلى هذا العالم والوجهه الدنيوية وإلى الجدران التي هي حيّة وناطقة كما في الحديث ان جدران الجنة تتكلم. فبناء المشروعات الخيرية وانشاء المؤسسات الحيوية بالانفاقات من الذهب والفضة يحسب لابناء الشعب الاسلامي لبنة لبنة وكل نفقة من الذهب والفضة تكون كلبنة في بناء جنتهم أي في كونهم من أهل الجنة فإن بناء عالم الاخرة يكون في عالم الدنيا والدنيا مزرعة الاخرة.

وبعد هذا التمهيد نقول: ان السؤال الاول للرجل التاجر من بلال السؤال عن بناء الجنة بتضرّع وابتهال، فأجاب بلال بأن سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطه المسك الاذفر وشرفها الياقوت الاحمر والاخضر والاصفر. قلت: فما أبوابها؟..

فقبل أن نتكلم عن أبواب الجنة نتوقف قليلا في شرف الجنة ونقول: ان الشرف المدرّجة ومسنّنات حصون التاريخ المحققة والمؤسسة لكل فرد وأمّة نتيجة جهاد المجاهدين تمثل المهج الياقوتية التي بذلها المجاهدون فتارة أصابهم الفتح فحقّقوا لانفسهم أو لأمتهم النشاط والسرور والاخضرار، وأخرى أسروا وسجنوا واصفرّت وجوههم وعوارضهم نتيجة الجوع وتحمّل المشاق في السجن وثالثة أصبحوا حمر الوجوه وحمر الالوان لما ضرّجوا بدمائهم. والنموذج الواضح لهذا، الامة الاولى للاسلام وحصرهم في شعب أبي طالب وسجن المؤمنين كعمارة وبلال وصهيب وخباب ابن مسعود، والتعذيب الذي كان من الكفار عليهم وما أصابهم من الجوع وأنواع التعذيب التي صارت سببا لاصفرار وجوههم، ثم الملطّخون بدمائهم في ساحات التعذيب التي صارت كبدر وأحد وكربلاء وفي الامة الاسلامية الاخيرة ما حدث في الثورة الاسلامية بايران من الفتح والاستشهاد والاسر والسجن.

وعلى أي حال، ان تاريخ الاسلام في امتداد الزمان مدرّج بالارتفاع والانخفاض وشرفه ملوّنة بهذه الالوان الثلاثة. ويبدو في النظر أن البناء الذي يكون مدرّجا أوضح وأبين في مدّ البصر مما لم يكن كذلك. هذا واما الكلام في أبواب الجنة فقال الراوي وهو عبدالله بن علي قلت: فما أبوابها؟ فعدّ بلال منها خمسة مع أن أبواب الجنة ثمانية فلعلها سقطت من قلم الراوي أو الناسخ أو أنها امّحت عن خاطر بلال ولكنه ذكر الابواب من أخلاق الامة لا أعمالها: كباب الرحمة والشكر والصبر والبلاء وذكر لبعضها حلقة دون البعض الاخر وذكر ان لبعضها مصراعين ولبعض مصراعا واحدا. وذكر أن باب واحدا من هذه الابواب له نطق وباقي الابواب صامتة. وقد ذكر في بعض الاحاديث أيضا أن حلقة باب الجنة اذا دقّت تقول يا علي ولعله يرمز إلى العلّي الاسم الالهي ويستمدّ من العلوّ ويشير إلى قانون التكامل وسنّة النموّ والارتقاء وتكامل الفرد والامة الذي يوجب كونهم من أهل الجنة أو لعله يرمز إلى المحبة والتبعية للقائد المتعالي الاسلامي علي عليه السلام الذي يقود الامة إلى الجنة.

فالآن يشرع بلال في البحث عن أبواب الجنة جوابا لسؤال الرجل التاجر البصراوي فيقول: ان ابوابها مختلفة ثم عدّها طبقا للأخلاق الخمسة الرحمة والصبر والشكر والبلاء والباب الاعظم الانس بالله، ثم شرع في بيان شؤون

جنة المأوى وجنة عدن وجنة الفردوس. فمن المعلوم أن أبواب الجنة تنفتح للفرد والامة من هذه الاخلاق العالية الفاضلة فيطؤون طريق التكامل وسبيل الارتقاء والتعالي فينفتح باب الجنة للافراد أصحاب الرحمة على الفقراء والمستضعفين، ومن خلق الشكر للاغنياء والصبر في البأساء والضرّاء، فالرحمة والشفقة والعاطفة الغريزية في الامهات بالنسبة إلى الاولاد تفتح باب الجنة على الاطفال الذين لايملكون لانفسهم نفعا ولا ضرّا، فكل قدم للام بالنسبة إلى طفلها تفتح لها بابا إلى الجنة فإن الجنة تحت أقدام الامهات لأن قائدها الرحمة وتفكرها الرحمة وتتابع الرحمة على الضعفاء، وبما أن هذه الرحمة غريزية فإنها مأمونة عن النسيان ولا يؤثر في زوالها الحدثان فلا يعطّل أمر الصغار الضفاف وهذا النوع من الرحمة موجود في الآباء بالنسبة إلى الاولاد والاسرة. فهم يقضون حوائجهم ويرتّبون أمورهم ويتعبون أنفسهم لتأمين معاشهم ومسكنهم وملبسهم وهكذا الرحمة في المعلم بالنسبة إلى التلميذ والعلماء بالنسبة إلى الجهال، فبمقدار ما تقل الرحمة في كل قشر وطبقة تقل مظاهرها وأسباب السعادة فأظهر مصاديقها الامهات والاباء الذين يربّون أولادهم بمعاناة المشقة.

وأما شكر الضعفاء للاقوياء والفقراء للأغنياء على ما يخدمونهم ويقضون حوائجهم فيشكرونهم ويقدّمون لهم عواطفهم ومحبتهم، وان كان ايضا ياقوتا الا انه ياقوت ابيض لما فيه من الصفاء والتبلور ولذا يعطي الصفاء والنور لقلوب الساعين في حوائجهم.

وأما باب الشكر فإنه ناطق يتكلم وفيه إشعار بأن الشكر له ظهور وبروز ويكون مع الصلوات والتحيات وتحنّ قلوب الشاكرين إلى من قام بخدمتهم، وله مصراعان فالضعفاء يشكرون الاقوياء بواسطة شكرهم تصير رغبتهم للخدمة أكثر وشوقهم أشدّ فشكر المسضعفين من حيث أنه يشوّق القائمين بالخدمة ويدعو غيرهم بالشركة معهم فهو أيضا باب إلى الجنة، كما أن القيام بحوائجهم باب اليها فلباب الشكر مصراعان وله في نفس الوقت أنين وحنين فالمجالس والاحتفالات التي تقام شكرا لايثار الشهداء وبالخصوص لعاشوراء الحسين وأصحابه والصرخات والزفرات فيها والسلام على عباد الله الصالحين في الصلوات وجماعات المسلمين كلها لاظهار الاحساس والمحبة كما أن صياح فليعش فلان أو فيلحَى فلان أو الاصوات: أحسنت أحسنت كلها تقوى وتشجّع روح الايثار والتضحية في الافراد.

وبالجملة، باب الشكر باب واسع وله ضجيج وأنين. وأما باب الرحمة فليس له نطق بل هو صامت بلا ضجيج يتجلى بصورة عاطفية. واليك نص حديث بلال:

قلت فما أبوابها؟ فقال: ان ابوابها مختلفة، باب الرحمة من ياقوته حمراء، قلت: فما حلقته؟ فقال: ويحك كفّ عني فقد كلّفتني شططا.

قلت: ما أنا بكافّ عنك حتى تؤدي إليّ ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم أما باب الصبر فباب صغير مصراع واحد من ياقوته حمراء لا حلقة له، وأما باب الشكر فإنه من ياقوتة بيضاء لها مصراعان ما بينهما مسيرة خمسمئة عام له ضجيج وحنين يقول اللهم جئني بأهلي. قال: قلت: هل يتكلم الباب؟ قال: نعم ينطقه الله ذو الجلال والاكرام.

أقول: حلقة الباب للاعلام والاطلاع للذين هم في الجانب الاخر للباب وقد يستعان بها لفتح الباب وسدّه فلهذه الجهة الانسب ألاّ تكون لباب الصبر حلقة ولا يطّلع من في الجانب الآخر على من في هذه الجانب. فقد قال

المحقق الطوسي: الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه وهو يمنع الباطن عن الاضطراب واللسان عن الشكاية والاعضاء عن الحركات غير المعتادة. وقال الصادق عليه السلام في جواب جابر وقد سأله عن الصبر الجميل: ذلك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس.

وأما قوله فباب صغير له مصراع واحد بخلاف باب الشكر فإن له مصراعين مسيرة ما بينهما خمسمئة عام فلعله يرمز إلى سعة رحمة الله تعالى وقلّة الابتلاء كما قال تعالى: {وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها} (النحل ـ 18).. وقال تعالى: {ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع} (البقرة ـ 155). وهذا مقتضى سبق الرحمة الغضب كما ورد: يا من سبقت رحمته غضبه.. وقال تعالى: {عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء} (الاعراف ـ 156).. هذا مع الغضّ عن أن الابتلاء في كثير من الموارد بل في جميعها حتى بالنسبة إلى الكفّار من مظاهر رحمته تعالى كما حقق في محلّه، ويتضح ما ذكرنا من تتمة الحديث: قال بلال وأما باب البلاء، قلت: أليس باب البلاء هو باب الصبر؟ قال: لا قلت. فما البلاء؟ قال: المصائب والاسقام والامراض والجذام، وهو باب من ياقوتة صفراء بمصراع واحد ما أقل من يدخل فيه.

أقول: الاصفرار على وجوه المرضى والمبتلين بالاسقام والمصائب والجذام مشهود وما أقل أمثال أيّوب نبي الله عليه السلام في الانام.

قال التاجر البصراوي: قلت: يرحمك الله زدني وتفضّل عليّ فإني فقير. فقال: يا غلام لقد كلّفتني شططا، أما الباب الاعظم فيدخل منه العباد الصالحون وهم أهل الزهد والورع والراغبون إلى الله عز وجل المستأنسون به. قلت: يرحمك الله فإذا دخلوا الجنة فماذا يصنعون؟

قبل أن نسمع الجواب من بلال لابد أن نتوجه إلى أنّ الجنة من الجهة التي تواجه الدنيا لها أبواب وأبنية وضجيج وحنين، وأما الجهة الاخرى التي تواجه الاخرة فإلى اين تنتهي؟ انها تنتهي إلى العالم اللا متناهي لا محالة أي لا تتناهى ولكن كلّياتها هي جنة المأوى وجنة عدن وجنة الفردوس.

فأولها الماء والخضرة، فالماء يرمز للحياة والخضرة إلى النشاط والسرور ووسطها مساكن ومواقف ومحلّ الاقامة (عدن بالمكان: أقام فيه) فهي المستقرّ الفكري والروحي والاخلاقي لكل انسان وآخرها جنّة الفردوس التي تمتد بامتداد النور فإلى العالم اللامتناهي إلى ما لابدء له ولا نهاية فحدّها عدم الحدّ وسرورها بلا حدّ كحسّ التجمّل وحبّ الجمال فانه لا يشبع ولا ينتهي ولا يقف في حدّ فالتاجر المسافر لشعوره ونشاطه يسأل بلالا عن هذه الامور.

قلت: يرحمك الله، فاذا دخلوا الجنة فماذا يصنعون؟ قال: يسرون (يصيرون) على نهرين في ماء صاف (من ماء صاف) في سفن الياقوت مجاذيفها اللؤلؤ فيها ملائكة من نور عليهم ثياب خضر شديدة خضرتها.

قلت: يرحمك الله: هل يكون من النور أخضر؟ قال: ان الثياب خضر لكن فيها نوراً من رب العالمين (جل جلاله) يسيرون على حافتي ذلك النهر.

أقول: الاستبعاد والاستفهام عن النور الاخضر ليس بغريب في ذاك اليوم وحتى اليوم مع الغفلة عن التجزئة الطيفية فظاهرة جديدة لكن جواب بلال ظاهر في أنه توهم النور الاخضر كالانوار الملوّنة لا أنه نور حقيقة بين الانوار.

والملائكة التي تعمل بالسفينة والماء ملائكة العمران ومبدأ لكل نشاط وسرور، فالماء هو المنشأ للحياة واليخضور الذي تخضر منه الاغصان والاوراق يحتوي قوي طبيعية وهو بخضرته ألقى عليها سترا والقوى دائما مستورة تحت ثياب الالوان والاشكال والاوضاع وتظهر الملائكة والقوى الفعّالة جمالها من وراء الالوان والاشكال الهندسية والانظمة فتغمر الأرض وتجعلها مخضرّة شديدة الخضرة، هذه حقيقة الامر في هذا العالم. وأما ما أجابه بلال قلت: فما اسم ذلك النهر؟ قال: جنة المأوى. قلت: هل في وسطها غيرها؟ قال: نعم جنة عدن وهي في وسط الجنان، وأما جنة عدن فسورها ياقوت أحمر وحصاتها اللؤلؤ.

أقول: قد ذكرنا ان جنة عدن هي مساكن ومحل الاقامة لاهل الجنة فبناء هذا يمكن أن يكون المراد من وسط جنة المأوى الذي وقعت فيه جنة عدن الباطن لا المعنى الوضعي والمحاذاتي، فجنة عدن هي باطن جنة كما أن جنة المأوى هي نهاية السير التكاملي للمجتمع. فعالمنا هذا مع ما له من الجمال كأنه حاشية لجنة المأوى، وفي نهاية العالم واخضراره وقد أظلتها شجرة الحياة وهو سدرة المنتهى بقرب من جنة المأوى فهنالك آخر مراتب السير التكاملي لامّة آخر الزمان، والرسول الخاتم صلى الله عليه وآله رأى جبرائيل في النوبة الاخيرة عند سدرة المنتهى والنوبة الاخيرة هي المرحلة الاخيرة التي صار فيها كل ما في القوة صائرا في الفعل {ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى} (النجم 13 ـ 15) تأوي اليها القلوب.. فنسبة جنة عدن وجنة المأوى نسبة ساحل البحر ووسطه. فالامواج الساحلية من وسط البحر.

فجنة المأوى كموج ساحلي لجنّة عدن ولا بد للوصول من الساحل إلى وسط البحر من ركوب السفينة، فهذا العالم بما له من الجمال حاشية الجنة من جانبها الدنيوي فيوصلنا إلى جنة المأوى ويوصلنا الجمال الصافي لجنة المأوى إلى جنة عدن التي يفور منها الجمال، فكما أن الموج يبدأ من وسط البحر فيجيء إلى الساحل فيأخذ ما في الساحل ويرجع إلى المركز فيستقرّ فيه كذلك لموج الجمال أيضا مستقرّ وقرار أفلا تنظرون إلى موج الجمال كيف يطفح من أكناف السماء وأطراف الأرض فيجذب القلوب ويردّها إلى مستقرّها وهو جنّة الفردوس؟.

قال التاجر البصراوي: فقلت: وهل فيها غيرها؟ فقال: نعم جنة الفردوس. قلت: وكيف سورها؟

قال: ويحك كفّ عني حرت (حيّرت) على قلبي. قلت: بل أنت الفاعل بي ذلك. قلت: ما أنا بكاف عنك حتى تتم لي الصفة وتخبرني عن سورها.

أقول: أنا لا ادري ما الذي كان يزعج بلالاً ويجور على قلبه. ولماذا لا يجيب السائل بسهولة؟ أكان لتذكرة الاحبّاء والاعزّة الذين مضوا على السبيل وتركوه، وإن تذكر الاحبة ليضغط القلب ويؤلمه أو أن بلالاً كان يتألم من ذكرياته والنبي الاكرم أو أن هذه الاسئلة تجبره على التفكر والتذكر لما كان مخبوءا في ذهنه ولبّه فيضطرّه لتعتيم الجواب أو كلا الامرين؟ وعلى كل حال، قال: سورها نور.

أقول: لعلّ قوله: سورها نور بمعنى أنه ليس لها سور فإن النور ليس له حدّ يقف فيه بل يسري ويجاوز حدود السموات، والجو الذي لم يعلم له نهاية فمدى سير النور جنة الفردوس ومنتزهها مع العلم بأن مسير النور هو العالم غير المتناهي، النور يسري في كل ثانية خمسين ألف فرسخ، ونور الشمس يصل إلينا في مدة ثماني دقائق وسبع عشرة ثانية، ويسري النور بهذه السرعة أربع سنوات حتى يصل إلى أوّل كوكب قريب منا (نجمة آلفا) ويسري ملايين السنين قبل أن يصل الينا الان منذ تحرك من مبدئة وحيث أن نور العلم يضيء إلى هذا العالم الذي لا حدّ له و إلى غير النهاية فمنتزه الجنة وجنة الفردوس مع سير النور يتصلان بالعالم غير المتناهي.

قلت: ما الغرف التي فيها؟ قال: هي من نور رب العالمين عزّ وجلّ.

أقول: قد عبّر عن العلم بالنور في كثير من الاحاديث وشعب العلم كلها غرف وهي غير متناهية.

قلت: زدني يرحمك الله: قال: ويحك إلى هذا انتهى بي رسول الله صلى الله عليه وآله طوبى لك إن أنت وصلت إلى ما له هذه الصفة وطوبى لمن يؤمن بهذا.

قلت: يرحمك الله، أنا والله من المؤمنين بهذا.

قال: ويحك، انه من يؤمن أو يصدق بهذا الحق والمنهاج لم يرغب في الدنيا ولا في زينتها وحاسب نفسه.

قلت: أنا مؤمن بهذا. قال: صدقت، ولكن قارب وسدّد ولا تيأس واعمل ولا تفرّط، وأرح وخف واحذر، ثم بكى وشهق ثلاث شهقات فظننّا أنه قد مات، ثم قال: فداكم أبي وأمي لو رآكم محمد صلى الله عليه وآله لقرّت عينه حين تسألون عن هذه الصفة. ثم قال: النجا، النجا، الوحا، الوحا، الرحيل، الرحيل، العمل، العمل، وإيّاكم والتفريط وإيّاكم والتفريط. ثم قال: ويحكم اجعلوني في حلّ مما قد فرّطت، فقلت له: انت في حلّ ممّا قد فرّطت جزاك الله الجنة كما أدّيت وفعلت الذي يجب عليك. ثم ودّعني وقال: أتّق الله وأدّ إلى أمة محمد صلى الله عليه وآله ما أدّيت اليك. فقلت: أفعل ان شاء الله. قال: استودعك الله دينك وأمانتك وزوّدك التقوى وأعانك على طاعته بمشيئته.

أقول: أن عليا أمير المؤمنين عليه السلام: أيضا ينادي كل ليلة عند السحر: "تجهّزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل")

اعلم أن السالك إلى الله لابد له في الأذان أن يعلن للقلب الذي هو سلطان القوى الملكوتية والملكية ولسائر الجنود المنتشرة في الجهات المشتتة للملك والملكوت، اعلان الحضور في المحضر وحيث أنه قد قرب وقت الحضور والملاقاة فيهيئ تلك القوى حتى أنه إن كان من المشتاقين والعاشقين. فلا يفقد الصبر والتحمّل بالتجلّي مفاجاة.

وان كان من المحجوبين فلا يدخل المحضر المقدس بدون تهيئة الاسباب والاداب فالسرّ الاجمالي للأذان هو الاعلان للقوى الملكوتية والملكية والجيوش الالهية للحضور، والادب الاجمالي له هو التنبّه إلى عظمة المقام وخطره وعظمة المحضر والحاضر وتذلّل الممكن وفقره وفاقته ونقصه وعجزه عن القيام بالامر وعن القابلية للحضور في المحضر ان لم يؤيده اللطف والرحمة للحق جل وعلا ويجبر نقصه.

والاقامة: هي اقامة القوى الملكوتية والملكية في المحضر واحضارها في الحضور، وأدبها هو الخوف والخشية والحياء والخجل والرجاء الواثق إلى الرحمة غير المتناهية.

والسالك لابد له أن يفهم قلبه في جميع فصول الأذان والاقامة عظمة المحضر والحضور والحاضر ويجعل ذل نفسه وعجزها وقصورها نصب عينيه حتى يحصل الخوف والخشية ومن الجانب الاخر لابد ان يريه الرحمة الواسعة والالطاف الكريمة حتى يحصل له الرجاء والشوق، فالقلوب العشيقة يغلبها الشوق والجذبة. وبقدم الحب والعشق تضع أقدامها في محضر الأنس، وقلوبهم بواسطة تلك الجذبة الغيبيّة وبما فيها من عشق المحضر والحاضر تشتغل إلى آخر الصلاة بالمعاشقة والمعانقة مع ذكر الحق وفكره.

وفي الحديث عن علي بن ابي طالب عليه السلام قال:

"أفضل الناس من عشق العبادة وعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على يسر أم على عسر".

والقلوب الخوفية يتجلى لها سلطان العظمة وتغلب عليها جذبة القهر وتجعلها في حالة الصعق ويذوبّها الخوف والخشية ويمنعها عن كل شيء القصور الذاتي والاستشعار بذلّة نفسه وعجزة.

وفي الحديث عن موسى بن جعفر عليهما السلام (قال كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي في حقه هو الامام الكبير القدر العظيم الشأن الكثير التهجد الجاد في الاجتهاد المشهور بالعبادة المواظب على الطاعات المشهور بالكرامات يبيت الليل ساجدا أو قائما ويقطع النهار متصدقا وصائما ولفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين عليه دُعي كاظما. كان يجازي المسيء بإحسانه اليه ويقابل الجاني عليه بعفوه عنه ولكثرة عباداته كان يسمّى بالعبد الصالح ويعرف في العراق بباب الحوائج إلى الله ينجح المتوسلون إلى الله به. كراماته تحار منها العقول وتقضي بأن له عند الله قدم صدق لا تزلّ ولا تزول (انتهى). ولد عليه السلام بالابواء ـ منزل بين مكة والمدينة ـ يوم الاحد لسبع خلون من صفر سنة 128 ثمان وعشرين ومئة أمّة عليه السلام حميدة المصفاة البربرية وكانت من أشراف الاعاجم قال الشيخ الاجل الاقدم ابو محمد الحسن بن موسى النوبختي في كتاب الفرق ولد موسى بن جعفر عليه السلام في سنة ثمان وعشرين ومئة وقال بعضهم سنة تسع وحمله الرشيد من المدينة لعشر ليال بقين من شوال سنة تسع وسبعين ومئة وقد قدم هرون الرشيد المدينة منصرفا من عمرة شهر رمضان ثم شخص هرون إلى الحج وحمله معه ثم انصرف على طريق البصرة فحبسه عند عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور ثم أشخصه إلى بغداد فحبسه عند السندي بن شاهك فتوفي في حبسه ببغداد لخمس ليال بقين من رجب سنة 183 ثلث وثمانين ومئة (قفج) وهو ابن خمس أو أربع وخمسين سنة ودفن في مقابر قريش. ويقال في رواية أخرى أنه دفن بقيوده وأنه أوصى بذلك فكانت إمامته خمسا وثلاثين سنة وشهورا.) قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: "ان لله عبادا كسرت قلوبهم خشيته فأسكتهم عن النطق".

والحق تعالى يتجلى لاوليائه الكمّل تارة التجلّي اللطفي ويكون العشق والجذبة الحبية هاديا لهم، كما في الحديث بأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان ينتظر الصلاة ويشتدّ عشقه وشوقه فيقول لبلال المؤذن: "أرحنا يا بلال".. وأخرى يتجلى لهم بتجلي العظمة والسلطنة ويحصل فيهم الخوف والخشية كما نقلت الحالات الخوفية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أئمة الهدى عليهم السلام، وثالثة يتجلى لهم بالتجلي الاحدي الجمعي على حسب طاقة قلوبهم وسعة أوعيتها، ونحن ـ المحجوبين، المشتغلين بالدنيا والمحبوسين في سجن الطبيعة والمغلولين بأغلال الشهوات والآمال، والمحرومين من السعادات العقلية الالهية الذين لا نصحو من سكر الطبيعة إلى صبح الازل، ولا نفيق من نومنا الثقيل أبدا ـ خارجون عن نطاق هذه التقسيمات ومستثنون من نطاق هذا البيان، فآداب الحضور لنا طور آخر والقيام بالوظائف القلبية على شكل آخر ولكن المقدم على الكل أن نخرج من قلوبنا اليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله الذي هو من الجنود العظيمة لابليس ومن القاءات شياطين الانس والجن ولا نتوهم ان لباس هذه المقامات قد خيّط على قامة أشخاص خاصة وأيدي آمالنا عنها قاصرة وأرجل سير البشر عنها راجلة فلا نخطو أصلا ونبقى بالبرودة والوهم مخلّدين في أرض الطبيعة ، لا فليس الامر على ما نتوهّم. نعم في نفس الوقت أيضا أنا أقول: ان المقام الخاص لكمّل أهل الله لا يتيسّر لاحد ولكن للمقامات المعنوية والمعارف الالهية مدارج غير متناهية لها مراتب كثيرة يتيسّر للنوع أكثر تلك المقامات والمعارف والحالات والمدارج،

ان تركتهم البرودة والتهاون الذي في أنفسهم، وترتفع يد العناد والتعصب لاهل الجهل والعناد عن قلوب عباد الله ولا يكون لهم شيطان طريق سلوكهم، فأدب الحضور بالنسبة الينا هو أنه حيث انا في بدء الامر لم نتجاوز عن مرتبة الحس والظاهر، وليس في أعيننا سوى العظمة والجلالة الدنيوية وليس عندنا أي خبر عن العظمات الغيبية الالهية، فلا بد لنا أن نرى محضر الحق تعالى كمحضر سلطان عظيم الشأن قد أدرك القلب عظمته وأن نفهم قلوبنا أن كل عظمة وجلال وكبرياء هي تجلٍ من عظمة عالم الملكوت قد تنزّلت في هذا العالم، وان عالم الملكوت بالنسبة إلى العوالم الغيبية وفي جنبها ليس له قدر محسوس، فنفهّم القلب ان العالم هو المحضر المقدّس لحضرة الحق وأن الحق تعالى حاضر في جميع الامكنة والاحياز، وبالخصوص فإن الصلاة هي إذن خاص للحضور وميعاد مخصوص للملاقاة والمراودة مع الحضرة الاحدية فاذا جعلنا القلب مستشعرا العظمة والحضور وان كان ذلك في بدء الامر مع التكلّف ولكن يستأنس به القلب على التدريج ويكون هذا المجاز حقيقة، فاذا قمنا بالآداب الصورية للتعامل مع مالك الملوك، وأتينا بالآداب الحضورية الظاهرية فيحصل أثر منها في القلب أيضا، ويستشعر القلب العظمة ويصل الانسان تدريجيا إلى النتائج المطلوبة وكذلك بالنسبة إلى آثار الحب والعشق فانها ايضا تحصل بالتحصيل والرياضة، ففي أول الامر لابد أن يعرض على النفس الرحمات الصورية والالطاف الحسية ويوصل إلى القلب مقام الرحمانية والرحيمية والمنعمية كي يستأنس القلب على التدريج ويحصل الأثر في الباطن من الظاهر وتتنوّر مملكة الباطن من آثار الجمال وتحصل النتائج المطلوبة والانسان اذا قام بالأمر وجاهد في سبيل الله فالحق تعالى يؤيده وينجيه باليد الغيبية من ظلمات عالم الطبيعة وينوّر أرض قلبه المظلمة بإشراق نور جماله ويبدله بها السموات الروحية ومن يقترف حسنة نزد فيها حسنا ان الله غفور رحيم. (الحسن بن موسى بن أخت سهل نوبخت متكلم فيلسوف من أعاظم متكلمي الامامية وكان يجتمع اليه جماعة من نقلة كتب (جش) الحسن بن موسى أبو محمد النوبختي شيخنا المتكلم المبرز على نظرائه في زمانه قبل الثلاث مئة وبعدها له على الاوائل كتب كثيرة منها كتاب الآراء والديانات كتاب كبير حسن يحتوي على علوم كثيرة قرأت هذا الكتاب على شيخنا ابي عبدالله رحمه الله وله كتاب فرق الشيعة (انتهى).

(وكتاب الفرق مطبوع في المطبعة الحيدرية في النجف).)

(الشورى ـ 23).

الفصل الثاني

في بعض آداب تكبيرات الاذان والاقامة وأسرارهما

اعلم ان الاذان حيث إنه إعلام الحضور لقوى النفس الظاهرة والباطنة في محضر الحق الربوبي لاجل الثناء على الذات المقدسة على حسب جميع الاسماء والصفات والشؤون والآيات لان الصلاة كما أشير اليها ثناء جامع ومورد هذا الثناء هو الذات المقدسة على حسب تجلّيها بالاسم الاعظم الذي هو مقام أحدية جمع الاسماء في الحضرة الواحدية ومقام التجلي بالجمع والتفريق والظهور والبطون في حضرات الاعيان والاسماء العينية، فالسالك يتوجّه في بدء الامر إلى كبرياء الذات المقدسة على حسب هذا الشأن الجامع فيعلن عظمتها وكبرياءها اولا على قوى مملكة نفسه الملكوتية منها والملكية. وثانيا على ملائكة الله الموكلة على ملكوت السموات والأرضين فيعلن

على حسب التكبيرات الاربعة كبرياء الاسم الاعظم على جميع سكنة عوالم الغيب والشهادة في المملكة الداخلية والخارجية، وهذا نفسه اعلان بعجزه عن القيام بالثناء على الذات المقدسة واعلام قصور نفسه عن اقامة الصلاة وهذا هو من الامور الشاملة في السلوك والاداب المحيطة على الثناء والعبادة، لابد أن يكون في جميع احوال الصلاة نصب عين السالك ولهذا

يكرّر في الاذان والاقامة ويكرّرها دائما في الصلاة ويعاد في حال الانتقال من كل حال إلى حال آخر حتى يتمكن في قلب السالك القصور الذاتي لنفسه والعظمة والكبرياء للذات المقدسة.

ومن هنا يعلم أدبه أيضا من أنه لا بد للسالك أن يذكّر القلب وقواه بعجز نفسه وكبرياء الحق.

وبوجه آخر يمكن أن تكون التكبيرات الاولية في الاذان كل واحدة منها اشارة إلى مقام، فتكون التكبيرة الاولى اشارة إلى التكبير عن التوصيف ذاتا، والثانية إلى التكبير عن التوصيف وصفا، والثالثة إلى التكبير عن التوصيف اسما، والرابعة إلى التكبير عن التوصيف فعلا، فكان السالك يقول الله أكبر من أن توصف ذاته أو تجليات ذاته والله أكبر من أن توصف صفاته وأسماؤه وأفعاله أو تجلياتها بحسبها.

وفي حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال: "الوجه الاخر الله أكبر فيه نفي كيفيته كأنه يقول . أي المؤذن .: الله أجل من أن يدرك الواصفون قدر صفته التي هي موصوف بها وإنما يصفه الواصفون على قدرهم لا على قدر عظمته وجلاله تعالى الله عن أن يدرك الواصفون صفته علوّا كبيرا" الحديث.

ومن الآداب المهمة للتكبير أن السالك عليه أن يجاهد ويجعل قلبه محلا لكبرياء الحق جلّ جلاله بالرياضات القلبية ويحصر كبر الشأن والعظمة والسلطان والجلال بذات الحق المقدسة جلّ وعلا ويسلب الكبرياء عن سائر الموجودات، واذا كان في القلب اثر من كبرياء أحد لا يراه ولا يعلمه شعاع كبرياء الحق فقلبه مريض ومعلول ومورد لتصرف الشيطان وربما تكون التصرفات الشيطانية سببا لان يكون سلطان الكبرياء لغير الحق في القلب أكثر من الحق ويعرفه القلب أكبر من الحق، ففي هذه الصورة يكون الانسان محسوبا في زمرة المنافقين، وعلامة هذا المرض المهلك ان الانسان يقدّم رضا المخلوق على رضا الحق ليسخط الخالق لرضا المخلوق. وفي الحديث قال الصادق عليه السلام: "اذا كبّرت فاستصغر ما بين العلا والثرى دون كبريائه فإن الله اذا اطلع على قلب العبد وهو يكبّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: يا كاذب أتخدعني، وعزّتي وجلالي لاحرمنّك حلاوة ذكري ولأحجبنك عن قربي والمسارة بمناجاتي". يقول عليه السلام: اذا كبّرت فاستصغر في محضر كبرياء تلك الذات المقدسة ما في الكون من الأرض إلى العرش لان الله تبارك وتعالى اذا رأى عبدا يكبّر ولكن في قلبه علّة عن حقيقة التكبير . يعني أن قلبه لا يوافق ما يجريه على اللسان . يقول: يا كاذب أتخدعني وعزّتي وجلالي.. إلى آخر الحديث.

فيا أيها العزيز ان حرمان قلوبنا المسكينة من حلاوة ذكر الحق تعالى وان لذة مناجاة تلك الذات المقدسة لم ترد في ذائقة أرواحنا ونحن محتجبون عن الوصول إلى قرب الجناب ومحرومون من تجليات الجمال والجلال لان قلوبنا عليلة ومريضة وقد حجبنا الاخلاد إلى الأرض والاحتجاب بالحجب المظلمة للطبيعة عن معرفة كبرياء الحق وأنوار الجمال والجلال، فما دام نظرنا إلى الموجودات نظرا ابليسيا استقلاليا فلا نذوق من شراب الوصل، ولا ننال لذة المناجاة، وما دمنا نرى لاحد في عالم الوجود العزّة والكبرياء والعظمة والجلال ونحن في حجاب أصنام التعيّنات الخلقية فلا يتجلى سلطان كبرياء الحق جلّ وعلا في قلوبنا.

فمن آداب التكبير هو أن السالك لا يتوقف على صورته ولا يكتفي باللفظ فقط ولقلقة اللسان بل ينبّه القلب في أول الامر بقوة البرهان ونور العلوم الالهية، على كبرياء الحق وأنّ العظمة والجلال مقصورة على الذات المقدسة جلّت عظمتها وعلى فقر كافة السكنة الامكانية وقاطبة الموجودات الجسمانية والروحانية وذلّتها ومسكنتها، وبعد ذلك فبقوة الرياضة وكثرة المراودة والانس التام يحيي قلبه بهذه اللطيفة الالهية ويعطيه السعادة والحياة العقلية الروحانية، فاذا صار فقر الممكن وذلّته وعظمة الحق وكبرياؤه جلّت قدرته نصب عين السالك ووصل التفكر والذكر إلى حد النصاب وحصل للقلب الانس والسكينة فيشاهد بعين البصيرة آثار جلال الحق وكبريائه في جميع الموجودات وتعالج العلل والامراض القلبية فيجد لذة المناجاة وحلاوة ذكر الله ويصير القلب مقرا لسلطان كبرياء الحق جلّ جلاله وتظهر آثار الكبرياء في ظاهر المملكة وباطنها ويوافق القلب واللسان والسر والعلن فتكبّر جميع قوى الباطن والظاهر و الملك والملكوت ويرتفع أحد الحجب الغليظة ويقترب السالك مرحلة إلى حقيقة الصلاة التي هي معراج القرب. وقد أشير إلى بعض ما ذكر في الحديث المنقول عن العلل عن الصادق سلام الله عليه في حديث طويل يصف فيه المعراج قال: "أنزل الله العزيز الجبار عليه مَحمَلا من نور فيه أربعون نوعا من أنواع النور كانت محدقة حول العرش، عرشه تبارك وتعالى تغشي أبصار الناظرين، أما واحد منها فأصفر، فمن أجل ذلك اصفرّت الصفرة، وواحد منها أحمر، فمن أجل ذلك احمرّت الحمرة. إلى أن قال: فجلس فيه ثم عرج به إلى السماء الدنيا فنفرت الملائكة إلى اطراف السماء ثم خرّت سجّدا فقال سبّوح قدّوس ربنا ورب الملائكة والروح ما أشبه هذا النور بنور ربنا، فقال جبرائيل: الله أكبر الله

اكبر فسكتت الملائكة وفتحت السماء واجتمعت الملائكة ثم جاءت وسلّمت على النبيّ صلى الله عليه وآله أفواجا" الحديث.

وفي هذا الحديث اسرار عظيمة تقصر أيدي آمالنا عنها، وما يمكن ان يذكر منها خارج فعلا عن مقصدنا كسرّ تنزّل محمل من نور وسرّ كثرة الانوار، وسر كثرتها النوعية وسر عدد الاربعين وسر تنزيل الله اياها وسر احاطتها حول العرش، وحقيقة العرش في هذا المقام وسر اصفرار الصفرة واحمرار الحمرة بواسطتها وسرّ نفور الملائكة وسجودهم وتسبيحهم وتقديسهم وتشبيههم ذلك النور بنور الرّبّ إلى غير ذلك مما يطول البيان في أطراف كل منها، وما يناسب المقام ويشهد على المطلب هو أن الملائكة بواسطة تكبير جبرائيل سكتت واطمأنّت واجتمعت حول جمع شمع الوليّ المطلق. وفتحت السماء الاولى بواسطة التكبير وخرق أحد الحجب الذي كان في طريق العروج إلى الله وليعلم أن هذه الحجب التي تخرق وترفع في الاذان غير الحجب التي في التكبيرات الافتتاحية، ولعله تأتي الاشارة إلى ذلك فيما بعد ان شاء الله.

لعل السر في أن الوارد في الاقامة هو تكبيرتان، ان السالك قد أقام قواه في المحضر وانتقل من الكثرة إلى الوحدة شيئا ما فيكبّر الذات والاسماء أو الاسماء والصفات، ولعل تكبير الصفات والافعال يكون منطويا في تكبير الذات والاسماء.

الفصل الثالث

في بعض آداب الشهادة بالالوهية

وبيان ربطها بالأذان والصلاة

فاعلم أن للالوهية مقامات يعبّر عنها على حسب الجمع بمقامين:

الأول: مقام الالوهية الذاتية.

والثاني: مقام الالوهية الفعلية.

واذا كان المقصود من الشهادة على قصر الالوهية في الحق هو الالوهية الذاتية تكون حقيقتها متقاربة مع التكبير، واذا كانت مشتقة من اله في الشيء أي تحيّر فيه، أو مشتقة من لاه بمعنى ارتفع، أو مشتقة من لاه يلوه بمعنى احتجب فيعلم ربطه بالاذان والصلاة بعد المراجعة إلى باب التكبير، ويعلم أدبها أيضا واعادته وان لم تكن خالية من بعض الفوائد ولكنها منافية للاختصار.

وان كان الاله مأخوذا من اله بمعنى عبد ويكون المراد هو المألوه بمعنى المعبود فعلى السالك أن يجعل الشهادة الصورية على قصر المعبودية للحق تعالى جلّت عظمته منطبقة على الشهادة القلبية الباطنية، ويعلم أنه ان كان في القلب معبود سواه فهو منافق في هذه الشهادة فلا بد له ان يوصل الشهادة بالالوهية إلى القلب بكل رياضة ويكسر الاصنام الصغيرة والكبيرة

المنحوتة بيد تصرف الشيطان والنفس الامارة في كعبة القلب ويحطّمها حتى يصير لائقا لحضور حضرة القدس وما دامت أصنام حب الدنيا والشؤون الدنيوية موجودة في كعبة القلب لا يجد السالك طريقا إلى المقصد، فالشهادة بالالوهية للاعلان للقوى الملكية والملكوتية أن تجعل المعبودات الباطلة والمقاصد المعوجّة تحت قدمها كي تتمكن من العروج إلى معراج القرب.

واذا كان المقصود من قصر الالوهية، الالوهية الفعلية التي هي عبارة أخرى عن التصرف والتدبّر والتأثير فيكون معنى الشهادة أني أشهد ان لا متصرف في دار التحقق ولا مؤثّر في الغيب والشهادة الا ذات الحق المقدسة جلّ وعلا واذا كان في القلب السالك اعتماد على موجود من الموجودات واطمئنان لأحد من العباد فقلبه معتل وشهادته زور ومختلفة، فلا بد للسالك أن يُحكم أولا بالبرهان الحكمي حقيقة لا مؤثّر في الوجود الا الله ولا يفرّ من المعارف الالهية التي هي غاية بعثة الانبياء ولا يعرض عن تذكر الحق والشؤون الذاتية والصفاتية، فإن منبع جميع السعادات هو تذكر الحق. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا (طه ـ 124).. وبعدما وصل بقدم التفكر والبرهان إلى هذه اللطيفة الالهية التي هي منبع المعارف الالهية وباب أبواب الحقائق الغيبيّة فيؤنس القلب معها بقدم التذكر والرياضة حتى يؤمن القلب بها، وهذ أول مرتبة لصدق مقالته وعلامة الانقطاع إلى الحق وغضّ بصر الطمع والرجاء عن جميع الموجودات ونتيجته التوحيد الفعلي الذي هو من أجلّ مقامات أهل المعرفة، فاذا قصرّ السالك جميع التأثيرات على الحق وغمض عين الطمع عن جميع الموجودات سوى الذات المقدسة يكون لائقا للمحضر المقدس بل يكون قلبه متوجها إلى ذلك المحضر فطرة

وذاتا ولعلّ تكرار الشهادة لأجل التمكين ويكون المقصود من الشهادة احدى الشهادتين، ولعله لا يكون تكرارا وتكون احداهما اشارة إلى الالوهية الذاتية والاخرى اشارة إلى الالوهية الفعلية، ففي هذه الصورة تكون إعادتها في آخر الاقامة للتمكين فلذا لم يذكر هناك بلفظ الشهادة.

تنبيه عرفاني:

اعلم أن للشهادة مراتب نكتفي ببعضها على حسب ما يناسب هذه الاوراق.

المرتبة الاولى: الشهادة القولية وهي معلومة، وهذه الشهادة القولية اذا لم تكن مشفوعة بالشهادة القلبية ولو ببعض مراتبها النازلة لا تكون شهادة بل تكون خدعة ونفاقا كما ذكر في الحديث عن الصادق عليه السلام في باب التكبير.

المرتبة الثانية: الشهادة الفعلية: وهي أن يشهد الانسان على حسب الأعمال الجوارحية فمثلاً يُدخل في طور أعماله وجريان أفعاله حقيقة لا مؤثر في الوجود الا الله فكما أن لازم شهادته القولية ألاّ يعلم أحدا مؤثرا الا الله تكون خريطة أعماله أيضا كذلك فلا يمدّ يد حاجته الا إلى المحضر المقدس للحق جلّ وعلا ولا يفتح عين رجائه إلى موجود من الموجودات ويظهر الغنى والاستغناء عند العباد الضعفاء ويجتنب عندهم عن الضعف والذلة والعجز، وهذا المعنى وارد في كثير من الاحاديث الشريفة. كما في حديث الكافي الشريف: "إن عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس" وان من احدى المستحبات الشرعية اظهار النعمة والغنى، ومن المكروهات طلب الحوائج من الناس.

وبالجملة، على الانسان أن يجري اللطيفة الالهية: لا مؤثر في الوجود الا الله في مملكة الظاهرة.

المرتبة الثالثة: الشهادة القلبية، وهي منبع الشهادات الأفعالية والأقوالية، وما لم تكن تلك لا تكون هذه ولا تتحق وهي أن يتجلى التوحيد الفعلي للحق في القب ويدرك القلب بسرّه الباطني حقيقة هذه اللطيفة وينقطع عن سائر الموجودات وينفصل عنها، وعمدة الاحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة في ترك الطمع في الناس واليأس من العباد والثقة والاعتماد على الله تبارك وتعالى راجعة إلى هذا المقام.

عن الكافي باسناده عن علي بن الحسين عليهما السلام قال:

"رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس ومن لم يرج الناس في شيء وردّ أمره إلى الله تعالى في جميع أموره استجاب الله تعالى له في كل شيء". والاحاديث من هذا القبيل كثيرة.

المرتبة الرابعة: الشهادة الذاتية، والمقصود منها الشهادة الوجودية وهي تتحقق في الكمّل من الاولياء، وفي نظر الاولياء هذه الشهادة بمعنى موجودة في جميع الموجودات، ولعل الآية الشريفة {شهد الله ان لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم} (آل عمران ـ 18) اشارة إلى الشهادة الذاتية لأن الحق تعالى في مقام أحدية الجمع يشهد شهادة ذاتية بوحدانية نفسه لأن صرف الوجود له أحدية ذاتية، وعند طلوع يوم القيامة يظهر بالوحدانية التامة وتظهر هذه الاحدية أولا في مرآة الجمع وبعده في مرآة التفصيل، ولهذا قال تعالى: {والملائكة وأولو العلم} وهنا مقامات من المعارف خارجة عن عهدة هذه الاوراق.

وصل: عن محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن عبدالصمد ابن بشير قال: ذكر عند أبي عبدالله بدء الاذان إلى أن قال: "ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان نائما في ظلّ الكعبة فأتاه جبرائيل ومعه طاس فيه ماء من الجنة فأيقظه وأمره أن يغتسل به ثم وضع في محمل له ألف ألف لون من نور ثم صعد به حتى انتهى إلى أبواب السماء فلما رأته الملائكة نفرت عن أبواب السماء وقالت: إلهين إله في الارض وإله في السماء فأمر الله جبرائيل فقال الله أكبر الله أكبر فتراجعت الملائكة نحو أبواب السماء ففتحت الباب فدخل حتى انتهى إلى السماء الثانية فنفرت الملائكة عن ابواب السماء فقال: أشهد أن لا اله الا الله فتراجعت الملائكة وعلمت أنه مخلوق ثم فتح الباب فدخل" الحديث.

وقد ورد في الحديث العلل ما يقرب من هذا المضمون.

ويعلم من هذه الاحاديث أن الشهادة بالالوهية موجبة لفتح أبواب السماء وخرق الحجاب وباعث لاجتماع ملائكة الله، وهذا الحجاب الذي يخرق بواسطة الشهادة بالالوهية وقصرها فـي الذات المقدسة من الحجب الغليظة الظلمانية التي ما دام السالك فيها لا يوجد له طريق إلى الحضور في المحضر، وما لم يفتح هذا الباب له فليس له طريق إلى السلوك وهو حجاب الكثرة الافعالية والوقوع في الاحتجاب التكثيري الذي نتيجتة رؤية فاعلية الموجودات ومؤثريتها وثمرة هذه الرؤية رؤية استقلالها في الفاعلية والتفويض المحال والشرك الاعظم كما أن نتيجة الشهادة بالالوهية وحصرها في الحق تعالى هو التوحيد الافعالي وافناء الكثرات في فعل الحق ونفي التأثير والفاعلية عن الغير وطرد الاستقلال عن غير الحق تعالى، ومن هذه الجهة خرج الملكوتيون عن حجاب كثرة إله في السماء واله في الارض بواسطة هذه

الشهادة ورجعت إلى الانس والاجتماع من النفور والتفرقة وفتحت ابواب السماء. فالسالك ايضا لابدّ له أن يخرق بهذه الشهادة حجاب نفسه الظلماني ويفتح أبواب السماء لنفسه ويرفع قدما من الحجاب العظيم وهو الاستقلال ليقترب له طريق العروج إلى معراج القرب.

ولا تحصل هذه الحقيقة بلقلقة اللسان والذكر القولي، ولهذا لا تتجاوز عباداتنا عن حد الصورة والدنيا، ولا يفتح لنا الباب ولا يرفع لنا الحجاب.

الفصل الرابع

في بعض آداب الشهادة بالرسالة، وفيها إشارة إلى الشهادة بالولاية

إعلم أنه لا يمكن طيّ هذا السفر الروحاني والمعراج الايماني بهذه الرجل المكسورة والعنان المرخي والعين العمياء والقلب الذي هو بلا نور.

ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (النور ـ 40).. فمن المحتوم واللازم لسلوك هذا الطريق الروحاني وعروج هذا المعراج العرفاني التمسك بمقام روحانية هداة طرق المعرفة وأنوار سبل الهداية الذين هم الواصلون إلى الله والعاكفون على الله ولو أراد أحد أن يطوي هذا الطريق بقدم أنانية نفسه من دون التمسك بولايتهم فسلوكه إلى الشيطان والهاوية.

وببيان علمي كما أن ربط الحادث بالقديم، والمتغيّر بالثابت، محتاج إلى الواسطة، والرابط تكون له وجهتا الثبات والتغيّر والقدم والحدوث، واذا لم تكن الواسطة موجودة فلا يعبر في السنّة الالهية الفيض القديم الثابت منه إلى المغيّر الحادث. ولا تحصل الرابطة الكونية الوجودية، والانظار العلمية لأرباب العلوم البرهانية بالنسبة إلى الرابط بين هذين مختلفة، كما أن للذوق العرفاني اقتضاء آخر يخرج تفصيله عن عهدة هذه الاوراق، وفي الذوق العرفاني الرابط هو الفيض المقدس والوجود المنبسط الذي له مقام البرزخية

الكبرى والواسطية العظمى وهو بعينه مقام روحانية الرسول الخاتم وولايته المتحدة مع مقام الولاية المطلقة العلوية.

وقد ورد تفصيل ذلك في رسالتي مصباح الهداية كذلك في الرابطة الروحانية العروجية التي هي عكس الرابطة الكونية النزولية، وبعبارة اخرى في قبض الوجود والرجوع إلى ما بدئ، يحتاج إلى الواسطة وبدونها لا تتحقق

الرابطة ولا يتحقق ارتباط القلوب الناقصة المقيدة والارواح النازلة المحدودة بالتام الذي هو فوق التمتم ومطلق من جميع الجهات من دون الوسائط الروحانية والروابط الغيبية، واذا ظنّ أحد ان الحق تعالى قيّوم لكل موجود ومحيط بكل الالوان من دون وساطة الوسائط كما أشير إلى ذلك في الآية الشريفة {وما من دابّة الا هو آخذ بناصيتها} (هود . 56) فقد اختلطت عنده المقامات واشتبهت عليه الاعتبارات وخلط مقام كثرة مراتب الوجود بفناء التعينات وليس لهذا البحث ربط كامل بهذه الرسالة، وهذا المقدار ايضا صار من طغيان القلم.

وبالجملة، التمسّك بأولياء النعم الذين اهتدوا إلى طريق العروج إلى المعارج وأتمّوا السير إلى الله من لوازم السير إلى الله كما أشير إلى ذلك في الاحاديث الكثيرة، وقد عقد في الوسائل باباً في أن العبادة بدون ولاية الائمة والاعتقاد بإمامتهم باطلة.

وقد روي عن الكافي الشريف باسناده عن محمد بن مسلم قال: سمعت باقر العلوم عليه السلام يقول: "واعلم يا محمد أن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلّوا وأضلّوا فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد".

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر عليه السلام انه قال: "أما لو أن رجلا قام ليلة وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه فتكون جميع أعماله بدلالته اليه ما كان له على الله حق في ثوابه وما كان من أهل الايمان".

وروى الصدّوق (قدس سره) بسنده عن أبي حمزة الثمالي قال: قال لنا علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: "ايّ البقاع أفضل؟ فقلت؟ أالله ورسوله أعلم، فقال: إن أفضل البقاع ما بين الركن والمقام ولو أنّ رجلا عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة الا خمسين عاما يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك الموضع ثم لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئا".

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تسعها هذه الرسالة.

وأما آداب الشهادة بالرسالة فهي ان يوصل الشهادة بالرسالة من الحق إلى القلب وخصوصا الرسالة الختمية التي جميع دائرة الوجود من عوالم الغيب والشهود تتنعّم تكوينا وتشريعا ووجودا وهداية من سقطات موائد نعمة وان ذاك السيد الكريم هو الواسطة لفيض الحق والرابط بين الحق والخلق، ولولا مقام روحانيته وولايته المطلقة لم يكن لأحد من الموجودات لياقة الاستفادة عن مقام الغيب الاحدي ولما عبر فيض الحق إلى موجود من الموجودات، ولما أشرق نور الهداية في عالم من عوالم الظاهر والباطن، وذاك السيد لهو النور الذي ورد في آية {الله نور السموات والارض} (النور . 35) فإذا دخلت عظمة شرع الدين ورسول رب العالمين في قلب الانسان يدخل فيه أهمية أحكامه وسننه وعظمتها، فإذا أدرك القلب عظمتها تخضع له سائر القوى الملكية والملكوتية وتنفذ الشريعة المقدسة في جميع المملكة الانسانية،

وعلامة صدق الشهادة أنه تظهر آثارها في جميع القوى الغيبيّة والظاهرة ولا تتخلف عنها كما أشير اليه في السابق.

وقد علم ممّا ذكر إلى الان ارتباط الشهادة بالرسالة بالاذان واقامة الصلاة لأن السالك في هذا الطريق الروحاني محتاج إلى التمسك بذاك الوجود المقدّس حتى يعرج بمصاحبته وتأييده هذا العروج الروحاني.

والوجه الاخر، هو أن في هذه الشهادة اعلانا للقوى الملكية والملكوتية بأن الصلاة التي هي حقيقة معراج المؤمنين ومنبع معارف أصحاب العرفان وأرباب الايقان هي نتيجة الكشف التام المحمدي صلى الله عليه وآله، وهو صلوات الله عليه وعلى آله بسلوكه الروحاني والجذبات الالهية والجذوات الرحمانية قد وصل إلى مقام قاب قوسين أو أدنى وتبعا للتجليات الذاتية والاسمائية والصفاتية والإلهامات الأنسيّة كشف حقيقة هذه الصلاة من الحضرة الغيبية الاحدية، وفي الحقيقة هي هدية (وسوقات) لأمّته خير الامم جاء بها من هذا السفر المعنوي الروحاني ومنّ عليهم بها وأغرقهم في بحر النعمة فاذا استقرّت هذه العقيدة في القلب وتمكن بالتكرار فيدرك السالك عظمة المقام وجلالة المحلّ البتة ويطوي هذه المرحلة بقدمي الخوف والرجاء، والمرجو منه صلى الله عليه وآله أن يؤيده ان شاء الله ويقرّبه إلى مقام القرب الاحدي الذي هو المقصد الاصلي والمقصود الفطري، اذا قام السالك الأمر بمقدار مقدوره وقد ثبت في العلوم الالهية ان معاد جميع الموجودات انما يتحقق بتوسط الانسان الكامل "كما بدأكم تعودون" (هو العارف الكامل والفيلسوف الحكيم المتألّه الشيخ محمد علي شاه آبادي أحد العلماء الكبار في عاصمة ايران وكان الامام الخميني قد تتلمذ عنده في الفلسفة وكان معجبا به وبآرائه ويخاطبه في أكثر كلماته بالشيخ العارف الكامل روحي فداه) بكم فتح الله وبكم يختم وإياب الخلق اليكم.

نكتة عرفانية

قد ورد في الحديث الشريف في العلل الذي يذكر تفصيل صلاة المعراج ويصفها "ان رسول الله صلى الله عليه وآله عرج إلى السماء بعدما أنزل الله عليه محملا من نور ومعه جبرائيل: ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فنفرت الملائكة إلى اطراف السماء وخرّت سجّدا وقالت سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح ما هذا النور الذي يشبه نور ربنا؟ فقال جبرائيل عليه السلام: أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، فاجتمعت الملائكة وفتحت أبواب السماء وقالت مرحبا بالاول ومرحبا بالاخر ومرحبا بالحاشر ومرحبا بالناشر محمد خاتم النبيّين وعلّي خير الوصيّين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله سلّموا علي وسألوني عن أخي علي.. إلى أن قال: ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فلم تقل الملائكة شيئاً وسمعت دويّا كأنه في الصدور واجتمعت الملائكة ففتحت أبواب السماء.. فقال جبرائيل: حيّ على الصلاة حي على الصلاة إلى آخر الاقامة" الحديث.

وفي تفسير العياشي أيضا ما يقرب من هذا المضمون، فيعلم من هذا الحديث أن ملائكة جميع السموات لا تطيق مشاهدة الجمال الاحمدي وتسجد لرؤية نوره المقدس وتنفرق وتتوهم أنه نور الحق المطلق وترجع بفصول الاذان والاقامة إلى الانس وتنفتح ابواب السماء وتوتفع الحجب، فللسالك ان يخرج بهذه الشهادة عن الاحتجاب، وفي الشهادة بالرسالة يخرج بالكلية عن احتجاب التعين الخلفي لأنه اذا اثبت مقام الرسالة لاشرف الخليقة فهو الفناء المطلق ولا استقلالية التامة لان الرسالة المطلقة الختميّة هي الخلافة الكبرى الالهية البرزخية وهذه الخلافة هي خلافة في الظهور والتجلّي والتكوين والتشريع ولا يكون للخليفة من عند نفسه أيّ استقلال وتعيّن وإلا لانقلبت الخلافة إلى الاصالة وهذا لايمكن لأحد من الموجودات. فللسالك إلى الله ان يوصل إلى باطن قلبه وروحه مقام الخلافة الكبرى الاحمدية وبها يكشف الحجاب ويخرق الستور ويخرج بالكلّية عن حجب التعيّن الخلقي فتنفتح له جميع أبواب السموات ويصل إلى مقصده بلا حجاب.

فرع فقهي وأصل عرفاني

قد ورد في بعض الروايات غير المعتبرة أن يقال بعد الشهادة بالرسالة في الاذان أشهد أن عليا وليّ الله مرّتين وفي بعض الروايات أشهد أن عليا أمير المؤمنين حقا مرتّين وفي بعض آخر محمد وآل محمد خير البرية، وقد جعل الشيخ الصدوق (رحمه الله) هذه الروايات من موضوعات المفوّضة وكذبها والمشهور بين العلماء رضوان الله عليهم عدم الاعتماد بهذه الروايات، وجعل بعض المحدثين هذه الشهادة جزءا مستحبا من جهة التسامح في أدلّة السنن، وهذا القول ليس ببعيد عن الصواب وان كان أداؤها بقصد القربة المطلقة أولى وأحوط لانه يستحب بعد الشهادة بالرسالة الشهادة بالولاية وإمارة المؤمنين كما ورد في حديث الاحتجاج عن قاسم بن معاوية قال: قلت لابي عبدالله: "هؤلاء يروون حديثا في معراجهم أنه لما أسري برسول الله رأي على العرش مكتوبا لا إله الا الله محمد رسول الله أبو بكر الصدّيق، فقال: سبحان الله غيّروا كل شيء حتى هذا؟ قلت نعم، قال: ان الله عزّ وجل لما خلق العرش كتب عليه: لا اله الا الله محمد رسول الله عليّ أمير المؤمنين ولما خلق الله عزّ وجل الماء كتب في مجراه: لا اله الا الله محمد رسول الله عليّ أمير المؤمنين، ثم تذكر الرواية كتابة هذه الكلمات على قوائم الكرسي واللوح وعلى جبهة اسرافيل وعلى جناحي جبرائيل وأكناف السموات وأطباق الارضين ورؤوس الجبال وعلى الشمس والقمر، ثم قال: فاذا قال أحدكم لا اله الا الله محمد رسول الله فليقل عليّ أمير المؤمنين".

وبالجملة هذا الذكر الشريف يستحب بعد الشهادة بالرسالة مطلقا وفي فصول الاذان لا يبعد استحبابة بالخصوص وان كان الاحتياط يقتضي أن يؤتى به بقصد القربة المطلقة لا بقصد الخصوصية في الاذان لتكذيب العلماء الاعلام تلك الروايات.

وأما النكتة العرفانية في كتابة هذه الكلمات على جميع الموجودات من العرش الأعلى إلى منتهى الارضين فهي أن حقيقة الخلافة والولاية هي ظهور الالوهية وهي أصل الوجود وكماله وكل موجود له حظ من الوجود له حظ من حقيقة الالوهية وظهورها الذي هو حقيقة الخلافة والولاية اللطيفة الالهية ثابتة على ناصية جميع الكائنات من عوالم الغيب إلى منتهى عالم الشهادة، وتلك اللطيفة الالهية هي حقيقة الوجود المنبسط والنفس الرحماني والحق المخلوق به الذي هو بعينه باطن الخلافة الختمية والولاية المطلقة العلوية، ومن هذه الجهة كان الشيخ العارف شاه ابادي يقول: ان الشهادة بالولاية منطوية في الشهادة بالرسالة لان الولاية هي باطن الرسالة.

ويقول الكاتب: ان الشهادتين منطويتان جميعا في الشهادة بالالوهية وفي الشهادة بالرسالة أيضا الشهادتان الاخريان منطويتان، كما أن في الشهادة بالولاية الشهادتنان الاخريان منطويتان والحمد لله أولا وآخرا.

الفصل الخامس

في بعض آداب الحيّعلات

اذا اعلن السالك إلى الله بالتكبيرات عظمة الحق تعالى عن التوصيف وبالشهادة بالالوهية قصر التوصيف والتحميد بل كان كل تأثير على الحق وأسقط نفسه عن اللياقة للقيام بالامر واختار الرفيق والمصاحب بالشهادة بالرسالة والولاية وتمسك بمقام الخلافة والولاية وتمسك بمقام الخلافة والولاية المقدسة كما قيل الرفيق ثم الطريق وبعد ذلك كله لابدّ له أن يهيّئ القوى الملكية والملكوتية بصراحة اللهجة للصلاة ويعلن لها اعلان الحضور بقوله

حيّ على الصلاة وتكراره للتنبّه التام والايقاظ الكامل أو أن أحدهما لقوى المملكة الداخلية والاخر لقوى المملكة الخارجية لانهما ايضا سلاّك هذا السفر مع الانسان، كما أشير إلى ذلك فيما مرّ ونشير اليه فيما يأتي وأدب السالك في هذا المقام هو أن يفهم قلبه وقواه ويفهم باطن قلبه قرب الحضور حتى يتهيّأ له ويراقب آدابه الصورية والمعنوية كمال المراقبة ثم يعلن سرّ الصلاة ونتيجتها بقوله حيّ على الفلاح وحيّ على خير العمل كي يوقظ الفطرة لأن الفلاح والنجاح هي السعادة المطلقة وفطرة جميع البشر عاشقة للسعادة المطلقة لان الفطرة طالبة للكمال وتطلب الراحة وحقيقة السعادة

هي الكمال المطلق والراحة المطلقة وهي في الصلاة التي هي خير الاعمال تحصل قلبا وقالبا وظهورا وبطونا لأن الصلاة بحسب الظاهر هي الذكر الكبير والجامع والثناء بالاسم الاعظم المستجمع لجميع الشؤون الالهية ولهذا كان الاذان والاقامة مفتتحين بالله ومختتمين به ويكرّر الله أكبر في جميع الحالات الصلاة وانتقالاتها والتوحيدات الثلاثة التي هي قرّة عين الاولياء تحصل في الصلاة وامتزج فيها صورة الفناء المطلق والرجوع التام وبحسب الباطن والحقيقة هي معراج قرب الحق وحقيقة الوصول إلى جمال الجميل المطلق والفناء في ذاته المقدسة التي تعشقها الفطرة وتحصل بها الطمأنينة التامة والراحة المطلقة والسعادة العقلية التامة ألا إلى الله تطمئن القلوب، فاذا الكمال المطلق وهو الوصول إلى فناء الله والاتصال بالبحر الوجودي غير المتناهي وشهود جمال الازل والاستغراق في بحر النور المطلق تحصل في الصلاة وفيها ايضا تحصل الراحة المطلقة والاستراحة التامة والطمأنينة التامة ويحصل ركن السعادة، فالصلاة هي الفلاح المطلق وهي خير الاعمال وعلى السالك أن يفهّم القلب هذه اللطيفة الالهية بالتكرار والتذكر التام ويوقظ الفطرة فاذا وردت هذه اللطيفة في القلب فالفطرة من حيث إنها طالبة للكمال والسعادة تهتمّ بها وتحافظ عليها وتراقبها، وفي تكرارهما ايضا النكتة التي ذكرناها.

فاذا وصل السالك إلى ذلك المقام يعلن اعلان الحضور فقد قامت الصلاة فلابد أن يرى نفسه في حضرة مالك الملوك في العوالم الوجودية وسلطان السلاطين والعظيم المطلق ويفهّم قلبه الاخطار التي في الحضرة ويرجع الكل إلى القصور والتقصير الامكاني ويرد المحضر بكمال الانفعال والخجلة من عدم القيام بالامر وقدمي الخوف والرجاء ويفد على الكريم ولا

يرى لنفسه زادا وراحلة ويرى قلبه فارغا عن السلامة (أقول ما ذكره دام ظله اشارة إلى ما كتبه علي عليه السلام على كفن سلمان:

وفدت على الكريم بغير زاد من الحسنات والقلب السليم

وحمل الزاد أقبح كل شيء اذا كان الوفود على الكريم) ولا يحسب عمله من الحسنات ولا يعدّه أقل شيء فاذا استحكمت هذه الحال في القلب فالمرجو أن يقع موردا للعناية، أمّن يجيب المضطّر اذا دعاه ويكشف السوء.

وصل وتتميم:

محمد بن يعقوب باسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: "اذا أذنت وأقمت صلّى خلفك صفان من الملائكة صفان من الملائكة واذا أقمت صلّى خلفك صف من الملائكة" والاحاديث بهذا المضمون كثيرة. وفي بعض الاخبار: "ان حدّ الصف ما بين المشرق والمغرب".

وفي ثواب الاعمال قال أبو عبدالله عليه السلام: "من صلّى بأذان وإقامة، صلّى خلفه صفان من الملائكة ومن صلّى باقامة من غير أذان صلّى خلفه صف واحد من الملائكة، قلت له: وكم مقدار كل صف؟ فقال أقلّه ما بين المشرق والمغرب وأكثره ما بين السماء والارض". وفي بعض الروايات: "وان أقام بغير أذان صلّى عن يمينه واحد وعن شماله واحد" إلى غير ذلك من الاخبار. ولعل اختلاف الاخبار بواسطة اختلاف المصلين من المعارف والخلوص كما يستفاد ذلك من بعض روايات الباب مثل الرواية التي وردت في الصلاة مع الاذان والاقامة في ارض قفراء (أقول: وفي وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لابي ذر قال: "يا ابا ذر ان ربك ليباهي ملائكتة بثلاثة نفر: رجل يصبح في أرض قفراء فيؤذن ثم يقيم ثم يصلّي، فيقول ربك للملائكة انظروا إلى عبدي يصلي ولا يراه احد غيري فينزل سبعون ألف ملك يصلّون وراءه ويستغفرون له إلى الغد من غير ذلك اليوم.. إلى أن قال: يا أبا ذرّ اذا كان العبد في أرض في أرض يعني قفراء فتوضأ أو تيمم ثم أذّن وأقام وصلى أمر الله الملائكة فصفوا خلفه صفّا لا يرى طرفاه يركعون لركوعه ويسجدون لسجوده ويؤمنون على دعائه، يا أبا ذر من أقام ولم يؤذن لم يصلّ معه الا ملكاه اللذان معه".

وما ذكره الاستاذ دام ظلّه من أن السر في اختلاف الروايات هو الاختلاف من جهة الخلوص والمعرفة للمصلين ظاهر لان للمصلي في الأرض القفراء ـ ومع أنه لايراه أحد ـ من المعرفة والخلوص هو السبب لكثرة الملائكة المصلين وراءه).

وبالجملة، اذا رأي السالك نفسه إماما لملائكة الله وقلبه إماما لقواه الملكية والملكوتية وجمع بالاذان والاقامة قواه الملكية والملكوتية واجتمعت عليه ملائكة الله، فعليه أن يجعل القلب وهو أفضل قوى الظاهر والباطن وشفيع سائر القوى اماما، وحيث إن القلب ضامن لقراءة المأمومين ووزرها على

عهدته فلا بدّ له أن يحافظ عليه محافظة تامة ويراقبه مراقبة جميلة لكي يحفظ القلب على الحضرة والحضور ويقوم بأدب المقام المقدّس ويغتنم هذا الاجتماع المقدس ويعظّم توجّه ملائكة الله وتأييدهم ايّاه ويعرفه من النعم لوليّ النعمة الحقيقي ويقدّم عجزه وقصوره عن شكر هذه النعم العظيمة إلى مقامه المقدس انه وليّ النعم.

الباب الثاني
في القيام

وفيه
فصلان

الفصل الأول

في السر الاجمالي للقيام (قال بعض علماء الاخرة: واما الاعتدال قائما فهو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقا مطأطأ منكسا، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيها على الزام القلب التواضع والتذلّل والتبرّي عن الترؤس والتكبّر، وليكن على ذكرك ها هنا خطر القيام بين يدي الله عز

وجل في هول المطلع عند العرض للسؤال واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطّلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان ان كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدّر في دوام قيامك في صلواتك انك ملحوظ ومرقوب بعين كالئةٍ من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلّة الخشوع، واذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها انك تدّعين معرفة الله وحبّه أفلا تستحيين من استجرائك عليه مع توقيرك عبدا من عباده؟ أوَ تخشين الناس ولا تخشينه وهو أخق أن يخشى؟ (انتهى).

وقال الشهيد الثاني رحمه الله ما يقرب من هذا، وأضاف بعد قوله أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى قال: الا تستحيين من خالقك ومولاك اذا قدّرت اطّلاع عبد ذليل من عباده عليك وليس بيده خيرك ولا نفعك ولا ضرّك خشعت لأجله جوارحك وحسنت صلواتك ثم انك تعلمين أنه مطّلع عليك فلا تخشعين لعظمته أهو أهون عندك من عبد من عباده؟فما أشد طغيانك وجهلك وما أعظم عداوتك لنفسك ولذلك لما قيل للنبي صلى الله عليه وآله كيف الحياء من الله تعالى؟ فقال صلى الله عليه وآله: "تستحيي منه كما تستحيي من رجل صالح من قومك".

وأما دوام القيام فهو تنبيه على ادامة القلب على الله تعالى على نعت واحد من الحضور. قال صلى الله عليه وآله ان الله مقبل على العبد ما لم يلتفت.. وكما يجب حراسة السرّ عن الالتفات إلى غير الصلاة فإن التفتّ إلى غيرها فذكره باطّلاع الله تعالى عليك وقبح التهاون بالمناجي مع غفلة المناجي ليعود إلى التيقّظ والزم الخشوع الباطني فإنه ملزوم الخشوع ظاهرا، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر.

قال صلى الله عليه وآله وقد رأى مصليا يعبث بلحيته: "ما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه فإن الرعية بحكم الراعي" ولهذا ورد في الدعاء "اللهم أصلح الراعي والرعية" وهو القلب والجوارح وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظّم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك وجبّار الجبابرة ومن يطمئن بين يدي غير الله تعالى خاشعا ثم تضطرب أطرافه بين يدي الله تعالى فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطّلاعه على سرّه وضميره وتدبّر قوله تعالى الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين.. (انتهى)).

اعلم أن أهل المعرفة يرون القيام إشارة إلى التوحيد الافعالي، كما أن الركوع عندهم إشارة إلى التوحيد الصفاتي والسجود إلى التوحيد الذاتي، ويأتي بيانهما في محلّهما، واما بيان ان القيام إشارة إلى التوحيد الفعلي هو أن نفس القيام إشارة إلى هذا وضعا وفي القراءة إشارة إليه لفظا.

اما أن القيام فيه إشارة إليه وضعا، هو أن القيام إشارة إلى قيام العبد بالحق ومقام قيّوميّة الحق وهو التجلّي بالفيض المقدّس والتجلي الفعلي، وتظهر في هذا المقام فاعلية الحق وتستهلك جميع الموجودات في التجلي الفعلي وتضمحل تحت كبريائه الظهوري، والادب العرفاني للسالك في هذا المقام أن يتذكر بهذه اللطيفة الالهية ويترك التعينات النفسية ما استطاع ويذكر للقلب حقيقة الفيض المقدس ويوصل إلى باطن القلب نسبة قيّومية الحق وتقوّم الخلق بالحق فاذا تمكنت هذه الحقيقة في قلب السالك تقع قراءته بلسان الحق ويكون الذاكر والمذكور هو الحق وينكشف له معنى "انت كما أثنيت على نفسك وأعوذ بك منك" ببعض مراتبه ويجد قلب العارف بعض أسرار الصلاة، كما أن في النظر إلى محل السجود وهو التراب والنشأة

الاصلية وخضوع الرقبة ونكس الرأس الذي هو لازم للخضوع اشارة إلى الذلّ والفقر الامكاني والفناء تحت عزّ الكبرياء وسلطانه: يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله وهو الغنيّ الحميد.

وأمّا انّ في القراءة لفظا اشارة إلى مقام التوحيد الفعلي فسيأتي تفصيله في سورة الحمد المباركة ان شاء الله.

الفصل الثاني

في آداب القيام

وهي أن يرى السالك نفسه حاضرا في محضر الحق ويعلم أن العالم محضر الربوبية ويحتسب نفسه من حضّار المجلس بين يدي الله ويوصل إلى قلبه عظمة الحاضر والمحضر ويفهم القلب أهمية المناجاة مع الحق تعالى وخطره ويحضّر قلبه قبل الورود في الصلاة بالتفكر والتدبّر ويفهمه عظمة المطلب ويلزمه بالخضوع والخشوع والطمأنينة والخشية والخوف والرجاء والذل والمسكنة إلى آخر الصلاة ويشارط القلب أن يراقب هذه الامور ويحافظ عليها ويتفكر ويتدبر في أحوال أعاظم الدين وهداة السبل أنهم كيف كانت حالاتهم في الصلاة وكيف كانوا يتعاملون مع مالك الملوك ويتخذ من أحوال أئمة الهدى أسوة لنفسه ويتأسى بهؤلاء الاعاظم ولا يكتفي من تاريخ حياة أعاظم الدين وأئمته بسنة وفاتهم ويومها وسنة تولدهم ويومه ومقدار أعمارهم الشريفة وأمثال تلك من الامور التي لا تترتب عليها فائدة جليلة بل يكون عمدة سيره في سيرهم الايماني والعرفاني وسلوكهم، كذلك انه كيف كانت معاملتهم في العبودية وكيف كان مشيهم في السير إلى الله وأي مقدار كانت مقاماتهم العرفانية التي تستفاد من كلماتهم الاعجازية فيا أسفا، انّنا نحن أهل الغفلة وسكر الطبيعة والمغرورون بالآمال خلفاء الشيطان الخبيث في جميع الامور ولا نستيقظ أبدا من النوم الثقيل ولا نخرج عن النسيان الكثير وان استفادتنا من مقامات أئمة الهدى ومعارفهم قليلة، بل ولا شيء يذكر أصلا واكتفينا من تاريخ حياتهم بالقشر والصورة وصرفنا النظر بالكلية عما هو غاية لبعثة الانبياء عليهم السلام. وفي الحقيقة ينطبق علينا المثل المعروف (استسمن ذو ورم). ونحن نذكر في هذا المقام بعض الروايات الواردة في هذا الباب فلعله يحصل التذكر لبعض الاخوان المؤمنين والحمد لله وله الشكر.

عن محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: "كان علي بن الحسين عليهما السلام اذا قام إلى الصلاة تغيّر لونه فاذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقا".

وباسناده عنه عليه السلام قال: كان أبي يقول: "ان علي بن الحسين اذا قام إلى الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه شيء الا ما حركت الريح منه".

وعن محمد بن علي بن الحسين في العلل باسناده عن ابان بن تغلب قال: "قلت لابي عبدالسلام عليه السلام اني رأيت علياً بن الحسين اذا قام إلى الصلاة غشي لونه لون آخر، فقال لي والله ان علياً بن الحسين كان يعرف الذي يقوم بين يديه".

وعن السيد علي بن طاووس في فلاح السائل في حديث فقال أبو عبدالله عليه السلام: "لاتتم الصلاة الا لذي طهر سابغ وتمام بالغ غير نازغ ولا زائغ عرف فوقف وأخبت فثبت فهو واقف بين اليأس والطمع والصبر والجزع كأنّ الوعد له صنع والوعيد به وقع يذل عرضه ويمثل عرضه ويذل في الله المهجة وتنكب اليه المهجة غير مرتغم

بارتغام يقطع علائق الاهتمام بعين من له قصد واليه رفد ومنه استرفد فاذا أتى بذلك كانت هي الصلاة التي بها أمر وعنها أخبر وانها هي الصلاة التي تنهي عن الفحشاء والمنكر". الحديث.

وعن محمد بن يعقوب باسناده إلى مولانا زين العابدين عليه السلام انه قال: "وأمّا حقوق الصلاة فإن تعلم أنه وفادة إلى الله وانك فيها قائم بين يدي الله فاذا علمت ذلك كنت خليقا أن تقوم فيها مقام العبد الذليل الراغب الراهب الخائف الراجي المسكين المتضرع المعظم مقام من يقوم بين يديه بالسكينة والوقار وخشوع الاطراف ولين الجناح وحسن المناجاة له في نفسه والطلب اليه في فكاك رقبته التي أحاطت بها خطيئته واستهلكتها ذنوبه، ولا قوة الا بالله".

وعن النبي صلى الله عليه وآله: "اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك".

وعن فقه الرضا عليه السلام: "فاذا أردت أن تقوم إلى الصلاة فلا تقم اليها متكاسلا ولا متناعسا ولا مستعجلا ولا متلاهيا ولكن تأتيها على السكون والوقار والتؤدة (التؤدة: بضم التاء كهمزة من الوئيد وهي السكون والرزانة والتأني" مجمع البحرين ".) وعليك الخشوع والخضوع، متواضعا لله عزّ وجلّ متخاشعا عليك الخشية وسيماء الخوف راجيا خائفا بالطمأنينة على الوجل والحذر فقف بين يديه كالعبد الآبق المذنب بين يدي مولاه فصف قدميك وانصب نفسك ولا تلتفت يمينا وشمالا وتحسب كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك" الحديث.

وفي عدة الداعي روى "ان ابراهيم عليه السلام كان يسمع تأوّهه على حدّ ميل حتى مدحه الله بقوله: إنّ ابراهيم لحليم أوّاه منيب وكان في صلاته يسمع له أزيز (أزيز: صوت غليان القدر.) كأزيز المرجل (المرجل: قدر من النحاس.) وكذلك يسمع من صدر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله مثل ذلك وكانت فاطمة عليها السلام تنهج في الصلاة من خيفة الله" إلى غير ذلك من الاخبار.

والاخبار الشريفة في هذه الموضوعات أكثر من أن تسعها هذه الرسالة، وفي التفكر فيما ذكر منها كفاية لاهل التذكر والتفكر بالنسبة إلى الاداب الصورية وبالنسبة إلى الاداب القلبية والمعنوية وكيفية القيام بين يدي الله.

وتفكر في حالات علي بن الحسين ومناجاته مع الحق تعالى وأدعيته اللطيفة التي تعلّم آداب العبودية لعباد الله تعالى، لا أقول أن مناجاتهم عليهم السلام كانت لتعليم العباد فإن هذا الكلام بلا مغزى وباطل صادر من الجهل لمقام الربوبية، ومعارف أهل البيت فإن خوفهم وخشيتهم كانت أكثر من جميع الناس وقد تجلت عظمة الحق وجلاله في قلوبهم أكثر من الكل ولكني أقول: لابد أن يتعلم عباد الله منهم كيفية العبودية والسلوك إلى الله تعالى، فاذا قرأوا أدعيتهم ومناجاتهم فلا تكون القراءة لقلقة اللسان بل يتفكرون في كيفية تعاملهم مع الحق وإظهارهم التذلل والعجز والحاجة للذات المقدسة ولعمر الحبيب أن علي بن الحسين من أعظم النعم منّ بها ذات الحق المقدسة على عباده وأنزله من عالم القرب والقدس لاجل تفهيم عباده طرق العبودية ولتسألنّ يومئذ عن النعيم.. واذا سئلنا لماذا ما قدّرنا هذه النعمة وما استفدنا من هذا الرجل العظيم؟ فلا تحير جوابا غير أن ننكس برؤوسنا ونحترق بنار الندامة والاسف ولا ينفع حينذاك الندم.

فيا أيها العزيز، فالآن لك الفرصة والعمر العزيز الذي هو رأس مالك موجود وطريق السلوك إلى الله مفتوح وأبواب رحمة الحق مفتوحة والسلامة وقوة الاعضاء والقوى مستقرّة ودار زرع عالم الملك قائمة، فاصرف همّتك واعرف قدر هذه النعم الالهية واستفد منها وتحصّل الكمالات الروحانية والسعادات الازلية والابدية وخذ نصيبا من هذه المعارف الكثيرة التي بسطها القرآن الشريف السماوي وأهل بيت العصمة عليهم السلام على بسيط أرض

الطبيعة المظلمة ونوّروا العالم بالانوار الساطعة الالهية فنوّر أرض طبيعتك المظلمة بالنور الالهي ونوّر بنور الحق تعالى بصرك وسمعك ولسانك وسائر القوى الظاهرة والباطنة وبدّل هذه الارض الظلمانية إلى أرض نورانية بل إلى سماء عقلانية ففي يوم تبدّل الارض غير الارض وان لم تتبدل أرضك غير الارض ولم تتنور بنور الرب فلك ظلمات ومشقات وأنواع الوحشة والظلمة والذلة والعذاب، فالان القوى الظاهرة والباطنية لنا مظلمة بالظلمات الشيطانية وأنا أخشى من أنه ان بقيا على هذه الحال فبالتدريج تتبدل الارض الهيولانية التي فيها نور الفطرة أرضا سجّينيّة مظلمة خالية من نور الفطرة ومحجوبة عن جميع أحكام فطرة الله وتلك شقاوة ليس بعدها سعادة وظلمة لا يعقبها نور ووحشة لا ترى وجه الاطمئنان وعذاب ليس وراءه راحة فمن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.. أعوذ بالله من غرورات الشيطان والنفس الامّارة بالسوء فإن عمدة المقصد والمقصود للانبياء العظام وتشريع الشرائع وتأسيس الاحكام ونزول الكتب السماوية وخصوصا القرآن الشريف الجامع الذي صاحبه ومكاشفه نور الرسول الخاتم المطهّر صلى الله عليه وآله هي نشر التوحيد والمعارف الالهية وقطع جذور الكفر والشرك والحول وعبادة إلهين اثنين وسر التوحيد والتجريد سار وجار في جميع العبادات القلبية والقالبية بل كان يقول الشيخ العارف الكامل شاه آبادي روحي فداه: ان العبادات اجراء التوحيد من باطن القلب إلى ملك البدن.

وبالجملة: النتيجة المطلوبة من العبادات هي تحصيل المعارف وتمكين التوحيد وسائر المعارف في القلب، وهذا المقصد لا يحصل الا بأن يستوفي السالك الحظوظ القلبية للعبادات ويعبر من الصورة والقالب إلى الحقيقة واللبّ ولا يتوقف في الدنيا والقشر فإن الوقوف في هذه الامور أشواك في طريق سلوك الانسانية، والذين يدعون إلى الصورة فقط وينهون الناس عن الآداب الباطنية ويقولون أنّه لا معنى للشريعة ولا حقيقة لها سوى هذه الصورة والقشرة فهم شياطين الطريق إلى الله وأشواك سبيل الانسانية ولا بد أن يستعاذ من شرّهم إلى الله فإنهم يطفئون للانسان نور فطرة الله الذي هو نور المعرفة والتوحيد و الولاية وسائر المعارف ويسدلون عليه حجب التقليد والجهالة والعادات والاوهام ويمنعون عباد الله عن العكوف بجنابة والوصول إلى جمالة الجميل ويصدّون عن طريق المعارف ويوجهون إلى الدنيا وزخارفها والجهات المادية والجسمانية وعوارضها القلوب الصافية الطاهرة لعباد الله التي زرع في خميرتها الحق تعالى بذر المعرفة بيدي جماله وجلاله وأرسل الانبياء العظام وأنزل الكتب السماوية لتربية ذاك البذر وتنميته، ويصرفون تلك القلوب عن الروحانية والسعادات العقلية ويحصرون العوالم الغيبية والجنات الموعودة في المأكولات والمشروبات والمنكوحات وسائر المشتهيات الحيوانية، هؤلاء يظنون ان الحق تعالى اذ بسط بساط الرحمة المعظّمة وبعث الانبياء العظام لادارة البطن والفرج. وغاية معارفهم أنك اذا حفظت بطنك وفرجك في الدنيا تصل إلى شهواتها في الاخرة، فهؤلاء لا يهتمون بالتوحيد والنبوّات بمقدار ما يهمّهم الجماع الذي يكون مدّته خمسمئة سنة!! ويحسبون جميع المعارف مقدمة لتأمين البطن والفرج، واذا أراد حكيم الهي أو عارف ربّاني أن يفتح إلى عباد الله بابا من الرحمة ويقرأ لهم درسا من الحكمة الالهية لا يمتنعون عن أيّة تهمة وغيبة وأيّ سبّ وتكفير، بالنسبة إلى هؤلاء وقد انغمروا في الدنيا الى حد ويهتمون بشهوات بطونهم وفروجهم إلى غاية لا يحبّون من حيث لا يشعرون أن تكون في دار التحقق سعادة سوى الشهوات الحيوانية مع أنه لو كانت في العالم سعادات عقلية فلا تضر بطنهم وفرجهم فأمثالنا ممّن لم يتجاوزوا حد الحيوانية ولا يتيسّر لنا غير الجنّة الجسمانية وادارة البطن والفرج، وهي أيضا نأملها بتفضّل الله سبحانه ولكن لا نظنّ أن السعادة منحصرة فيها. وجنة الحق تعالى محصورة بهذه الجنة الحيوانية، بل للحق تعالى عوالم لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب أحد، وان أهل المحبة الالهية ومعرفة الله سبحانه لا يعتنون بشيء من تلك الجنّات ولا يتوجّهون إلى عالم الغيب والشهادة وأنّ لهم جنة اللقاء، وان أردنا أن نذكر الآيات القرآنية والاحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة في هذا الباب لكان مخالفا لوضع هذه الرسالة، وهذا المقدار ايضا كان من طغيان القلم والمقصود العمدة هو توجيه قلوب عباد الله لما خلقوا له وهو معرفة الله سبحانه التي هي فوق جميع السعادات وليس شيء مقدماً عليها وليس مقصودنا من الذين هم أشواك سلوك الطريق علماء الاسلام العظام وفقهاء المذهب الجعفري الكرام عليهم رضوان الله بل بعض الجهلة والمنتحلين للعلم فانهم من جهة القصور والجهل لا التقصير والعناد صاروا قطاع طريق عباد الله، وأعوذ بالله من شر طغيان القلم والنيّة الفاسدة والمقصود الباطل. والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا.

الباب الثالث
في سر النية وآدابها

وفيها

خمسة فصول

الفصل الاول
في حقيقة النية في العبادات

اعلم ان النية عبارة عن التصميم والعزم على إتيان شيء وإجماع النفس على إتيانه بعد تصوّره والتصديق بفائدته والحكم بلزوم إتيانه وهو حالة نفسانية ووجدانية تكون بعد هذه الامور ونعبّر عنها بالهمة والعزم والارادة والقصد، وهي موجودة في جميع الامور الاختيارية ولا يمكن تخلّف فعل إرادي عنها، وهذا الامر موجود في تمام العمل من أوله إلى آخره حقيقة من دون شائبة مجاز فيه ولا يلزم أن تكون حاصلة في الذهن في أثناء العمل أو في أوله تفصيلا ويتصوّر الفاعل هذا القصد والتصميم فعلا بل ربما يكون ان الانسان يأتي بالعمل بذلك التصميم والعزم ذاهل وغافل بالكلية عن الصورة التفصيلية للعمل وعن التصميم، ولكن تلك الحقيقة موجودة، ويوجد العمل في الخارج بتحريكها كما هو واضح وجدانا في الافعال الاختيارية.

وبالجملة، هذا التصميم والعزم الذي هو عبارة عن النيّة في لسان الفقهاء رضوان الله عليهم موجود في كل عمل بلا تخلّف بحيث لو أراد أحد أن يوجد العمل الاختياري بدونه فهو غير ممكن له ومع ذلك فإن وسوسة الشيطان الخبيث ودعابة الواهمة العقل محكوما لهما وتعميان هذا الامر الضروري على الانسان المسكين، وعوضا من أنه يصرف عمره في معارف التوحيد ومعرفة الحق والسعي وراءه يوسوس له ابليس الخبيث ويصرف نصف عمره في أمر ضروري وشيء واجب الحصول.

ان للشيطان حبائل ومكائد كثيرة فيلزم أحدا لترك أصل العمل وفي آخر اذا يئس من أنه يترك أصل العمل فيلزمه بالرياء والعجب وسائر المفسدات، واذا لم يوفّق لهذا الامر فيبطل عمله من طريق التظاهر بالقداسة فيوهن عبادات جميع الناس في نظر الانسان وينسب الناس إلى عدم المبالاة ثم يلزمه أن يصرف جميع عمره في النيّة

مثلا التي هي أمر ملازم للعمل أو في التكبيرة أو في القراءة التي هي كلها من الامور العادية ولا تحتاج إلى مؤونة، وبالآخرة لا يرضى عن الانسان الا بأن يبطل عمله باحدى الطرق المذكورة.

ان للوسواس شؤونا كثيرة وطرقا عديدة لا نستطيع أن نبحث الان في جميعها ونستقصي جميع شؤونها، ولكن الوسوسة في النية لعلها أكثر أضحوكة وأعجبها بين أنواع الوسوسات لانه اذا أراد أحد أن يقوم بكلّ قواه وفي جميع عمره أن يأتي بأمر واحد اختياري بدون نيّة لا يمكن له أن يكون هذا في عهدته ومع ذلك ترى واحدا مسكينا مريض النفس وضعيف العقل يعطّل نفسه في كلّ صلاة مدّة مديدة لكي توجد صلاته مع النية والعزم، فمثل هذا الشخص كمن يتفكر مدة مديدة لان يهيئ نية وعزما لذهابه إلى السوق أو لتغذّيه. فالصلاة التي ينبغي أن تكون لهذا المسكين معراج قربه ومفتاح سعادته وبالتأدّب بآدابها القلبية والاطّلاع على أسرار هذه اللطيفة الالهية يكمل ذاته ويؤمّن النشأة الحياتية، فهو يغفل عن ذلك كله بل لا يراها ضرورية لنفسه بل يعد جميعها باطلة ويصرف رأس ماله العزيز في خدمة الشيطان وإطاعة الوسواس الخنّاس ويجعل عقله الموهوب من الله سبحانه الذي هو نور الهداية محكوما لحكم ابليس.

فعن عبدالله بن سنان قال: ذكرت لابي عبدالله عليه السلام رجلا مبتلى بالوضوء والصلاة وقلت: هو رجل عاقل فقال أبو عبدالله (ع) وأيّ عقل له وهو يطيع الشيطان فقلت له وكيف يطيع الشيطان؟ فقال سله هذا الذي يأتيه من أيّ شيء هو فإنه يقول لك: من عمل الشيطان.

وبالجملة لا بد للانسان أن يجذر هذا الجذر بكل ما تيسّر له من الرياضة والكلفة، فإنه يمنع الانسان عن جميع السعادات والخيرات، فمن الممكن أن تكون عبادات الانسان في طول أربعين سنة غير صحيحة حتى بحسب الصورة وتكون فاقدة لاجزائها الصورية الفقهية فضلا عن الآداب الباطنية والشرعية ومما يضحك الثكلى أن بعض هؤلاء الاشخاص المبتلين بالوسواس يرون أعمال جميع الناس باطلة ويحسبون أنهم لا يبالون بدينهم مع أن هذا الوسواس نفسه ان كان مقلّدا فمرجع تقليده أيضا واحد من الناس المعروفين، وان كان هو من أهل الفضل فليرجع إلى الاخبار ويرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام ايضا كانوا في هذه الامور كمتعارف الناس، فهذه الطائفة الوسواسية فقط من بين الناس يعملون على خلاف رسول الله والائمة المعصومين عليهم السلام وفقهاء المذهب وعلماء الملّة ويعدّون أعمال الناس جميعا كلا شيء وعملهم موافقا للاحتياط ويرون أنفسهم مبالين بالدين. فمثلا في باب الوضوء، الاخبار البيانية لوضوء رسول الله صلى الله عليه وآله متواترة على الظاهر بأنه صلى الله عليه وآله يصبّ غرفة من الماء على وجهة وغرفة إلى يمينه وغرفة إلى شماله، وقد قام إجماع فقهاء الامامية على التحقيق بأن هذا الوضوء صحيح وظاهر كتاب الله ايضا هو ذلك، وفي الغسل الثاني بل الغرفة الثانية استشكل بعض ولكن الغرفة الثانية بل الغسل الثاني أيضا لا بأس به وان كان في استجبابه كلام ولكن الغسل الثالث بدعة ومبطل للوضوء بلا اشكال رواية وفتوى، فالآن انظر إلى عمل الوسواسي المسكين فهو لا يكتفي بعشرين غرفة تسبغ كل غرفة منها تمام اليد وتحسب غسلة تامة فوضوؤه حينئذ باطل بلا اشكال، فهذا الشقيّ الضعيف العقل يرى هذا العمل الذي أتى به طاعة للشيطان ووسوسته صحيحا وموافقا للاحتياط ويرى أعمال سائر الناس باطلة، فمن هنا يعلم وجه صدق الحديث الشريف الذي عدّه من السفهاء، فيعلم أن من يرى العمل الذي يخالف عمل رسول الله صحيحا والعمل الذي يكون موافقا لعمله صلى الله عليه وآله باطلا فهو إمّا خارج عن الدين أو سفيه لا عقل له، وحيث إن هذا المسكين ليس بخارج عن الدين فهو سفيه لا عقل له

لا محالة ومطيع للشيطان ومخالف للرحمن وليس لهذه المعصية والداء العضال علاج سوى التفكر في الامور التي ذكرناها والمقايسة لعمله بعمل المتدينين والعلماء والفقهاء رضوان الله عليهم، فإن رأى نفسه مخالفا لهم فيرغم أنف الشيطان ولا يعتني بذاك اللعين فإذا وسوس له الشيطان في وساوسة بأن عملك باطل يجيبه اذا كان عمل جميع فقهاء الامة باطلا فليكن عملي ايضا باطلا، فمن المرجو أنه اذا خالف الشيطان مدّة ويستعيذ في ضمن هذا إلى الحق تعالى بالعجز والحاجة من شرّه، أن يزول هذا المرض وتنقطع عين طمع الشيطان عنه كما أنه في الروايات قد ذكرت هذه الطريقة لدفع كثرة الشك الذي هو ايضا من القاءات الشيطان. ففي الكافي الشريف باسناده إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: "اذا كثر عليك السهو فامض على صلاتك فانه يرشك أن يدعك انما هو من الشيطان".

وفي رواية أخرى عن الباقر أو الصادق عليهما السلام قال: "لا تعوّدوا الخبيث من أنفسكم نقض الصلاة فتطمعوه فإن الشيطان خبيث معتاد لما عوّد فليمض أحدكم في الوهم ولا يكثرنّ نقض الصلاة فإنه إذا فعل ذلك مرّات لم يعد اليه الشكّ". قال زرارة: ثم قال: "انما يريد الخبيث أن يطاع فاذا عصي لم يعد إلى أحدكم".. وهذه المعالجات المهمّة في جميع الامور التي تكون من القاءات الشيطان ومن دعابات الواهمة الشيطانية، وقد قررت في الاحاديث الشريفة لذلك أدعية ايضا فمن أرادها ايضا فليراجع الوسائل ومستدركها في أواخر كتاب الخلل.

الفصل الثاني
في الاخلاص

من مهمات آداب النية وهو في نفس الوقت من مهمات جميع العبادات ومن المقررات الكلية الشاملة الاخلاص وحقيقتة تصفية العمل عن شائبة سوى الله وتصفية السرّ عن رؤية غير الحق تعالى في جميع الاعمال الصورية واللبّية والظاهرية والباطنية وكمال الاخلاص ترك الغير مطلقا وجعل الإنّيّة والأنانية والغير والغيرية تحت قدميك، قال تعالى: {ألا لله الدين الخالص} (الزمر 3) أي أن الله تعالى قد اختار لنفسه الدين الخالص فإذا كان لشيء من الحظوظ النفسانية والشيطانية دخل في الدين فلا يكون خالصا وما ليس بخالص فإن الله لم يختره وما كانت فيه شائبة الغيرية والنفسانية فهو خارج عن حدود دين الحق. قال تعالى: {وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} (البينة 5).. وقال تعالى: {من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب} (الشورى 20). وقال رسول الله صلى الله عليه وآله على ما نقل: "لكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر اليه". وقال تعالى: {ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله

ثم يدركه الموت وقع أجره على الله} (النساء 100). ويمكن أن تكون هذه الأية المباركة متكلفة لجميع مراتب الاخلاص أحدهما الهجرة الصورية التي تقع بالبدن وهذه الهجرة اذا لم تكن خالصة لله بل كانت للحظوظ النفسانية فليست هجرة إلى الله ورسوله وهذه هي مرتبة الاخلاص الصوري الفقهي.

والثانية الهجرة المعنوية والسفر الباطن الذي مبدؤه البيت المظلم للنفس وغايته الله تعالى ورسوله الذي مرجعه الحق ايضا لأن الرسول بما هو رسول ليس له استقلال بل هو آية ومرآة وممثل، فالهجرة اليه هجرة إلى الحق (حبّ خاصان خد احبّ خدا است) (مصراع للعارف المثنوي الرومي يقول: حب المخصوصين لله هو حب الله)

فمحصلّ معنى الآية الشريفة على حسب هذا الاحتمال هو أنه من هاجر بالهجرة المعنوية وسافر بالسفر القلبي العرفاني وخرج من بيت النفس ومنزل الانانية وهاجر إلى الله من دون رؤية نفسه ونفسانيته وحيثيّته فجزاؤه على الحق تعالى، واذا كان السالك في سلوكه إلى الله طالبا لحظ من الحظوظ النفسانية ولو كان هو الوصول إلى المقامات بل ولو كان هو الوصول إلى قرب الحق بمعنى وصول نفسه إلى الحق فليس هذا السلوك سلوكا إلى الحق بل السالك لم يخرج بعد من البيت بل هو مسافر في جوف البيت من ركن إلى ركن ومن زاوية إلى زاوية، فالسفر اذا كان في مراتب النفس وللوصول إلى الكمالات النفسانية فليس بسفر إلى الله بل هو سفر من النفس إلى النفس، ولكن لا بد للسالك من هذا السفر في سفره إلى الله ولا يقدر أحد أن يسافر السفر الرباني من دون السفر النفساني غير الكمّل من أولياء الله وهذا الشأن للكمّل فقط ولعل الآية الشريفة: {سلام هي حتى مطلع الفجر} (القدر 5) تشير إلى هذه السلامة من التصرفات الشيطانية والنفسانية في جميع مراتب السير، في الليالي المظلمة الطبيعية التي هي ليلة القدر للكمّل حتى طلوع فجر القيامة الذي هو للكمّل رؤية جمال الاحدية، وأما غيرهم فليسوا سالمين في جميع مراتب السير بل في أوائل الامر فلا يكون سالك خارجا من التصرفات الشيطانية فاعلم أن هذه المرتبة من الاخلاص أي السلامة من أول مرتبة السير إلى الله إلى آخر مراتبها وهي حصول الموت الحقيقي بل ما بعد الحياة الثانوية الحقانية وهي الصحو بعد المحو لا تتيسر لأهل السلوك والمتعارفين منن أصحاب المعرفة والرياضة وآية هذا النحو من الخلوص هي أنه لا سبيل لغواية الشيطان عليهم وطمع الشيطان مقطوع عنهم بالمرّة كما قال تعالى في الآية الشريفة ناقلا عن ذاك الخبيث: {فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين} (سورة ص 81 ـ 82 ـ 83). وقد نسب الاخلاص ههنا إلى عين العبد لا إلى فعله وهذا مقام فوق الاخلاص في العمل ولعل المراد من الحديث النبوي المعروف من أخلص لله أربعين صباحا جرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى السانه، هو الاخلاص بجميع مراتبه يعني الاخلاص العملي والصفاتي والذاتي ولعله يكون ظاهرا في الاخلاص الذاتي وتكون بقية مراتب الاخلاص من لوازمه، وشرح هذا الحديث الشريف وبيان المقصود من ينابيع الحكمة وكيفية جريانها من القلب إلى اللسان ومدخلية الخلوص في هذا الجريان وخصوصية الاربعين صباحا خارج عن نطاق البيان في هذه الرسالة ويحتاج إلى رسالة مستقلة، والرسالة المعروفة بتحفة الملوك في السير والسلوك المنسوبة إلى العارف بالله بحر العلوم هو السيد محمد بن مهدي بن العالم السيد مرتضى بن العالم الجليل السيد محمد البروجردي الطباطبائي كان (ره) سيد العلماء الاعلام ومولى فضلاء الاسلام علامة دهره وزمانه ووحيد عصره وأوانه قال العلامة النوري في المستدرك: قد أذعن له جميع علماء عصره ومن تأخّر عنه بعلوّ المقام والرئاسة النقلية والعقلية وسائر الكمالات النفسانيّة حتى أن الشيخ الفقيه الاكرم الشيخ جعفر النجفي مع ما هو عليه من الفقاهة والرياسة كان يمسح تراب خفّه بحنك عمامته وهو من الذين تواترت عنه المكرمات ولقاؤه الحجة صلوات الله عليه ولم يسبقه في هذه الفضيلة أحد فيما أعلم الا السيد رضى الدين علي بن طاووس وقد ذكرنا جملة منها بالاسانيد الصحيحة في كتابنا دار السلام والجنّة المأوى والنجم الثاقب لو جمعت لكانت رسالة حسنة (انتهى).

تولّد في الحائر الشريف سنة 1155 (عقنه) وتوفي في النجف الاشرف سنة 1212 (غريب) ودفن بجنب باب المسجد الطوسي وبجنبه دفن ولده العالم الفاضل السيد محمد رضا رضي الله عنه) المرحوم فعمدة نظره شرح

هذا الحديث الشريف وهي رسالة لطيفة وان كانت لا تخلو من المناقشات، ولذا لا يراها البعض من تأليفات هذا السيد الجليل وليس ببعيد.

الفصل الثالث

في بيان بعض مراتب الاخلاص بطريق الاجمال

على نحو يناسب وضع هذه الاوراق

فاحدى مراتبه تصفية العمل أعم من العمل القلبي والقالبي عن شائبة رضا المخلوق وجلب قلوب المخلوقين سواء كان للمحمدة أو المنفعة أو لغيرها، وفي مقابل هذه المرتبة اتيان العمل رياءً وهذا هو الرياء الفقهي وهو أحطّ وأدنى مراتب الرياء وصاحبه أرذل المرائين وأخسّهم.

المرتبة الثانية: تصفية العمل عن حصول المقاصد الدنيوية والمآرب الزائلة الفانية. وان كان الداعي هو أن الله تعالى يعطيها بواسطة هذا العمل كإتيان صلاة الليل لتوسعة الرزق وإتيان صلاة أول الشهر للسلامة من الآفات في ذلك الشهر وإعطاء الصدقات للعافية وسائر المقاصد الدنيوية وقد عدّ بعض الفقهاء عليهم الرحمة هذه المرتبة من الاخلاص شرطا لصحة العبادة اذا كان اتيان العمل للوصول إلى ذلك المقصود وهو خلاف التحقيق حسب القواعد الفقهية وان كانت هذه الصلاة عند أهل المعرفة لا قيمة لها أصلا فهي كسائر المكاسب المشروعة بل لعلها تكون أقل منها أيضا.

المرتبة الثالثة: تصفيته عن الوصول إلى جنّات الجسمانية والحور والقصور وأمثالها من اللذات الجسمانية، وفي مقابلة عبادة الاجراء كما في

الروايات الشريفة، وهذا أيضا في نظر أهل الله كسائر المكاسب الا أن أجرة عمل هذا الكاسب أكثر وأعلى اذا قام بالامر ويخلصه عن المفسدات الصورية.

المرتبة الرابعة: أن يصفّي العمل عن خوف العقاب والعذاب الجسماني الموعود، وفي مقابلها عبادة العبيد كما في الروايات، وهذه العبادة أيضا في نظر أصحاب القلوب لا قيمة لها وخارجه عن نطاق عبودية الله ولا يفرق في نظر أهل المعرفة أن يعمل الانسان عملا من خوف الحدود والتعزيرات في الدين أو خوف العقاب والعذاب الأخروي أو للوصول إلى النساء الدنيوية أو الحور ونساء الجنة والعمل في جميع ذلك ليس لله بل هو الداعي لداعي الأمر الذي يخرج العمل عن البطلان الصوري طيقا للقواعد الفقهية ولكن ليس لهذا المتاع قيمة في سوق أهل المعرفة.

المرتبة الخامسة: تصفية العمل عن الوصول إلى السعادات العقلية واللذّات الروحانية الدائمة الازلية الابدية والانسلاك في سلك الكروبيين والانخراط في زمرة العقول القادسة والملائكة المقربين، وفي مقابلها العمل لهذا المقصد، وهذه الدرجة وان كانت درجة عظيمة والمقصد عاليا ومهمّا والحكماء والمحققون يهتمون بهذه المرتبة من السعادة اهتماما كثيرا ويرون لها قيمة ولكن في مسلك أهل الله. هذه المرتبة ايضا هي من نقصان السلوك وسالكها أيضا يعدّ كاسبا من الاجراء وان كان له فروق مع سائر الناس في المتجر والمكسب.

المرتبة السادسة: هي في ازاء هذه المرتبة، وهي تصفية العمل من خوف عدم الوصول إلى اللذات والحرمان عن هذه السعادات، وفي مقابلتها العمل لهذه المرتبة من الخوف، وهذه ايضا وان كانت مرتبة عالية

وخارجه عن حدّ اشتهاء أمثال الكاتب ولكنها أيضا في نظر أهل الله عبادة العبيد، وهي عبادة معللة.

المرتبة السابعة: تصفية العمل عن الوصول إلى لذات جمال الله والوصول إلى بهجات أنوار السبحات غير المتناهية وهي جنة اللقاء. وهذه المرتبة أي جنة اللقاء هي من مهمات مقاصد أهل المعرفة وأصحاب القلوب وأيدي آمال النوع عنها قاصرة، والاوحدي من أهل المعرفة يتشرّف بشرف هذه السعادة وهم أهل الحب والجذبة من كمّل أهل الله واصفياء الله ولكن ليست هذه المرتبة هي كمال مرتبة الكمّل من أهل الله بل هي من مقاماتهم المعمولة والعادية لهم وما في الادعية كالمناجاة الشعبانية من أن أمير المؤمنين وأولاده الطاهرين استدعوا هذه المرتبة من الله أو أشاروا بكونهم متحققين بها فليس من جهة أن مقاماتهم منحصرة بهذه المرتبة.

كما أن المرتبة الثامنة في ازاء هذه المرتبة وهي عبارة عن تصفية العمل عن خوف الفراق ايضا ليس كمال مقامات الكمّل وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: كيف أصبر على فراقك..فمن مقاماته المعمولة العادية ومقامات أمثاله كذلك.

وبالجملة، ان تصفية العمل عن هاتين المرتبتين ايضا لازمة عند أهل الله، والعمل معها معلل وليست خارجة عن الحظوظ النفسانية، وهذا كمال الخلوص، وبعدها مراتب اخرى خارجة عن حدود الخلوص وداخله تحت ميزان التوحيد والتجريد والولاية لا يناسب المقام بيانها.

الفصل الرابع

في تحذير منكري المقامات وطوائفهم

اذا علمت مراتب الاخلاص ومقامات العبادات إلى حدّ فتهيّأ لتحصيله فإن العلم بلا عمل لا قيمة له والحجّة على العالم أتمّ والمناقشة عليه أكثر، فيا للاسف إننا محرومون بالكلية من المعارف الالهية والمقامات المعنوية لاهل الله والمدارج الغالية لاصحاب القلوب، فطائفة منا ولعلها هي الاكثر تنكر المقامات كلّها وترى أهلها على الخطأ والباطل وعاطلا ومن ذكرهم بشيء أو دعا إلى مقاماتهم يحسبونه شاعرا ودعوته شطحا ولا يرجى لهذه الطائفة من الناس أن يقدر أحد على توجيههم إلى نقصهم وعيبهم وإيقاظهم من نومهم الثقيل انك لا تهدي من أحببت ولا تسمع من في القبور.. نعم ان الذين هم كالكاتب المسكين ليس عندهم خبر عن شيء وليست قلوبهم حية بحياة المعرفة والمحبة الالهية فهم أموات، قبورهم البالية غلاف ابدانهم وقد حجبهم غبار هذا الجسم ومضيقة البدن المظلم عن جميع عوالم النور ونور على نور ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.. هذه الطائفة كل ما يقرأ عليهم من الحديث والقرآن في المحبة والعشق الالهي وحبّ اللقاء والانقطاع إلى الحق فيقومون بتأويله وتوجيهه ويفسّرونه على طبق آرائهم

فيوجّهون آيات اللقاء وحب الله على كثرتها إلى لقاء أشجار الجنة ونسائها الجميلة، ولا أدري أن هؤلاء ماذا يصنعون بفقرات المناجاة الشعبانية حيث يقول: "الهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك، الهي واجعلني ممّن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك".

فما هذه الحجب النورانية وهل المراد من النظر إلى الحق النظر إلى أجّاص الجنة؟ وهل معدن العظمة هو قصور الجنة؟ وهل تعلّق الارواح بعزّ القدس هو التعلق بذيل حور العين لقضاء الشهوة؟.. هل هذا الصعق والمحو من الجلال يعني به جمال نساء الجنة؟. وتلك الجذبات والاغشية التي حصلت لرسول الله صلى الله عليه وآله في صلاة المعراج كان يشاهد أنوار العظمة تلك وما فوقها في محفل ما كان الامين جبرائيل محرما لسرّه ولا يتجرّأ للتقدّم قيد أنملة؟ هل كانت جذبة احدى النساء الحسان في الجنة؟. أو انه صلى الله عليه وآله كان يرى أنوارا كنور الشمس والقمر أو أشدّ منهما والقلب السليم الذي قال فيه المعصوم عليه السلام: والسليم قلب لقي الله وليس فيه سواه، هل المقصود عن غير الحق هو غير كرامة الحق التي يكون مرجعها ألا يكون غير أجّاص الجنة ومشمشها (فيا ويلي) (فيا ويلي) ترجمة كنائية من الجملة التي ذكرها المؤلف دام ظله في المتن وهي (خاك بر فرق من).فإن عنان القلم قد خرج من كفّي واشتغل بالشطحات ولكن لعمر الحبيب أنه ليس لي مقصود في هذا الكلام الا أن يحصل تنبّه للاخوة الايمانيين وخصوصا رجال العلم ولا ينكرون على الاقل مقامات أهل الله فإن هذا الانكار منشأ جميع الشقاوات، وليس مقصودنا ان نبين من هم أهل الله بل مقصودنا ألاّ ننكر المقامات وأما من هو صاحب هذه المقامات؟ فالله

أعلم، وهذا أمر لا يطّلع عليه أحد (آن راكه خبرشد خبري باز نيامد) (مصراع للشاعر المعروف السعدي الشيرازي يقول: من كان عنده خبر فليس عنه خبر.) وطائفة أخرى هم الذين لا ينكرون مقامات أهل المعرفة ولا عناد لهم مع اهل الله ولكن الاشتغال بالدنيا وتحصيلها والاخلاد إلى لذاتها الفانية منعتهم من الكسب العملي والعلمي والذوقي والحالي، فمثلهم كمرضى يصدّقون مرضهم ولكن شهوة البطن لا تدعهم يقدمون على الحمية وشرب الدواء المرّ، كما أن الطائفة الاولى كمرضى لا يصدّقون المرض الكذائي والمريض الكذائي في دار التحقق ومع أنهم مبتلون بالمرض ينكرون أصل المرض.

وطائفة أخرى هم الذين اشتغلوا بالكسب العلمي واشتغلوا بتحصيل المعارف علما ولكنهم اكتفوا من حقائق المعارف ومعارف أهل الله بالاصطلاحات والالفاظ والعبارات المزركشة وقيّدوا أنفسهم وجمعا من المساكين في سلسلة الالفاظ والاصطلاحات واقتنعوا عن جميع المقامات بالمقالات، ويوجد ضمن هؤلاء زمرة يعرفون أنفسهم ولكنهم للترؤس على عدة مساكين جعلوا هذه الاصطلاحات اللفظية وبلا لبّ وسيلة لكسب المعيشة ويصيدون القلوب الصافية لعباد الله بالالفاظ الغارّة والاقوال الجالبة، هؤلاء شياطين من الانس وليس اضرارهم على عباد الله بأقل من ابليس، هؤلاء المساكين لا يدرون أن قلوب عباد الله منازل الحق تعالى ولا يحق لاحد التصرف فيها، فهم غاصبون منزل الحق ومخرّبون الكعبة الحقيقية فهم ينحتون أصناما ويضعونها في قلوب عباد الله التي هي الكعبة بل هي البيت المعمور، هؤلاء الممرّضون وقد أظهروا أنفسهم في زيّ الطبيب ويبلون عباد الله بالامراض المختلفة المهلكة وعلامة تلك الطائفة أنه يعتنون بارشاد الاغنياء والاكابر أكثر من ارشاد الفقراء والمساكين، فأكثر مريديهم من أرباب الجاه و المال وهم بأنفسهم ايضا في زيّ الاغنياء وأرباب الجاه والمال، ولهؤلاء القوم كلمات غارّة يطهرون أنفسهم عند المريدين عن التعلق بالدنيا مع أنهم في نفس الوقت متلوّثون بآلاف من القذارات الدنيوية ويعدّون أنفسهم في أعينهم من أهل الله وأولئك المساكين البلهاء (أي المريدين) ايضا يغضّون أبصارهم عن جميع عيوبهم المحسوسة ويسرّون بالاصطلاحات والالفاظ بلا لب والحال اذا انجر الكلام إلى هنا ينبغي أن نذكر حديثا أو حديثين يدوران في هذا الموضوع وان خارجا عن نسج الكلام ولكن التبرّك بكلام أهل البيت حسن جميل.

عن كتاب الخصال للشيخ الصدوق (رحمه الله) باسناده إلى ابي عبدالله عليه السلام قال: "ان من العلماء من يحبُّ ان يجمع علمه ولا يحب أن يؤخذ عنه فذاك في الدرك الاول من النار، وفي العلماء من اذا وُعِظ أنف واذا وعض عنف فذاك في الدرك الثاني من النار، ومن العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف ولا يرى له في المساكين وضعا فذاك في الدرك الثاني من النار، ومن العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف ولا يرى له في المساكين وضعا فذاك في الدرك الثالث من النار، ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسلاطين فإن ردّ عليه وقصر في شيء من أمره غضب فذاك في الدرك الرابع من النار، ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنصارى ليغزر به علمه ويكثر به حديثه فذاك في الدرك الخامس من النار ومن العلماء من يضع نفسه للفتيا ويقول: سلوني ولعله لا يصيب حرفا واحدا والله لا يحب المتكلّفين فذاك في الدرك السادس من النار، ومن العلماء من يتخذ العلم مروّة وعقلا فذاك في الدرك السابع من النار".

وعن الكليني (رحمه الله) في جامعه الكافي باسناده إلى الباقر عليه السلام "من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف

به وجوه الناس اليه فليتبوّأ مقعده من النار، الرئاسة لا تصلح الا لأهلها".

وعن الصادق عليه السلام: "اذا رأيتم العالم محبّا للدنيا فاتهموة على دينكم فإن كل محبّ بشيء يحوط ما أحبّ". وقال: "أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لا تجعل بيني وبينك عالما مفتونا بالدنيا فيصدّك عن طريق محبّتي فإن أولئك قطاع طريق عبادي المريدين ان أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم".

والذين هم في هذه الطائفة ليسوا بحيّالين ولا خدّاعين بل كانوا سالكين طريق الآخرة وهم في صدد تحصيل المعارف والمقامات، قد يتفق لهم أن الشيطان القاطع للطريق غرّهم فاغترّوا وحسبوا ان المعارف والمقامات في الحقيقة عبارة عن الاصطلاحات العلمية التي صنعوها او استفادوا من صناعة غيرهم، فهم أيضا قد صرفوا نقد شبابهم وأيام حياتهم إلى آخر عمرهم في تكثير الاصطلاح وضبط الكتب والصحف كطائفة من علماء تفسير القرآن الذين يرون ان الاستفادة من القرآن منحصرة في ضبط اختلافات القراءات ومعاني اللغات وتصاريف الكلمات والمحسنات اللفظية والمعنوية ووجوه اعجاز القرآن والمعاني العرفية واختلاف افهام الناس فيها وجمعها، ويغفلون بالكلية عن دعوات القرآن وجهاته الروحية ومعارفها الالهية، فهؤلاء ايضا كمريض رجع إلى الطبيب وأخذ نسخة دوائه ورأى علاج نفسه في ضبط النسخة وحفظها وكيفية تركيباتها، فهؤلاء يقتلهم المرض ولا ينتج لهم العلم بالنسخة والرجوع إلى الطبيب نتيجة اصلا.

ايها العزيز ان جميع العلوم عملية حتى علم التوحيد فله ايضا أعمال قلبية وقالبية، ان التوحيد هو من باب التفعيل وهو عبارة عن اعادة الكثرة

إلى الوحدة وهذا الاعمال الروحية والقلبية، فما دمت واقعا في الكثرات الافعالية ولم تعرف السبب الحقيقي ولم تكن عينك مشاهدة للحق، والحق في الطبيعة والجهات والكثرات الطبيعية فانية في الحق ولم ترفرف على قلبك راية سلطان وحدة فاعلية الحق فأنت بعيد عن الخلوص والاخلاص والصفاء والتصفية بالكلية ومهجور عن التوحيد، فالرياءات الافعالية بأجمعها والرياءات القلبية أكثرها من نقصان التوحيد الافعالي فمن يرى المخلوق الضعيف المسكين المستكين مؤثرا في دار التحقق ويعده متصرفا في مملكة الحق كيف يستطيع أن يرى نفسه غنيّا عن جلب قلوب المخلوقين ويخلص عمله ويصفّيه عن شرك الشيطان فلا بدّ من أن تصفّى العين والمنبع حتى ينبع

منها ماء صافٍ، والا لم تكن متوقعا أن ينبع الماء الصافي من العين الموحلة، فأنت اذا علمت أن قلوب عباد الله تحت تصرف الحق وأذقت لذائقة القلب معنى يا مقلّب القلوب.. وأسمعت سامعته ذلك فلا تصير مع ما فيك من الضعف والمسكنة في صدد صيد القلوب واذا أفهمت القلب حقيقة بيده ملكوت كل شيء وله الملك وبيده الملك لاستغنيت عن جلب القلوب ولما رأيت نفسك محتاجة إلى القلوب الضعيفة لهذا المخلوق الضعيف ويحصل لك الغنى القلبي، إنّك لمّا أحسست في نفسك الحاجة ورأيت الناس محلا لعقدتك فاحتجت إلى جلب القلوب ولمّا ظننت نفسك متصرفة في القلوب باظهار القدس فاحتجت إلى الرياء وان كنت ترى أن الحلاّل هو الحق وما رأيت نفسك أيضا متصرفة في الكون لما احتجت إلى هذه الانواع من الشرك، ايها المشرك المدّعي للتوحيد، وأيها الابليس ابن آدم لقد ورثت هذا من الشيطان اللعين الذي يرى نفسه متصرفا ويهتف هتاف ولأغوينّهم فذلك المنحوس الشقّي في حجب الشرك ورؤية النفس والذين يرون

العالم وأنفسهم مستقلة لا مستظلّة ومتصرفة لا مملوكة فانهم ورثوا الشيطنة من ابليس فاستيقظ من النوم الثقيل وأوصل إلى قلبك الآيات للكتاب الالهي والصحيفة النورانية الربوبية. فإن هذه الآيات العظيمة قد أنزلت لاستيقاظي واستيقاضك، ونحن حصرنا جميع حظوظنا في تجويدها وصورتها وغفلنا عن معارفها حتى حكم الشيطان فينا ووقعنا تحت سلطته. فأنا أختم الكلام على العجالة في هذا المقام وأتركه إلى المقام الآخر، وفي آداب القراءة أشير إلى نبذة من هذا المطلب ان شاء الله وأفتح طريق الاستفادة من القرآن لنفسي ولعباد الله بإذن الله وحسن توفيقه والسلام..

الفصل الخامس

في ذكر بعض درجات الاخلاص

فحيث وصل الكلام إلى هنا فلا بدّ لي من ذكر بعض الدرجات الأخرى للاخلاص تناسب المقام.

فمن درجات الاخلاص تصفية العمل عن رؤية استحقاق الثواب والأجر وفي مقابله شوبه بطلب الأجر ورؤية استحقاق الاجرة والثواب وهذا لا يخلو عن مرتبة من الاعجاب بالعمل ولابدّ للسالك من تخليص نفسه منه وهذه الرؤية رؤية الاستحقاق فهي من نقصان المعرفة بحاله وبحق الخالق تعالى شأنه، وهذا أيضا من الشجرة الخبيثة الشيطانية التي مرجعها رؤية النفس وعملها والانّيّة والأنانية. فالانسان المسكين ما دام هو في حجاب رؤية أعمال نفسه ويراها من عند نفسه ويرى نفسه متصرفا في الامر فلا ينجو من هذا المرض ولا ينال هذه التصفية والتخليص. فالسالك لابد له أن يجهد ويفهم القلب بالرياضات القلبية والسلوك العقلي والعرفاني، ان جميع الاعمال من الهبات الالهية والنعم التي أجراها الحق تعالى على يد العبد، فاذا تمكن التوحيد الفعلي في قلب السالك فلا يرى العمل من عند نفسه ولا يطلب الثواب بل يرى الثواب تفضّلا والنعم ابتدائية، وقد ذكرت هذه اللطيفة الالهية كثيرا في

كلمات الائمة والاطهار عليهم السلام و خصوصا الصحيفة السجادية، تلك الصحيفة النورانية التي نزلت من سماء عرفان العارف بالله والعقل النوراني سيد الساجدين لخلاص عباد الله من سجن الطبيعة وتفهيمهم أدب العبودية والقيام في خدمة الربوبية، كما في الدعاء الثاني والثلاثين يقول عليه السلام: "لك الحمد على ابتدائك بالنعم الجسام والهامك الشكر على الاحسان". وفي موضع آخر يقول: "تعمك ابتداء واحسانك التفضّل". وفي

مصباح الشريعة يقول: "وأدنى حدّ الاخلاص بذل العبد طاقته ثم لا يجعل لعمله عند الله قدرا فيوجب به على ربه مكافأة لعمله"

والدرجة الاخرى للاخلاص تصفية العمل من الاستكثار والفرح به والاعتماد وتعلق الخاطر عليه. وهذا أيضا من مهمات سلوك السالك، والاستكثار يمنع السالك من قافلة السالكين إلى الله ويحبسه في سجن الطبيعة، وهذا أيضا ينبت من الشجرة الخبيثة الشيطانية ومنشؤه حب النفس الذي هو ارث من الشيطان الذي قال {خلقتني من نار وخلقته من طين} (الاعراف 12) وهذا من جهل الانسان بمقامه ومقام معبوده جلّت عظمته.

اذا كان المسكين الممكن يعرف مقام نقصه وعجزه وضعفه ومسكنته ويعرف مقام عظمة الحق ومجده وكماله فلا يرى عمله عظيما أبدا ولا يحسب نفسه قائما بالامر، فالمسكين يتوقع لعمل لا يساوي سنة منه عند أهل الدنيا في سوقهم أزيد من توامين (توامين جمع تومان، وهو واحد النقد في ايران.) اذا كانوا واثقين من صحته وإجزائه توقعات غير متناهية لركعتين من ذلك العمل وهذا هو الفرح والاستكثار للعمل الذي هو مبدأ لكثير من المفاسد الاخلاقية والاعمالية يطول ذكرها، وقد أشاروا عليهم السلام في الاحاديث إلى هذا المطلب، كما في الكافي الشريف باسناده إلى موسى بن جعفر سلام الله عليهما أنه قال لبعض

ولده: {يا بني عليك بالجدّ ولا تخرجنّ نفسك من حد التقصير في عبادة الله عزّ وجلّ}. وقال عليه السلام في حديث آخر: "كل عمل تريد به الله عزّ وجلّ فكن مقصّرا عند نفسك فإن الناس كلهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله مقصّرون الا من عصمه الله عزّ وجلّ".

وعنه عليه السلام: "لا تستكثروا كثير الخير". وفي الصحيفة الكاملة في وصف ملائكة الله يقول عليه السلام: "الذين يقولون اذا نظروا إلى جهنم تزفر إلى أهل معصيتك سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك".

فيا أيها الضعيف المقام الذي يعترف فيه رسول الله بالعجز والتقصير ويقول: "ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك" وهو أعرف خلق الله وعمله أنور من أعمال جميع الناس وأعظم من جميعها وكذا الائمة المعصومون يظهرون ذاك النحو من القصور والتقصير في المحضر المقدس (فماذا يتأتى من بعوضة نحيفة (ترجمة مصراع كالمثل في لسان الفرس وهو (ازيشه لاغري جه خيزد؟).). نعم ان مقام معرفتهم بعجز الممكن وعزّة الواجب وعظمته تعالى شأنه كانت تقتضي تلك الاظهارات والاعترافات، وأما نحن المساكين فمن الجهل والحجب المتنوعة قمنا بالتكبر ونعجب بأنفسنا وأعمالنا، فيا سبحان الله ما أصدق كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: "عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله". فهذا من فقدان العقل، ان الشيطان يعمّي لنا أمرا ضروريا ولا نقوم بوزنه في ميزان العقل. انّا نعلم بالضرورة ان أعمالنا وأعمال جميع البشربل أعمال جميع ملائكة الله والروحانيين في ميزان المقايسة بأعمال رسول الله صلى الله عليه وآله والائمة الهداة سلام الله عليهم ليس لها قدر محسوس، ولا تعد شيئا، وفي نفس الوقت الاعتراف بالتقصير واظهار العجز عن القيام بالامر

من تلك الاعاظم متواتر بل فوق حد التواتر، وهاتان القضيتان الضروريتان تنتجان لنا ألا نفرح بشيء من أعمالنا بل علينا اذا قمنا بالعبادة والطاعة طول العمر الدنيا أن نكون خجلين وننكس رؤوسنا في محضره. ومع هذا الوصف فقد تمكن الشيطان في قلوبنا وحكم على عقولنا وحواسنا بحيث لا نأخذ نتيجة من هذه المقدمات الضرورية بل كانت أحوال قلوبنا بعكس تلك النتيجة. ان مولى كانت ضربة واحدة منه يوم الخندق أفضل من جميع عبادات الجن والانس بتصديق من رسول الله يظهر في عبادته ورياضاته التي كان علي بن الحسين وهو أعبد

خلق الله يظهر العجز أن يكون مثله العجز والتذلّل والاعتراف بالقصور والتقصير أكثر منا ورسول الله الذي كان على المرتضى وجميع ما سوى الله عبيدا لجنابه ومتنعمين من سقطات موائد نعمته في معارفه ومتعلمين بتعليمه بعدما خلع بخلعة النبوّة الختمية التي كانت تمام دائرة الكمال واللبنة الاخيرة للمعرفة والتوحيد يقوم بالامر عشر سنوات في جبل حراء على قدميه ويقوم بالطاعة حتى تتورّم قدماه الشريفتان وأنزل الله تعالى عليه {طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى} (طه 1 ـ 2) أيها الطاهر الهادي ما أنزلنا عليك القرآن لتلقى المشقة فانك طاهر وهاد وان كان الناس لا يطيعونك فهو من نقصهم وشقاوتهم لا من نقصان سلوكك أو هدايتك، ومع ذلك يعلن صلوات الله عليه عجزه وقصوره.

ان السيد ابن طاووس (قدس سره) ينقل حديثا عن علي بن الحسين عليه السلام ونحن نُبرِّك هذه الرسالة به وان كان الحديث طويلا في الجملة ولكن حيث إنه شرح بعض حالات المولى فتتعطّر شامة الارواح به وتلتذ ذائقة القلوب منه.

عنه (قدس سره) في فتح الابواب باسناده عن الزهري (بضم الزاي وسكون الهاء ابو بكر محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن الحرث بن شهاب بن زهرة بن كلاب الفقيه المدني التابعي المعروف وقد ذكره علماء الجمهور وأثنوا عليه ثناء بليغا قيل أنه قد حفظ علم الفقهاء السبعة ولقي عشرة من الصحابة وروى عنه جماعة من أئمة علم الحديث وأمّا علماؤنا فقد اختلفت كلماتهم في مدحه وقدحه وقد ذكر المحدّث القمي قدس سره في سفينة البحار ما يتعلق به فمن أراد فليراجع) قال:

"دخلت مع علّي بن الحسين عليهما السلام على عبدالملك بن مروان قال: فاستعظم عبدالملك ما رأى من أثر السجود بين عيني علي بن الحسين عليهما السلام فقال: يا أبا محمد لقد بيّن عليك الاجتهاد ولقد سبق لك من الله الحسنى فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله قريب النسب وكيد السبب وانك لذو فضل عظيم على أهل بيتك وذوي عصرك ولقد أوتيت من الفضل والعلم والدين والورع ما لم يؤت أحد مثلك ولا قبلك الا من مضى من سلفك. وأقبل يثني عليه ويطريه، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: كل ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه فأين شكره على ما أنعم يا أمير المؤمنين، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقف في الصلاة حتى ترم قدماه ويضمأ في الصيام حتى يعصب فوه فقيل له يا رسول الله ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول صلى الله عليه وآله: أفلا أكون عبدا شكورا الحمد لله على ما أولى وأبلى وله الحمد في الآخرة والاولى والله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره في ليل ولا نهار ولا سرّ ولا علانية ولولا أن لأهلي عليّ حقّا ولسائر الناس من خاصّهم وعامّهم عليّ حقوقا لا يسعني الا القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم لرميت بطرفي إلى السماء وبقلبي إلى الله ثم لم أردهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين.. وبكى عليه السلام وبكى عبد الملك" الخبر..

ونحن أغمضنا عن ترجمة الحديث الشريف كما صرفنا النظر عن بعض مراتب الاخلاص الذي لا يناسب المقام ووضع الرسالة لئلا يوجب طول الكلام وملالة الخاطر.

الباب الرابع

في ذكر نبذة من آداب القرءة وقطعة من أسرارها

وفيه
مصباحان

المصباح الأول
في آداب قراءة القرآن الشريف المطلقة
وفيه ستة فصول

الفصل الأول
في آداب القراءة

من أحد الآداب المهمة لقراءة الكتاب الالهي الذي يشترك فيه العارف والعامّي وتحصل منه النتائج الحسنة ويوجب نورانية القلب والحياة الباطنية التعظيم وهو موقوف على فهم عظمته ونبالته وجلالته وكبريائه، وهذا المعنى وان كان بحسب الحقيقة خارجا عن نطاق البيان وزائدا على طاقة البشر لأن فهم عظمة كل شيء بفهم حقيقة وحقيقة القرآن الشريف قبل تنزله إلى المنازل الخلقية وتطوّره بالاطوار الفعلية من الشؤون الذاتية والحقائق العلمية للحضرة الواحدية وهو حقيقة الكلام النفسي الذي هو مقارعة ذاتية في الحضرة الاسمائية، وهذه الحقيقة لا تحصل لاحد لا بالعلوم الرسمية ولا بالمعارف القلبية ولا بالمكاشفة الغيبية الا بالمكاشفة التامة الالهية لذات النبي الخاتم المباركة صلى الله عليه وآله في محفل انس وقاب قوسين بل في خلوة سرّ مقام أو أدنى، وأيدي آمال العائلة البشرية قاصرة عنها الا الخلّص من أولياء الله الذين اشتركوا في روحانية تلك الذات المقدسة بحسب الانوار المعنوية والحقائق الالهية وفنوا بواسطة التبعية التامة فيه فإنهم يتلقون علوم المكاشفة بالوراثة منه صلى الله عليه وآله، وتنعكس حقيقة القرآن في قلوبهم بنفس النورانية والكمال التي تجلّت لقلبه المبارك من دون التنزّل إلى المنازل والتطور بالاطوار وهو القرآن من دون تحريف وتغيير، ومن كتّاب الوحي الالهي من يقدر على تحمّل هذا القرآن هو النفس الشريفة لولي الله المطلق علي بن أبي طالب عليه السلام وأما سائر الخلق فلا يقدرون أخذ هذه الحقيقة الا مع التنزّل عن مقام الغيب إلى موطن الشهادة والتطور بالاطوار الملكية والتكسي بكسوة الالفاظ والحروف الدنياوية، وهذا أحد معاني التحريف الذي وقع في جميع الكتاب الالهي والقرآن الشريف وجميع الآيات الشريفة قد جعلت في تناول يد البشرية بالتحريف بل بالتحريفات الكثيرة على حسب المنازل والمراحل التي طواها من حضرة الاسماء إلى أخيرة عوالم الشهادة، وعدد مراتب التحريف مطابق لعدد مراتب بطون القرآن طباق النعل بالنعل الا أن التحريف عبارة عن التنزّل عن الغيب المطلق إلى الشهادة المطلقة على حسب مراتب العوالم، والبطون عبارة عن الرجوع من الشهادة المطلقة إلى الغيب المطلق، فمبدأ التحريف ومبدأ البطون متعاكسان والسالك إلى الله اذا وصل إلى أي مرتبة من مراتب البطون قد تخلص من مرتبة من مراتب التحريف إلى أن يصل البطون المطلقة وهي البطن السابع على حسب المراتب الكلية يتخلص من التحريف المطلق فعلى هذا يمكن أن يكون القرآن الشريف محرّفا لشخص بجميع أنواع التحريف ولشخص آخر ببعض مراتبه ولا يكون لشخص محرّفا

أصلا ويمكن أن يكون محرّفا لشخص في حال وله غير محرف في حال آخر ويكون محرّفا ببعض أنواع التحريف في حال ثالث. ففهم عظمة القرآن خارج عن طوق الادراك كما علمت ولكن الاشارة الاجمالية إلى عظمة هذا الكتاب المتنزل والمتناول لجميع البشر موجبة لفوائد كثيرة.

اعلم أيها العزيز أن عظمة كل كلام وكل كتاب اما بعظمة متكلمه وكاتبه واما بعظمة المرسل اليه وحامله، وإمّا بعظمة حافظه وحارسه، واما بعظمة شارحه ومبيّنه، واما بعظمة وقت ارساله وكيفية ارساله. وبعض هذه الامور دخيل في العظمة ذاتا وجوهرا وبعضها عرضا وبالواسطة وبعضها كاشف عن العظمة وجميع هذه الامور التي ذكرناها موجودة في هذه الصحيفة النورانية بالوجه الاعلى والأوفى بل هي من مختصاته بحيث ان الكتاب الآخر اما ألاّ يشترك معه في شيء منها أصلا، أو لا يشترك معه في جميع المراتب.

أما عظمة متكلمه ومنشئه وصاحبه فهو العظيم المطلق الذي جميع انواع العظمة المتصورة في الملك والملكوت وجميع أنواع القدرة النازلة في الغيب والشهادة رشحة من تجليات عظمة فعل تلك الذات المقدسة ولا يمكن أن يتجلى الحق تعالى بالعظمة لأحد وانما يتجلى بها من وراء آلاف الحجب والسرادقات، كما في الحديث: "ان لله تبارك وتعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفت لاحرقت سبحات وجهه دونه".

وعند أهل المعرفة قد صدر هذا الكتاب الشريف من الحق تعالى بمبدئيّة جميع الشؤون الذاتية والصفاتية والفعلية، وبجميع التجليات الجمالية والجلالية، وليست لسائر الكتب السماوية هذه المرتبة والمنزلة. وأما عظمته بواسطة محتوياته ومقاصده ومطالبه فيستدعي ذلك عقد فصل على حدة، بل فصول وأبواب ورسالة مستقلة وكتاب مستقل حتى يسلك نبذة منها في سلك البيان والتحرير، ونحن نشير بطريق الاجمال بفصل مستقل إلى كلياته، وفي ذلك الفصل نشير إلى عظمته من حيث النتائج والثمرات ان شاء الله.

وأما عظمة رسول الوحي وواسطة الايصال فهو جبرائيل الامين والروح الاعظم الذي يتصل بذاك الروح الاعظم الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلّم بعد خروجه عن الجلباب البشري وتوجيه شطر قلبه إلى حضرة الجبروت وهو أحد أركان دار التحقق الاربعة بل هو أعظم أركانها وأشرف أنواعها لان تلك الذات النورانية ملك موكل للعلم والحكمة وصاحب الارزاق المعنوية والاطعة الروحانية، ويستفاد من كتاب الله والاحاديث الشريفة تعظيم جبرائيل وتقديمه على سائر الملائكة.

وأما عظمة المرسل إليه ومتحمّله، فهو القلب التقي النقي الاحمدي الاحدي الجمعي المحمدي الذي تجلى له الحق تعالى بجميع الشؤون الذاتية والصفاتية والاسمائية والافعالية وهو صاحب النبوة الختمية والولاية المطلقة وهو أكرم البرية وأعظم الخليقة وخلاصة الكون وجوهرة الوجود وعصارة دار التحقق واللبنة الاخيرة وصاحب البرزخية الكبرى و الخلافة العظمى.

وأما حافظه وحارسه فهو ذات الحق جلّ جلاله، كما قال في الآية الكريمة المباركة: {إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون} (الحجر . 9). وأما شارحه ومبينه فالذوات المطهرة المعصومون من رسول الله إلى حجّة العصر عجّل الله فرجه الذين هم مفاتيح الوجود ومخازن الكبرياء ومعادن الحكمة والوحي وأصول المعارف والعوارف وأصحاب مقام الجمع والتفصيل.

وأمّا وقت الوحي فليلة القدر أعظم الليالي وخير من ألف شهر وأنور الازمنة، وهي في الحقيقة وقت وصول الوليّ المطلق والرسول الخاتم صلى الله عليه وآله.

وأما كيفية الوحي وتشرقاته فهي خارجة عن نطاق البيان في هذا المختصر وتحتاج إلى فصل مستقل قد صرفت النظر عنه لطوله.

الفصل الثاني

في بيان مقاصد الكتاب الشريف الالهي

ومطالبه ومشتملاته بطريق الاجمال والاشارة

اعلم أن هذا الكتاب الشريف كما صرّح هو به كتاب الهداية وهادي سلوك الانسانية ومربيّ النفوس وشافي الامراض القلبية ومنير طريق السير إلى الله.

وبالجملة، فإن الله تبارك وتعالى لسعة رحمته إلى عبادة أنزل هذا الكتاب الشريف من مقام قربه وقدسه وتنزل به على حسب تناسب العوالم حتى وصل إلى هذا العالم الظلماني وسجن الطبيعة وصار على كسوة الالفاظ وصورة الحروف لاستخلاص المسجونين في سجن الدنيا المظلم وخلاص المغلولين بأغلال الامال والأماني، وايصالهم من حضيض النفس والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوة الانسانية، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين بل الوصول إلى مقام القرب وحصول مرتبة لقاء الله التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطالبهم، فمن هذه الجهة ان هذا الكتاب هو كتاب الدعوة إلى الحق والسعادة. وبيان كيفية الوصول إلى هذا المقام ومندرجاته اجمالا ما له دخل في هذا السير والسلوك الالهي أو عين السالك والمسافر إلى الله، وعلى نحو كلّي أحد مقاصده المهمّة الدعوة إلى معرفة الله وبيان المعارف الالهية من الشؤون الذاتية والاسمائية والصفاتية والافعالية وأكثرها في هذا المقصود هو توحيد الذات والاسماء والافعال، قد ذكر مستقصي بعضه بالصراحة وبعضه بالاشارة.

وليعلم ان المعارف من معرفة الذات إلى معرفة الافعال قد ذكرت في هذا الكتاب الجامع الالهي على نحو تدركه كل طبقة على قدر استعدادها، كما أن علماء الظاهر والمحدثين والفقهاء رضوان الله عليهم يبيّنون ويفسّرون آيات التوحيد الشريفة وخصوصا توحيد على نحو يخالف ويباين ما يفسّرها أهل المعرفة وعلماء الباطن.

والكاتب يرى كلا التفسيرين صحيحا في محله لان القرآن هو شفاء الامراض الباطنية ويعالج كل مريض على نحو خاص، كما أن كريمة {هو الاول والآخر والظاهر والباطن} (الحديد . 3). وكريمة {الله نور السموات والارض}. (النور . 35) وكريمة {هو الذي في السماء وفي الأرض إله} (الزخرف . 84). وكريمة {وهو معكم} (الحديد . 4). وكريمة {أينما تولّوا فثمّ وجه الله} (البقرة . 115). إلى غير ذلك في توحيد الذات والآيات الكريمة في آخر سورة الحشر وغيرها في توحيد الصفات. وكريمة {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} (الانفال .17). وكريمة {الحمد لله رب العالمين} (الفاتحة . 1). وكريمة "يسبح له ما في السموات والارض". في توحيد الافعال التي تدل بعضها بوجه دقيق وبعضها بوجه أدقّ عرفاني، شفاء للأمراض عند كل طبقة من طبقات علماء الظاهر والباطن على نحو. وبعض الآيات الشريفة مثل آيات أول الحديد والسورة المباركة التوحيد التي نزلت للمتعمقين، في آخر الزمان حسب الحديث الشريف في الكافي، ففي نفس الحال لاهل الظاهر منها نصيب كاف، وهذا من معجزات هذا الكتاب الشريف ومن جامعيته.

ومن مقاصده الاخر ومطالبه: الدعوة إلى تهذيب النفوس وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة، وتحصيل السعادة.

وبالجملة، كيفية السير والسلوك إلى الله. وهذا المطلب منقسم إلى شعبتين مهمتين.

احداهما: التقوى بجميع مراتبها المندرجة فيها التقوى عن غير الحق والاعراض المطلق عما سوى الله.

وثانيهما: الايمان بتمام المراتب والشؤون المندرج فيه الاقبال إلى الحق، والرجوع والانابة إلى ذاته المقدسة، وهذا من المقاصد المهمة لهذا الكتاب الشريف، وأكثر مطالبه ترجع إلى هذا المقصد إما بلا واسطة أو مع الواسطة.

ومن مقاصد هذا الصحيفة الالهية: قصص الانبياء والاولياء والحكماء وكيفية تربية الحق ايّاهم، وتربيتهم الخلق. فإن في تلك القصص فوائد لا تحصى وتعليمات كثيرة. ومن المعارف الالهية والتعليمات وأنواع التربية الربوبية المذكورة والمرموزة فيها ما يحيّر العقل.

فيا سبحان الله، وله الحمد والمنةّ، ففي قصة خلق آدم عليه السلام والامر بسجود الملائكة وتعليمه الاسماء وقضايا ابليس وآدم التي كرّر ذكرها في كتاب الله في التعليم والتربية والمعارف والمعالم لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ما يحيّر الانسان. ولاجل هذه النكتة كرّرت القصص القرآنية كقصة آدم وموسى وابراهيم وسائر الانبياء فليس هذا الكتاب كتاب قصة وتاريخ بل هو كتاب السير والسلوك إلى الله، وكتاب التوحيد والمعارف والمواعظ والحكم. والمطلوب في هذه الامور هو التكرار كي يؤثّر في القلوب القاسية وتأخذ منها موعظته. وبعبارة أخرى ان من يريد أن يربّي ويعلّم وينذر ويبشر فلا بدّ له أن يرزق مقصده بالعبارات المختلفة والبيانات المتشتتة، فتارة في ضمن قصة وحكاية وأخرى في ضمن تاريخ ونقل، وحينا بصراحة اللهجة، وحينا بالكناية والامثال والرموز حتى يتمكن كل من النفوس المختلفة والقلوب المتشتتة من الاستفادة منها، وحيث أن هذا الكتاب الشريف لاجل سعادة جميع الطبقات وسلسلة البشر قاطبة، ويختلف هذا النوع الانساني في حالات القلوب والعادات والاخلاق والازمنة والامكنة، ولا يمكن أن تكون دعوته على نحو واحد، فربّ نفوس لا تكون حاضرة لاخذ التعاليم بصراحة اللهجة والقاء أصل المطلوب بنحو ساذج ولا تتأثر بهذا النحو فلا بد أن تكون دعوة هؤلاء وفق كيفية تفكيرهم فيفهم ايّاهم المقصد، ورب نفوس لا شغل لها بالقصص والحكايات والتواريخ وانما علاقتها بلبّ المطالب ولباب المقاصد فلا يوزن هؤلاء مع الطائفة الاولى بميزان واحد، وربّ قلوب تتناسب مع التخويف والانذار وقلوب لها الالفة مع الوعد والتبشير، فلهذه الجهة دعا الناس هذا الكتاب الشريف بالاقسام المختلفة والفنون المتعددة والطرق المتشتتة، والتكرار لمثل هذا الكتاب لازم وحتمي، والدعوة والموعظة من دون تكرار وتفنّن خارجة عن حد البلاغة، وما يتوقّع منها وهو التأثير في النفوس لا يحصل من دون تكرار ومع الوصف.

ففي هذا الكتاب الشريف حلاوة اتفاق القضايا على نحو لا يوجب تكرارها الكسالة في الانسان بل هو في كل دفعة يكرّر أصل المطلب، يذكر فيه خصوصيات ولواحق ليست في غيره، بل في كل مرّة يركز النظر إلى نكتة مهمة عرفانية أو أخلاقية ويطيف المطلب حولها وبيان هذا المطلب يستلزم استقصاءات كاملة في القصص القرآنية، ولا يسع هذا المختصر، وفي أمل هذا الضعيف بلا مؤونة أن أؤلف بالتوفيق الالهي وبالمقدار الميسور

كتابا في خصوص القصص القرآنية وحلّ رموزها وكيفية التعليم والتربية فيها، وان كان القيام بهذا الامر من مثل الكاتب أمل لا ينال، وخيال باطل في الغاية.

وبالجملة، ذكر قصص الانبياء عليهم السلام وكيفية سيرهم وسلوكهم وكيفية تربيتهم عباد الله ومواعظهم ومجادلاتهم الحسنة من أعظم أبواب المعارف والحكم، وأعلى أبواب السعادة والتعاليم قد فتحها الحق تعالى وجلّ

مجده على عباده، فكما أن لارباب المعرفة وأصحاب السلوك منها حظا وافرا ونصيبا كافيا كذلك لسواهم ايضا نصيب واف وسهم غير محدود. فمثلا أهل المعرفة يدركون من الكريمة الشريفة {فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا} (الأنعام ـ 76) إلى آخر الآيات كيفية سلوك ابراهيم عليه السلام، وسيره المعنوي، ويعلمون طريق السلوك إلى الله والسير إلى جنابة وحقيقة سير الانفس والسلوك المعنوي من منتهى ظلمة الطبيعة التي عبّر عنها في ذلك المسلك ب (جنَّ عليه الليل) إلى القاء مطلق الانيّة والانانية وترك النفسانية وعبادة النفس والوصول إلى مقام القدس والدخول في محفل الانس. ووجهت وجهي للذي فطر السموات والارض. إلى آخر اشارة إلى ذلك في هذا المسلك، والسائرون يدركون منها السير الافاقي وكيفية تربية خليل الرحمن أمّته وتعليمه ايّاهم. وعلى هذا المنوال سائر القصص والحكايات، مثل قصة آدم وابراهيم وموسى ويوسف وعيسى وعلامات موسى مع الخضر، فإن استفادات أهل المعارف والرياضات والمجاهدات مع غيرهم متفاوتة.

ويدخل في هذا القسم، أو هو مقصد مستقل الحكم والمواعظ لذات الحق المقدسة حيث أنه بنفسه دعا العباد بلسان قدرته فيما يناسب الدعوة، اما إلى المعارف الالهية والتوحيد والتنزيه كالسورة المباركة التوحيد أو أواخر سورة الحشر وأوائل الحديد وسائر موارد الكتاب الشريف الالهي، ولاصحاب القلوب والسوابق الحسنى من هذه القسمة حظوظ لا تحصى. فمثلا أصحاب المعارف يستفيدون من الكريمة المقدسة {ومن يخرج من بينه مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله} (النساء ـ 100). قرب النافلة والفريضة، وفي نفس الحال يستفيد السائرون الخروج بالبدن والهجرة مثلا إلى مكة أو إلى المدينة او أن الحق تعالى دعا إلى تهذيب النفوس والرياضات الباطنية كالكريمة الشريفة {قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها} (الشمس ـ 10) إلى غير ذلك.. أو الدعوة إلى العمل الصالح كما هو معلوم، أو التحذير عن مقابلات كل من ذلك ويدخل في هذا القسم أيضا الحكم اللقمانية وحكم سائر الاجلّة والمؤمنين المذكورة في الموارد المختلفة في هذه الصحيفة الالهية كقضايا أصحاب الكهف.

ومن مطالب هذه الصحيفة النورانية أحوال الكفار والجاحدين والمخالفين للحق والحقيقة والمعاندين للانبياء والاولياء عليهم السلام وبيان كيفية عواقب أمورهم وكيفية بوارهم وهلاكهم كقضايا فرعون وقارون ونمرود وشدّاد وأصحاب الفيل وغيرهم من الكفرة والفجرة، ففي كل واحدة منها مواعظ وحكم بل معارف لاهله، وداخل في هذه القسمة أو أنها قسمة مستقلة قضايا غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله فإن فيها ايضا مطالب شريفة مذكورة، منها كيفية مجاهدات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لايقاظ المسلمين من نوم الغفلة وبعثهم للمجاهدة في سبيل الله وتنفيذ كلمة الحق وإماتة الباطل.

ومن مطالب القرآن الشريف بيان قوانين ظاهر الشريعة والاداب والسنن الالهية، وقد ذكرت كلّيّاتها ومهماتها في هذا الكتاب النوراني والعمدة في هذا القسم الدعوة إلى اصول المطالب وضوابطها مثل باب الصلاة والزكاة والخمس والحج والصوم والجهاد والنكاح والارث والقصاص والحدود والتجارة وأمثالها , وحيث أن هذا القسم علم ظاهر الشريعة وعامّ المنفعة ومجعول لجميع الطبقات من حيث تعمير الدنيا والاخرة، وتستفيد كل طبقات الناس منه بمقداره. فالدعوة اليها كثيرة لهذه الجهة، وفي الاحاديث الشريفة والاخبار ايضا خصوصياتها وتفاصيلها إلى حدّ وافر وتصانيف علماء الشريعة في هذه القسمة أكثر وأعلى من سائر القسمات.

ومن مطالب القرآن الشريف: أحوال المعاد والبراهين لاثباته وكيفية العذاب والعقاب والجزاء والثواب وتفاصيل الجنة والنار والتعذيب والتنعيم. وقد ذكرت في هذه القسمة حالات أهل السعادة ودرجاتهم من أهل المعرفة والمقرّبين ومن أهل الرياضة والسالكين ومن أهل العبادة والناسكين. وكذلك حالات أهل الشقاوة ودرجاتهم من الكفار والمحجوبين والمنافقين والجاحدين وأهل المعصية والفاسقين. ولكن ما كان أكثر فائدة لحال العامة كان أكثر ذكرا وبصراحة اللهجة وما كان مفيدا لطبقة خاصة فقد ذكر بطريق الرمز والاشارة مثل رضوان الله الاكبر، وآيات لقاء الله لتلك الطائفة، ومثل: {كلاّ انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} (المطففين ـ 15) للطائفة الأخرى. وقد ذكر هذا القسم أي في قسم تفصيل المعاد والرجوع إلى الله معارف لاتحصى وأسرار صعبة مستصعبة لا يمكن الاطّلاع على كيفيّتها الا بالسلوك البرهاني أو النور العرفاني.

ومن مطالب هذه الصحيفة الالهية كيفية الاحتجاجات والبراهين التي أقامتها الذات المقدسة الحق تعالى بنفسه لاثبات المطالب الحقة والمعارف الالهية مثل الاحتجاج على اثبات الحق والتوحيد والتنزيه والعلم والقدرة وسائر الاوصاف الكمالية، وقد توجد في هذه القسمة براهين دقيقة يستفيد أهل المعرفة منها استفادة كاملة مثل: {شهد الله أنه لا اله الا هو} (آل عمران ـ 18). وقد توجد براهين يستفيد الحكماء والعلماء منها على نحو ويستفيد أهل الظاهر وعامة الناس على نحو آخر، ككريمة {لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا} (الأنبياء ـ 22) ومثل كريمة {إذاً لذهب كل اله بما خلق} (المؤمنون ـ 91). ومثل آيات أول سورة الحديد والسورة المباركة التوحيد وغيرها، والاحتجاج على اثبات ملائكة الله والانبياء العظام الموجودة في موارد مختلفة من هذا الكتاب الشريف.

هذه حال احتجاجات نفس الذات المقدسة وإما أن الحق تعالى نقل براهين الانبياء والعلماء على اثبات المعارف مثل احتجاجات خليل الرحمن سلام الله عليه وغيره.

هذه مهمّات مطالب هذا الكتاب.. والا فالمطالب المتفرقة الاخرى ايضا موجودة ويستلزم احصاؤها وقتا كافيا.

الفصل الثالث

في بيان طريق الاستفادة من القرآن الكريم

فاذا علمت الان مقاصد هذه الصحيفة الالهية ومطالبها فلا بد لك أن تلفت النظر إلى مطلب مهم يكشف لك بالتوجّه اليه طريق الاستفادة من الكتاب الشريف، وتنفتح على قلبك أبواب المعارف والحكم وهو أن يكون نظرك إلى الكتاب الشريف الالهي نظر التعليم، وتراه كتاب التعليم والافادة وترى نفسك موظفة على التعلّم والافادة والاستفادة، وليس مقصودنا من التعليم والتعلم والافادة والاستفادة أن تتعلم منه الجهات الادبية والنحو والصرف أو تأخذ منه الفصاحة والبلاغة والنكات البيانية والبديعية، أو تنظر في قصصه وحكاياته بالنظر التاريخي والاطّلاع على الامم السالفة، فانه ليس شيء من هذه داخلا في مقاصد القرآن، وهو بعيد عن المنظور الاصلي للكتاب الالهي بمراحل والذي أوجب ان تكون استفادتنا من هذا الكتاب العظيم بأقل من القليل هو هذا المعنى. فأما الا ننظر اليه نظر التعليم والتعلّم كما هو الغالب علينا، ونقرأ القرآن للثواب والاجر فقط ولهذا لا نعتني بغير جهة تجويده، ونريد أن نقرأه صحيحا حتى يعطي لنا الثواب ونحن واقفون في هذا الحد وقانعون بهذا الامر، ولذا نقرأ القرآن اربعين سنة

ولا تحصل الاستفادة منه بوجه الا الاجر وثواب القراءة. وأما أن نشتغل ان كان نظرنا التعليم والتعلّم بالنكات البديعيّة والبيانية ووجوه اعجازه، وأعلى من هذا بقليل فإلى الجهات التاريخية وسبب نزول الآيات وأوقات النزول، وكون الآيات والسور مكية أو مدنية، واختلاف القراءات واختلاف المفسرين من العامة والخاصة وسائر الامور العرضية الخارجة عن المقصد بحيث تكون هذه الامور نفسها موجبة للاحتجاب عن القرآن والغفلة عن الذكر الالهي بل ان مفسّرينا العظام ايضا صرفوا عمدة همّهم في احدى هذه الجهات أو أكثر ولم يفتحوا باب التعليمات على الناس. وبعقيدتي أنا الكاتب لم يُكتب إلى الان التفسير لكتاب الله لان معنى التفسير على نحو كلّي هو أن يكون شارحا لمقاصد الكتاب المفسّر ويكون مهمّ النظر إلى بيان منظور صاحب الكتاب. فهذا الكتاب الشريف الذي هو بشهادة من الله تعالى كتاب الهداية والتعليم ونور طريق سلوك الانسانية، يلزم للمفسّر أن يعلّم للمتعلم في كل قصّة من قصصه بل في كل آية من آياته جهة الاهتداء إلى عالم الغيب وحيثية الهداية إلى طريق السعادة، وسلوك طريق المعرفة والانسانية.

فالمفسر اذا فهّم لنا المقصد من النزول فهو مفسّر سبب النزول كما هو في التفاسير، ففي قصة آدم وحواء أو قضاياهما مع ابليس من ابتداء خلقهما إلى ورودهما في الارض، وقد ذكرها الحق تعالى مكررة في كتابه. كم من المعارف والمواعظ مذكورة فيها ومرموز اليها. وكم فيها من معايب النفس وكمالاتها ومعارفها وأخلاق ابليس موجودة فيها نتعرف عليها ونحن عنه غافلون.

وبالجملة، كتاب الله هو كتاب المعرفة والاخلاق والدعوة إلى

السعادة والكمال، فكتاب التفسير ايضا لا بد وأن يكون كتابا عرفانيا وأخلاقيا ومبيّنا للجهات العرفانية والاخلاقية وسائر جهات الدعوة إلى السعادة التي في القرآن. فالمفسّر الذي يغفل عن هذه الجهة أو يصرف عنها النظر أو لايهتم بها فقد غفل عن مقصود القرآن والمنظور الاصلي لإنزال الكتب وارسال الرسل. وهذا هو الخطأ الذي حرم الملّة الاسلامية منذ قرون من الاستفادة من القرآن الشريف وسدّ طريق الهداية على الناس، فلا بد لنا أن نأخذ المقصود من تنزيل هذا الكتاب من نفس هذا الكتاب مع قطع النظر عن الجهات العقلية البرهانية التي تفهمنا المقصد، فمصنف الكتاب أعرَف بمقصده. فالان اذا نظرنا إلى ما قال هذا المصنف فيما يرجع إلى شؤون القرآن، نرى أنه يقول {ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين} (البقرة ـ 2). فعرّف هذا الكتاب كتاب الهداية، نرى أنه في سورة قصيرة كرّر مرّات عديدة: {لقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر} (القمر ـ 17). نرى أنه يقول {وأنزلنا إلى الذكر لتبين للناس ما نزّل اليهم ولعلهم يتفكرون} (النحل ـ 44). ونرى أنه يقول {كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولو الالباب} (ص ـ 29)، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة التي يطول ذكرها.

وبالجملة، ليس مقصودنا من هذا البيان الانتقاد للتفاسير فإن كل واحد من المفسرين تحمّل المشاق الكثيرة والاتعاب التي لا نهاية لها حتى صنف كتابا شريفا، فلله درّهم وعلى الله أجرهم، بل مقصودنا هو أنه لا بد وأن يفتح للناس طريق الاستفادة من هذا الكتاب الشريف الذي هو الكتاب الوحيد في السلوك إلى الله والكتاب الاحدي في تهذيب النفوس والآداب والسنن الالهية، وأعظم وسيلة للربط بين الخالق والمخلوق والعروة

الوثقى والحبل المتين للتمسّك بعزّ الربوبية فعلى العلماء والمفسرين أن يكتبوا التفاسير فارسية وعربية وليكن مقصودهم وليكن مقصودهم بيان التعاليم والمقررات العرفانية والاخلاقية وبيان كيفية ربط المخلوق بالخالق، وبيان الهجرة من دار الغرور إلى دار السرور والخلود على نحو ما أودعت في هذا الكتاب الشريف، فصاحب هذا الكتاب

ليس هو السكاكي (هو ابو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد الخوارزمي المعتزلي الحنفي الملقب سراج الدين السكاكي صاحب كتاب مفتاح العلوم الذي لخّص القسم الثالث منه خطيب دمشق وشرحه التفتازاني بالمطوّل والمختصر توفي سنة 726 (خكو) والشيخ (والشيخ هو ابو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي عماد الشيعة ورافع أعلام الشريعة شيخ الطائفة على الاطلاق ورئيسها الذي تلوى اليه الاعناق صنّف في جميع علوم الاسلام وكان القدوة في ذلك والامام تتلمذ على الشيخ المفيد والسيد المرتضى وكان فضلاء تلامذته الذين كانوا مجتهدين وأهل الاقتداء يزيدون على ثلاثمئة من الخاصة والعامة ولد (ره) في شهر رمضان سنة 385 بعد وفاة السيد الرضى بسنتين وكان ببغداد ثم هاجر إلى مشهد أمير المؤمنين عليه السلام خوفا من الفتنة التي تجدّدت ببغداد واحرقت كتبه وكرسي كان يجلس عليه للكلام فيكلم عليه الخاص والعام وكان ذلك الكرسي ممّا أعطته الخلفاء وكان ذلك لوحيد العصر فكان مقامه في بغداد مع الشيخ المفيد (ره) نحوا من خمس سنين ومع السيد المرتضى نحوا من ثمان وعشرين سنة وبقي بعد السيد اربعا وعشرين سنة، اثنتا عشرة سنة منها في بغداد ثم انتقل إلى النجف الاشرف وبقي هناك إلى أن توفي ليلة الاثنين الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة 460 (تس) وكان مدة عمره الشريف خمسا وسبعين سنة ودفن في داره وقبره الان معروف في المسجد الموسوم بالمسجد الطوسي.

وأمّا مصنفاته الشريفة في علوم الاسلام فهي لشهرتها تغنينا عن إيرادها والتفسير الذي أشار إليه الامام الخميني هو البيان الجامع لعلوم القرآن وهو كتاب جليل عديم النظير في التفاسير وشيخنا الطبرسي في تفسيره من بحره يغترف وفي صدر كتابه بذلك يعترف فعليه رضوان الله الخبير اللطيف) فيكون مقصده جهات البلاغة والفصاحة وليس هو سيبوية (وسيبويه هو أبو الحسن أو ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي البيضاوي العراقي البصري النحوي المشتهر كلامه وكتابه في الآفاق الذي قال في حقه العلامة الطباطبائي بحر العلوم رحمه الله تعالى ان المتقدمين والمتأخرين وجميع الناس في النحو عيال عليه أخذ عن الخليل بن أحمد النحوي المعروف الذي ذكره الامام في المتن ويونس والاخفش وعيسى بن عمر ولكن جميع حكاياته عن الخليل وقد كثرت كلمات علماء النحو في مدح كتابه المسمى الكتاب ولهم عليه شروح وتعليقات وردود نشأت من اعتنائهم واشتغالهم به وقصة وروده بغداد ومناظرته مع الكسائي معروفة قالوا توفى حدود سنة 180 (قف) وقبره في شيراز، وقال ابن شحنة الحنفي في روضة المناظر قال ابو الفرج ابن الجوزي توفي سيبويه سنة 194 (قصد) وعمره اثنان وثلاثون عاما بمدينة ساوة وذكر خطيب بغداد عن ابن دريد ان سيبويه توفي بشيراز بمدينة ساوة وقبره بها. (انتهي). وكان شابا نظيفا جميلا ابيض مشربا بحمرة كأن خدوده لون التفاح ولذلك يقال سيبويه لأن التفاح بالفارسية سيب أو لانه كان يعتاد شم التفاح أو كان يشم منه رائحته أقول وعلى الوجهين الأخيرين فالانسب أن يكون اسمه سيبويه بضم الباء وسكون الواو وفتح الياء) والخليل حتى يكون منظوره جهات النحو والصرف، وليس المسعودي (شيخ المؤرخين وعمادهم ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الهذلي العالم الجليل الالمعي ذكره العلامة وقال له كتاب في الامامة وغيرها منها كتاب اثبات الوصية لعلي بن ابي طالب (ع) وهو صاحب مروج الذهب (انتهى).

حكى أنه نشأ في بغداد وساح في البلاد فطاف فارس وكرمان سنة 309 وقصد الهند إلى ملتان وعطف إلى كنباية فسرنديب ثم ركب البحر إلى بلاد الصين وطاف البحر الهندي وعاد إلى عمّان ورحل رحلة أخرى سنة 314

إلى ما وراء اذربيجان وجرجان ثم إلى الشام وفلسطين وكان يسكن مصر تارة والشام اخرى ومن سنة 336 إلى 344 أقام بالفسطاط له كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان في ثلاثين مجلّدا لا يوجد منه الا جزء واحد وله أيضا ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور وكتاب في أخبار الامم من العرب والعجم وكتاب المقالات في أصول الديانات وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر وقيل انه بقي إلى سنة 345 (شمه)) وابن خلكان (ابن خلّكان هو ابو العباس احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلّكان الاربلي البرمكي الشافعي صاحب كتاب التاريخ المشهور الموسوم بوفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان الذي تعرض فيه لذكر المشاهير من التابعين ومن بعدهم إلى زمان نفسه يشتمل على 864 ترجمة ولم يذكر فيه الصحابة وقد ذيّله صلاح الدين الصفدي بمجلّدات تدارك فيها ما قد فاته من الوفيات سمّاها الوافي بالوفيات قيل في وجه تسمية جدّ بن خلكان بخلكان انه كان يوما يفاخر اقرانه ويفتخر بآبائه من آل برمك فقيل له خلّ كان أبي كذا ودع جدّي كذا ونسبي كذا وحدّثنا عمّا يكون في نفسك الان كما قال الشاعر:

ان الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

فعلى هذا يكون خلّكان بفتح الخاء وتشديد اللّام المكسورة) حتى يبحث حول تاريخ العالم. هذا الكتاب ليس كعصا موسى ويده البيضاء أو نفس عيسى الذي يحيي الموتى فيكون للاعجاز فقط وللدّلالة على صدق النبي الاكرم بل هذه الصحيفة الالهية كتاب احياء القلوب بالحياة الابدية العلمية والمعارف الالهية، هذا كتاب الله ويدعو إلى الشؤون الالهية جلّ وعلا. فالمفسّر لابد وأن يعلم الشؤون الالهية ويرجع الناس إلى تفسيره لتعلّم الشؤون الالهية حتى تتحصل الاستفادة منه {وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا} (الاسراء ـ 82). فأي خسران أعظم من أن نقرأ الكتاب الالهي منذ ثلاثين أو أربعين سنة ونراجع التفاسير ونحرم مقاصده، {ربّنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين} (الأعراف ـ 23).

الفصل الرابع

في بيان رفع الموانع والحجب

بين المستفيد والقرآن

فاذا علمت الان عظمة كتاب الله من جميع الجهات المقتضية للعظمة وانفتح طريق استفادة المطالب منه فاللازم على المتعلم والمستفيد من كتاب الله ان يجزي أدبا آخر من الاداب المهمة حتى تحصل الاستفادة وهو رفع موانع الاستفادة، ونحن نعبّر عنها بالحجب بين المستفيد والقرآن، وهذه الحجب كثيرة نشير إلى بعضها:

من الحجب العظيمة حجاب رؤية النفس، فيرى المتعلم نفسه بواسطة هذا الحجاب مستغنية أو غير محتاجة للاستفادة وهذا من المكائد الاصلية المهمة للشيطان حيث أنه يزيّن للانسان دائما الكمالات الموهومة ويرضي الانسان ويقنعه بما فيه ويسقط من عينه كل شيء سوى ماعنده، مثلا يقنّع أهل التجويد بذاك العلم الجزئي ويزيّنه في أعينهم إلى حدّ يسقط سائر العلوم عن أعينهم ويطبّق في نظرهم حملة القرآن عليهم ويحرمهم من فهم الكتاب النوراني الالهي والاستفادة منه، ويرضي أصحاب الادب بتلك الصورة بلا لبّ ويمثّل جميع شؤون القرآن فيما هو عندهم، ويشغل أهل التفاسير المتعارفة بوجوه القراءات والآراء المختلفة لارباب اللغة ووقت النزول

وشأن النزول وكون الآيات مكية أو مدنية وتعدادها وتعداد الحروف وأمثال تلك الامور. ويقتنع أهل العلوم أيضا بعلم فنون الدلالات فقط ووجوه الاحتجاجات وأمثالها حتى أنه يحبس الفيلسوف والحكيم والعارف الاصطلاحي في الغليظ من حجاب الاصطلاحات والمفاهيم وأمثال ذلك. فعلى المستفيد أن يخرق جميع الحجب هذه وينظر إلى القرآن من ورائها، ولا يتوقف في شيء من هذه الحجب ولا يتأخر عن قافلة السالكين ولا يحرم من الدعوات الحلوة الالهية، ويستفاد عدم الوقوف وعدم القناعة إلى حدّ معين من نفس القرآن.

والاشارة إلى هذا المعنى كثيرة في القصص القرآنية، فموسى الكليم مع ما له من المقام العظيم في النبوّة ما اقتنع بذلك المقام وما توقف في مقام علمه الشامخ، وبمجرد أن لاقى شخصا كاملا كالخضر قال له بكل تواضع وخضوع: {هل أتّبعك على أن تعلّمني ممّا علّمت رشدا} (الكهف ـ 66) وصار ملازما لخدمته حتى أخذ منه العلوم التي لابد من أخذها.

وابراهيم عليه السلام لم يقتنع بمقام شامخ الايمان والعلم الخاص للانبياء فقال: {ربّ أرني كيف تحيي الموتى} (البقرة ـ 260). فأراد أن يرتقي من الايمان القلبي إلى مقام الاطمئنان الشهودي وأعظم من ذلك ان الله تبارك وتعالى يأمر نبيّه الخاتم وهو أعرف خلق الله بالكريمة الشريفة {وقل ربّ زدني علما} (طه ـ 114). فهذه الاوامر في الكتاب الالهي ونقل هذه القصص لان نتنبّه ونستيقظ من نوم الغفلة.

ومن الحجب: حجاب الآراء الفاسدة والمسالك والمذاهب الباطلة، وهذا قد يكون من سوء استعداد الشخص والاغلب انه يوجد من التبعية والتقليد. وهذا من الحجب التي حجبتنا بالاخص عن معارف القرآن مثلا

اذا رسخ في قلوبنا اعتقاد بمجرّد الاستماع من الاب أو الام أو من بعض جهلة أهل المنبر تكون هذه العقيدة حاجبة بيننا وبين الآيات الشريفة الالهية. فإن وردت آلاف من الآيات والروايات تخالف تلك العقيدة، فامّا أن نصرفها عن ظاهرها أو أن الا ننظر فيها نظر الفهم والامثال لذلك فيما يرجع إلى العقائد والمعارف كثيرة ولكنّي أكفّ نفسي عن عدّها لاني أعلم بأن هذا الحجاب لا يخترق بكلام مثلي، ولكن أشير إلى واحد منها حيث أنه سهل المأخذ في الجملة.

قد وردت الآيات الكثيرة الراجعة إلى لقاء الله ومعرفة الله، ووردت روايات كثيرة في هذا الموضوع مع كثير من الاشارات والكنايات والصراحات في الادعية والمناجاة للائمة عليهم السلام. فبمجرّد ما نشأت عقيدة في هذا الميدان من العوام وانتشرت بأن طريق معرفة الله مسدود بالكلّية فيقيسون باب معرفة الله ومشاهدة جماله على باب التفكر في الذات على الوجه الممنوع بل الممتنع، فأمّا أن يؤوّلوا ويوجّهوا تلك الآيات والروايات، وكذلك الاشارات والكنايات والصراحات في أدعية الائمة ومناجاتهم، وأمّا الاّ يدخلوا في هذا الميدان أصلا ولا يعرّفوا أنفسهم بالمعارف التي هي قرّة العين للانبياء والاولياء، فممّا يوجب الاسف الشديد لاهل الله أن بابا من المعرفة الذي يمكن أن يقال أنه غاية بعثة الانبياء ومنتهى مطلوب الاولياء قد سدّوه على الناس بحيث يعدّ التفوّه به محض الكفر وصرف الزندقة إنّ هؤلاء يرون معارف الانبياء والاولياء في ما يختص بذات الحق تعالى وأسمائه وصفاته مساوية لمعارف العوام والنساء فيه، بل يظهر من هؤلاء أحيانا ما هو أعظم من ذلك فيقول أحدهم: ان لفلان عقائد عامية حسنة فيا ليت لنا مثلما له من العقيدة العامية.. وهذا الكلام منه صحيح لان

هذا المسكين الذي يتفوّه بهذا الكلام قد أخرج من يده العقائد العامية ويرى معارف الخواص وأهل الله باطلة، فهذا التمنّي منه عينا كتمني الكفار. وقد نقل عنهم في الكريمة الالهية {ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا} (النبأ ـ

40). ونحن ان أردنا أن نذكر الآيات والاخبار في لقاء الله بتفاصيلها حتى تتضح فضاحة هذه العقيدة الفاسدة الناشئة عن الجهل والغرور الشيطاني، فيستلزم ذلك كتابا على حدة فضلا من أن نذكر المعارف التي وقعت وراء ستر النسيان بواسطة هذا الحجاب الغليظ حتى يعلم أن أحد مراتب المهجورية من القرآن. ومهجورية القرآن ولعلّ الاسف عليها أشدّ هو هذه كما يقول تعالى في الكريمة الشريفة: {وقال الرسول يا ربِّ إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا} (الفرقان ـ 30).

ان مهجورية القرآن لها مراتب كثيرة ومنازل لا تحصى، ولعلنا متصفون بالعمدة منها. أترى أننا اذا جلّدنا هذه الصحيفة الالهية جلدا نظيفا وقيّما وعند قراءتها او الاستخارة بها قبّلناها ووضعناها على أعيننا ما اتخذناه مهجورا؟ أترى اذا صرفنا غالب عمرنا في تجويده وجاته اللغوية والبيانية والبديعية قد أخرجنا هذا الكتاب الشريف عن المهجورية؟ هل اننا اذا تعلّمنا القراءات المختلفة وأمثالها قد تخلّصنا من عار هجران القرآن؟ هل اننا اذا تعلمنا وجوه إعجاز القرآن وفنون محسّناته قد تخلّصنا عن شكوى رسول الله؟ هيهات.. فإنه ليس شيء من هذه الامور موردا لنظر القرآن ومنزّلها العظيم الشأن، ان القرآن كتاب إلهي وفيه الشؤون الالهية. القرآن هو الحبل المتصل بين الخالق والمخلوق ولا بد ان يوجد الربط المعنوي والارتباط الغيبي بتعليماته بين عباد الله ومربّيهم، ولا بد أن يحصل من القرآن العلوم الالهية والمعارف اللدنيّة، ان رسول صلى الله عليه وآله قال حسب

ما رواه الكافي "انما العلم ثلاثة: آية محكمة وفريضة عادلة وسنّة قائمة". فالقرآن الشريف حامل لهذه العلوم فإن تعلمنا من القرآن هذه العلوم فما اتّخذناه مهجورا، واذا قبلنا دعوات القرآن وأخذنا التعليمات من قصص الانبياء عليهم السلام المشحونة بالمواعظ والمعارف والحكم، اذا اتعظنا نحن من مواعظ الله تعالى ومواعظ الانبياء والحكماء المذكورة في القرآن فما اتّخذناه مهجورا، والا فالغور في الصورة الظاهرية للقرآن ايضا إخلاد إلى الارض ومن وساوس الشيطان ولا بد من الاستعاذة بالله منها.

ومن الحجب المانعة من الاستفادة من هذه الصحيفة النورانية: الاعتقاد بأنه ليس لاحد حق الاستفادة من القرآن الشريف الا بما كتبه المفسّرون أو فهموه. وقد اشتبه على الناس التفكر والتدبّر في الآيات الشريفة بالتفسير بالرأي الممنوع، وبواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عاريا من جميع فنون الاستفادة واتخذوه مهجورا بالكلية في حال ان الاستفادات الاخلاقية والايمانية والعرفانية لا ربط لها بالتفسير، فكيف بالتفسير بالرأي، فمثلا اذا استفاد احد من كيفية مذاكرات موسى مع الخضر وكيفية معاشرتهما وشدّ موسى رحاله اليه مع ما له من عظمة مقام النبوّة لاخذ العلم الذي ليس موجودا عنده وكيفية عرض حاجته إلى الخضر كما ذكرت في الكريمة الشريفة: {هل أتّبعك على أن تعلّمني ممّا علّمت رشدا} (الكهف ـ 66). وكيفية جواب الخضر والاعتذارات التي وقعت من موسى عظمة مقام العلم وآداب سلوك المتعلم، مع المعلّم ولعلها تبلغ من الآيات المذكورة إلى عشرين أدبا فأي ربط لهذه الاستفادات بالتفسير فضلا من أن تكون تفسيرا بالرأي والاستفادة من هذا القبيل في القرآن كثيرة، ففي المعارف مثلا اذا استفاد أحد من قوله تعالى {الحمد لله رب العالمين} (الفاتحة ـ 1) الذي

حصر جميع المحامد لله، وخصّ جميع الاثنية للحق تعالى التوحيد الافعالي وقال بأنه يستفاد من الآية الشريفة ان كل كمال وجمال وكلّ عزّة وجلال الموجودة في العالم وتنسبها العين الحولاء والقلب المحجوب إلى الموجودات من الحق تعالى وليس لموجود من قبل نفسه شيء، ولذا المحمدة والثناء خاص بالحق ولا يشاركه فيها أحد، فأيّ ربط لهذا إلى التفسير حتى يسمّى بالتفسير بالرأي أو لا يسمى؟ إلى غير ذلك من الامور التي تستفاد من لوازم

الكلام ولا ربط لها بوجه إلى التفسير، مضافا إلى أن في التفسير بالرأي ايضا كلاما لعلة غير مربوط بآيات المعارف والعلوم العقلية التي توافق الموازين البرهانية وبالآيات الاخلاقية التي فيها للعقل دخل، لان التفاسير التي من هذا القبيل مطابقة للبرهان المتين العقلي أو الاعتبارات العقلية الواضحة، فإذا كان ظاهر الكلام على خلافها فاللازم أن يصرف الكلام من ظاهره، مثلا في كريمة {وجاء ربك} (الفجر ـ 22) و {الرحمن على العرش استوى} (طه ـ 5). التي يكون الفهم العرفي فيها مخالفا للبرهان ليس تفسيرا بالرأي ولا يكون ممنوعا بوجه فمن المحتمل بل من المظنون أن التفسير بالرأي راجع إلى آيات الاحكام التي تقصر عنها أيدي الآراء والعقول، ولابد وأن تؤخذ بصرف التعبّد والانقياد من خزّان الوحي ومهابط ملائكة الله، كما أن أكثر الروايات في هذا الباب وردت في مقابل علماء العامة الذين كانوا يريدون أن يفهموا دين الله بعقولهم ومقاياساتهم، وما في بعض الروايات الشريفة من أنه ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن..وكذلك الرواية الشريفة "ان دين الله لا يصاب بالعقول" تشهد بأن المقصود من دين الله الاحكام التعبّديّة للدين والا فباب اثبات الصانع والتوحيد والتقديس واثبات المعاد والنبوّة بل مطلق المعارف حقٌ طلق للعقول، ومن مختصاتها وان ورد في

كلام بعض المحدثين من ذوي المقام العالي ان الاعتماد في اثبات التوحيد على الدليل النقلي، فمن غرائب الامور بل من المصيبات التي لابد أن يستعاذ بالله منها. ولا يحتاج هذا الكلام إلى التهجين والتوهين و إلى الله المشتكى.

ومن الحجب المانعة من فهم القرآن الشريف، ومن الاستفادة من معارف هذا الكتاب السماوي وموعظه حجاب المعاصي والكدورات الحاصلة من الطغيان والعصيان بالنسبة إلى ساحة رب العالمين المقدسة فتحجب القلب عن إدراك الحقائق.

وليعلم كما أن لكل عمل من الاعمال الصالحة أو السيئة كما أن له صورة في عالم الملكوت تتناسب معه فله صورة أيضا في ملكوت النفس، فتحصل بواسطتها في ملكوت النفس: امّا النورانية ويكون القلب مطهّرا ومنوّرا وفي هذه الحالة تكون النفس كالمرآة المصقولة صافية، ويليق للتجليات الغيبية وظهور الحقائق والمعارف فيه، واما ان يصير ملكوت النفس به ظلمانياً وخبيثاً، وفي هذه الصورة يكون القلب كالمرآة المريّنة والمدنّسة لا تنعكس فيها المعارف الالهية ولا الحقائق الغيبية، وحيث أن القلب في هذه الحالة يقع بالتدريج تحت سلطة الشيطان ويكون المتصرف في مملكة الروح ابليس فيقع السمع والبصر وسائر القوى ايضا في تصرف ذاك الخبيث، وينسد السمع بالكلية عن المعارف والمواعظ الالهية، ولا ترى العين الآيات الباهرة الالهية وتعمى عن الحق وآثاره وآياته ولا يتفقّه القلب في الدين ويحرم من التفكر في الآيات والبيّنات وتذكر الحق والاسماء والصفات، كما قال الحق تعالى {لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضلّ} (الأعراف ـ 179). فيكون نظرهم إلى العالم كنظر الانعام والحيوانات الخالية عن الاعتبار والتدبّر، وقلوبهم كقلوب الحيوانات لا نصيب لها من التفكر والتذكّر، بل تكون حالة الغفلة والاستكبار تزداد فيهم يوما فيوم من النظر في الآيات واستماع المواعظ، فهم أرذل وأضّل من الحيوان.

ومن الحجب الغليظة التي هي ستر صفيق بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه: حجاب حبّ الدنيا، فيصرف القلب بواسطة تمام همّته في الدنيا وتكون وجهة القلب تماما إلى الدنيا ويفغل القلب بواسطة هذه المحبة عن ذكر الله، ويعرض عن الذكر والمذكور، وكلما ازدادت العلاقة بالدنيا وأوضاعها ازداد حجاب القلب وساتر ضخامة،

وربما تغلب هذه العلاقة على القلب ويتسلّط سلطان حب الجاه والشرف على القلب بحيث يطفىء نور فطرة الله بالكليّة وتغلق ابواب السعادة على الانسان، ولعل المراد من اقفال القلوب المذكورة في الآية الشريفة {أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها} (محمد ـ 24). هذه الاقفال واغلال العلائق الدنيوية، ومن أراد أن يستفيد من القرآن ويأخذ نصيبه من المواعظ الالهية لابدّ وأن يطهّر القلب من هذه الارجاس، ويزيل لوث المعاصي القلبية وهي الاشتغال بالغير عن القلب لان غير المطهّر ليس محرما لهذا الاسرار قال تعالى: {انه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسّه الا المطهّرون} الواقعة ـ 78). فكما أن غير المطهّر الظاهري ممنوع عن ظاهر هذا الكتاب ومسّه في العالم الظاهر تشريعا وتكليفا، كذلك ممنوع من معارفه ومواعظه وباطنه وسرّه من كان قلبه متلوثا بأرجاس التعلّقات الدنيوية، وقال تعالى: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين} (البقرة ـ 2) إلى آخر الآية. فغير المتقي بحسب تقوى العامة وغير المؤمن بحسب ايمان العامة محروم من الانوار الصورية لمواعظه وعقائده الحقة، وغير المتقي وغير المؤمن بحسب سائر مراتب التقوى الخاص وتقوى خاص الخاص وتقوى

أخصّ الخواص محروم من سائر مراتبها. والتفصيل حول تلك المراتب وذكر سائر الآيات الدالة على المقصود موجب للتطويل، ولكن نختتم هذا الفصل بذكر آية شريفة الهية تكفي لاهل اليقظة بشرط التدبّر، قال تبارك وتعالى: {قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم} (المائدة ـ 16).

فخصوصيات هذه الآية الشريفة كثيرة، والبيان حول نكاتها يستلزم رسالة على حدة ليس الان مجالها.

الفصل الخامس

في التفكّر

من آداب قراءة القرآن حضور القلب، وقد ذكرناه في الآداب المطلقة للعبادات في هذه الرسالة ولا يلزم اعادته، ومن الآداب المهمة لها: التفكر، والمقصود من التفكر أن يتجسس من الآيات الشريفة المقصد والمقصود، وحيث أن مقصد القرآن كما تقوله نفس الصحيفة النورانية هو الهداية إلى سبل السلام والخروج من جميع مراتب الظلمات إلى عالم النور، والهداية إلى طريق مستقيم فلا بد أن يحصّل الانسان بالتفكر في الآيات الشريفة مراتب السلامة من المرتبة الدانية والراجعة إلى القوى الملكية إلى منتهى النهاية فيها وهي حقيقة القلب السليم على ما ورد تفسيره عن أهل البيت وهو أن يلاقي الحق وليس فيه غيره وتكون سلامة القوى الملكية والملكوتية ضالة قارئ القرآن فإنها موجودة في هذا الكتاب السماوي ولا بد أن يستخرجها بالتفكر، واذا صارت القوى الانسانية سالمة عن التصرّف الشيطاني وتحصّل طرق السلامة وعمل بها ففي كل مرتبة من السلامة تحصل له ينجو من ظلمة ويتجلى فيه النور الساطع الالهي قهرا حتى اذا خلص عن جميع أنواع الظلمات التي أولها ظلمات عالم الطبيعة بجميع شؤونها وآخرها

ظلمة التوجّه إلى الكثرة بتمام شؤونها يتجلى النور المطلق في قلبه ويهديه إلى طريق الانسانية المستقيم وهو في هذا المقام طريق الرب {ان ربي على صراط مستقيم} (هود ـ 56).

وقد كثرت الدعوة إلى التفكر وتمجيده وتحسينه في القرآن الشريف قال تعالى: {وأنزلنا اليك الذكر لنبّين للناس ما نزّل اليهم لعلّهم يتفكرون} (النحل ـ 44). وفي هذه الآية مدح عظيم للتفكر، لان غاية انزال الكتاب العظيم السماوي والصحيفة العظيمة النورانية قد جعلت احتمال التفكر وهذا من شدّة الاعتناء به حيث أن مجرد احتماله صار موجبا لهذه الكرامة العظيمة، وقال تعالى في الآية الاخرى: {فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون} (الأعراف ـ 176).

والآيات من هذا القبيل أوما يقرب منه كثيرة والروايات ايضا في التفكر كثيرة. فقد نقل عن الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم انه لما نزلت الآية الشريفة {إنّ في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات} (آل عمران ـ 190) إلى آخرها.. قال صلى الله عليه وآله: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها".

والعمدة في هذا الباب ان يفهم الانسان ما هو التفكر الممدوح، والا لا شك في أن التفكر ممدوح في القرآن والحديث، فأحسن التعبير فيه ما عبّر به الخواجة عبدالله الانصاري قال: اعلم ان التفكّر تلمّس البصيرة لاستدراك البغية، يعني أن التفكر هو تجسّس البصيرة وهي بصر القلب للوصول إلى المقصود والمقصود هو السعادة المطلقة التي تحصل بالكمال العلمي أو العملي فلا بد للانسان أن يتحصل على المقصود والنتيجة الانسانية وهي السعادة في الآيات الشريفة للكتاب الالهي وفي قصصه

وحكاياته وحيث أن السعادة هي الوصول إلى السلامة المطلقة وعالم النور والطريق المستقيم فلا بد للانسان أن يطلب من القرآن المجيد الشريف سبل السلامة ومعدن النور المطلق والطريق المستقيمة كما أشير اليها في الآية الشريفة السابقة، فاذا وجد القارئ المقصد وتبصّر في تحصيله وانفتح له طريق الاستفادة من القرآن الشريف وفتحت له أبواب رحمة الحق فإنه لا يصرف عمره القصير العزيز ورأس مال تحصيل سعادته على أمور ليست مقصودة لرسالة الرسول صلى الله عليه وآله ويكف عن فضول البحث وفضول الكلام، في مثل هذا الامر المهم فاذا أشخص بصيرته مدّة إلى هذا المقصود وصرف نظره عن سائر الامور تتبصّر عين قلبه ويكون بصره حديدا ويكون التفكر في القرآن للنفس أمرا عاديا وتنفتح طرق الاستفاد وتفتح له أبواب ليست مفتوحة له إلى الان، ويستفيد مطالب ومعارف من القرآن ما كان يستفيدها إلى الان بوجه، فحين ذاك يفهم كون القرآن شفاء للامراض القلبية، ويدرك مفاد الآية الشريفة {وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا} (الإسراء ـ 82) ومعنى قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه {وتعلموا القرآن فانه ربيع القلوب واستشفعوا بنوره فإنه شفاء الصدور} ولا يطلب من القرآن شفاء الامراض الجسمانية فقط بل يجعل عمدة المقصد شفاء الامراض الروحانية الذي هو مقصد القرآن بل القرآن ما نزل لشفاء الامراض الجسمانية وان كان يحصل به كما أن الانبياء عليهم السلام لم يبعثوا للشفاء الجسماني وان كانوا يشفون فهم أطباء النفوس والشافين للقلوب والارواح.

الفصل السادس

في التطبيق

من الاداب المهمة لقراءة القرآن التي تنيل الانسان نتائج كثيرة والاستفادات غير المعدودة هو التطبيق.

وكيفيّته انه حينما يتفكر في كل آية من الآيات الشريفة يطبق مفادها في حاله ويرفع نقصانه بواسطة هذا التطبيق ويشفي أمراضه به، مثلا في قصة آدم الشريفة يتفكر أن مطرودية الشيطان عن جناب القدس مع تلك

السجدات والعبادات الطويلة لماذا؟ فيطهّر نفسه منه لان مقام القرب الالهي مقام المطهّرين، فمع الاوصاف والاخلاق الشيطانية لا يمكن القدوم إلى ذلك الجناب الرفيع. ويستفاد من الآيات الشريفة أن مبدأ عدم سجود ابليس هو رؤية النفس العجب فطبّل أنا خير منه حلقتني من نار وخلقته من طين.. فهذا العجب صار سببا لحب النفس والاستكبار، وصار سببا للاستقلال والاستكبار، وعصيان الامر فصار مطرودا عن الجناب ونحن خطبنا الشيطان من أول عمرنا ملعونا ومطرودا واتصفنا باوصافه الخبيثة ولم نتفكر في أن ما هو سبب المطرودية عن جناب القدس اذا كان موجودا في أي شخص، فهو مطرود وليس للشيطان خصوصية، فما كان سببا لطرده عن جناب القدس يكون مانعا من أن نتطرّق اليه، وأنا أخاف من أن نكون شركاء ابليس في اللعن الذي نلعنه.

ونتفكر أيضا في هذه القضية الشريفة ونرى ما هو السبّب لمزيّة آدم وأفضليته على الملائكة، فنتصف نحن أيضا بمقدار الطاقة بذاك السبب فنرى أن سبب التفضيل هو تعليم الاسماء كما قال تعالى: {وعلّم آدم الاسماء كلّها} (البقرة ـ 31) والمرتبة العالية من تعليم الاسماء هو التحقق بمقام اسماء الله. كما أن المرتبة العالية من الاحصاء الذي هو في الرواية الشريفة أن لله تسعا وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة، هو التحقق بحقيقتها التي تنيل الانسان إلى جنة الاسماء.

الانسان يستطيع أن يكون مظهرا لاسماء الله، والآية الكبرى الالهية بالارتياضات القلبية ويكون وجوده وجودا ربّانيا ويكون المتصرّف في مملكته يدا الجمال والجلال الالهي. وفي الحديث ما يقرب من هذا المعنى من أن "روح المؤمن أشدّ اتصالا بالله تعالى من اتصال شعاع الشمس بها أو بنورها".

وفي الحديث الصحيح "لايزال يتقرّب اليّ عبدي بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يأخذ بها". وفي الحديث "عليّ عين الله ويد الله" إلى غير ذلك.. وفي الحديث "نحن أسماؤه الحسنى" والشواهد العقلية والنقلية في هذا بخصوصه كثيرة.

وبالجملة، من أراد أن يأخذ من القرآن الشريف الحظ الوافر والنصيب الكافي فلا له أن يطبّق كل آية شريفة من الآيات على حالات نفسه حتى يستفيد استفادة كاملة، مثلا يقول الله تعالى في سورة الانفال

في الآية الشريفة: {انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربّهم يتوكّلون} (الانفال ـ 2). فلا بد للسالك من أن يلاحظ هل هذه الاوصاف الثلاثة منطبقة عليه، وهل قلبه يجِلُ اذا ذكر الله ويخاف؟ واذا تليت عليه الآيات الشريفة الالهية يزداد نور الايمان في قلبه؟ وهل اعتماده وتوكله على الحق تعالى؟ أو أنه في كل من هذه المراحل راجل ومن كل هذه الخواص محروم؟ فإن أراد أن يفهم أنه من الحق تعالى خائف وقلبه من خوفه وجل فلينظر إلى أعماله.

الانسان الخائف لا يتجاسر في محضر الكبرياء إلى مقامه المقدس ولا يهتك الحرمات الالهية في حضور الحق، واذا قوي الايمان بتلاوة الآيات الالهية يسري نور الايمان إلى المملكة الظاهرية ايضا، فغير ممكن أن يكون القلب نورانيا ولا يكون اللسان والكلام والعين والنظر والسمع والاستماع نورانيا. فالبشر النوراني هو الذي تكون جميع قواه الملكية والملكوتية منيرة، فمضافا إلى هداية نفسه إلى السعادة و الطريق المستقيم يكون مضيئا لسائر الخلق ايضا ويهديهم إلى طريق الانسانية كما أنه اذا توكل أحد على الله تعالى و اعتمد عليه فيقطع الطمع عمّا في أيدي سائر الخلق ويحط رحل حاجته وفقره إلى باب الغنى المطلق ولا يرى سائر الذين هم مثله فقراء ومساكين

حلاّلين لمشاكله. فوظيفة السالك إلى الله هي أن يعرض نفسه على القرآن الشريف، فكما أن الميزان في صحة الحديث وعدم صحته واعتباره وعدم اعتباره ان يعرض على كتاب الله فما خالف كتاب الله فهو باطل وزخرف. كذلك الميزان في الاستقامة والاعوجاج والشقاوة والسعادة هو أن يكون مستقيما وصحيحا في ميزان كتاب الله، وكما أن خلق رسول الله هو القرآن فاللازم له أن يجعل خلقه موافقا للقرآن حتى يكون مطابقا لخلق الوليّ الكامل ايضا، والخلق يكون مخالفا لكتاب الله فهو زخرف وباطل.

وكذلك جميع المعارف وأحوال قلبه وأعمال الباطن والظاهر له لابد أن يطبّقها على كتاب الله ويعرضها عليه حتى يتحقق بحقيقة القرآن ويكون القرآن له صورة باطنية.

وانت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر

وفي هذا المقام آداب أخر قد ذكرنا بعضها في أول هذه الرسالة في آداب مطلق العبادات وبعضها مندرج في هذا الآداب، وذكر بعضها ينجّر إلى التطويل، فلهذه الجملة صرفنا النظر عنه والله العالم.

خاتمة الفصل

في ذكر ترجمة (ما ذكرناه نص الروايات لا ترجمتها، وانما ذكرنا كلمة ترجمة لاداء الامانة في الترجمة، حيث أتى المصنف، أدام الله ظلّه بترجمة الروايات في الاصل.) نبذة من الروايات الشريفة لتتميم الفائدة والتبرّك بكلام العترة الطاهرة.

ففي الكافي الشريف باسناده إلى سعد الخفّاف عن أبي جعفر عليه السلام قال: "يا سعد تعلّموا القرآن فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر اليها الخلق والناس صفوف عشرون ومائة ألف صف ثمانون ألف صفّ أمّة محمد وأربعون أل صف من سائر الامم، فيأتي على صف المسلمين في صورة رجل فيسلّم فينظرون اليه ثم يقولون لا إله الا الله الحليم الكريم ان هذا الرجل من المسلمين نعرفه بنعته وصفته غير أنه كان أشدّ اجتهادا منا في القرآن فمن هناك أعطي من البهاء والجمال والنور ما لم يُعطَه، ثم يجاوز حتى يأتي على صف الشهداء فينظرون اليه ثم يقولون: لا اله الا الله الرب الرحيم ان هذا الرجل من الشهداء نعرفه بسمته وصفته غير أنه من شهداء البحر فمن هناك أعطي من البهاء والفضل ما لم نُعطه. قال: فيتجاوز حتى يأتي صف شهداء البحر في صورة شهيد.. ثم ذكر الحديث اتيانه صفوف النبيين والمرسلين إلى أن يعرّفه رسول الله صلى الله عليه وآله" الحديث بطوله.

وقال أبو عبدالله عليه السلام: "اذا جمع الله عزّ وجلّ الاولين والاخرين اذا هم بشخص قد أقبل لم ير قطّ أحسن صورة منه فاذا نظر اليه المؤمنون وهو القرآن قالوا هذا منّا هذا أحسن شيء رأينا، فاذا انتهى اليهم جازهم" إلى آخر الحديث.

والاحاديث بهذا المضمون كثيرة وهي دليل واضح على ما يقوله أهل المعرفة بأن الموجودات في هذا العالم لها صور أخروية، ومن أحاديث هذا الباب يستفاد أن للاعمال أيضا صورا أخروية.

وفي الكافي الشريف باسناده إلى باقر العلوم عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله "أنا أول وافد على العزيز الجبّار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي ثم أمّتي ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي". وفي حديث آخر: "فيقول الجبار: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لاكرمنّ اليوم من أكرمك ولاهينّ من أهانك" وليعلم أنه لو لم

نكن نحيي أحكام القرآن ومعارفه بالعمل بها والتحقق بحقيقتها لا نستطيع أن نجيب رسول الله في ذلك اليوم فأي إهانة أعظم من أن تنبذ مقاصد القرآن ودعواته وراء الظهر، فليس إكرام القرآن وأهله وهم أهل بيت العصمة بتقبيل جلد القرآن او الضرائح المقدسة لهم فقط بل التقبيل هذا مرتبة ضعيفة من الاحترام و التكريم، واذا عملنا بأوامره وأوامرهم عليهم السلام فهذا الاحترام مقبول والا فهو يشبّه بالاستهزاء واللعب وقد حذر تحذيرا شديدا في الاحاديث الشريفة

من قارئ القرآن الذي لا يعمل به كما نقل عن عقاب الاعمال للشيخ الصدوق رضوان الله عليه باسناده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث "من تعلّم القرآن فلم يعمل به وآثر عليه حبّ الدنيا وزينتها استوجب سخط الله وكان في الدرجة مع اليهود والنصارى الذي ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم" (أقول: الرواية بهذه الصورة ليست في النسخة المطبوعة في بيروت والموجودة عندي بل ما ذكر ما بين القوسين تحت رقم (5) لم يكن موجودا في نسختنا وانما ترجمة المؤلف دام ظله وما ذكر منها تحت رقم (6) قد ذكر في نسختنا في باب عقاب من تعلم القرآن فلم يعمل به تحت رقم (3) وما ذكرناه تحت رقم (7) قد ذكر في نسختنا في باب ثواب قراءة تحت (6) وأقول: السمعة من أقسام الريا ومعناها انه يسمع العابد للناس بعبادته ليجلب قلوبهم إلى نفسه.).

"ومن قرأ القرآن وأراد به السمعة و الوصول إلى الدنيا لقي الله ووجهه عظم لا لحم فيه والقرآن يضرب على قفاه حتى يدخل النار ويسقط في النار مع الذين سقطوا". "ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى فيقول ربّ لم حشرتني أعمي وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتي فنسيتها وكذلك اليوم تنسى فيؤمر به إلى النار".

"ومن قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وتفقها في الدين كان له من الثواب مثل جميع ما يعطى الملائكة والانبياء والمرسلون، ومن تعلّم القرآن يريده رياء وسمعة ليماري به السفهاء ويباهي به العلماء ويطلب به الدنيا بدّد الله عزّ وجل عظامه يوم القيامة ولم يكن في النار أشدّ عذابا منه وليس نوع من أنواع العذاب الا ويعذب من شدّة غضب الله عليه وسخطه، ومن تعلّم القرآن وتواضع في العلم وعلّم عباد الله يريد ما عند الله لم يكن في الجنة أعظم ثوابا منه ولا أعظم منزلة منه ولم يكن في الجنة منزلة ولا درجة رفيعة ولا نفيسة الا كان له فيها أوفر النصيب وأشرف المنازل".

وقد وردت روايات كثيرة في خصوص التفكر في معاني القرآن والاتعاظ به والتأثر منه. كما في الكافي الشريف عن أبي عبدالله عليه السلام قال: "ان هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدّجى فليجل جال بصره ويفتح للضياء نظره فإن التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور".. ومقصوده عليه السلام أنه كما أن الانسان

لا بد له من النور الظاهري اذا هو يمشي في الظلمات حتى يصان من خطر السقوط في المزلات، كذلك لابدّ له أن يمشي في ظلمات طريق السير إلى الاخرة و إلى الله بالقرآن الذي هو نور الهداية والمصباح المنير في طريق العرفان والايمان كي لا يقع في المزلّات المهلكة.

وفي معاني الاخبار، في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: "الفقيه من لا يترك القرآن رغبة عنه ويتوجّه إلى غيره، الا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقّه".

وروي في الخصال ومعاني الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "حملة القرآن عرفاء أهل الجنة". ومن المعلوم أن المراد من هذا الحمل هو حمل معارف القرآن وعلومه وتكون نتيجته في الاخرة ان الحامل يكون في عداد اهل المعرفة وأصحاب القلوب، كما أنه لو حمل سورة القرآن من دون الاتعاظ بمواعظه وتحمّل معارفه وحكمه والعمل بأحكامه وسننه، فهو كما قال تعالى: {مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار الذي يحمل أسفارا} (الجمعة ـ 5). والاحاديث الشريفة في شؤون القرآن الشريف وآدابه أكثر من أن تسع في هذا المختصر. والسلام على محمد وآله.

المصباح الثاني
في ذكر نبذة من آداب القراءة في خصوص الصلاة

وفيه
سبعة فصول

الفصل الاول
في آداب القراءة في الصلاة خاصة

اعلم أن للقراءة في هذا السفر الروحاني والمعراج الالهي مراتب ومدارج نكتفي ببعضها حسب ما يناسب هذه الرسالة:

المرتبة الاولى: الا يشتغل القارئ الا بتجويد القراءة وتحسين العبارة، ويكون همّه التلفّظ بهذه الكلمات فقط وتصحيح مخارج الحروف حتى يأتي بتكليف ويسقط عنه أمر، ومعلوم أن التكاليف لهذه الاشخاص موجبة للكلفة والمشقة وقلوبهم منها منضجرة وبواطنهم عنها منحرفة وليس لهم حظ من العبادة الا أنهم ليسوا معاقبين بعقاب تاركها الا ان يتفضّل عليهم من خزائن الغيب ويقعوا موردا للاحسان والانعام بمجرد لقلة اللسان، ويتّفق لهذه الطائفة أحيانا أن ألسنتهم مشغولة بذكر الحق وقلوبهم عنه عارية وبرئية ومتعلقة بالكثرات الدنيوية والمشاغل الملكية، وهذه الطائفة داخلة في الصلاة بحسب الصورة ولكنهم بحسب الباطن والحقيقة مشغولون بالدنيا ومآربها والشهوات الدنيوية، ويتفق أحيانا أن قلوبهم أيضا مشغولة بالتفكر في تصحيح صورة الصلاة. ففي هذه الصورة قد دخلوا في صورة الصلاة بحسب القلب واللسان، وهذه الصورة منهم مقبولة ومرضية.

المرتبة الثانية: هم الذين لا يقتنعون بهذا الحد بل يرون الصلاة وسيلة لتذكر الحق ويعدّون القراءة تحميدا وثناء على الحق، ولهذه الطائفة مراتب كثيرة يطول ذكرها ولعله أشير إلى هذه الطائفة في الحديث الشريف القدسي "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي فاذا قال بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله ذكرني عبدي واذا قال الحمد لله يقول الله حمدني عبدي وأثنى علي وهو معنى سمع الله لمن حمده. و اذا قال الرحمن الرحيم يقول الله عظّمني عبدي، واذا قال مالك يوم الدين يقول الله مجّدني عبدي، وفي رواية فوّض إليّ عبدي واذا قال ايّاك نعبد وإياك نستعين يقول الله هذا بيني وبين عبدي، واذا قال اهدنا الصراط المستقيم يقول الله

هذا لعبدي ولعبدي ما سأل". وحيث أن الصلاة قد قسمت بحسب هذا الحديث الشريف بين الحق والعبد فلا بدّ للعبد أن يقوم بحق المولى إلى حيث حقّه ويقوم بأدب العبودية الذي ذكره في هذا الحديث حتى يعمل الحق تعالى شأنه معه باللطائف الربوبية كما يقول تعالى {أوفوا بعهدي أوف بعهدكم} (البقرة ـ 40).

والحق تعالى قد أقام آداب العبودية في القراءة على أربعة اركان:

الركن الأول: التذكر، ولا بد أن يحصل في بسم الله الرحمن الرحيم وينظر العبد السالك إلى جميع دار التحقق بالنظر الاسمى الذي هو الفناء في المسمّى ويعوّد القلب أن يكون طالباً للحقّ ومحبّا للحق في جميع ذرّات الممكنات وفطرة تعلّم الاسماء التي فطر بها في مخمّر ذاته المشار اليها في قوله تعالى: {وعلّم آدم الاسماء كلّها} (البقرة ـ 31) لا بدّ وأن تصل من حضرة اسم الله الأعظم إلى مرتبة الفعلية والظهور بمقتضى جامعية نشأة الظهور، ويحصل هذا المقام من الخلوة مع الحق وشدّة التذكر والتفكر في الشؤون الالهية حتى

ينتهي إلى حدّ يكون قلب العبد حقانيا ولا يكون في جميع زوايا قلبه اسم سوى الحق. وهذه مرتبة من الفناء في الالوهية، والقلوب المنكوسة القاسية للجاحدين لا تستطيع انكارها بهذا البيان الذي بيّنّاه الا أن يكون جحوده جحودا ابليسيا، فإن تلك القلوب والعياذ بالله متنفّرة بالطبع عن اسم الحق وذكره وتنقبض اذا جرى حرف من المعارف الالهية أو ذكر من أسماء الله ولا يفتحون بصيرتهم الا إلى الشهوات البطنية والفرجية، وفي هذه الطائفة أفراد لا يعتقدون للانبياء والأولياء عليهم السلام أيضا سوى المقامات الجسمانية والجنة الجسمانية التي يُقضى فيها الوطر الحيواني، ويحسبون عظمة المقامات الاخروية كالعظمة الدنيوية بسعة الجنات والانهار الجارية وكثرة الحور والغلمان والقصور، واذا سمعوا كلاما عن العشق والمحبة والجذبة الالهية فيحملون على صاحبه بالالفاظ الركيكة والكلمات القبيحة، فكأن هذا الكلام سبّ لهم فيجبرونه، هؤلاء مأمورون من قبل الشيطان قد قعدوا على الصراط المستقيم الالهي بمقتضى: {ولاقعدنّ لهم صراطك المستقيم} (الأعراف ـ 16).

ولا يتركون أحدا يحصل له الانس مع الهه ويخلص من ظلمات التعلّق بالشهوات الحيوانية التي منها التعلّق بالحور والقصور.

ومن الممكن أن يستشهد هؤلاء بشواهد من أدعية الانبياء وأهل بيت العصمة عليهم السلام بأنهم ايضا كانوا يطلبون الحور والقصور وهذا من قصور هذه الطائفة حيث أنهم لم يفرقوا بين حبّ كرامة الله حيث يكون النظر فيه إلى كرامة المحبوب واعطائه الذي هو علامة المحبة والعناية وبين حب الحور والقصور وأمثالها استقلالا، الذي هو في خميرة الشهوة الحيوانية، فحب كرامة الله هو حب الله ويسري إلى الكرامة والعناية بالتبع (عاشقهم برهمه عالم كه همه عالم ازاواست) (مصراع بيت للشاعر المعروف السعدي الشيرازي يقول: أنا للعالم عاشق حيث منه الكون أجمع).

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من من سكن الديارا

والا فما لعليّ والحور والقصور؟ وأي تناسب بينه وبين الاهواء النفسانية والشهوات الحيوانية؟ من كانت عبادته عبادة الاحرار فلا يكون جزاؤه جزاء التجار.. قد أُرخي عنان القلم وبعدت عن المطلب، وبالجملة من عوّد نفسه على قراءة الآيات والاسماء الالهية من كتاب التكوين والتدوين الالهي يصوّر قلبه بالتدريج على الصورة الذكرية والآيتية ويتحقق باطن الذات بذكر الله واسم الله وآيات الله كما فسر وطبّق الذكر بالرسول الاكرم وعلي بن أبي طالب صلوات الله عليهما وآلهما والاسماء الحسنى بأئمة الهدى وكذلك فسّرت وطبّقت آيات الله عليهم،

صلوات الله عليهم، فهم الآيات الالهية واسماء الله الحسنى وذكر الله الأكبر ومقام الذكر من المقامات العالية الجليلة لا يسع في مجال البيان وحيطة التقرير والتحرير، وتكفي لاهل المعرفة والجذبة الالهية وأصحاب المحبة والعشق الآية الشريفة الالهية {فاذكروني أذكركم} (البقرة ـ 152). وقال الله تعالى لموسى "يا موسى أنا جليس من ذكرني".. وفي رواية الكافي قال رسول الله صلى الله عليه وآله "من اكثر ذكر الله أحبه الله" وفي الوسائل باسناده إلى الصادق عليه السلام قال: قال الله عزّ وجلّ "يابن آدم اذكرني في نفسك اذكرك في نفسي، يابن آدم اذكرني في خلاء أذكرك في خلاء يابن آدم اذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملئك". وقال: "ما من عبد ذكر الله في ملأ من الناس الا ذكره الله في ملأ من الملائكة".

الركن الثاني: التحميد وهو في قول المصلّي الحمد لله رب العالمين.

اعلم ان المصلّي اذا تحقق بمقام الذكر ورأى جميع ذرّات الكائنات وعوالي الموجودات ودوانيها أسماء إلهية وأخرج عن قلبه جهة الاستقلال ونظر

إلى الموجودات عوالم الغيب والشهود بعين الاستظلال تحصل له مرتبة التحميد ويعترف قلبه ان جميع المحامد من مختصات الذات الاحدية وليست لسائر الموجودات فيها شركة لأنه ليس لها كمال من عند أنفسها حتى يقع الحمد والثناء لها، ويأتي البيان التفصيلي لهذه اللطيفة الالهية في تفسير هذه السورة المباركة ان شاء الله.

الركن الثالث: هو التعظيم، وهو يحصل في الرحمن الرحيم:

إن العبد السالك إلى الله اذا حصر المحمدة في ركن التحميد على الحق تعالى وسلب الكمال والتحميد عن الكثرات الوجودية يقرب من أفق الوحدة وتعمي بالتدريج عينه الرائية للكثرة وتتجلى لقلبه الصورة الرحمانية التي هي بسط الوجود والصورة الرحيمية التي هي بسط كمال الوجود. ويصف الحق بالاسمين المحيطين الجامعين المضمحلة فيهما الكثرات فيحصل للقلب بواسطة التجلي الكمالي الهيبة الحاصلة من الجمال بتنزل عظمة الحق في قلبه، واذا تمكنت هذه الحالة في قلبه ينتقل إلى الركن الرابع.

الركن الرابع: الذي هو مقام التقديس الذي هو حقيقة التمجيد. وبعبارة أخرى تفويض الامر إلى الله، وهو عبارة عن رؤية مقام مالكية الحق وقاهريته وزوال غبار الكثرة وانكسار أصنام كعبة القلب، وظهور مالِكيّة بيت القلب والتصرف فيه بلا مزاحمة الشيطان، ويصل في هذه الحالة إلى مقام الخلوة. ولا يمكن بين العبد والحق حجاب وتقع اياك نعبد واياك نستعين في تلك الخلوة الخاصة ومجمع الانس، ولهذا قال: هذا بيني وبين عبدي واذا اشتملته العناية الازلية وأفاق يسأله الاستقامة في هذا المقام والتمكين في حضرته بقوله اهدنا الصراط المستقيم، ولهذا فسّر اهدنا بألزمنا وأدّبنا وثبّتنا وهذا لاولئك

الذين خرجوا من الحجاب ووصلوا إلى المطلوب الازلي. وأما أمثالنا نحن أهل الحجاب لا بد وأن نسأل الهداية من الحق تعالى بمعناها المعروف، ولعلّه تأتي بقية من هذا في تفسير السورة المباركة الحمد، ان شاء الله تعالى.

تكميل: يظهر من الحديث الشريف أن الصلاة كلها قسمت بين الحق والعبد وقد ذكر الحمد من باب النموذج والمثل فبناء على هذا نقول: ان التكبيرات الصلاتية أعمّ من الافتتاحية وغيرها التي تقال في خلال انقلاب الاحوال الصلاتية كلها حظ الربوبية قسمة الذات المقدسة، فإن قام العبد السالك إلى الله بهذه الوظيفة العبودية وأدّى حق الربوبية بمقدار ما في وسعه فيؤدي الحق تعالى أيضا بألطافه الخاصة الازلية حق العبد وهو فتح باب المراودة والمكاشفة، كما اشار اليه في الحديث الشريف في مصباح الشريعة حيث يقول: "فاذا كبّرت فاستصغر ما بين

العلى والثرى دون كبريائه". إلى أن قال: "فاعتبر انت قلبك حين صلاتك فإن كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها وقلبك مسرورا بمناجاته ملتذا بمخاطباته فاعلم أنه قد صدّقك في تكبيرك، والا فقد عرفت من سلب لذة المناجاة وحرمان حلاوة العبادة انه دليل على تكذيب الله لك وطردك عن بابه".

وعلى هذا المقياس ففي كل حال من الاحوال الصلاتية وكل فعل من افعالها حق تعالى لابد للعبد من القيام به وهو آداب العبودية في ذلك المنزل وللعبد حظ ونصيب يعطيه الحق باللطف الخفي والرحمة الجلية بعد قيام العبد بآداب العبودية، واذا رأي نفسه فيب هذه المقامات الالهية محروما فيعلم أنه لم يقم بآداب العبودية وعلامة ذلك للمتوسطين ان

لا تذوّق ذائقة القلب لذة المناجاة وحلاوة العبادات ويحرم عن البهجة والسرور والانقطاع إلى الحق.

والعبادة التي خلت عن اللذة والحلاوة عبادة بلا روح ولا يستفيد القلب منها.

فيا أيها العزيز آنس قلبك بآداب العبودية وأذق ذائقة الروح حلاوة الذكر، وهذه اللطيفة الالهية تحصل في بدء الامر بشدة التذكر والانس بذكر الحق، ولكن في حال الذكر لا يكون القلب ميّتا ولا تستولي عليه الغفلة، فاذا آنست قلبك بالتذكر فتشملك العنايات الازلية بالتدريج ويفتح على قلبك أبواب الملكوت وعلامة ذلك التجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل حلول الفوت.

اللهم أعطنا نصيباً من لذة مناجاتك وحلاوة مخاطباتك واجعلنا في زمرة الذاكرين والمنقطعين إلى عزّ قدسك، وهب لقلوبنا الميّتة حياة دائمة واقطعها عمّن سواك ووجهها اليك انك ولي الفضل والانعام.

الفصل الثاني

في بعض آداب الاستعاذة

قال تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون انما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون} (النحل 98 . 99 . 100).

من الآداب المهمة للقراءة وخصوصا القراءة في الصلاة التي هي السفر الروحاني إلى الله والمعراج الحقيقي ومرقاة وصول اهل الله، الاستعاذة من الشيطان الرجيم الذي هو شوكة طريق المعرفة ومانع السير والسلوك إلى الله، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن قوله في السورة المباركة الاعراف حيث قال: {فبما أغويتني لاقعدنّ لهم صراطك المستقيم} (الأعراف . 16) ، فإنه حلف ان يسد الطريق على أولاد آدم ويمنعهم عنه ففي الصلاة التي هي الصرلط المستقيم الانساني ومعراج الوصول إلى الله لا يتحقق الوصول من دون الاستعاذة من هذا القاطع للطريق، ولا يحصل الامان من شره من دون الاستعاذة إلى حصن الالوهية الحصين، ولا تتحقق هذه الاستعاذة بلقلقة اللسان والصورة بلا روح والدنيا بلا آخرة كما هو مشهود في أشخاص قالوا بهذا القول منذ أربعين أو خمسين سنة وما نجوا من شرّ هذا القاطع للطريق

ويتبعون الشيطان في الاخلاق والاعمال بل في العقائد القلبية، ولو كنا مستعيذين من شرّ هذا الخبيث بالذات المقدسة للحق تعالى وهو الفيّاض المطلق وصاحب الرحمة الواسعة والقدرة الكاملة والعلم المحيط والكرم البسيط لاعاذنا الله ولصلح ايماننا وأخلاقنا وأعمالنا. فلا بدّ أن نفهم بأن التأخّر عن هذا السير الملكوتي والسلوك الالهي مهما كان فهو بواسطة إغواء الشيطان والوقوع تحت السلطنة الشيطانية من قصور أنفسنا أو من تقصيرنا حيث

لم نقم بآدابه المعنوية وشرائطه القلبية، كما أن عدم نيلنا في جميع الاذكار والاوراد والعبادات نتائجها الروحية والآثار الظاهرية والباطنية فهو من أجل هذه الدقيقة، ويستفاد من الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة للمعصومين عليهم السلام آداب كثيرة وتعدادها يحتاج إلى الفحص الكامل واطالة الكلام ونحن نكتفي بذكر بعضها، فمن مهمّات آداب الاستعاذة الخلوص كما نقله سبحانه عن الشيطان انه قال: {فبعزّتك لاغوينّهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين} (ص ـ 82 ـ 83) وهذا الاخلاص كما يظهر من الكريمة الشريفة أعلى من الاخلاص العملي وأعم من العمل الجوانحي أو العمل الجوارحي لأن المخلص بصيغة المفعول، ولو كان المنظور هو الاخلاص العملي لكان التعبير بصيغة الفاعل، فالمقصود من هذا الاخلاص هو خلوص الهوية الانسانية بجميع شؤونها الغيبية والظاهرية والاخلاص العملي من رشحاته، وهذه الحقيقة واللطيفة الالهية وان كانت لا تحصل للعامة في ابتداء السلوك الا بالرياضات العملية الشديدة وخصوصا الرياضيات القلبية التي هي أصلها كما أشير اليه في الحديث المشهور: "من أخلص لله أربعين صباحا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه" فمن أخلص أربعين صباحا (بمقدار تخمير طينة آدم، وكان أربعين صباحا، والربط بينهما معلوم عند أهل المعرفة

وأصحاب القلوب) نفسه لله وأخلص أعماله القلبية والقالبية للحق تعالى ويكون قلبه الهيا ولا ينفجر من القلب الالهي سوى عيون الحكمة، فيكون لسانه الذي هو أكبر ترجمان للقلب ناطقا بالحكمة.

ففي أول الامر يكون اخلاص العمل موجبا لخلوص القلب فاذا صار القلب خالصا تظهر على مرآة القلب أنوار الجلال والجمال التي أودعت بالتخمير الالهي من طبنة آدم وتتجلى وتسري من باطن القلب إلى ظاهر ملك البدن.

وبالجملة، الخلوص الذي يوجب الخروج من تحت السلطنة الشيطانية هو خلوص هوية الروح وباطن القلب لله تعالى، و إلى هذا الخلوص يشير أمير المؤمنين سلام الله عليه في المناجاة الشعبانية: إلهي هب لي كمال الانقطاع اليك.. فاذا وصل القلب إلى هذه المرتبة من الاخلاص ينقطع بالكلية عما سوى الله ولا يتطرق في مملكة وجوده غير طريق الحق ويقبله الحق تعالى في معاذه ويقع في الحصن الحصين للالوهية، كما قال تعالى في الحديث القدسي: كلمة لا اله الا الله حصني فمن دخل في حصني أمن من عذابي.. وللدخول في حصن لا اله الا الله مراتب كما أن للامن من العذاب ايضا مراتب، فمن وقع بباطنه وظاهره وقلبه وقالبه في حصن الحق وصار في معاذه فقد أمن من جميع مراتب العذاب، وأعلى مراتبها عذاب الاحتجاب عن جمال الحق والفراق عن وصال المحبوب جلّ جلاله فمن حصل له هذا المقام فهو عبد الله على الحقيقة ويقع تحت قباب الربوبية ويكون الحق تعالى متصرفا في مملكته ويخرج عن تحت ولاية الطاغوت. وهذا المقام من أعز مقامات الاولياء وأخص مدارج الاصفياء وليس لسائر الناس منه حظ، بل لعل القلوب القاسية للجاحدين والنفوس الصلبة للمجادلين

البعيدة عن هذه المرحلة بمراحل تنكر هذه المقامات، ويحسبون الكلام في أطرافها باطل بل ينسبون والعياذ بالله هذه الامور التي هي قرّة عين الاولياء والكتاب والسنة مشحونة بها إلى المنسوجات للصوفية والاراجيف للحشوية.

ونحن ايضا ان تذكرنا هذه المقامات التي هي في الحقيقة مقام الكمّل فليس من جهة أن لنا فيها حظا أو أن نمدّ اليها عين الطمع، بل من جهة أننا لا نجوّز انكار المقامات ونرى ذكر الاولياء ومقاماتهم دخيلا في تصفية القلوب وتخليصها وتعميرها لأن ذكر الخير بالنسبة إلى اصحاب الولاية والمعرفة يوجب المحبة والتواصل والتناسب، وهذا التناسب يوجب التجاذب وهذا يسبّب التشافع الذي ظاهره الاخراج من ظلمات الجهل إلى أنوار الهداية والعلم

وباطنه الظهور بالشفاعة في العالم الاخرة لأن شفاعة الشافعين لا تكون من دون تناسب وتجاذب باطني ولا تكون عن جزاف وباطل.

وبالجملة، التخليص بهذه المرتبة الكاملة وان كان لا يتيسّر لغير الكمّل من الاولياء والاصفياء عليهم الصلاة والسلام بل المقام الكامل لهذه المرتبة من مختصات النبي الخاتم والقلب الخالص النوراني الاحدي الاحمدي الجمعي المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم بالاصالة وللكمّل والخلّص من أهل بيته بالتبعية، ولكن لا يجوز للمؤمنين والمخلصين أيضا أن يغضّوا النظر عن جميع مراتبه ويقتعوا بالاخلاص الصوري العملي والخلوص الظاهري الفقهي لأن الوقوف في المنازل من الاعمال والافكار العبقرية لإبليس، فهو قاعد على سبيل الانسان والانسانية ويمنعه بأيه وسيلة كانت عن العروج إلى الكمالات والوصول إلى المدارج فلا بدّ من علوّ الهمة وتقوية الارادة، فلعل هذا النور الالهي واللطيفة الربانية تسري من الصورة إلى الباطن ومن الملك

إلى الملكوت والانسان اذا نال أي مرتية من الاخلاص يكون بمقدارها في لواذ الحق وتتحقق الاستعاذة وتقصر يد تصرّف العفريت الخبيث والشيطان عن الانسان، فأنت اذا أخلصت الصورة الملكية الانسانية لله وجهلت الجيوش الظاهرة الدنيوية للنفس التي هي عبارة عن القوى المتشتتة في ملك البدن في ملاذ الحق وطهّرت الاقاليم السبعة الارضية أي البصر والسمع واللسان والبطن والفرج واليد والرجل من قذارات المعاصي وجعلتها تحت تصرّف ملائكة الله الجيوش الالهية فتصير بالتدريج هذه الاقاليم حقانية وتتصرّف بتصرف الحق إلى أن يكون هو نفسه ايضا من ملائكة الله أو مثل ملائكة الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فتحصل المرتبة الاولى من الاستعاذة ويرحل الشيطان وجيوشه عن المملكة ويتوجّهون إلى الباطن ويهجمون على القوى الملكوتية النفسانية، فمن هذه الجهة يصير أمر السالك أصعب وسلوكه أدق ولا بد له أن يكون قدم سيره أقوى ومراقبته أكمل ويستعيذ بالله المتعال من المهالك النفسانية من العجب والرياء والكبر والخيلاء وغيرها، ويشتغل بالتدريج بتصفية الباطن عن الكدورات المعنوية والقذارات الباطنية، ومن مهمات هذا المقام بل جميع المقامات، ومن مهمّات السلوك وأركان العروج التوجّه التام إلى التوحيد الحق الفعلي وتذكير القلب بهذه اللطيفة الالهية والمائدة السماوية، واذاقة القلب حقيقة مالكية الحق تعالى للسموات والارض والباطن والظاهر والملك والملكوت حتى يرتاض القلب بالتوحيد في الالهية ونفي الشريك في التصرف ويخمّر بالتخمير الالهي ويربّي بتربية التوحيدي، فلا يرى القلب ولا يعلم في هذه الحالة مفزعا ولا ملجأ ولا ملاذا ولا معينا سوى الحق، ويستعيذ بالحق ومقام الالوهية بالطوع والحقيقة، وما لم يقطع القلب عن تصرّف سائر الخلق ولم يغمض عين

الطمع عن الموجودات لا يلوذ بالله على الحقيقة وتكون دعواه كاذبة وينسلك في مسلك أهل المعرفة في زمرة المنافقين وينسب إلى الخدعة والتغرير وفي هذا الوادي المهيب والبحر العميق الخطير استفادة التوحيدات الثلاثة استفادة علمية من نفخة حكيم رباني أو عارف نوراني يعين باطن القلب اعانة لائقة، ولكن شرط هذه الاستفادة أن يشتغل بها بنظر الآية والعلامة والسير والسلوك إلى الله ولا تكون نفس هذه الاستفادة شوكا للطريق وحجابا لرؤية جمال المحبوب كما لقّب رسول الله صلى الله عليه وآله هذا العلم في الحديث الشريف للكافي: "أية محكمة".

وبالجملة، اذا استحكم في القلب أصل التوحيد الفعلي للحق وسقي بماء العلم التوأم بالعمل اللطيف الذي يقرع باب القلب تكون نتيجته تذكر مقام الالوهية ويصفى القلب بالتدريج للتجلي الفعلي للحق. فاذا خلت الدار من الغدّار والعش من الغش يتصرف في البيت صاحبه وتأخذ يد ولاية الحق القوى الملكوتية والملكية من ملكوت

الباطن والقلب إلى الملك وظاهر البدن تحت تصرفه وحكومته وترتحل الشياطين أجمع من هذه المرحلة أيضا وترجع المملكة الباطنية إلى استقلاله الذي هو عين الاستظلال للحق، وهذه المرتبة الثانية (من اللطيفة الربانية للاستعاذة). وبعد هذا المقام هو استعاذة الروح واستعاذة السر وسائر مراتب الاستعاذة لا تناسب هذه الاوراق، وهذا المقدار ايضا ظهر في صورة الترقيم من طغيان القلم أو من جراء قلم المولى جلّ وعلا وإليه المفزع.

ومن الآداب والشرائط الاستعاذة التي أشير اليها في الآية الشريفة التي ذكرناها في أول الفصل الايمان وهو غير العلم، حتى العلم الذي

حصل بالبرهان الحكمي، فإن الشيطان مع أن له العلم بالمبدأ والمعاد بنصّ القرآن محسوب في زمرة الكفّار، فلو كان الايمان عبارة عن هذا العلم البرهاني يلزم أن يكون الواجدون لهذا العلم بعيدين عن تصرّف الشيطان ويتلألأ فيهم نور هداية القرآن، مع أننا نرى أن هذه الاثار لا تحصل بالايمان البرهاني فإن اردنا أن نخرج من تصرّف الشيطان ونقع تحت عوذة الحق لابد وأن نوصل الحقائق الايمانية إلى القلب بالارتياض القلبي الشديد ودوام التوجّه أو كثرته وشدّة المراودة والخلوة فاذا صار القلب إلهياً يخلو من تصرّف الشيطان كما قال الله تعالى: {الله وليّ الذين آمنو يخرجهم من الظلمات إلى النور} (البقرة ـ 257). فالمؤمنون الذين يتصرف ويتولىّ الحق تعالى في ظاهرهم وباطنهم وسرّهم وعلانيتهم خالصون من تصرّفات الشيطان وداخلون في سلطان الرحمن، ويخرجهم من جميع مراتب الظلمات إلى النور المطلق فينتقلون من ظلمة المعصية والطغيان ومن ظلمة كدورات الاخلاق الرذيلة وظلمة الجهل والكفر والشرك ورؤية النفس وحب النفس والعجب إلى نور الطاعة والعبادة وأنوار الاخلاق الفاضلة ونور العلم وكمال الايمان والتوحيد ورؤية الله وطلب الله وحب الله.

كما أن من آداب الاستعاذة التوكل، وهو ايضا من شعب الايمان ومن الانوار الحقيقية للّطيفة الايمانية وهو تفويض الامور إلى الحق الذي يحصل من ايمان القلب بالتوحيد الفعلي وتفصيله خارج عن نطاق هذه الاوراق.

فاذا لم ير العبد السالك مفزعا وملاذا غير الحق تعالى وعلم أن التصرّف في الامور منحصر في الذات المقدسة تحصل في القلب حالة الانقطاع والتوكل وتصير استعاذته حقيقية، فاذا لجأ بالحقيقة إلى

حصن الربوبية والالوهية الحصين فيأخذه لا محالة في كنف ظلّه ورحمته الكريمة انه ذو فضل عظيم.

تتميم ونتيجة: قد علم من مطالب الفصل السابق ان حقيقة الاستعاذة عبارة عن حالة وكيفية نفسانية تحصل من العلم الكامل البرهاني بمقام التوحيد الحق الفعلي والايمان به بمعنى أنه بعدما فهم من طريق العقل المنور بالبرهان المتين الحكمي والشواهد النقلية المستفادة من النصوص القرآنية واشارات الكتاب الالهي والاحاديث الشريفة وبدائعها ان السلطنة الايجادية والاستقلال في التأثير بل أصل التأثير منحصرة بالذات الالهية المقدسة وليس لسائر الموجودات فيها شركة، كما قرّر في محله لابد له من تنبيه القلب بها وأن يكتب بقلم العقل على لوحة القلب حقيقة لا اله الا الله ولا مؤثّر في الوجود الا الله فاذا آمن القلب بهذه اللطيفة الايمانية والحقيقة البرهانية تحصل حالة انقطاع والتجاء. واذا وجد الشيطان قاطع طريق الانسانية والعدو القوى لنفسه تحصل له حالة الاضطرار وهذه الحالة القلبية هي حقيقة الاستعاذة، وحيث أن اللسان ترجمان القلب يظهر بلسانه تلك الحالة القلبية مع كمال الاضطرار والاحتياج ويقول على الحقيقة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، واذا لم يكن في القلب اثر من هذه الحقائق ويكون المتصرف في القلب وسائر المملكة الوجودية هو الشيطان وتكون استعاذته ايضا بتصرف الشيطان وتدبيره، وفي التلفّظ يقول بالاستعاذة بالله من الشيطان ولكن في الحقيقة حيث أن التصرف

شيطاني تقع الاستعاذة بالشيطان من الله تعالى وتحقق نفس الاستعاذة عكس المطلوب ويستهزئ الشيطان بقائلها وتتبين نتيجة هذه السخرية بعد كشف الغطاء وانطواء

حجاب الطبيعة ومثل هذا الشخص الذي استعاذته لفظية فقط كمثل من يريد أن يستعيذ من شرّ العدوّ الجرّار إلى حصن منيع ولكن يمشي هو نفسه نحو العدوّ ويولّي الوجه عن الحصن ويقول لفظاً إنّي أعوذ من شرّ هذا العدو بهذا الحصن. هذا الشخص مضافا إلى أنه يبتلي بشر العدو يكون سخرية له ايضا.

الفصل الثالث

في أركان الاستعاذة

وهي أربعة:

الأول: المستعيذ. الثاني: المستعاذ. الثالث: المستعاذ به. الرابع: المستعاذ لأجله.

اعلم أن لهذه الأركان تفصيلات كثيرة خارجة عن مجال هذه الأوراق ونحن نكتفي بذكر مختصر منها.

الركن الأول في المستعيذ:

وهو الحقيقة الإنسانية من أول منزل السلوك إلى الله إلى منتهى النهاية للفناء الذاتي، وإذا تم الفناء المطلق هلك الشيطان وتمت الاستعاذة. وتفصيل هذا الإجمال أن الإنسان ما دام مقيما في بيت النفس والطبيعة ولم يشتغل بالسفر الروحاني والسلوك إلى الله وهو تحت السلطنة الشيطانية بجميع شؤونها ومراتبها لم يلتبس بحقيقة الاستعاذة وقلقلة اللسان بلا فائدة بل هي تثبيت وتحكيم للسلطنة الشيطانية إلا بالتفضل والعناية الإلهية، فإذا تلبس بالسير والسلوك إلى الله وشرع في السفر الروحاني فما دام هو في السير والسلوك فكل ما كان مانعا له من هذا السفر وشوكا في طريقه فهو شيطان سواء أكان من القوى الروحانية الشيطانية أم من الجن والأنس لأن الجن والأنس أيضا إذا كانت شوكة الطريق ومانعة السلوك إلى الله فبتأييد

الشيطان وتصرفه كما أشار إليه سبحانه وتعالى في سورة الناس المباركة حيث يقول: {من شرّ الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس} (الناس . 4 . 5 . 6) فالشيطان إن كان جنّا فيستفاد من الآية الشريفة إن الوسواس الخنّاس الذي هو الشيطان جنّ وأنس أحدهما بالأصالة والآخر بالتبعية، وان كان الشيطان حقيقة أخرى شبيهة للجنة فيعلم من الآية الشريفة أن هذين النوعين يعني الجن والأنس أيضا تمثّلات شيطانية ومظاهره، وقد أشار إلى هذا المعنى في آية أخرى أيضا حيث يقول: {شياطين الأنس والجن} (الأنعام . 112) وقد أشار سبحانه في هذه السورة المباركة إلى الأركان الأربعة المذكورة كما هو ظاهر.

وبالجملة الإنسان قبل شروعه في السلوك إلى الله ليس مستعيذا وبعد تمام سيره، وبعد أن لم يبق من آثار العبودية شيء ونال الفناء الذاتي المطلق فلا يبقى أثر من الاستعادة والمستعاذ منه والمستعيذ ولا يكون في قلب العارف شيء سوى الحق والسلطنة الإلهية، وليس له خبر من قلبه ولا من نفسه أيضا، وأعوذ بك منك أيضا ليس في هذا المقام فإذا أتاه الصحو والأنس والرجوع تكون الاستعاذة حقيقة أيضا ولكن لا كاستعاذة السالك. ولهذا أمر الرسول الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضا بالاستعاذة كما قال الله تعالى: {قل أعوذ برب الفلـ} (الفلق . 1) و {قل أعوذ برب الناس} (الناس . 1). و {قل أعوذ من همزات الشياطين وأعوذ بك ربّ أن يحضرو} (المؤمنون . 97 . 98). فالإنسان ليس مستعيذا في مقامين أحدهما قبل السلوك وهو حالة الاحتجاب المحض تحت تصرف

الشيطان وسلطنته، والآخر بعد ختم السلوك وحصول الفناء المطلق، لأنه لا يكون ثمة خبر من المستعيذ والمستعاذ له والاستعاذة.

والإنسان مستعيذ في مقامين أحدهما حال السلوك إلى الله، وهو يستعيذ من أشواك الوصول التي قعدت على الصراط المستقيم للإنسانية كما حكى سبحانه من قول الشيطان: {فما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم} (الأعراف ـ 16) والآخر في حال الصحو والرجوع من الفناء المطلق، فهو إذاً يستعيذ من الإحتجابات التلوينية وغيرها.

الركن الثاني في المستعاذ منه:

وهو إبليس والشيطان الرجيم الذي يمنع الإنسان بحبائله المتنوعة من الوصول إلى المقصد، وحصول المقصد وما ذكره بعض أعاظم أهل المعرفة من أن حقيقة الشيطان عبارة عن جميع العالم بجنبته السوائية فليس بتمام لدى الكاتب لأن الجنبة السوائية التي هي عبارة عن الصورة الموهومة العارية عن الحقيقة الخالية عن التحقق والواقعية من حبائل إبليس التي يشغل الإنسان بها، ولعله إلى ذلك أشير في قوله تعالى: {ألهيكم التكاثر حتى زرتم المقابر} (التكاثر ـ 1 ـ 2) و إلا فنفس إبليس هي حقيقة ذات تجرّد مثالي وذات حقيقة إبليسية كليّة، هي رئيس الأبالسة وإبليس الكل أيضا، كما أن الحقيقة العقلية المجرّدة الكلية وهي آدم الأول هي عقل الكل. وإن القوى الواهمة الجزئية الملكية من مظاهر إبليس وشؤونه، كما أن العقول الجزئية شؤون العقل الكلّي ومظاهره. وتفصيل هذا المقام وتحقيقه خارج عن مجال هذه الرسالة.

وبالجملة، ما كان في هذا السلوك الإلهي والسير إلى الله مانعا من السير وشوكا في الطريق فهو الشيطان أو مظاهره التي أعمالها أيضا عمل الشيطان، وما كان من عوالم الغيب والشهود والعوارض الحاصلة للنفس وحالاتها المختلفة حجابا لجمال المحبوب سواء أكان من العوالم الملكية الدنيوية كالفقر والغنى والصحة والمرض والقدرة والعجز والجهل والآفات والعاهات وغيرها، أو كان من العوالم الغيبية التجردية والمثالية كالجنة وجهنم، والعلم المتعلق بها حتى العلوم العقلية البرهانية الراجعة إلى توحيد الحق وتقديسه كل ذلك من حبائل إبليس التي تمنع الإنسان عن الحق والأنس به والخلوة معه وتشغله بذلك حتى الاشتغال بالمقامات المعنوية والوقوف في المدارج الروحانية الذي ظاهره الوقوف في الصراط الإنساني وباطنه الوقوف في صراط الحق الذي هو جسر روحاني لجهنم الفراق والبعد وينتهي إلى جنة اللقاء. وهذا الجسر مخصوص لطائفة قليلة من أهل المعرفة وأصحاب القلوب، وهذا الاشتغال من الحبائل العظيمة لإبليس الأبالسة و لابد من الاستعاذة منه إلى ذات الحق المقدسة جلّ شأنه.

وبالجملة، ما منعك عن الحق وحجبك عن جمال المحبوب الجميل فهو شيطانك سواء أكان في صورة الإنسان أو الجن، وكل ما يمنعك به الشياطين عن هذا المقصد والمقصود فهو حبائل الشيطان سواء كان من سنخ المقامات والمدارج أو العلوم والكمالات أو الحرف والصنائع أو العيش والراحة أو المشقة و الذلّة أو غيرها، وهذه عبارة الدنيا المذمومة وحبائل الشيطان و لابد من الاستعاذة منها. وما نقل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه كان يقول: "أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التي لا يجاوزهنّ بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها وشر ما ينزل من الأرض وما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر طوارق الليل والنهار إلا

طارقا يطرق بخير" فلعل المقصود منه هذا المعنى والاستعاذة بوجه الله وبكلمات الله هي الاستغراق في بحر الجمال والجلال، وما منع الإنسان منه

فهو من الشرور ومرتبط بعالم الشيطان ومكائده ولا بدّ من الاستعاذة منه بوجه الله سواء أكان من الحقائق الكاملة السماوية أو الناقصة الأرضية إلا أن يكون طارقا بخير وهو الطارق الإلهي الذي يدعو إلى الحق تعالى.

الركن الثالث: في المستعاذ به:

اعلم أن حقيقة الاستعاذة حيث أنها متحققة في السالك إلى الله ومتحصلة في السير والسلوك إلى الحق، بمعنى إن الاستعاذة تختص بالسالك في مراتب السلوك فتختلف الاستعاذة والمستعيذ والمستعاذ منه والمستعاذ به على حسب مقامات السائرين و لمدارجهم ومنازل سالكي الحقيقة، ويمكن أن تكون إشارة إلى ذلك السالك السورة الشريفة الناس حيث يقول تعالى: {قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس} (الناس ـ 1 ـ 2) فيستعيذ السالك بمقام الربوبية من مبادئ السلوك إلى حدود مقام القلب، ويمكن أن تكون هذه الربوبيّة، الربوبية الفعلية فتطابق أعوذ بكلمات الله التامات، فإذا انتهى سير السالك إلى مقام القلب فيظهر في القلب مقام السلطنة الإلهية فيستعيذ في هذا المقام بمقام ملك الناس من شر تصرفات إبليس القلبية وسلطنته الباطنية الجائرة، كما يستعيذ في المقام الأول من شر تصرفاته الصدرية، ولعل ما قاله تعالى {الذي يوسوس في صدور الناس} (الناس ـ 4). مع أن الوسوسة في القلوب والأرواح أيضا من الخناس لأن الأنسب في مقام التعريف أن يكون التعريف بالشأن العمومي والصفة الظاهرة عند الكل.

فإذا تجاوز السالك عن مقام القلب أيضا إلى مقام الروح الذي هو من النفخة الإلهية واتصاله بالحق اشّد من اتصال شعاع الشمس بالشمس فيشرع في هذا المقام مبادئ الحيرة و الهيمان والجذبة والعشق والشوق،

فيستعيذ في هذا المقام بإله الناس، فإذا ترقى من هذا المقام وتكون الذات بلا مرآة الشؤون نصب عينيه، وبعبارة أخرى يصل إلى مقام السر، فالمناسب له أعوذ بك منك وفي هذه المقامات تفصيل لا يناسب هذه المقالة.

وأعلم أن الاستعاذة بسم الله لجامعيته تناسب جميع المقامات وهي في الحقيقة الاستعاذة المطلقة، وسائر الاستعاذات استعاذات مقيّدة.

الركن الرابع: في المستعاذ له، يعني غاية الاستعاذة:

اعلم أن ما هو المطلوب بالذات للإنسان المستعيذ فهو من نوع الكمال والسعادة والخير، ويتفاوت ذلك على حسب مراتب السالكين ومقاماتهم تفاوتا كثيرا. فالسالك ما دام في بيت النفس وحجاب الطبيعة تكون غاية سيره حصول الكمالات النفسانية و السعادات الخسيسة الطبيعية وهذا في مبادئ السلوك، فإذا خرج من بيت النفس وذاق شيئا من المقامات الروحانية و الكمالات التجردية فيصير مقصده أعلى و مقصوده أكمل فيلقي المقامات النفسانية وراء ظهره وتكون قبلة مقصودة حصول الكمالات القلبية و السعادات الباطنية فإذا ألفت عنان السير عن هذا المقام أيضا. ووصل إلى منزل السر الروحي فتبرز في باطنه مبادئ التجليات الإلهية ويكون لسان روحه في بادئ الأمر وجّهت وجهي لوجه الله ثم بعد ذلك وجهت وجهي لأسماء الله أو لله ثم بعد ذلك وجهت وجهي له، ولعل الجهة في وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض راجعة إلى المقام الأول بمناسبة الفاطرية.

وبالجملة، فالسالك غايته الحقيقية في كل مقام حصول الكمال

والسعادة بالذات، وحيث أن مع السعادات والكمالات في كل مقام شيطانها هو لها قرين وحباله من حبائله مانعة للحصول فلا بد للسالك أن يستعيذ بالحق تعالى من ذلك الشيطان وشروره وحبائله للوصول إلى المقصود الأصلي والمنظور الذاتي، ففي الحقيقة غاية الاستعاذة للسالك حصول ذلك الكمال المترقب والسعادة المطلوبة والحق تعالى جلت عظمته غاية الغايات ومنتهى الطلبات، والاستعاذة من الشيطان تقع بالتبع. والحمد لله أولا و آخراً.

الفصل الرابع

في بعض آداب التسمية

روي في التوحيد عن الرضا (هو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن ابي طالب عليهم السلام، الامام الثامن من الأئمة الاثنى عشر) عليه السلام حين سئل عن تفسير البسملة: "معنى قول القائل بسم الله أي اسم على نفسي سمة من سمات الله ن وهي العبادة. قال الراوي: فقلت: ما السمة؟ قال: العلامة".

اعلم جعلنا الله وإياك من المتَّسمين بسمات الله أن الدخول في منزل التسمية لا يتيسر للسالك إلا بعد الدخول في منزل الاستعاذة واستيفاء حظوظ ذاك المنزل، فما دان الإنسان في تصرّف الشيطان ومقهوراً تحت سلطنته فهو متّسم بالسمات الشيطانية، وإذا غلب على باطنه وظاهره غلبة تامة يصير هو بجميع مراتبه آية وعلامة له، وإذا أتى بالتسمية في هذا المقام فيقولها بالإرادة الشيطانية والقوة الشيطانية واللسان الشيطاني ولا يحصل من استعاذته وتسميته سوى تأكيد السلطنة الشيطانية فإن أفاق بتوفيق الله من نوم الغفلة ووجدت له حالة اليقظة وأحسّ لزوم السير والسلوك إلى الله بنور الفطرة الإلهية وأنوار التعليمات القرآنية وسنن الهداة إلى طريق التوحيد في منزل اليقظة وأدرك القلب موانع السير فتحصل له حالة الاستعاذة بالتدريج وبعد ذلك يدخل منزل الاستعاذة بالتوفيق الرباني فإذا تطهّر من القذارات

الشيطانية فيتجلى في مرآة السالك من تلك الأنوار الإلهية على حسب ما يناسبه بمقدار تطهيره الباطن والظاهر وفي أول الأمر تكون الأنوار مشوبة بالظلمات بل تكون الظلمة غالبة، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. وبالتدريج فكلما قوي السلوك، فبمقدار قوة السلوك يغلب النور على الظلمة وتظهر سمات الربوبية في السالك فتصير تسميته حقيقية إلى حد ما، والعلامات الشيطانية وهي في الظاهر المخالفة لنظام المدينة الفاضلة، وفي الباطن العجب والاستكبار وأمثالها، وفي باطن الباطن رؤية النفس وحبها وأمثالها ترتحل بالتدريج عن مملكة باطن السالك وظاهره وتسكن في مكانها سمات الله وهي في الظاهر حفظ نظام المدينة الفاضلة وفي الباطن العبودية و ذلة النفس وفي باطن الباطن حب الله ورؤية الله، فإذا صارت المملكة إلهية وخلت من شياطين الجن والإنس وظهرت فيها السمات الإلهية يتحقق السالك بنفسه بمقام الإسمية، فأول تسمية السالك عبارة عن الاتصاف بالسمات الإلهية وعلاماتها ثم يترقى عن هذه المرتبة ويصل بنفسه مقام الاسمية، وهذا أوائل قرب النافلة، فإذا تحقق بقرب النافلة نال تمام الاسمية فلا يبقى بعد شيء من العبد والعبودية، وإذا وصل أحد إلى هذا المقام تقع جميع صلاته بلسان الله وهذا يتحقق في القليل من الأولياء، وأما للمتوسطين أمثالنا الناقصين فالأدب أن نسمَ القلب بسمة العبودية وكيّها عند التسمية ونعلن القلب من سمات الله والعلامات الإلهية وألا نكتفي بلقلقة اللسان،

فلعل من العنايات الأزلية نبذة تشمل حالنا وتجبر ما سبق منا وينفتح لقلوبنا طريق إلى تعلّم الأسماء ويحصل سبيل إلى المقصود.

ويمكن أن يكون المقصود من السمة من سمات الله في هذا الحديث الشريف سمة الرحمة الرحمانية والرحمة الرحيمية وعلامتها لأن هذين الاسمين

الشريفين من الأسماء المحيطة التي وصلت جميع دار التحقق في ظلّ هذين الاسمين الشريفين إلى أصل الوجود وكماله، ويستمر هذا الوصول، والرحمة الرحمانية والرحيمية شاملة لجميع دار الوجود، حتى أن الرحمة الرحيمية التي جميع هدايات الهادين إلى طريق التوحيد من تجلياتها تشمل الجميع إلا أن الخارجين عن فطرة الاستقامة بسوء اختيارهم، حرموا أنفسهم منها لأن الرحمة غير شاملة لحالهم حتى أنه في عالم الآخرة وهي يوم حصاد ما زرع من الحسنة والسيئة فالذين زرعوا السيئة فهم بأنفسهم قاصرون عن الاستفادة من الرحمة الرحيمية.

وبالجملة، إذا أراد السالك أن تكون تسميتة حقيقيّة فلا بد له أن يوصل مراحم الحق تعالى إلى قلبه ويتحقق بالرحمة الرحمانية والرحيمية، وعلامة حصول نموذج منها في القلب أنه ينظر إلى عباد الله بنظر العناية والتلطف ويطلب الخير والصلاح للجميع وهذا هو نظر الأنبياء العظام والأولياء الكمل عليهم السلام ، غاية الأمر أن لهم نظرين أحدهما النظر إلى سعادة المجتمع ونظام العائلة والمدينة الفاضلة، والآخر النظر الشخصي، ولهم علاقة كاملة بهاتين السعادتين والقوانين الإلهية التي تؤسس وتنفّذ وتكشف وتجري بأيديهم، يراعون فيها هاتين السعادتين حتى إجراء القصاص والحدود والتعزيرات وأمثالها والتي تبدو في النظر أنها أسّست وتقنّنت مع لحاظهم نظام المدينة الفاضلة، قد لوحظ فيها كلتا السعادتين لأن لهذه الأمور دخالة كاملة في التربية الروحية في الأكثر وإيصالهم إلى السعادة حتى الذين ليس لهم نور الإيمان والسعادة فيقتلونهم بالجهاد وأمثاله كيهود بني قريظة، فهذا القتل لهم أيضا صلاح وإصلاح ويمكن أن يقال أن قتلهم كان من الرحمة الكاملة للنبي الخاتم لأنهم مع وجودهم في هذا العالم

يهيّئون لأنفسهم في كل يوم أنواع العذاب الذي لا يقابل يوما من عذاب الآخرة وعسرها جميع مدة الحياة في هذا العالم، وهذا المطلب واضح جدا عند أولئك الذين يعلمون ميزان عذاب الآخرة وعقابها والأسباب والمسببات فيها، فالسيف الذي يضرب أعناق بني قريظة يهود وأمثالهم كان أقرب إلى أفق الرحمة، والآن هو أيضا أقرب منه إلى أفق الغضب والسخط.

وباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من وجهة الرحمة الرحيمية فلا بد للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يذيق قلبه من الرحمة الرحيمية ولا يكون نظره في الأمر والنهي أراءة نفسه والتكبّر وفرض أمره ونهيه لأنه إن مشى بهذا النظر لا يحصل المنظور من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو حصول سعادة العباد وإجراء أحكام الله في البلاد، بل يصل ربما تحصل النتيجة المعكوسة من الأمر بالمعروف ومن إنسان جاهل، وتزداد عدة منكرات لأجل أمر أو نهي من جاهل يقع من جهة الهوى النفسي والتصرف الشيطاني، وأما إذا كانت دواعي الإنسان لإرشاد الجاهلين وإيقاظ الغافلين حس الرحمة والشفقة وحق النوعية والأخوة تكون كيفية البيان والإرشاد المترشحة من القلب الرحيم على نحو يؤثر في الموارد اللائقة تأثيرا حسنا وتنزل القلوب الصلبة القاسية عن استكبارها واستنكارها.

يا للأسف، إننا لا نتعلم من القرآن، وليس نظرنا إلى هذا الكتاب الكريم الإلهي نظر التدبر والتعلم، واستفادتنا من هذا الذكر الحكيم قليلة وضئيلة، ففكر الآن في الآية الشريفة:

{اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى} (طه ـ 24 ـ 25) ينفتح لك طرق من المعرفة ويفتح على قلب الإنسان أبواب من الرجاء.

إن فرعون الذي قد بلغ من الطغيان إلى حد أنه قال: {أنا ربكم الأعلى} (النازعات ـ 3) وبلغ علوه وفساده إلى درجة نزلت فيه {يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم} (القصص ـ 4) وبمجرد أنه رأى مناما وأخبرته الكهنة والسحرة أن موسى بن عمران سيطلع فرّق بين الرجال والنساء، وذبح الأطفال الأبرياء وأفسد ذلك الفساد، فإن الله الرحمن نظر برحمته الرحيمية على جميع وجه الأرض فأنتخب من نوع البشر أشدّهم تواضعا وأكملهم، ونبيّا عظيم الشأن ورسولا عالي المقام المكرم كموسى بن عمران على نبيّنا وآله وعليه السلام وعلّمه وربّاه بيده التربوية كما قال تعالى: {ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين} (القصص ـ 14) وشدّد ظهره بأخ كريم مثل هارون عليه السلام ، وأنتخب تبارك وتعالى هاتين الزبدتين في العالم الإنساني كما قال تعالى: {وأنا اخترتك}(طه ـ 13). وقال تعالى: {ولتصنع على عيني} (طه ـ 39). وقال تعالى: {واصطنعتك لنفسي اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري} (طه ـ 41 ـ 42). وسائر الآيات الشريفة الواردة في هذا الموضوع الخارجة عن مجال البيان، وللقلب منها نصيب لا يمكن أن يقال وخصوصا من هاتين الكلمتين الشريفتين ولتصنع على عيني.. واصطنعتك لنفسي.. وأنت أيضا لو فتحت عين قلبك لتسمع نغمة روحانية لطيفة تمتلئ جميع مسامع قلبك وشراشر وجودك من سرّ التوحيد.

وبالجملة، إن الله تبارك وتعالى بعد هذه التشريفات هيّأ التهيئّات وروّض موسى الكليم بالرياضات الروحانية كما قال تعالى: {وفتنّاك فتونا} (طه ـ 40). وأرسله سنين في خدمة شعيب شيخ طريق الهداية والمرتاض في عالم الإنسانية، كما قال تعالى: {فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى} (طه ـ 40) ثم بعثه للاختبار والافتتان الأعلى إلى واد، في طريق الشام وأضله الطريق وأمطر عليه المطر وغلب عليه الظلمة وعرّض زوجته للمخاض، فإذا أغلقت عليه جميع أبواب الطبيعة وانضجر قلبه عن الكثرات وانقطع إلى الحق بحبلة الفطرة الصافية وانتهى السفر الروحاني الإلهي في ذلك الوادي الظلماني غير المتناهي، آنس من جانب الطور نارا إلى أن قال: {فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين} (القصص ـ 30)، وبعد هذه الامتحانات الكثيرة والتربية الروحانية المتكثرة هيّأه سبحانه لماذا؟ لأن يدعو ويهدي ويرشد وينجي عبدا طاغيا، باغيا، يضرب طبل أنا ربكم الأعلى.. وأفسد في الأرض ذلك الفساد الكبير. وكان في إمكانه تعالى أن يحرقه بصاعقة غضبه ولكن الرحمة الرحيمية ترسل إليه رسولين عظيمين ويوصيهما في نفس الوقت أن يقولا له قولا لينا لعله يتذكر الله أو يخشى من عمله وعاقبة أمره. هذا هو دستور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه كيفية إرشاد مثل فرعون الطاغوت.

فإذا أردت أيضا أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وترشد خلق الله فتذكر من هذه الآيات الشريفة التي أنزلت للتذكر والتعليم وتعلّم منها، فالق عباد الله بقلب مملوء من المحبة وفؤاد عطوف لعباد الله وكن طالبا لخيرهم من صميم القلب، فإذا وجدت قلبك رحمانيا ورحيميا فقم بالأمر والنهي والإرشاد كي يلين برق عطف قلبك القلوب القاسية وتلين حديد القلوب بالموعظة الخليطة بنار المحبة، وهذا الوادي غير وادي البغض في الله والحب في الله

ولا بد للإنسان أن يعادي أعداء الدين، كما ورد في الروايات الشريفة والقرآن الكريم فهو في محله صحيح وهذا أيضا في محله صحيح وليس الآن مجال بيانه.

الفصل الخامس

في البيان الاجمالي من تفسير سورة الحمد المباركة

وفيه نبذة من آداب التحميد والقراءة

اعلم أن العلماء اختلفوا في متعلق باء بسم الله الرحمن الرحيم وذكر كل حسب مشربه من العلم والعرفان متعلقا لها كما أن علماء الادب اشتقوا من مادة الابتداء أو الاستعانة كلمة وجعلوها في التقدير وما ورد في بعض الروايات ايضا من أن بسم الله هي أستعين اما على وفق مذاق العامة كما أنه شائع في كثير من الروايات واختلاف الاحاديث الكثيرة محمول بهذا المعنى، ولهذا قال الرضا عليه السلام في هذا ايضا: بسم الله أي اسم نفسي بسمة من سمات الله او ان المقصود من الاستعانة ألطف مما يدركه العامة.

وبعض أهل المعرفة جعله متعلقا بظهر وقال: اي ظهر الوجود باسم الله وهذا على حسب مسلك أهل المعرفة وأصحاب السلوك والعرفان حيث أنهم يرون جميع الموجودات وذرات الكائنات وعوالم الغيب والشهادة تجليا للاسم الجامع الالهي يعني الاسم الاعظم الظاهر، فبناء على هذا فإن الاسم بمعنى الآية والعلامة أو بمعنى العلّو والارتفاع عبارة عن التجلي الفعلي الانبساطي للحق الذي يسمى الفيض المنبسط والاضافة الاشراقية لأنه على حسب هذا المسلك جميع دار التحقق من العقول المجردة الى آخر مراتب

الوجود تعينات لهذا الفيض وتنزلات لهذه اللطيفة ومؤيد هذا المسلك كثير من الآيات الشريفة الالهية والاحاديث الكريمة لأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، كما يقول في الحديث الشريف الكافي: "ان الله خلق المشيئة بنفسها ثم خلق الاشياء بالمشيئة" وقد يوجّه هذا الحديث الشريف كل على حسب مسلكه توجيها، وأظهر التوجيهات ما يطابق هذا المسلك، وهو أن يكون المراد من المشيئة المشيئة الفعليّة وهي عبارة عن الفيض المبسط، والمراد من الاشياء مراتب الوجود التي هي عينات هذه اللطيفة وتنزلاتها فيكون معنى الحديث هكذا.

ان الله تعالى خلق المشيئة الفعلية التي هي ظلّ المشيئة الذاتية القديمة بنفسها وبلا واسطة وخلق سائر موجودات عالم الغيب والشهادة بتبعها، وللسيد المحقق الداماد (هو السيد الأجل محمد باقر بن محمد الحسيني الاسترابادي المعروف بالميرداماد المحقق المدقق العالم الحكيم المتبحّر النقّاد ذو الطبع الوقّاد الذي حلى بعقود نظمه وجواهر نثره عواطل الأجياد سمّي الداماد لان والده كان صهرا للمحقق الثاني رضوان الله عليه فيدعى داماد وله من المؤلفات القبسات والرواشح السماوية الصراط المستقيم والحبل المتين وشارع النجاة وضوابط الرضاع وغير ذلك من الكتب الكثيرة وله حواش على الكافي والفقيه والصحيفة السجادية وغير ذلك وله ديوان شعر بالعربية والفارسية وحكي أنه لم يأو بالليالي الى فراشه للاستراحة مدة أربعين سنة ولم يفت منه (ره) نوافله مدة تكليفه ذهب في آخر عمره الشريف من أصبهان بمرافقة السلطان شاه صفي الى زيارة العتبات العالية فمات (ره) هناك وذلك في 1041 (غما) ودفن في النجف الاشرف) (قدس سره) مع ما له من مقام التحقيق والتدقيق توجيه عجيب للحديث المزبور، كما أن توجيه الفيض المرحوم أيضا بعيد عن الصواب.

وبالجملة، الاسم عبارة عن نفس التجلي الفعلي الذي به تحققت جميع دار التحقق واطلاق الاسم على الامور العينية في لسان الله ولسان رسوله وأهل بيت العصمة عليهم السلام كثير، مثل ما ورد عنهم عليهم السلام: "نحن الأسماء الحسنى".. وفي الأدعية الشريفة: "وباسمك الذي تجليت به على فلان" كثيرة.

ويحتمل أن يكون بسم الله في كل سورة متعلقا بتلك السورة، فمثلا بسم الله سورة الحمد المباركة متعلق بالحمد وهذا مطابق للذوق العرفاني ومسلك أهل المعرفة لأنه اشارة الى أن حمد الحامدين وثناء المثنين ايضا بقيمومة اسم الله، فبناء على هذا فالتسمية في مقدمة جميع الاقوال والافعال التي هي من جملة المستحبات للتذكر بأن كل قول وفعل (لابد وأن يتحقق بقيمومة اسم الله، فبناء على هذا الاحتمال معنى بسم الله الرحمن الرحيم في أوائل السور) (ما ذكر بين القوسين لم يكن فيما عندي من النسخة ويحتمل أن يكون سقطا من العبارة فمع الاعتذار عن الاستاذ أضيفت تلك الجملات لانسجام المطلب ـ المترجم) يختلف. وقال الفقهاء لابد وأن يتعين بسم الله الرحمن الرحيم لكل سورة فاذا قرأ بسم الله بنية سورة في الصلاة فلا يجوز ابتداء سورة اخرى بتلك التسميه، وهذا القول على المسلك الفقهي لا يخلو من وجه، وعلى هذا التحقيق وجيه، وبالنظر الى اضمحلال الكثرات في حضرة اسم الله الأعظم فلبسم الله في جميع السور معنى واحد كما أن هاتين النظرتين موجودتان في مراتب الوجود ومنازل الغيب والشهود. فبنظر الكثرة ورؤية التعينات والموجودات متكثرة ومراتب الوجود وتعينات عالم الأسماء مختلفة، فرحمانية ورحيمية وقهرية ولطفية، وفي نظر اضمحلال الكثرات وانمحاء انوار الوجودية في النور الأزلي للفيض المقدس، فليس من سوى الفيض المقدس والأسم الجامع الالهي خبر ولا اثر، وهذان النظران موجودان في الأسماء والصفات الالهية ايضا، فبالنظر الاول فحضرة الواحدية مقام كثرة الأسماء والصفات وان جميع الكثرات من تلك الحضرة، وبالنظر الثاني ليس من سوى حضرة اسم الله الأعظم اسم ولا رسم وهذان النظران حكميان وبقدم الفكر، واما اذا كان النظر نظر العارف بفتح أبواب القلب وبقدم السلوك والرياضات القلبية فيتجلى الحق تعالى بالتجليات الفعلية والاسمية والذاتية لقلوب اصحاب التجلي تارة بنعت الكثرة وطورا بنعت الوحدة. وقد أشير الى هذه التجليات في القرآن الشريف تارة بالصراحة مثل قوله تعالى: {فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا} (الأعراف ـ 143) وأخرى بالاشارة مثل مشاهدات ابراهيم ورسول الله صلى الله عليه وآله المذكورة في سورتي الأنعام والنجم والاشارة الى ذلك في الأخبار وأدعية المعصومين عليهم السلام كثيرة خصوصا في دعاء السمات العظيم الشأن الذي لا يتجرأ المنكرون على انكار سنده ومتنه وهو مقبول للعامة والخاصة، والعارف والعامي، وفي ذلك الدعاء الشريف من المضامين العالية والمعارف الكثيرة ما يغشي شميمه قلب العارف ونسيمه ينفخ النفخة الالهية في روع

السالك مثل قوله: "وبنور وجهك الذي تجليت به للجبل فجعلته دكا وخر موسى صعقا وبمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبدك ورسولك موسى بن عمران عليه السلام وبطلعتك في ساعير وبظهورك في جبل فاران".

وبالجملة، لابد للسالك الى الله في وقت التسمية أن يفهم قلبه أن جميع الموجودات الظاهرة والباطنة وجميع عوالم الغيب والشهادة تحت تربية أسماء الله، بل ظاهرة بظهور أسماء الله وجميع حركاته وسكناته وجميع العالم بقيمومية اسم الله الأعظم، فمحامده للحق وعبادته واطاعته وتوحيده واخلاصه كل ذلك بقيمومة اسم الله، فاذا أحكم واستقر هذا المقام وهذه اللطيفة الالهية في قلبه بواسطة التذكر الشديد الذي هو غاية العبادات، كما قال

تعالى في خلوة الأنس ومحفل القدس لكليمه موسى بن عمران: {انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري} (طه ـ 14). فجعل غاية اقامة الصلاة ذكره، فبعد التذكر الشديد يفتح لقلب العارف طريق آخر من المعارف ويجذب الى عالم الوحدة حتى يكون لسان حاله وقلبه بالله الحمد لله وأنت كما أثنيت على نفسك وأعوذ بك منك.

هذا اجمال من سر تعلق باء بسم الله، ونبذة من المعارف التي يستفاد منها.

وأما أسرار الباء ونقطة تحت الباء التي باطنها مقام الولاية العلوية ومقام جمع الجمع القرآني فيستلزم مجالا أوسع.

وأما حقيقة الأسم فإن لها مقاما غيبيا وغيب الغيبي، وسريا وسر السرّي، ومقام ظهور وظهور الظهور، وحيث ان الاسم علامة للحق وفان في الذات المقدسة فكل اسم يكون أقرب الى أفق الوحدة وأبعد من عالم الكثرة فهو في الأسمية أكمل، وأتم الأسماء اسم يكون مبرأ عن الكثرات

حتى عن الكثرة العلمية وهو التجلي الغيبي الأحدي الأحمدي في حضرة الذات بمقام الفيض الأقدس، ولعله تشير اليه كريمة أو أدنى وبعده التجلي بحضرة اسم الله الأعظم في الحضرة الواحدية، وبعده التجلي بالفيض المقدس، وبعده التجليات بنعت الكثرة في حضرات الأعيان الى أخيرة دار التحقق، وقد كتبت تفصيل هذا الاجمال في رسالتي مصباح الهداية وشرح دعاء السحر (طبعت هاتان الرسالتان بترجمة منّي في ايران وبتعليقات مني أيضا في بيروت وهما من أنفس الكتب في العرفان).

والله مقام الظهور بالفيض المقدس ان كان المراد بالاسم التعينات الوجودية واطلاق الله له من جهة اتحاد الظاهر والمظهر وفناء الاسم في المسمى بلا اشكال. ولعل كريمة {الله نور السموات والأرض} (النور ـ 35) وكريمة {هو الذي في السماء اله وفي الأرض اله} (الزخرف ـ 84) تكون اشارة الى هذا المقام وشاهدا لهذا الاطلاق، وان كان المراد من الاسم مقام التجلي بالفيض المقدس فالله مقام الواحدية وجمع الاسماء، وبعبارة أخرى مقام الاسم الأعظم، ولعل هذا أظهر من سائر الاحتمالات وان كان المقصود من الاسم: الاسم الأعظم، فمقام الذات أو مقام الفيض الاقدس ويختلف مقام الرحمن الرحيم على حسب هذه الاحتمالات كما هو ظاهر.

والرحمن الرحيم يمكن أن يكونا صفتي الاسم ويمكن أن يكونا صفتي الله والأنسب أن يكونا صفتي الاسم لأنهما في التحميد صفتي الله فعلى هذا تكون مصونة من احتمال التكرار وان كان له توجيه حتى اذا كانا صفة لله، وفي التكرار ايضا نكتة البلاغة وان أخذناهما صفة للاسم فيؤيد أن المراد من الاسم الأسماء العينية لأن المتصف بالصفات الرحمانية والرحيمية ليس الا الأسماء العينية، فاذا كان المراد من الاسم الاسم الذاتي والتجلي {ؤ400}

بالمقام الجمعي فالرحمانية والرحيمية من الصفات الذاتية التي ثبتت لحضرة اسم الله في التجليات بمقام الواحدية، والرحمة الرحمانية والرحيمية الفعلية من تنزلاتها ومظاهرها. وان كان المراد من الاسم التجلي الجمعي الفعلي وهو مقام المشيئة، فالرحمانية والرحيمية من صفات الفعل، فالرحمة الرحمانية هي بسط أصل الوجود وهي عامة لجميع الموجودات ولكنها من الصفات الخاصة للحق لأنه ليس له شريك في بسط أصل الوجود. وسائر الموجودات قاصرة الأيدي من الرحمة الايجادية ولا مؤثر في الوجود الا الله ولا اله في دار التحقق الا الله. وأما الرحمة الرحيمية وهداية هداة الطريق ايضا من رشحاتها فهي مخصوصة للسعداء والفطر التي من العليّين ولكنها من الصفات العامة التي لسائر الموجودات ايضا منها حظ ونصيب، وان كنا أشرنا سابقا ان الرحمة الرحيمية ايضا

من الرحمة العامة وعدم شمولها الاشقياء من جهة نقصانهم لا من ناحية تحديد الرحمة، ولهذا كانت الهداية والدعوة عامة لجميع العائلة البشرية كما يدل عليه القرآن الشريف، وبنظر آخر الرحمة الرحيمية ايضا مختصة للحق تعالى وليس لغيره فيها شركة. وفي الروايات بينت الرحمة الرحيمية بما يختلف على حسب اختلاف النظر والاعتبار فتارة قالوا "ان الرحمن اسم خاص لصفة عامة، والرحيم اسم عام لصفة خاصة" وقالوا "الرحمن بجميع خلقه والرحيم بالمؤمنين خاصة"، وقالوا "يا رحمن الدنيا ورحيم الأخرة" وأخرى "يا رحمن الدنيا والأخرة ورحيمهما".

تحقيق عرفاني: ان علماء الادب قالوا: ان الرحمن والرحيم مشتق من الرحمة وللمبالغة ولكن المبالغة في الرحمن أكثر منها في الرحيم والقياس يقتضي ان يكون الرحيم مقدما على الرحمن ولكن الرحمن حيث انه بمنزلة العلم الشخصي ولا يطلق على سائر الموجودات فلذا قدم وقال البعض ان كليهما بمعنى واحد وتكرارهما لمحض التأكيد.

وأما الذوق العرفاني الذي نزل القرآن بأعلى مراتبه فيقتضي ان يكون الرحمن مقدما على الرحيم لأن القرآن الشريف عند أصحاب القلوب نازلة التجليات الالهية والصورة الكتبية للاسماء الحسنى الربوبية، وحيث ان اسم الرحمن اكثر الاسماء الالهية احاطة بعد الاسم الاعظم وقد حقق عند أصحاب المعرفة أن التجلي بالاسماء المحيطة مقدم على التجلي بالاسماء المحاطة، وكل اسم يكون اكثر احاطة فالتجلي به أيضا مقدم، فلذا كان التجلي الاول في الحضرة الواحدية التجلي باسم الله الاعظم وبعده التجلي بمقام الرحمانية، وان التجلي بالرحيمية بعد التجلي بالرحمانية وهكذا في التجلي الظهوري الفعلي ايضا التجلي بمقام المشيئة الذي هو الاسم الاعظم في هذا المشهد وظهور الاسم الاعظم الذاتي مقدم على جميع التجليات، والتجلي بمقام الرحمانية الذي له الاحاطة على جميع موجودات عالم الغيب والشهادة، والية الاشارة {ورحمتي وسعت كل شيء} (الاعراف . 156) مقدم على سائر التجليات واليه يشير سبقت رحمته غضبه ببعض الوجوه.

وبالجملة، حيث أن بسم الله على حسب الباطن والروح صورة التجليات الفعلية، وعلى حسب السر وسرّ السرّ صورة التجليات الاسمائية بل الذاتيه والتجليات المذكورة هي التجليات بمقام الله اولا وبعده بمقام الرحمن وبعد بمقام الرحيم، فلا بد أن تكون صورتها اللفظية والكتبية ايضا كذلك حتى تطابق النظام الالهي والرباني، وأما تأخر الرحمن الرحيم في السورة المباركة الحمد عن رب العالمين فلعله من جهة أنه في بسم الله النظر الي ظهور الوجود من مكامن غيب الوجود، وفي السورة الشريفة النظر الى

الرجوع والبطون وفي هذا الاحتمال اشكال، ولعل التأخر اشارة الى احاطة الرحمة الرحمانية والرحيمية، ولعله لنكتة أخرى، وعلى كل حال ما ذكر من النكتة في بسم الله جدير بالتصديق ولعلها من بركات الرحمة الرحيمية في قلبي، قلب الاقل الاقل وله الحمد على ما أنعم.

بحث وتفصيل:

قال علماء الظاهر أن الرحمن والرحيم مشتقة من الرحمة ومأخوذ فيها العطوفة والرقة. وروي عن ابن عباس (رضي الله عنه) أنهما "اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر فالرحمن الرقيق والرحيم العطوف على عباده بالرزق والنعم". وحيث أن العطوفة والرقة يلزمها الانفعال، فمن هذه الجهة قالوا بالتأويل والتوجيه في اطلاقهما على الذات المقدسة وذهبوا الى أنه مجاز، وبعض على أن مطلق الاوصاف من هذا النحو من قبيل: خذ الغايات واترك المبادىء. فاطلاقها للحق بلحاظ الآثار والافعال لا بلحاظ المبادىء والاوصاف فمعنى الرحمن والرحيم للحق تعالى

من هذا القبيل أو ما يقرب منه وبناء عليه فاطلاقها أيضا على الحق مجاز، وعلى كل حال فكونها مجازا بعيد وخصوصا في الرحمن فإنه بناء على المجازية لا بد أن يلتزم بأمر عجيب وهو أن هذه الكلمة قد وضعت لمعنى لا يجوز الاستعمال فيه ولا يمكن، وفي الحقيقة هذا مجاز بلا حقيقة فتأمل.

وقال أهل التحقيق في جواب الاشكالات من هذا النوع أن الالفاظ موضوعة للمعاني العامة والحقائق المطلقة، فبناء على هذا فالتقييد بالعطوفة والرقة ليس داخلا في الموضوع له، وفيما وضع له لفظ الرحمة، وهذا التقييد هو مخترع الاذهان العامية والا فلا دخل له في

أصل الوضع، وهذا

المطلب بعيد عن التحقيق ظاهرا لانه من المعلوم أن الواضع أيضا أحد هذه الأشخاص المتعارفة ولم يلاحظ في حين الوضع المعاني المجردة والحقائق المطلقة، نعم لو كان الواضع هو الحق تعالى أو الأنبياء بالوحي أو الإلهام الالهيين لكان لهذا المطلب وجه ولكن هو أيضا غير ثابت.

وبالجملة، فظاهر هذا الكلام مخدوش ولكن ليس من المعلوم أن يكون هذا الظاهر ايضا مقصودا لأهل التحقيق بل يمكن أن يقال في بيان هذا المطلب أن واضع اللغات وان لم يلاحظ في حين الوضع المعاني المطلقة المجردة ولكن ما وضعت له الالفاظ في ازائه هو المعاني المجردة المطلقة، فمثلا لفظ النور اذا أراد الواضع أن يضعه فما كان في لحاظه من الأنوار وان كانت هذه الانوار الحسية العرضية لانه ما كان يدرك ما وراء هذه الأنوار ولكن ما وقع لفظ النور في ازائه هوالجهة النورية لا جهة اختلاط النور بالظلمة بحيث لو قيل له بأن هذه الأنوار العرضية المحدودة ليست نورا صرفا بل هي نور مختلط بالظلمة والفتور. فهل وضعت لفظ النور بازاء تلك الجهة النورية أو بازاء النورية والظلمانية، فبالضرورة كان الجواب انه في ازاء جهة النورية، واما جهة الظلمة فليس لها دخل في الموضوع له بوجه من الوجوه كما أنا كلنا نعلم أن الواضع حينما وضع لفظ النار ما كان في نظره غير النيران الدنيوية وما كان سببا لانتقاله الى هذه الحقيقة هو النيران الدنيوية وكان غافلا عن نار الآخرة ونار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة خصوصا اذا لم يكن معتقدا بعالم الاخرة، ومع ذلك لا تكون هذه الوسيلة للانتقال موجبة للتقييد في الحقيقة بل النار وقعت بازاء الجهة النارية فلا نقول أن الواضع جرد المعاني حتى يكون أمرا مستغربا بعيدا بل نقول أن الالفاظ وقعت في ازاء تلك الجهات للمعاني من دون التقييد بقيد، فبناء

على هذا ليس ثمة جهة للاستبعاد في الأمر وكلما كان المعنى خاليا من الغرائب والأجانب فهو الى الحقيقة أقرب ومن شائبة المجاز أبعد، مثلا كلمة نور وهي موضوعة لما فيه جهة الظاهرية بالذات والمظهرية للغير وان كان اطلاقها على هذه الانوار العرضية الدنيوية لا يخلو من الحقيقة لأن في اطلاقها عليها لم نلاحظ الجهة المحدودية والاختلاط بالظلمة، بل الملاحظ هو الظهور الذاتي والمظهرية ولكن اطلاقها على الانوار الملكوتية التي ظهورها أكمل وبأفق الذاتية ومظهريتها كما وكيفا أكثر، واختلاطها بالظلمة والنقص أقل، الى الحقيقة أقرب، واطلاقها على الذات المقدسة جل وعلا وهو نور الانوار وخالص من جميع جهات الظلمة وصرف النور والنور الصرف حقيقة محضة وخالصة بل يمكن أن يقال أن النور لو كان موضوعا للظاهر بذاته والمظهر لغيره فاطلاقه على غير الحق تعالى حقيقة عند العقول الجزئية وأما عند العقول المؤيدة وأصحاب المعرفة فمجاز، واطلاقه على الحق تعالى حقيقة فقط وهكذا جميع الالفاظ التي وضعت للمعاني الكمالية يعني الامور التي من سنخ الوجود والكمال، فبناء على ذلك نقول أن في بسم الله الرحمن الرحيم والعطوف و الرؤوف وأمثالها جهة كمال وتمامية

وجهة انفعال ونقص وهذه الالفاظ موضوعة بازاء تلك الجهة الكمالية التي هي أصل تلك الحقيقة، وأما الجهات الانفعالية التي هي من لوازم النشأة وأجانب الحقيقة وغرائبها والتي تتلازم وتتشابك معها بعد تنزل هذه الحقائق في البقاع الامكانية والعوالم النازلة الدنيوية كالظلمة التي اختلطت بالنور في النشأة النازلة، فلا دخل لها في المعنى الموضوع له، فإطلاقه على موجود واجد لجهة الكمال مبرىءً من جهات الانفعال والنقص صرف الحقيقة وحقيقة صرفة.

وهذا المطلب بهذا البيان مضافا الى أنه قريب من ذوق أهل المعرفة

{405}

مناسب لوجدان أهل الظاهر أيضا فعلى هذا فقد علم أن اطلاق هذا النحو من أوصاف الكمال التي اختلطت مع أمر آخر وتلازمت معه في بعض النشآت بعد التنزل، والذات المقدسة الحق جلّت عظمته منه مبرأ فاطلاقه على الحق تعالى ليس بمجاز، والله الهادي.

قوله: الحمد لله يعني جميع أنواع الحمد مختصة بذات الالولهية المقدسة.

اعلم ايها العزيز أن تحت هذه الكلمة الشريفة سر التوحيد الخاص بل أخص الخواص. واختصاص جميع المحامد من جميع الحامدين للحق تعالى على حسب البرهان واضح مبين عند أصحاب الحكمة وأئمة الفلسفة العالية لأنه قد لزم بالبرهان أن جميع دار التحقق ظل منبسط وفيض مبسوط لحضرة الحق وجميع النعم الظاهر وباطنة من أي منعم، وان كانت على حسب الظاهر، وفي انظار العامة من ذاك المنعم فهي من الحق تعالى جل وعلا وليس لأحد من الموجودات فيها شركة، حتى أن الشركة الأعدادية أيضا عند أهل الفلسفة العامية لا الفلسفة العالية، فحيث أن الحمد في مقابل النعمة والأنعام والاحسان، وليس في دار التحقيق منعم سوى الحق فجميع المحامد مختصة له، وأيضا ليس جمال وجميل سوى جماله وسواه، فالمدائح أيضا ترجع اليه.

وببيان آخر كل حمد ومدح من كل حامد ومادح بازاء جهة النعمة والكمال ومحال النعمة والكمال وموردهما التي تنقصهما وتحددهما ليس دخيلا في الحمد والمدح بوجه من الوجوه بل مناف ومضاد لهما، فالمحامد والمدائح كلها ترجع الى حظ الربوبية وهو الكمال والجمال لا الى حظ المخلوق وهو النقص التحديد.

وببيان آخر من الفطر الالهية التي فطر جميع الخلق عليها ثناء الكامل وشكر المنعم وحمده.

وأيضا من الفطر الالهية التنفّر من النقص والناقص ومنقص النعمة. وحيث أن النعمة المطلقة الخالصة من أي شوب أو نقص والجمال والكمال التام التمام المبرأ من كل نقص، مختصة بالحق وسائر الموجودات تنقص النعم المطلقة والجمال المطلق وتحددهما دون أن تزيدهما وتأيدهما ففطرة جميع الناس حامدة ومادحة للذات المقدسة ومتنفرة من سائر الموجودات الا الموجودات التي فنيت في ذات ذي الجلال على حسب السير في ممالك الكمال وبلاد العشق فإن العشق والمحبة لتلك الموجودات وحمدها ومدحها عين العشق بالحق وحمده (حب خاصان خدا حب خدا أست) (مصراع بيت للمولى العارف الرومي (حب المخصوصين بالله هو حب الله)

وما ذكر الى هنا أيضا على حسب مقامات المتوسطين الذين فيهم بقية من حجاب الكثرة ولم يبرؤوا من جميع مراتب الشرك الخفيّ والأخفى ولم يصلوا الى كمال مراتب الخلوص الأخلاص، وأما على حسب عرفان أصحاب القلوب الفانية في بعض الحالات الخاصه، فجميع النعم والكمال والجمال والجلال صورة التجلي الذاتي وجميع

المحامد والمدائح مرتبطة بذات الحق تعالى المقدسة، بل المدح والحمد من نفسه لنفسه، كما يشير الى هذا المعنى تعلق بسم الله بالحمد لله.

واعلم ان السالك الى الله والمجاهد في سبيل الله لا بد له أن لا يقتنع بالحد العلمي لهذه المعارف ولا يصرف جميع عمره في الاستدلال الذي هو حجاب بل الحجاب الأعظم لأن هذه المرحلة لايمكن طيها بالرجل الخشبية بل ولا بطائر سليمان (الرجل الخشبية التي يأخذها القعد تحت إبطيه ويمشي بها، هنا اشارة الى بيت معروف من المولى العارف الرومي يقول:

(باي استدلاليان بود باي جوبين سخت بي تمكين بود)

الاستدلاليون يمشون في طريق العلم بالرجل الخشبية فكما أنه لا يمكن الاعتماد عليها فانها تنكسر فكذلك لا يمكن الاعتماد على الاستدلال. وهذا في مقابل الشهود والعيان واما طائر سليمان فتعبير دائر في لسان الشعراء يكنّون به عن سرعة السير كما يقول الحافظ الشيرازي:. قطع اين مرحلة بامر غ سليمان كردم .: تنهيت هذه المرحلة بمساعدة طائر سليمان. ان هذا الوادي وادي المقدسين وهذه المرحله مرحلة الأحرار، فما لم يخلع نعلي حب الجاه والشرف والأهل والولد وما لم يلق عصا

الأعتماد والتوجه الى الغير عن اليمين لا يمكن وضع القدم على الوادي المقدس الذي هو مكان المخلصين ومنزل المقدسين، واذا خطى السالك في هذا الوادي بحقائق الأخلاص وألقى الكثرات والدنيا (وهي خيال في خيال) ورواء ظهره فإن بقي فيه بقايا من الأنانية فيؤيد من عالم الغيب ويندك جبل انّيته بالتجليات الالهية وتحصل له حالة الصعق والفناء، وقبول هذه المقامات للقلوب القاسية التي ليس عندها خبر سوى الدنيا وحظوظها ولا تتعارف الا بالغرور الشيطاني يكون صعبا جدا وينسب الى نسج الأوهام مع أن الفناء الذي نحن الان فيه بالنسبة الى الطبيعة والدنيا بحيث أننا غافلون بالكلية عن عوالم الغيب التي هي أظهر من جميع الجهات من هذا العالم، بل اننا غافلون عن الذات وصفات الذات المقدسة التي يختص بها الظهور (وقد أشار الى ذلك مولانا ابي عبدالله عليه السلام في دعاء عرفة "ألغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك" ونتشبث لاثبات تلك العوالم والذات المقدسة للحق جلا وعلا بذيل البرهان والاستدلال أغرب وأعجب بمراتب من الفناء الذي يدعيه أصحاب العرفان والسلوك.

حيرت اندر حيرت آمد زين قصص

بيهشيّ خاصكان اندر اخص (اخس) (الشعر للعارف الرومي ذكره في ضمن نقل رواية يرويها أن رسول الله صلى الله عليه وآله استدعى جبرائيل أن يريه صورته الأصلية فظهر جبرائيل في صورته الأصلية وقد ملأت المشرقين فخرّ رسول الله صلى الله عليه وآله مغشيا عليه ثم يقول ان الحيرة في الحيرة تأتي من جهة أنه كيف يمكن أن يكون الخاص مدهوشا في الأخص فذكر الاستاذ مدّ ظله التفصيل المذكور في المتن للأخص. فتدبر).

وان كان الاخص بالصاد فليس لشدة الحيرة حينئذ مجال لان فناء الناقص في الكامل امر طبيعي وموافق للسنة الالهية فالحيرة في الحيره في محل يكون الأخس بالسين كما أن هذا الصعق والفناء متحقق الأن لنا أجمع وقد انغمرت اسماعنا وأبصارنا في الطبيعة الى حد ليس لنا أي خبر من ضوضاء عالم الغيب.

نقل وتحقيق:

اعلم أن علماء الأدب والظاهر قالوا ان الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري وحيث أنهم غافلون عن جميع الألسنة غير هذا اللسان اللحمي فلهذا حملوا تسبيح الحق تعالى وتحميده بل مطلق كلام ذاته المقدسة على نوع من المجاز وكذلك يحملون كلام الموجودات وتسبيحها على المجاز فيرون أن التكلم للحق تعالى عبارة عن ايجاد الكلام ويقولون أن التسبيح والتحميد في سائر الموجودات هو التسبيح والتحميد الذاتي التكويني، فهؤلاء في الحقيقة يحصرون النطق في نوع البشر ويظنون أن الذات المقدسة الحق جل وعلا وسائر الموجودات غير ناطقة، بل نعوذ بالله، يظنونها خرساء ويتوهمون أن ذلك تنزيه للذات المقدسة مع أن هذا تحديد بل تعطيل (بين في الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين أن التوحيد عبارة عن اخراج الذات المقدسة عن حدّ التعطيل والتشبيه ولتفصيل الكلام محل آخر) والحق سبحانه منزه عن هذا التنزيه، كما أن الغالب لتنزيهات العامه التحديد والتشبيه، ونحن ذكرنا من قبل كيفية وضع الألفاظ للمعاني العامه والمطلقه، والان نقول أنا لا نتقيد بالصدق اللغوي أو لزوم تحقق الحقيقة اللغوية في هذه الحقائق الالهية بل الميزان في هذه المباحث هو صحة الأطلاق ووجود الحقيقة العقلية وان كانت الحقيقة اللغويه أيضا ثابته بالبيان السابق فنقول:

أن للسان و التكلم والكلام والكتابة والكتاب والحمد والمدح مراتب على حسب النشآت الوجودية تتناسب كل مرتبة مع نشأة من النشآت ومرتبة من مراتب الوجود وحيث ان الحمد في كل مورد على جميل والمدح على جمال وكمال فالحق جلّ وعلا على حسب علمه الذاتي شاهد جماله الجميل في حضرة غيب الهوية بأتمّ مراتب العلم والشهود فكان مبتهجا بذاته

الجميله أشد مراتب الأبتهاج (قولنا مبتهج بذاته لا يذهب عليك ان اطلاق لفظ الابتهاج في حقه تعالى وكذلك ألفاظ العشق والحبّ وأمثالهما التي تلازم نوعا من التجدد والحدوث والانفعال والامكان هو على حسب معانيها العامة المتعارفة بل أنها ايضا من الألفاظ التي وضعت للمعاني المجردة واطلاقها على الحق تعالى كإطلاق العطوف والرحمن وأمثالهما وهذه الأمور ليست من الأمور التي يستقيم بالافهام العرفية لعوام الناس بل تحتاج الى بحث دقيق فلسفي وذوق فوار عرفاني رزقنا الله واياكم.

"المؤلف دام ظله")

فتجلي بالتجلي الازلي بأعلى مراتب التجليات في حضرة الذات لحضرة الذات وهذا التجلي واظهار ما في المكنون الغيبي والمقارعة الذاتية هو الكلام الذاتي الذي وقع بلسان الذات في حضرة الغيب ومشاهدة هذا التجلي الكلامي هو سمع الذات، وثناء الذات هذا لذات الحق هو ثناء الحق وتعجز سائر الموجودات عن ادراكه كما أن الذات المقدسة للنبي الخاتم الذي هو أقرب الموجودات وأشرفها يعترف بالعجز ويقول "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" ومعلوم ان احصاء الثناء فرع المعرفه بالكمال والجمال، وحيث أن المعرفة التامة للجمال المطلق لا تحصل، فالثناء الحقيقي لا يقع وغاية معرفة أصحاب المعرفه عرفان العجز عن المعرفه.

ويقول أهل المعرفه: ان الحق تعالى يحمد ويمدح نفسه بالألسنة الخمسة وهي لسان الذات من حيث هي، ولسان أحدية الغيب، ولسان الواحدية الجمعية، ولسان الأسماء التفصلية، ولسان الأعيان، وهذه الألسن غير لسان الظهور الذي أوله لسان المشيئة الى آخر مراتب التعيينات أي لسان الكثرات الوجوديه.

واعلم ان لجميع الموجودات حظا بل حظوظا من عالم الغيب الذي هو الحياة محضا والحياة ساريه في جميع دار الوجود، وهذا المطلب ثابت عند أرباب الفلسفة العالية بالبرهان وعند أصحاب القلوب والمعرفة بالمشاهدة

والعيان، وتدل عليه الآيات الشريفة وأخبار أولياء الوحي عليهم الصلاة والسلام دلالة تامة، والمحجوبون من أهل الفلسفة العاميه وأهل الظاهر حيث لم يدركوا نطق الموجودات قاموا بتأويله وتوجيهه.

ومن العجيب ان أهل الظاهر الذين كانوا يطعنون أهل الفلسفة بأنهم

يؤوّلون كتاب الله على حسب عقولهم أولوا في هذه الموارد الآيات الصريحه والأحاديث الصحيحه على كثرتها بمجرد أنهم لم يدركوا نطق الموجودات مع أنه ليس بيدهم برهان فيؤولون القرآن من دون برهان، وعلى مجرد الأستبعاد.

بالجملة، أن دار الوجود أصل الحياة وحقيقة العلم والشعور وتسبيح الموجودات تسبيح نطقي شعوري ارادي لا التكويني الذاتي الذي يقوله المحجوبون، ولجميع الموجودات على حسب حظها من الوجود معرفة بمقام الباري جلت عظمته، وحيث أنه ليس لموجود الاشتغال بالطبيعة والانغمار في الكثرة الى الحد الذي هو للانسان فلهذا كانت محجوبية الانسان أكثر من جميع الموجودات الا أن يخرج من جلباب البشرية ويخرق حجب الكثرة والغيرية فيشاهد جمال الجميل بلا حجاب فيكون حمده ومدحه أجمع المحامد والمدائح، وهو اذاً يثني على الحق ويعبده بجميع الشؤون الالهية وكل الأسماء والصفات.

تتميم:

اعلم أن الكلمة الشريفة "الحمد لله" على حسب ما بيناه من الكلمات الجامعة التي اذا حمد بها الحق تعالى بلطائفها وحقائقها فقد أدى حق الحمد بقدر ما في الطاقة البشرية، ولهذا وردت في الروايات الشريفة الاشارة الى هذا المعنى كما عن باقر العلوم سلام الله عليه ما مضمونه أنه خرج من دار وليس مركوبه على بابها فقال: لو وجد المركوب لحمدت الله حق حمده، فلمّا وجد المركوب ركب عليه وسوى ثيابه فقال الحمد لله (مصراع وبيت من أبيات العارف الرومي). وعن رسول الله صلىالله عليه وآله أنه قال: "لا اله الا الله نصف الميزان والحمد لله يملؤه".

وهذا لما بيناه من أن الحمد جامع للتوحيد أيضا.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله "قول العبد الحمدلله أثقل في ميزانه من السموات السبع والأرضين السبع". ونقل عنه صلى الله عليه وآله ما معناه: "لو أن الله سبحانه أعطى جميع الدنيا عبدا من عباده ثم يقول العبد الحمد لله لكان قوله أفضل مما أعطى".. وعنه صلى الله عليه وآله ايضا "ما من شيء أحب الى الله من قول القائل الحمد لله.. ولهذا أثنى الله به على نفسه" والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

قوله تعالى رب العالمين: الرب اذا كان بمعنى المتعالي والثابت والسيد فهو من الأسماء الذاتية، واذا كان بمعنى المالك والصاحب والغالب والقاهر فهو من الأسماء الصفاتية، وان كان بمعنى المربّي والمنعم والمتمم فهو من الأسماء الأفعالية.

والعالم ان كان عبارة عن سوى الله الشامل لجميع مراتب الوجود ومنازل الغيب والشهود فلا بد أن يعد الرب من أسماء الصفات وان كان المراد من العالم عالم الملك الذي هو تدريجي الحصول والكمال، فالمراد من الرب اسم الفعل ، وعلى أي حال ليس المراد منه هنا اسم الذات ولعله بقرينة أن المراد من العالمين هذه العوالم الملكية التي تحت التربية والتمشية الألهية حتى تصل الى كمالها اللائق، فإن المراد من الربّ هو المربّي الذي هو من اسماء الأفعال.

واعلم أننا نكف في هذه الرسالة عن ذكر الجهات التركيبية واللغوية والأدبية للآيات الشريفة فقد تعرّض لها العلماء غالبا، وانما نذكر هنا بعض الأمور التي يتعرّض لها أصلا أو ذكرت ذكرا ناقصا.

وليعلم أن اسماء الذات والصفات والأفعال التي أشير اليها فهي على

طبق اصطلاح ارباب المعرفة وبعض المشايخ من أهل المعرفة قسمت الأسماء في كتاب انشاء الدائرة الى اسماء الذات واسماء الصفات واسماء الأفعال، وقال إن اسماء الذات هي الله الرب الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر العلي العظيم الظاهر الباطن الأول الآخر الكبير الجليل المجيد الحق المبين الواجد الماجد الصمد المتعالي الغنيّ النور الوارث ذو الجلال الرقيب.

واسماء الصفات هي: الحي الشكور القهار القاهر المقتدر القوي القادر الرحمن الرحيم الكريم الغفّار الغفور الودود الرؤوف الحليم الصبور البرّ العليم الخبير المحصي الحكيم الشهيد السميع البصير.

وأسماء الأفعال هي: المبدىء الوكيل الباعث المجيب الواسع الحسيب المقيت الحفيظ الخالق البارىء المصوّر الوهّاب الرّزّاق الفتاح القابض الباسط الخافض الرافع المعزّ المذلّ الحكيم العدل اللطيف المعيد المحيي المميت الوالي التوّاب المنتقم المقسط الجامع المغني المانع الضارّ النافع الهادي البديع الرشيد. (انتهى).

وذكروا في ميزان هذا التقسيم أن الاسماء وان كانت كلها اسماء الذات ولكنها باعتبار ظهور الذات يقال لها اسماء الذات وباعتبار ظهور الصفات والافعال يقال لها الاسماء الصفاتية والافعالية بمعنى أن الاسم تابع لاعتبار يكون اظهر فلهذا قد يجتمع في بعض الاسماء اعتباران او اعتبارات ثلاثة فيكون من الاسماء الذاتية والصفاتية والافعالية، او الاثنين من هذه مثل الرب كما ذكر.

وهذا المطلب لايستقيم على مذاق الكاتب ولا يطابق الذوق العرفاني بل ما يبدو للنظر في هذا التقسيم ان الميزان في هذه الاسماء هو ان السالك

بقدم المعرفة اذا حصل له الفناء الفعلي، فالتجليات لقلبه من الحق تعالى هي التجليات باسماء الافعال، وبعد حصول الفناء الصفاتي تكون التجليات الصفاتية وبعد الفناء الذاتي تكون التجليات بأسماء الذات، واذا كان قلبه قادرا للحفظ بعد الصحو فما يخبره من المشاهدات الافعالية فهو أسماء الافعال، ومن المشاهدات الصفاتية فهو أسماء الصفات. وهكذا أسماء الذات، ولهذا المقام تفصيل لا ينبغي لهذه الاوراق.

وما ذكره في انشاء الدائرة فهو غير صحيح طبقا للميزان الذي عيّنه نفسه كما يتضح ذلك بالنظر الى الاسماء.

ويمكن أن يقال ان هذا التقسيم الثلاثي للأسماء اشير اليه في القرآن الشريف في الآيات الاخيرة من سورة الحشر قال تعالى: {هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم} الى آخر الآيات الشريفة، ولعل الاولى من هذه الآيات الشريفة تكون اشارة الى الاسماء الذاتية، والثانية اشارة الى الاسماء الصفاتية والثالثة اشارة الى الاسماء الافعالية وتقديم الذاتية على الصفاتية والتجليات الصفاتية على الافعالية على حسب ترتيب الحقائق الوجودية الالهية لا على حسب ترتيب مشاهدات أصحاب المشاهدات والتجليات القلبية لأرباب القلوب.

ليعلم أن للآيات الشريفة رموزا اخرى لا يناسب المقام ذكرها، وأما كون الآيه الثانية من الاسماء الصفاتية والثالثة من الافعالية فواضح، وامّا كون عالم الغيب والشهادة والرحمن والرحيم من الاسماء الذاتية فمبني على أن

يكون الغيب والشهادة عبارة عن الاسماء الباطنة والظاهرة والرحمانية والرحيمية من تجليات الاقدس لا الفيض المقدس. واختصاص هذه الاسماء

بالذكر مع أن الحي والثابت والرب وأمثالها يبدو للنظر أنها أقرب الى الاسماء الذاتية فلعله لاحاطتها لأنها من أمهات الاسماء، والله العالم.

تنبيه:

فقد وقع اختلاف عظيم في لفظ العالمين واشتقاقه ومعناه، فبعض على أن العالمين جمع ومشتمل على جميع أصناف الخلق من المادي والمجرد، وكل صنف هو عالم بنفسه، وهذا الجمع ليس له مفرد من جنسه، وهذا القول مشهور، وقال بعض ان العالم بفتح اللام اسم مفعول وعالِم بكسر اللام اسم فاعل وعالمين بمعنى معلومين وهذا القول مضافا الى أنه فى حد نفسه لا شاهد له وبعيد، فإطلاق رب المعلومين بارد جدا وبلا مورد. وقال بعض ان اشتقاقه من العلامه وعليه فيطلق على جميع الموجودات لانها كلها علامة وآية للذات المقدسه والواو والنون باعتبار الاشتمال على ذوى العقول وتغليبها على سائر الموجودات.

وذهب بعض الى انه مشتق من العلم، وعلى كل حال فاطلاقه على جميع الموجودات صحيح كما أن إطلاقه على ذوي العقول ايضا وجيه ولكن العالم يطلق على ما سوى الله ويطلق العالم ايضا علىكل فرد وصنف، فإن كان الذى يطلق اللفظ من أهل العرف واللغه فباعتبار أن كل فرد علامة لذات الباري وفى كل شيء له آيه، وان كان عارفا الهيا فباعتبار أن كل موجود ظهور بالاسم الجامع ومشتمل على كل الحقائق بطريق ظهور أحدية الجمع وسر الوجود ومن هذه الجهة يمكن أن يقال ان جميع العالم وكل جزء منه هوالاسم الاعظم بمقام احدية الجمع والاسماء كلها في الكل وكذا الآيات، وبناء على ما ذكر فايراد الفيلسوف العظيم الشأن صدر الملة والدين

(قدس سره) على امثال البيضاوي وارد لانهم لم يتذوقوا هذا المشرب، وأما في مسلك اهل العرفان فليس بصحيح، وحيث ان الكلام البيضاوي في هذا المقام وكلام الفيلسوف المذكور طويل تركنا ذكره فمن اراد فليراجع تفسيرالسورة الفاتحة للفيلسوف المرحوم.

والرب ان كان من اسماء الصفات بمعنى المالك والصاحب وأشباههما فيمكن أن يكون المراد من العالمين جميع ما سوى الله سواء أكان من الموجودات لعالم الملك أو الموجودات المجرده الغيبيه، وأما ان كان من اسماء الافعال، ولعل هذا هو الأظهر فالمراد من العالمين هوعالم الملك فقط لأن الرب حينئذ بمعنى المربّي، وهذا المعنى يستلزم التدريج والعوالم المجرده منزّهة عن التدريج الزماني وان كان روح التدريج بمعنى متحقق في عالم الدهر عند الكاتب وبذاك المعنى أثبتنا الحدوث الزماني بمعنى روح الزمان ودهرية التدريج في العوالم المجرده ايضا، وفي المسلك العرفاني ايضا نقول بأن الحدوث الزماني ثابت لجميع العوالم لكن لا على نحو يسعه فهم المتكلمين وأصحاب الحديث.

تنبيه آخر:

اعلم ان الحمد حيث أنه في مقابل الجميل، ويستفاد من الآية الشريفة أن الحمد والثناء ثابتة لمقام الاسم الأعظم الذي هو الاسم الجامع له مقام ربوبية العالمين والرحمه والرحمانية والرحيمية وهو مالك يوم الدين، فلا بد أن يكون لهذه الاسماء الشريفة مدخلية تامة في التحميد.

ونحن نذكر بعد ذلك في ذيل مالك يوم الدين بيانا تفصيليا عن هذا المطلب.

ونتكلم الان من مناسبة مقام ربوبية العالمين للتحميد وهذا التناسب من جهتين.

الجهة الاولى: أن الحامد حيث أنه بنفسه من العالمين بل هو ربما يكون عالما برأسه أحيانا بل في نظر أهل المعرفة كل موجود من الموجودات عالم برأسه فيحمد الحق لأنه ربّاه بيده التربوية في مقام الربوبية فأخرجه من الضعف والنقص والوحشة والظلمة والعدم والهيولاني الى القوة والكمال والطمأنينة ونورانية العالم الانساني وأوصله عبر المنازل الجسمية والعنصرية والمعدنية والنباتية والحيوانية تحت النظام المرتب بالحركات الذاتية والجوهرية وأنواع العشق الفطري والجبلي الى منزل الانسانية الذي هو أشرف منازل الموجودات، وبعد ذلك ايضا يربيه الى أن يصل الى حدّ لا يتّسع في الوهم.

آنجه اندروهم ناید آن شوم

بس عدم کردم عدم جون ارغنون

کویدم کانا الیه راجعون (مصراع وبیت من أبیات العارف الرومي)

الجهة الثانية: حيث أن تربية نظام عالم الملك من الفلكيات والعنصريات والجوهريات والعرضيات مقدمة وجود الانسان الكامل، وفي الحقيقة هذه الوليدة عصارة عالم التحقق والغاية القصوى للعالمين ولهذه الجهة صارت الوليدة الأخيرة، وحيث أن عالم الملك متحرك بالحركة الذاتية الجوهرية وهذه الحركة ذاتية استكماليا فأينما انتهت فهو غاية الخلقة ونهاية السير، فاذا نظرنا بالطريق الكلي الى الجسم الكلي والطبع الكل والنبات الكل والحيوان الكل والانسان الكل، فإن الانسان هو الوليدة الأخيرة التي

وجدت بعد الحركات الذاتية الجوهرية للعالم وانتهت الحركات اليه، فيد التربية للحق تعالى فيد التربية للحق تعالى قد ربّت الانسان في جميع دار التحقق والانسان هو الأول والآخر.

تنبيه آخر:

وهذا الذي ذكرناه في الأفعال الجزئية وبالنظر الى مراتب الوجود والا فبحسب الفعل المطلق ليست لفعل الحق تعالى غاية سوى ذاته المقدسة كما هو مبرهن في محالّه، واذا نظرنا الى الأفعال الجزئية أيضا فغاية خلقة الانسان عالم الغيب المطلق كما ورد في القدسيات "يابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي".. وفي القرآن الشريف يخاطب موسى ابن عمران على نبينا وآله وعليه السلام ويقول {اصطنعتك لنفسي} (طه ـ 40). وأيضا يقول: {أنا اخترتك} (طه ـ 13). فالانسان مخلوق لأجل الله ومصنوع لذاته المقدسة وهو المصطفى والمختار من بين الموجودات، وغاية سيره الوصول الى باب الله والفناء في ذات الله والعكوف لفناء الله ومعاده الى الله ومن الله وفي الله وبالله كما يقول سبحانه في القرآن: {إنّ الينا ايابهم}.. وسائر الموجودات بواسطة الانسان ترجع الى الحق تعالى بل مرجعها ومعادها الى الانسان كما يقول في الزيارة الجامعة المظهرة لنبذة من مقامات الولاية "واياب

الخلق اليكم وحسابكم عليكم". ويقول: "بكم فتح الله وبكم يختم".. وفي قول الله تعالى: {إنّ إلينا ايابهم ثم إنّ علينا حسابهم} (الغاشية . 25).. وقوله عليه السلام في الزيارة الجامعة "واياب الخلق اليكم وحسابهم عليكم" سر من أسرار التوحيد واشارة الى أن الرجوع الى الانسان الكامل هو الرجوع الى الله لأن الانسان الكامل فانٍ مطلق وباقٍ ببقاء الله وليس له من عند نفسه تعيّن وإنّيّة وأنانية بل هو نفسه من الأسماء الحسنى وهو الاسم الأعظم.

كما ان الاشارة الى هذا المعنى كثيرة في القرآن والأحاديث الشريفة وان القرآن الشريف قد جمع من لطائف التوحيد وحقائقه وسرائره ودقائقه ما تتحير فيه عقول أهل المعرفة وهذا هو الاعجاز العظيم لهذه الصحيفة النورانية السماوية لا أن حسن التركيب ولطف البيان وغاية الفصاحة ونهاية البلاغة وكيفية الدعوة والأخبار عن المغيبات وأحكام الأحكام واتقان التنظيم للعائلة وأمثالها فحسب التي يكون كل واحد منها باستقلاله اعجازا فوق الطاقة وخارقا للعادة بل يمكن أن يقال أن معروفية القرآن بالفصاحه واشتهار هذا الاعجاز من بين سائر المعجزات في الآفاق لانه كان للأعراب في الصدر الأول هذا التخصص وأدركوا هذه الجهة من الأعجاز فحسب، وأما الجهات الأخرى المهمة التي كانت فيه وكانت جهة اعجازها أرفع، وأساس ادراكها أعلى فلم يدركها أعراب ذلك الزمان، والحال ايضا أن المتحدين معهم في أفق الفهم لا يدركون من هذه اللطيفة الالهية سوى التركيبات اللفظية والمحسنات البديعة والبيانية، أما المطلعون لأسرار المعارف ودقائقها والخبراء بلطائف التوحيد والتجريد فوجهة نظرهم في هذا الكتاب الإلهي وقبلة أمالهم في هذا الوحي السماوي انما هي معارفه وليس لهم توجّه كثير الى الجهات الأخرى. ومن نظر الى عرفان القرآن وعرفاء الاسلام الذين اكتسبوا المعارف من القرآن وقايس بينهم وبين سائر علماء الأديان وتصنيفاتهم ومعارفهم يعرف حد معارف الاسلام والقرآن التي هي أساس الدين والديانة والغاية القصوى لبعث الرسل وانزال الكتب ويصدق بلا مؤونة أن هذا الكتاب وحي الهي وهذه المعارف معارف الهية.

ايقاظ ايماني:

اعلم أن الربوبية الحق جلّ شأنه للعالمين على نحوين:

الأول: الربوبية العامة التي تشارك فيها جميع موجودات العالم وهي التربية التكوينية التي توصل كل موجود من حد النقص الى حدّ الجمال اللائق له تحت تصرف الربوبي وتقع جميع الترقيات الطبيعية والجوهرية والحركات والتطورات الذاتية والعرضية تحت التصرفات الربوبية.

وبالجمله، التربية التكوينية من منزل مادة المواد والهيولى الأولى الى المنزل الحيواني وحصول القوى الجسمانية والروحانية الحيوانية، وانّ كلا منها يشهد بأن الله جلّ جلاله ربي.

والثاني من مراتب الربوبية، الربوبية التشريعة المختصة بالنوع الانساني وليس لسائر الموجودات فيها نصيب، وهذه التربية هي هداية الطرق النجاة واراءة سبل السعادة والانسانية والتحذير من منافياتها قد أظهرها الله سبحانه بتوسط الأنبياء عليهم السلام، فاذا وقع انسان بقدمه الأختيارية تحت تربية رب العالمين وتصرفه وصار مربى بتلك التربيه بحيث لم تكن تصرفات أعضائه وقواه الظاهرية والباطنية تصرفات نفسانية بل كانت تصرفات الهيه وربوبية يصل الى مرتبة الكمال الانساني المختص بالنوع الانساني.

ان الانسان الى أن يصل الى منزل الحيوانية يكون متماشيا مع سائر الحيوانات ومن هذا المنزل يكون أمامه سبيلان لابد أن يسلكهما بقدم الاختيار، احداهما طريق السعادة وهي الصراط المستقيم لرب العالمين، ان ربي على صراط مستقيم.

والثانية: طريق الشقاوة وهو الطريق المعوّج للشيطان الرجيم فإن جعل قواه وأعضاء مملكته في تصرّف رب العالمين وصار مربى بتربيته فيسلم القلب وهو سلطان هذه المملكة له واذا صار القلب مربوبا لرب العالمين فيقتدي سائر جنوده له وتصير المملكة كلها مربوبة له، وفي هذا الوقت يتمكن لسانه الغيبي وهو ظل القلب أن يجيب ملائكة عالم القبر حين تقول له من ربك؟ بأن: الله جلّ جلاله ربي. وحيث أن هذا الشخص قد أطاع رسول الله واقتدى بأئمة الهدى وعمل بكتاب الله فينطق لسانه بقوله: محمد صلى الله عليه وآله نبيّي، وعليّ وأولاده المعصومون أئمتي والقرآن كتابي، لكنه إذا لم يصر القلب الهيا وربوبيا ولم ينتقش نقش لا اله الا الله ومحمد رسول الله وعلي ولي الله على لوح القلب ولم يصر صورة باطنية للنفس ولم ينتسب الى القرآن بالعمل به والتفكر والتذكر والتدبّر فيه ولم يرتبط هو بالقرآن ارتباطا روحيا ومعنويا، ففي سكرات الموت وشدائده وفي حال الموت الذي هو الداهية العظمى تنمحي جميع المعارف عن خاطره.

أيا عزيزي، ان الانسان ينسى جميع معلوماته عند ابتلائه بمرض أو ضعف قواه الدماغية الا أمورا قد صارت بشدة التذكر والأنس بها جزء من فطراته الثانوية، واذا دهمته داهية عظمى ومخوفة فيغفل عن أكثر أموره ويخط خط النسيان على معلوماته، فماذا يكون حاله في أهوال الموت وشدائده وسكراته، واذا كان سمع القلب غير منفتح ولم يكون قلبه سميعا فلا ينفعه تلقين العقائد حين الموت وبعد الموت، والتلقين ينفع لمن يكون قلبه خبيرا بالعقائد الحقه ويكون سمع قلبه منفتحا، وقد حصلت له غفلة ما في تلك السكرات والشدائد فيصير التلقين وسيلة الى أن يوصلها ملائكة الله الى سمعه، ولكن اذا كان الانسان أصم ولم يكن له سمع عالم البرزخ ابدا فلا يؤثر التلقين في حاله، وقد أشير الى بعض ما قلناه في الأحاديث الشريفة.

قوله تعالى: الرحمن الرحيم:

اعلم أن لجميع الأسماء والصفات للحق تعالى جل وعلا مقامين ومرتبتين على النحو الكلّي:

أحدهما مقام الأسماء والصفات الذاتية الثابتة في الحضرة الواحدية كالعلم الذاتي الذي هو من الشؤون الذاتيه والقدرة والارادة الذاتيتين وسائر الشؤون الذاتيه.

والثاني: مقام الاسماء والصفات الفعلية الثابتة للحق بتجلي الفيض المقدس كالعلم الفعلي الذي يثبته الاشراقيون ويرونه مناطا للعلم التفصيلي، وقد أقام البرهان عليه أفضل الحكماء الخواجة نصير الدين الطوسي (هو حجة الفرقة الناجية الفيلسوف المحقق أستاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي الجهرودي ممدوح أكابر الآفاق ومجمع مكارم الأخلاق الذي لا يحتاج الى التعريف لغاية شهرته مع أن كل ما يقال فيه فهو دون رتبته. ولد في 11جمادى الأولى سنة 597 بطوس ونشأ بها ولذلك أشتهر بالطوسي وصنّف كتبا ورسائل نافعة نفيسة في فنون العلم له تجريد الكلام وهو كتاب كامل في شأنه وصفه الفاضل القوشجي بأنه مخزون بالعجائب مشحون بالغرائب صغير الحجم وجيز النظم كثير العلم جليل الشأن حسن الانتظام مقبول الأئمة العظام ولم يظفر بمثله علماء الأعصار وهو في الأشتهار كالشمس في رابعة النهار (انتهى).

شرحه جمع من أعاظم العلماء أولهم آية الله العلامة (ره) وله كتاب التذكرة النصيرية في علم الهيئة الذي شرحه النظام النيسابوري والأخلاق الناصرية وآداب المتعلمين وأوصاف الأشراف وكتاب قواعد العقايد وتحرير المجسطي وتحرير أصوال الهندسة لاقليدس الى غير ذلك. حكي أنه قدس سره قد عمل الرصد العظيم بمدينة مراغة وأتخذ في ذلك خزانة عظيمة ملأها من الكتب وكانت تزيد على أربعمئة ألف مجلّد وكان من أعوانه على الرصد من العلماء جماعة أرسل اليهم الملك هلاكوخان منهم العلامة قطب الدين الشيرازي ومؤيد الدين العروضي الدمشقي وكان متبحرا في الهندسة وآلات الرصد ومحيي الدين الأخلاطي وكان مهندسا متبحرا في العلوم الرياضية وغيرهم من الفضلاء فضبطوا حركات الكواكب.

وحكي من أخلاقه الكريمة أن ورقة حضرت اليه من شخص فكان ممّا فيها: يا كلب بن الكلب. فكان الجواب: أما قولك يا كذا فليس بصحيح لأن الكلب من ذوات الأربع وهو نابح طويل الأظفار وأما أنا فمنتصب القامة بادي البشرة عريض الأظفار ناطق ضاحك فهذه الفصول والخواص غير تلك الفصول والخواص، وأطال في نقض كل ما قاله. هكذا ردّ عليه بحسن طوية وتأنّ غير منزعج ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة، وتوفي قدس سره في يوم الغدير سنة 673 (خعج) ودفن في جوار الامامين موسى بن جعفر والجواد عليهما السلام في المكان الذي أعدّ للناصر العبّاسي فلم يدفن فيه.) نضر الله وجهه، وتبع الاشراقيين في هذا المعنى وهو ان الميزان في العلم التفصيلي العلم الفعلي، وهذا المطلب وان كان على خلاف التحقيق بل العلم التفصيلي ثابت في مرتبة الذات وإنّ كشف العلم الذاتي وتفصيله أعلى وأكثر من العلم الفعلي، كما ثبت وحقق في محله على وجه البرهان النوري، ولكن اصل المطلب وهو أن نظام الوجود هو العلم الفعلي التفصيلي للحق ثابت ومحقق في سنّة البرهان ومشرب العرفان وان كان للمسلك الاعلى العرفاني وذوقه الاصلي طريقة غير هذه الطرق. (مذهب عاشق زمذهبها جدا است).

وبالجملة، ان للرحمة الرحمانية والرحيمية مرتبتين وتجليين. أحدهما:

في مجلى الذات في حضرة الواحدية بتجلي الفيض الأقدس.

والثاني في مجلى الأعيان الكونية بتجلي الفيض المقدس، ففي السورة

المباركة ان كان الرحمن الرحيم من صفات الذاتية كما هو ظاهر ففي الآية الشريفة بسم الله الرحمن الرحيم يمكن ان تجعل هاتين الصفتين تابعتين للاسم، فتكونا من الصفات الفعلية، وبناء على هذا فليس في المقام تكرار أصلا حتى يقال أنه للتاكيد والمبالغة وعلى هذا الاحتمال فمعنى الآيات الشريفة والعلم عند الله يكون هكذا:

بمشيئته الرحمانية والرحيمية الحمد لذاته الرحمانية والرحيمية وكما أن مقام المشيئة هو تجلي الذات المقدسة فمقام الرحمانية والرحيمية الذي هو من تعينات مقام المشيئة تجلي الرحمانية والرحيمية الذاتيتين، وهنا احتمالات أخر تركنا ذكرها لكون هذا الاحتمال أظهر.

قوله تعالى مالك يوم الدين:

قرأ كثير من القرّاء ملك بفتح الميم وكسر اللام وذكروا لكل من هاتين القراءتين ترجيحات أدبية، حتى أن بعض الاعاظم من العلماء رحمه الله كتب رسالة في ترجيح ملك على مالك، وما ذكره الطرفان ليس مما يحصل به الاطمئنان، وما في نظر الكاتب أن مالك راجح بل متعيّن لان هذه السورة المباركة والسورة المباركة التوحيد ليستا

كسائر السور القرآنية بل حيث أن الناس يقرأون هاتين السورتين في فرائضهم ونوافلهم وفي كل عصر من العصور يسمعها ملايين من المسلمين من مئات ملايين المسلمين وهم كذلك من مئات الملايين سابقيهم وهكذا بالتسامح ثبتت هاتان السورتان الشريفتان على هذا النحو الذي يقرؤونه من دون تقدم حرف وتأخره ومن دون زيادة حرف ونقصه عن الائمة الهداة والنبي صلى الله عليه وآله. ومع أن أكثر القراء قرؤوها ملك وكثير من العلماء رجّحوا ملك مع ذلك ما ضرّت

هذه الامور في هذا الامر الثابت الضروري والمتواتر القطعي ولم يتبعهم الناس ومع أن العلماء يجوّزون تبعية كل من القرّاء لم يقرأ أحد في مقابل هذه الضرورة (ملك) في صلاته الا الشّاذ الذي لا يعتنى بقوله، وان قرأ أحد ملك قرأ مالك أيضا من باب الاحتياط، كما أن شيخنا العلاّمة في العلوم النقلية الحاج الشيخ عبد الكريم اليزدي قدس سره كان يقرأ ملك أيضا باستدعاء من أحد علمائنا الأعلام المعاصر ولكن هذا الاحتياط في غاية الضعف بل على عقيدة الكاتب مقطوع خلافه. ومن هذا البيان الذي ذكرناه علم ضعف ما قالوا أن ملك ومالك متشابهان في الخط الكوفي لأن هذا ربما يمكن أن يدعى في السور التي ليست كثيرة التداول على الالسنة على اشكال فيه أيضا، ولكن في مثل هذه السورة التي ثبوتها بالتسامع والقراءة كما هو واضح جدا دعوى بلا محتوى وقول بلا اعتبار، وهذا الكلام الذي ذكرناه جار في كفوا أيضا لأن القراءة بالواو المفتوحة والفاء المضمومة مع انها قراءة عاصم فقط فمع ذلك هي أيضا ثابتة بالضرورة بالتسامع، وان القراءات الأخر لا تعارض هذه الضرورة وان كان البعض يحتاط بزعمه ويقرؤوها بضمّ الفاء والهمزة طبقا لقراءة الأكثر ولكن لا مورد لهذا الاحتياط ولو نوقش في الروايات التي أمر فيها بالقراءة كقراءة الناس، كما أنها أيضا محل المناقشة، ومن المظنون أن المراد من تلك الروايات أن اقرؤوا كما يقرأ عامة الناس لا انكم مخيّرون بين القراءات السبع مثلا، فحينئذ تكون قراءة ملك وكفوا بغير ما هو مشهور بين المسلمين ومسطور في الصحف غلطا، وعلى كل حال الاحوط قراءتها على النحو المتداول بين الناس والمشهور على الألسنة والمسطور في القرآن لأن القراءة على هذا النحو صحيحة على جميع المسالك والله أعلم.

تحقيق حكمي:

اعلم أن مالكية الحق تعالى ليست كمالكية العباد مملوكاتهم ولا كمالكية السلاطين ممالكهم لانها اضافات اعتبارية وليست اضافة الحق الى الخلق من هذا القبيل، وان كان هذا النحو من المالكية ثابتاً للحق تعالى طولا عند علماء الفقه وهو لا ينافي ما هو ملحوظ ومذكور في هذا النظر.

وليست من قبيل مالكية الانسان أعضاءه وجوارحه وليست ايضا من قبيل مالكيته قواه الظاهرية والباطنية وان كانت هذه المالكية أقرب الى مالكيته تعالى من سائر انواع المالكية المذكورة سابقا. وليست من قبيل مالكية النفس لافعالها الذاتية التي هي من شؤون النفس كايجاد الصور الذهنية التي يكون قبضتها وبسطها الى حد تحت ارادة النفس ايضا وليست ايضا من قبيل مالكية العوالم العقلية ما دونها وان كانت تلك العوالم متصرفة في هذه العوالم بالايجاد والاعدام لان جميع دار التحقق الامكانية الثابت في ناصيتها ذل الفقر محدودة بحدود ومقدرة بقدر ولو بالحد الماهوي وكل ما كان محدودا بحد يكون بينه وبين فعله بينونة عزليه على قدر محدوديته وليس له احاطة قيومية حقانية، فجميع الاشياء متباينة مع منفعلاتها ومتقابله معها بحسب مرتبة ذاتها ولهذه الجهة ليست لها

احاطة ذاتية قيومية، واما مالكية الحق تعالى التي هي بالاضافة الاشراقية والاحاطة القيومية مالكية ذاتية حقيقية حقة بحيث ليست شائبة البينونة العزلية بوجه من الوجوه في ذاته وصفاته لموجود من الموجودات، وان مالكية الذات المقدسة لجميع العوالم على السواء من دون أن يتفاوت بوجه لموجود من الموجودات أو أن تكون احاطته بعوالم الغيب والمجردات أكثر أو أقرب من العوالم الاخر لانه يستلزم

المحدودية والبينونة العزلية ويلازم الافتقار والامكان تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا كما أنه يمكن أن تكون الاشارة الى هذا المعنى قوله تعالى: {نحن أقرب اليكم منكم} (الواقعة . 85)، و{نحن أقرب اليه من حبل الوريد} (ق . 16)، و {الله نور السموات والارض} (النور . 35). و{هو الذي في السماء اله وفي الأرض اله} (الزخرف . 84) و {وله ملك السموات والأرض} (الحديد . 2). وقول رسول الله على مانقل "لو دوليتم بحبل الى الأرضين السفلى لهبطتم على الله". وقول الصادق عليه السلام في رواية الكافي "لايخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان ولا يكون الى مكان أقرب منه الى مكان".. وقول الامام علي النقي عليه السلام (هو الامام العاشر والبدر الباهر ذو الشرف والكرم والمجد والايادي أبو الحسن الثالث علي النقي الهادي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم. ولد عليه السلام بصريا من المدينة للنصف من ذي الحجة سنة 212 اثنتي عشرة ومئتين، وقيل يوم الجمعة ثاني رجب وقيل خامسه من تلك السنة. أمّه المعظّمة الجليلة سمّانة المغربية وفي الدر النظيم هي تعرف بالسيّدة وتكنّى أم الفضل. وقبض عليه السلام مسموما بسرّ من رأى في يوم الأثنين ثالث رجب سنة 254 (رند) سنة أربع وخمسين ومئتين وله احدى وأربعون سنة وأشهر. وكانت مدة امامته ثلاثا وثلاثين سنة وأشهرا وكان في أيام امامته بقية ملك المعتصم ثم ملك الواثق ثم ملك المتوكل ثم ملك المنتصر ثم ملك المستعين ثم ملك المعتز ودفن في داره بسرّ من رأى وخرج أبو محمد عليه السلام في جنازته وقميصه مشقوق وصلّى عليه ودفنه وقال المسعودي: وكانت وفاة أبي الحسن عليه السلام في خلافة المعتز بالله وذلك في يوم الأثنين لاربع بقين من جمادي الاخرة سنة 254 وهو ابن أربعين سنة وقيل أبن اثنين وأربعين وقيل أكثر من ذلك. وسمع في جنازته جارية تقول ماذا لقينا في يوم الاثنين قديما وحديثا وصلى عليه احمد بن المتوكل على الله في شارع أبي أحمد في داره بسامرّا ودفن هناك (انتهى).). "واعلم أنه اذا كان في السماء الدنيا فهو كما هو على العرش والأشياء كلها له سواء علما وقدرة وملكا احاطة". ومع أن مالكية الذات المقدسة لجميع الأشياء ولجميع العوالم على السواء مع ذلك يقول في الآية الشريفة مالك يوم الدين.. وهذا الاختصاص يمكن أن يكون امّا لأجل أن يوم الدين هو يوم الجمع، فلهذه الجهة مالك يوم الدين الذي هو يوم الجمع مالك سائر الأيام المتفرقات، والمتفرقات في النشاة الملكية هي مجتمعات في النشأة الملكوتية، وأما لان ظهور مالكية الحق وقاهريته تعالى مجده في يوم الجمع الذي هو يوم رجوع الممكنات الى باب الله وصعود الموجودات الى فناء الله.

وتفصيل هذا الاجمال على وجه يناسب هذه الرسالة هو أن نور الوجود وشمس الحقيقة مادامت في السير التنزلي والنزول عن مكامن الغيب الى عالم الشهادة، يكون سيرها في الأحتجاب والغيبه، وبعبارة أخرى في كل تنزّل وتعيّن وفي كل تعيّن وتقيّد حجاب والانسان حيث أنه مجتمع

التعيّنات والتقيدات فهو محتجب بجميع الحجب السبعة الظلمانية والحجب السبعة النورية التي هي الأرضون السبع والسموات السبع على حسب التأويل، ولعل الرد الى أسفل السافلين ايضا عبارة عن الاحتجاب بجميع أنواع

الحجب، ويمكن أن يعبّر بالليل وليلة القدر عن هذا الاحتجاب لشمس الوجود وصرف النور في أفق التعينات، ومادام الانسان محتجبا في تلك الحجب فهو محجوب عن مشاهدة جمال الأزل ومعاينة النور الأول، وحيث أن جميع الموجودات في السير الصعودي عن المنازل السافله لعالم الطبيعة بالحركات الطبيعية التي هي في جبلة ذاتها وأودعت فيها من نور جاذبة فطرة الله بتقدير من الفيض الأقدس في الحضرة العلميّة اذا رجعت الى الوطن الأصلي والميعاد الحقيقي كما أشير الى ذلك كثيرا في الآيات الشريفة، فإنها تتخلص ثانيا من الحجب النورانية والظلمانية وتتجلى مالكية الحق تعالى وقاهريته، ويتجلى الحق بالوحدة والقاهرية وعند ذلك اذا رجع الأخر الى الأول واتصل الظاهر بالباطن وسقط حكم الظهور وتجلت حكومة الباطن فيجيء الخطاب عن المالك على الاطلاق وليس له مخاطب سوى ذاته المقدسة لمن الملك اليوم.. وحيث أنه ليس ثمة مجيب فيقول نفسه: لله الواحد القهار.. وهذا اليوم المطلق الذي هو يوم خروج شمس الحقيقة عن حجاب افق التعينات يوم الدين بمعنى، لأن كل موجود من الموجودات في ظل الأسم المناسب له يفنى في الحق فاذا نفخ في الصور فيظهر من ذلك الأسم ويقترن مع توابع ذلك الأسم فريق في الجنة وفريق في السعير والانسان الكامل في هذا العالم على حسب السلوك الى الله والهجرة اليه يخرج عن هذه الحجب وتظهر وتثبت له أحكام القيامة والساعه ويوم الدين فيظهر الحق على قلبه بمالكيته في هذا المعراج الصلاتي ويكون لسانه ترجمانا

لقلبه وظاهره لسانا لمشاهدات باطنه، وهذا أحد أسرار اختصاص المالكيه بيوم الدين.

الهام عرشي:

اعلم ان في باب العرش وحملته اختلافات وفي ظواهر الأخبار الشريفة ايضا اختلافا وان كان الاختلاف منفيا على حسب الباطن فإن العرش في النظر العرفاني والطريق البرهاني يطلق على معان كثيرة، واحد تلك المعاني ولم أره في لسان القوم هو الحضرة الواحدية التي هي مستوى الفيض الأقدس وحملته أربعة من أمهات الأسماء وهي: الأول والأخر والظاهر والباطن، والمعنى الأخر وما رأيته أيضا في لسان القوم الفيض المقدّس الذي هو مستوى الأسم الأعظم وحامله الرحمن الرحيم والرب والمالك، ومن اطلاقاته جميع ما سوى الله وحامله أربعة من الملائكة اسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل، والمعنى الاخر هو جسم الكل وحامله أربعة أملاك وهي صور أرباب الأنواع وقد أشير اليه في رواية الكافي. وربما أطلق على العلم ولعل المراد من العلم، العلم الفعلي للحق الذي هو عبارة عن مقام الولاية الكبرى وحملته أربعة من الأولياء الكمّل في الأمم السابقة وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى على نبينا وآله وعليهم السلام، وأربعة من الكمّل في هذه الأمه الرسول الخاتم وأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام، فاذا علمت هذه المقدمه فاعلم:

انه في السورة الشريفة الحمد بعد اسم الله الذي هو اشارة الى الذات أختصت بالذكر هذه الاسماء الشريفة الأربعة وهي الرب والرحمن والرحيم والمالك، ويمكن أن يكون هذا الأختصاص لأن هذه الاسماء الشريفة

الأربعة حملة عرش الوحدانية على حسب الباطن ومظاهرها الملائكة الأربعة المقرّبون للحق تعالى حملة عرش التحقق، فالاسم المبارك الرب باطن ميكائيل وهو بمظهريته للرب موكل بالأرزاق ومربي دار الوجود، والاسم الشريف الرحمن باطن اسرافيل منشأ الأرواح والنافخ في الصور وباسط الأرواح والصور كما أن بسط الوجود أيضا باسم الرحمن، والاسم الشريف الرحيم هو باطن جبرائيل الموكل على تعليم الموجودات وتكميلها. والاسم الشريف

المالك هو باطن عزرائيل الموكل بقبض الأرواح والصور وارجاع الظاهر الى الباطن، فالسورة الشريفة الى مالك يوم الدين مشتملة على عرش الوحدانية وعرش التحقق ومشيرة الى حوامله، فجميع دائرة الوجود وتجليات الغيب والشهود التي ترجمانها القرآن مذكورة الى هذا الموضع من السورة، وهذا المعنى موجود جمعا في بسم الله الذي هو الاسم الأعظم وفي الباء التي هي مقام السببية وفي النقطة التي هي سر السببية وعليّ عليه السلام هو سر الولاية والله اعلم.

تنبيه عرفاني:

لعل في تقديم الرب وذكر الرحمن والرحيم بعده وفي تأخير المالك، اشارة لطيفة الى كيفية سلوك الانسان من النشأة الملكية الدنيوية حتى الفناء الكلي أو حتى مقام الحضور عند مالك الملوك. فالسالك مادام في مبادىء السير فهو تحت تربية رب العالمين التدريجية لأنه أيضا من العالمين وسلوكه تحت تصرف الزمان والتدرج فاذا انسلخ عن عالم الطبيعة المتصرمة بقدم السلوك تتجلى لقلبه مرتبة الاسماء المحيطه التي لا تتعلق بالعالم فقط الذي يغلب عليه جانب السوائيه، وحيث أن للاسم الرحمن الشريف مزيد

اختصاص بين الاسماء المحيطة فلهذه الجهة قد ذكر، وحين أن الرحمن ظهور الرحمة ومرتبة البسط المطلق فقد قدم على الرحيم الأقرب الى أفق البطون.

ففي السلوك العرفاني تتجلى أولا الاسماء الظاهرة وبعدها الاسماء الباطنة لأن سير السالك من الكثرة الى الوحدة حتى ينتهي الى الاسماء الباطنية المحصنة التي منها اسم المالك، ففي التجلي بالمالكية تضمحل كثرات عالم الغيب والشهادة ويحصل الفناء الكلي والحضور المطلق فاذا تخلص عن حجب الكثرة بظهور الوحدة والسلطنة الالهية ونال المشاهدة الحضورية فيخاطب مخاطبة حضورية ويقول: اياك نعبد. فدائرة سير السائرين أيضا بتمامها مذكورة في السورة المباركة من أخيرة حجب عالم الطبيعة الى رفع جميع الحجب الظلمانية والنورانية وحصول الحضور المطلق وهذا الحضور هوالقيامة الكبرى للسالك وقيام ساعته، ولعل المقصود من المستثنى في الآية الشريفة {فصعق من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله}. هو هذا النوع من أهل السلوك فإنه قد حصل لهم الصعق والمحو قبل النفخ الكلي في الصور، ولعل هذا المعنى أحد محتملات قول رسول الله صلى الله عليه وآله: "انا والساعة كهاتين" وجمع بين السبابتين الشريفتين.

تنبيه أدبي:

ما رأيناه في التفاسير المتداولة أو نقل عنهم أنهم فسروا الدين بمعنى الجزاء والحساب، وقد ذكر هذا المعنى في كتب اللغة أيضا واستشهد عليه بقول الشعراء العرب، مثل قول الشاعر

"واعلم بأنّ كما تدين تدان"

والقول المنسوب الى شهل بن ربيعة "ولم يبق سوى العدوان دنّاهم كما دانوا" وقالوا بأن الديّان وهو من الأسماء الالهية أيضا بهذا المعنى ولعل المراد من الدين الشريعة الحقة، وحيث أن آثار الدين تظهر في يوم القيامة وتلقي الستار عن وجه الحقائق الدينية فيحق أن يقال لذاك اليوم يوم الدين، كما أن يومنا هذا هو يوم الدنيا لانه يوم ظهور آثار الدنيا ولم تظهر صورة حقيقة الدين بعد، وهذا يشبه قوله تعالى: {وذكرهم بأيام الله}

(ابراهيم ـ 5)، وهي الأيام التي يعامل فيها الحق تعالى قوما بالقهر والسلطنة، ويوم القيامة أيضا يوم الله وكذلك هو يوم الدين أيضا لانه يوم ظهور السلطنة الالهية ويوم بروز حقيقة دين الله.

قوله تعالى: اياك نعبد واياك نستعين:

اعلم أيها العزيز أنه اذا علم السالك في طريق المعرفة ان المحامد والمدائح بتمامها مختصة بذات الحق وعلم أن قبض الوجود وبسطه منه وعلم أن أزمّة الأمور في الأول والأخر والمبدأ والمنتهى بيد مالكيته وتجلى لقلبه توحيد الذات والصفات والافعال فانه يحصر العبادة والاستعانة بالحق، ويرى جميع دار التحقق خاضعة لذاته المقدسة طوعا أو كرها ولا يرى قادرا في دار التحقق حتى ينسب الاعانة اليه، وما ذكره بعض أهل الظاهر من أن حصر العبادة حقيقي واما حصر الاستعانة فليس بحقيقي لانه يستعان بغير الحق، وفي القرآن الشريف ذكر سبحانه ايضا {وتعاونوا على البر والتقوى} (المائدة ـ 2). وقال: {واستعينوا بالصبر والصلاة} (البقرة ـ 45) ايضا من المعلوم بالضرورة أن سيرة النبي الاكرم والأئمة الهداة وأصحابهم المسلمين قائمة على الاستعانة بغير الحق في غالب الأمور المباحة مثل الاستعانة بالدابة

والخادم والزوجة والرفيق والرسول والأجير وغير ذلك، فهذا كله كلام على أسلوب أهل الظاهر، وأما من له علم بالتوحيد الفعلي للحق تعالى ويرى أن نظام الوجود صورة فاعلية الحق تعالى ويرى ببصيرته وقلبه النوراني اما برهانا او عيانا انه لا مؤثر في الوجود الا الله، فهو يرى حصر الاستعانة أيضا حصرا حقيقيا ويرى اعانة سائر الموجودات صورة لاعانة الحق، وبناء على ما يذكره أهل الظاهر فاختصاص المحامد لله ايضا لا وجه له لانه على هذا المسلك، فلسائر الموجودات تصرفات واختيارات وجمال وكمال تليق بها للمدح والحمد بل الاحياء والاماتة والرزق والخلق وسائر الامور مشتركة بين الحق والخلق، وهذه الأمور في نظر أهل الله هي الشرك وقد عبّر في الروايات عن هذه الامور بالشرك الخفيّ، كما ان ادارة الخاتم لتذكر شيء عدّت من الشرك الخفيّ.

وبالجملة، اياك نعبد واياك نستعين من متفرعات الحمد لله الذي هو اشارة الى التوحيد الحقيقي، ومن لم تتجلّ حقيقة التوحيد في قلبه ولم يطهر قلبه من مطلق الشرك فقوله اياك نعبد عار عن الحقيقة ولا يتمكن من حصر العبادة والاستعانة بالحق ولا يكون شاهدا لله وطالبا لله، واذا تجلى التوحيد في القلب فانه ينصرف عن الموجودات ويتعلق بعزّ قدس الحق بمقدار تجلّيه الى أن يشاهد انه باسم الله يقع اياك نعبد واياك نستعين وتتجلى لقلبه بعض حقائق "انت كما أثنيت على نفسك".

تنبيه اشراقي:

قد تبين من بيانات هذه الرسالة نكتة العدول عن الغيبة الى الخطاب، وهذا وان كان بنفسه من محسنات الكلام ومزايا البلاغة وكثيرا ما يقع في كلام الفصحاء والبلغاء ويوجب حسن الكلام، ونفس الالتفات من حال الى حال يرفع السآمة عن المخاطب ويعطي روحه نشاطا جديدا، ولكن حيث ان الصلاة معراج الوصول الى حضرة القدس ومرقاة حصول مقام الانس فهذه السورة الشريفة تعطي تقريرا للترقي الروحاني والسفرالعرفاني، وحيث أن العبد في بدء السلوك الى الله محجوب في الحجب الظلمانية لعالم الطبع والحجب النورانية لعالم الغيب ومحبوس فيها، والسفر الى الله هو الخروج من هذه الحجب بقدم السلوك المعنوي، وفي الحقيقة المهاجرة الى الله هي

الرجوع من بيت النفس وبيت الخلق الى الله وترك الكثرات ورفض غبار الغيرية وحصول التوحيدات والغيبة عن الخلق والحضور لدى الرب، فاذا رأى في الآية الشريفة مالك يوم الدين الكثرات منطوية تحت سطوع نور المالكية والقاهرية فتحصل له حالة المحو عن الكثرة ويحصل له الحضور في الحضرة ويقدّم العبودية بالمخاطبة الحضورية ومشاهدة الجمال والجلال ويعرض مشاهداته لله وطلبه على محضر القدس ومحفل الانس، ولعل النكتة في أن العبد يؤدي هذا المقصد بضمير اياك هي ان هذا الضمير راجع الى الذات مضمحلة فيها الكثرات فيمكن ان تحصل للسالك في هذا المقام حالة التوحيد الذاتي وينصرف عن كثرة الاسماء والصفات ايضا وتكون وجهة القلب حضرة الذات بلا حجب الكثرات وهذا هو كمال التوحيد الذي يقوله امام الموحدين ومقدم حلقة العارفين وقائد العاشقين ورأس سلسلة المجذوبين والمحبوبين أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أولاده المعصومين: "وكمال التوحيد نفي الصفات عنه" لان للصفة وجهة الغيرية والكثرة. وهذا التوجه الى الكثرة الاسمائية بعيد عن سرائر التوحيد وحقائق التجريد، ولهذا فلعل سر خطيئة آدم عليه السلام كان التوجه الى الكثرة الاسمائية التي هي روح الشجرة المنهية.

تحقيق عرفاني:

اعلم أن أهل الظاهر ذكروا في ذكر نعبد ونستعين بصيغة المتكلم مع الغير مع أن العابد واحد، نكاتا منها أن العابد يحتال حيلة شرعية تكون عبادته بها مقبولة لجناب الحق تعالى وهي أن يقدم عبادته لجناب القدس وحضرة الرحمة ضمن عبادة سائر المخلوقين ومنهم كمّل أولياء الله الذين يقبل الله تعالى عبادتهم كي تكون بهذه الوسيلة عبادته أيضا مقبولة ضمنا لان تبعض الصفقة ليس من عادة الكريم.

ومنها تشريع الصلاة اذ كانت في أول الأمر مع الجماعة، فمن هذه الجهة أدّيت بلفظ الجمع ونحن ذكرنا نكتة في السرّ الجملي للاذان والاقامة يكتشف منها هذا السر في الجملة، وهي أن الاذان اعلان لقوى السالك الملكية والملكوتية بالحضور في المحضر وان الاقامة هي اقامتها في الحضور، فاذا أحضر السلك قواة الملكية والملكوتية في المحضر وقام القلب الذي هو إمامها بسمة الامامة فقد قامت الصلاة وان المؤمن وحده جماعة.. فقول نعبد ونستعين واهدنا كلها لاجل هذا الجمع الحاضر في محضر القدس، وقد اشير الى هذا المعنى في الروايات والادعية الصادرة عن أهل بيت العصمة والطهارة منابع العرفان والشهود.

والوجه الاخر الذي يتراءى في نظر الكاتب هو أن السالك في الحمد لله اذا جعل المحامد والاثنية من كل حامد ومثن في الملك والملكوت مقصورة ومخصوصة بالذات المقدسة للحق وقد ظهر ايضا في مدارك برهان أئمة البرهان وقلوب أصحاب العرفان أن لجميع دائرة الوجود بملكها وملكوتها وقضها وقضيضها حياة شعورية ادراكية حيوانية بل انسانية وهي حامدة مسبحة للحق تعالى عن استشعار وإدراك. وان الخضوع لدى حضرة الكامل المقدسة والجميل على الاطلاق ثابت في فطرة جميع الموجودات وخصوصا النوع الانساني وناصية الكل في جناب قدسه على التراب كما قال تعالى في القرآن الشريف: {وان من شيء الا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} (الاسراء . 44) وسائر الآيات الشريفة وأخبار المعصومين المشحونة بهذه اللطيفة الالهية مؤيدة بالبرهان الحكمي المتين، فاذا وجد السالك الى الله هذه الحقيقة بقدم الاستدلال البرهاني او الذوق الايماني او المشاهدة العرفانية فهو يدرك في أي مقام هو فيه ان جميع ذرات الوجود وسكنة الغيب والشهود عابدة للمعبود على الاطلاق وتطلب

موجدها فيظهر بصيغة الجمع ان جميع الموجودات في جميع حركاتها وسكناتها تعبد الذات المقدسة للحق تعالى وتستعين به.

تنبيه ونكتة:

اعلم ان العلماء قالوا في وجه تقديم اياك نعبد واياك نستعين مع ان القاعدة تقتضي ان تكون الاستعانة في العبادة مقدمة على نفس العبادة، ان ما قدم هو العبادة على الاستعانة لا على الاعانة وربما تكون الاعانة من دون الاستعانة.

وايضا حيث أنهما مرتبطان احدهما بالاخرى فلا فرق في التقديم والتأخير كما يقال قضيت حقي فأحسنت اليّ، وأحسنت اليّ فقضيت حقي.

وايضا الاستعانة هي للعبادة المستأنفة لا العبادة الواقعة، وبرودة هذه الوجوه ليست مختفية لأهل الذوق، ولعل النكتة فيه أن حصر الاستعانة بالحق تعالى متأخر عن حصر العبادة على حسب السلوك الى الله كما هو واضح فإن كثيرا من الموحدين في العبادة والحاصرين العبادة في الحق مشركون في الاستعانة ولا يحصرون الاستعانة بالحق كما نقلناه عن بعض أرباب التفسير ان حصر الاستعانة ليس حقيقيا، فالحصر في العبادة بمعناه المتعارف من أوائل مقامات الموحدين واما حصر الاستعانة فهو ترك غيرالحق مطلقا ولا يخفى ان المقصود من الاستعانة ليس الاستعانة في العبادة فقط بل الاستعانة في مطلق الامور وهذا انما يكون بعد رفض الاسباب وترك الكثرات والاقبال التام على الله.

وبعبارة اخرى، حصر العبادة هو حب الحق وطلب الحق وترك طلب الغير، وأما حصر الاستعانة فهو رؤية الحق وترك رؤية الغير، وفي مقامات العارفين ومنازل السالكين ترك رؤية الغير متأخّر عن ترك طلب الغير.

فائدة عرفانية:

اعلم ايها العبد السالك ان حصر العبادة والاستعانة للحق ايضا ليس من مقامات الموحّدين والمدارج الكمالية للسالكين لان فيه دعوى تنافي التوحيد والتجريد بل رؤية العبادة والعابد والمعبود والمستعين والمستعان به والاستعانة كلها منافية للتوحيد، وفي التوحيد الحقيقي الذي يتجلى لقلب السالك تستهلك كل هذه الكثرات وتضمحلّ رؤية كل هذه الامور، نعم الذين انتبهوا من الجذبة الغيبية وحصل لهم مقام الصحو فليست الكثرة حجابا لهم وذلك لان الناس على طوائف.

فطائفة هم المحجوبون أمثالنا المساكين المستغرقون في الحجب الظلمانية للطبيعة، وطائفة هم السالكون المسافرون الى الله والمهاجرون الى حضرة القدس. وطائفة هم الواصلون قد خرجوا عن حجب الكثرة واشتغلوا بالحق، وهم عن الخلق محجوبون وغافلون وقد حصل لهم الصعق الكلي والمحو المطلق، وطائفة هم الراجعون الى الخلق الذين لهم منصب المكمّلية والهادويّة كالانبياء العظام والاوصياء لهم، عليهم السلام، وهذه الطائفة مع وقوعهم في الكثرة واشتغالهم بارشاد الخلق لا تكون الكثرة حجابا لهم، ولهم مقام البرزخية، فبناء على هذا يفرق اياك نعبد واياك نستعين على حسب حالات هؤلاء الطوائف، فمن امثالنا المحجوبين فهو ادّعاء صرف وصورة محضة فان تنبّهنا لحجابنا ووجدنا نقصاننا، فبمقدار ما اطّلعنا على نقصاننا تنور عبادتنا وتقع موردا لعناية الحق

تعالى وأما من السالكين فيقع هذا القول بمقدار سلوكهم قريبا من الحق ومن الواصلين فهو بالنسبة الى رؤيتهم الحق حقيقة وبالنسبة الى رؤية الكثرة صورة صرفة وجري على العادة، ومن الكاملين حقيقة صرفة فليس لهم حجاب حقي ولا حجاب خلقي.

ايقاظ ايماني:

اعلم ايها العزيز اننا مادمنا في هذه الحجب الغليظة لعالم الطبيعة ونصرف الوقت في تعمير الدنيا ولذائذها غافلين عن الحق تعالى وذكره، والتفكر فيه فجميع عباداتنا وأذكارنا وقراءاتنا عارية عن الحقيقة فلا في الحمد لله نتمكن من حصر المحامد للحق ولا في اياك نعبد واياك نستعين نسلك طريقا من الحقيقة بل نحن مع هذه الدعاوى الفارغة مخزيون وناكسو الرؤوس

في محضر الحق تعالى والملائكة المقربين والانبياء المرسلين والاولياء المعصومين فإن من كان لسان حاله ومقاله مشحونا بمدح أهل الدنيا كيف يقول الحمد لله، وان من كانت وجهة قلبه الى الطبيعة ولم يشمّ رائحة الالوهية وكان اعتماده واتكاله على الخلق فبأي لسان يقول اياك نعبد واياك نستعين، فاذا كنت من رجال هذا الميدان فشمّر ذيل الهمة وأوصل الى قلبك هذه الحقائق واللطائف التي ذكرت في خلال هذه الرسالة في أوائل الامر بشدّة التذكر والتفكر في عظمة الحق وفي ذلة المخلوق وعجزه وفقره، أحيي قلبك بذكر الحق تعالى كي تصل رائحة من التوحيد الى شامة قلبك وتجد طريقا الى صلاة أهل المعرفة بالامداد الغيبي، وان لم تكن من رجال هذا الميدان فلا أقل من أن تجعل نقصك نصب عينيك. وتوجّه الى ذلتك وعجزك وقم بالامر بالخجلة والاستحياء، واحذر من دعوى العبودية واقرأ هذه الآيات الشريفة التي ليست متحققا بلطائفها أما بلسان الكمّل، وأما أن يكون في نيّتك قراءة صورة القرآن صرفا حتى لا تدّعي باطلا ولا يكون ادّعاؤك كاذبا على الأقل.

فرع فقهي:

ذهب بعض الفقهاء الى عدم جواز قصد الانشاء في ايّاك نعبد واياك نستعين وأمثاله ظنّا منهم أنه ينافي القرآنية والقراءة لأن القراءة هي نقل كلام الغير.

وهذا الكلام ليس له وجه لأن الانسان كما يمكن أن يمدح بكلامه مثلا انسانا يمكن أن يمدحه بكلام الآخرين، فمثلا اذا مدحنا شخصا بشعر من الحافظ يصدق أنّا مدحناه ويصدق أيضا أنا قرأنا شعر الحافظ

فاذا أنشأنا حقيقة جميع المحامد للحق بالحمد لله رب العالمين وأنشأنا قصر العبادة للحق بإيّاك نعبد يصدق أنّا حمدنا الله بكلامه وقصرنا العبادة لله بكلامه بل نقول:

اذا جرد أحد كلامه عن هذا المعنى الانشائي، فهذا التجريد مخالف للاحتياط ان لم نقل ببطلان قراءته، نعم لو لم يعلم أحد معناه فلا يلزم له أن يتعلم بل تكفي له قراءة سورة الآية بما لها من المعنى، وفي الروايات الشريفة اشارة الى أن القارىء ينشىء كما في الحديث القدسي: "فاذا قال ـ أي العبد ـ في صلاته بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله ذكرني عبدي واذا قال الحمد لله يقول الله حمدني عبدي" الى آخره.. وما لم يكن انشاء الحمد والتثنية من جانب العبد فلا معنى لذكرني وحمدني وفي أحاديث المعراج يقول "الآن وصلت فسمّ باسمي". ويعلم من الحالات التي كانت تحصل لأئمة الهدى في مالك يوم الدين واياك نعبد وتكرار بعض هذه الايات أنهم كانوا ينشؤون وليست

قراءتهم قراءة صرفة ومن قبيل اسماعيل يشهد أن لا اله الا الله، ومن احدى مهمات اختلاف مراتب صلاة أهل الله الأختلاف في قراءتهم كما اشير في السابق الى نبذه منها، وهذا لايتحقق الا اذا كان القارىء منشئا للقراءه والأذكار، والشواهد على هذا المعنى أكثر مما ذكرنا.

وبالجملة فجواز انشاء هذه المعاني بالكلام الالهي بلا اشكال.

فائدة:

ان أهل اللغه قالوا بأن العبادة بمعنى غاية الخضوع فلا تليق الا لمن له أعلى مراتب الوجود والكمال وأعظم مراتب النعم والاحسان. ومن هذا

تكون عبادة غير الحق شركا ولعل في العبادة التي في اللغة الفارسية بمعنى (بر ستش وبندكي) معنى مأخوذا في حقيقتها أكثر من المعنى الذي ذكروه لها، وهو عبارة عن الخضوع للخالق ولله ولهذا يلازم هذا النحو من الخضوع اتخاذ المعبود الها وخالقا او نظيرا وشبيها ومظهرا له مثلا فلهذه الجهة تكون عبادة غير الحق تعالى شركا وكفرا، واما مطلق الخضوع من دون هذا الاعتقاد أو التجزّم بهذا المعنى ولو تكلّفا فإنه لا يوجب الكفر والشرك وان بلغ غاية الخضوع وان كان بعض أنواعه حراما كتعفير الجين بالتراب للخضوع فهذا وان لم يكن عبادة لكنه ممنوع شرعا على الظاهر، فالحرمات التي يراعيها أرباب المذاهب لأعاظم مذاهبهم مع الأعتقاد بأنهم عباد فقراء الى الحق تعالى في كل شيء في أصل الوجود وكماله وعباد صالحون، ومع أنهم لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولاحياة ومقربو جناب الحق تعالى ومورد عناياته ووسائل عطياته بواسطة العبودية ليس فيها شائبة الشرك والكفر، وحرمة خاصة الله حرمته و (حب خاصان خدا حب أست) (مصراع بيت لعارف الرومي يقول: حب خواص الله حب الله) وأشهد بالله وكفى بالله شهيدا ان فيما بين الطوائف الطائفة التي امتازت عن جميع طوائف العائلة البشرية في توحيد الحق تعالى وتقديسه وتنزيهه ببركة أهل البيت الوحي والعصمة وخزّان العلم والحكمة هي طائفة الشيعة الأثنا عشرية وكتبهم في أصول العقائد مثل الكتاب الشريف أصول الكافي والكتاب الشريف توحيد الشيخ الصدوق رضوان الله عليه، وخطب أئمتهم المعصومين وأدعيتهم عليهم السلام التي صدرت في توحيد الحق جلّ وعلا وتقديسه من معادن الوحي والتنزيل تشهد ان تلك العلوم لم تكن لها سابقة لدى البشر وبعد الكتاب المقدس الوحي الالهي والقرآن الشريف الذي كتب بيد القدرة لم يقدّس ولم ينزّه أحد الحق

تعالى مثلهم، وعلى الرغم من أن الشيعة في جميع الأمصار والأعصار اتّبعت هؤلاء الأئمة المعصومين المنزّهين الموحّدين وعرفت الحق ونزّهته ووحّدته بالبراهين الواضحه. فمع ذلك فإن بعض الطوائف المعلوم من عقائدهم وكتبهم الالحاد لما فيهم من النصب الباطني قد فتحوا باب الطعن واللعن على الشيعة ونسبوا التابعين لأهل بيت العصمة الى الشرك والكفر وهذا وان كان في سوق أهل المعرفة لا يقوّم بشيء ولكن فيه مفسدة ان يبعّد الناس الناقصين والعوام الجاهلين عن معادن العلم ويسوقهم الى الجهل والشقاوة وهذه جناية عظيمة لنوع البشر لا يمكن جبرانها بوجه، فلهذه الجهة طبقا لموازين العقلية والشرعية يكون وزر هذه الجماعة القاصرة الجاهلة المسكينة وذنبها على الذين لم يراعوا الأنصاف ومنعوا نشر المعارف والأحكام الالهية لمنافع خيالية في أيام معدودة واوجبوا الشقاوة للنوع البشري وضيّعوا وأبطلوا جميع ما تحمّل خير البشر صلوات الله عليهم من التعب واغلقوا باب أهل بيت الوحي والتنزيل على الناس، اللهم العنهم لعنا وبيلا وعذبهم عذابا أليما.

قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم الى آخر السورة:

اعلم ايها العزيز حيث ان في السورة الشريفة الحمد اشارة الى كيفية سلوك أرباب المعرفة والأرتياض والى اياك نعبد جميع كيفية السلوك من الخلق الى الحق فاذا ارتقى السالك من التجليات الأفعالية الى التجليات الصفاتية ومنها الى التجليات الذاتية وخرج من الحجب النورانية والظلمانية ووصل الى مقام الحضور والمشاهدة فحصلة له مرتبة الفناء التام واصابة الاستهلاك الكلي، فاذا تمّ السير الى الله بغروب أفق العبودية وطلوع سلطنة مالك يوم الدين ففي منتهى هذا السلوك تصيبه حالة التمكن والأستقرار ويصحو السالك وتحصل له حالة الصحو ويتوجّه الى مقامه ولكن اتباع التوجّه الى الحق بعكس حال الرجوع الى الله الذي كان التوجه الى الحق فيه بتبع التوجه الى الخلق، وبعبارة اخرى في حال السلوك الى الله كان يرى الحق في الحجاب الخلقي وبعد الرجوع من مرتبة الفناء الكلي التي حصلة في مالك يوم الدين يرى الخلق في حجاب الحق ، ومن هذه الجهة يقول اياك نعبد بتقديم ضمير ايّا وكاف الخطاب على ذاته وعبادته وحيث انه لا يمكن ألاّ يكون لهذه الحالة ثبات ويتصوّر في هذا المقام ايضا الزلّة فيطلب من الحق تعالى ثباته ولزومه بقوله اهدنا أي الزمنا كما في السر بهذا.

وليعلم أن هذا المقام الذي ذكر، والتفسير الذي بيّن انما هو للكمّل من أهل المعرفة الذين مقامهم الاول أنهم في مقام رجوعهم من السير الى الله يكون الحق تعالى حجابا لهم عن الخلق ومقام كمالهم هو حالة البرزخية الكبرى التي لا يكون الخلق فيها حجابا لهم من الحق كأمثالنا المحجوبوبين ولا الحق يكون حجابا لهم عن الخلق كالواصلين المشتاقين والفانين المجذوبين، فالصراط المستقيم لهم عبارة عن هذه الحالة البرزخية المتوسطة بين النشأتين وهي صراط الحق وبناء على هذا يكون المقصود من الذين أنعمت عليهم هؤلاء الذين قدر الحق تعالى في الحضرة العلمية بالتجلي بالفيض الاقدس استعدادهم وبعد الفناء الكلي أرجعهم الى مملكتهم ويكون المغضوب عليهم على هذا التفسير المحجوبين قبل الوصول والضالين هم الفانون في الحضرة واما غير الكمّل فإنهم إن لم يردوا في السلوك فهذه الامور في حقهم غير صحيحة وصراطهم صراط ظاهر الشريعة ولهذا فسّر الصراط المستقيم بالدين والاسلام وأمثالهما وإن كانوا من أهل السلوك فالمقصود من الهداية ومن الصراط

المستقيم أقرب طرق الوصول الى الله وهو طريق رسول الله وأهل بيته كما فسّر برسول الله وأئمة الهدى وأمير المؤمنين عليهم السلام، وكما في الحديث ان رسول الله رسم خطا مستقيما ورسم في أطرافه خطوطا قال رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الخط الوسط المستقيم لي ولعل المراد من الامة الوسط في قوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} (البقرة ـ 143). الوسطية بقول مطلق وبجميع المعاني ومن جملتها الوسطية في جميع المعارف والكمالات الروحية وهي مقام البرزخية الكبرى والوسطية العظمى ولهذا يختص هذا المقام بالكمّل من أولياء الله، ولذا ورد في الرواية أن المقصود من هذه الآية أئمة الهدى عليهم السلام كما قال الباقر عليه السلام ليزيد بن معاوية العجلي: "نحن الأمة الوسط ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه" الحديث. وفي رواية اخرى "الينا يرجع الغالي وبنا يلحق المقصّر" وفي هذا الحديث اشارة الى ما ذكر.

تنبيه اشراقي واشراق عرفاني:

اعلم أيها الطالب للحق والحقيقة أن الحق تبارك وتعالى لما خلق نظام الوجود ومظاهر الغيب والشهود على حسب الحب الذاتي بالمعروفية في حضرة الأسماء والصفات بمقتضى الحديث الشريف: كنت كنزا مخفيّا فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق لكي أعرف.. فأودع وأبدع في فطرة جميع الموجودات الحب الذاتي والعشق الجبلي، فجميع الموجودات بتلك الجذبة الالهية ونار العشق الرباني تتوجه الى الكمال المطلق وتطلب وتعشق الجميل على الاطلاق وجعل سبحانه لكل واحد منها نورا فطريا الهيا يجد بذلك النور طريق الوصول الى المقصد والمقصود، وهذه النار وهذا النور أحدهما رفرف

الوصول والآخر براق العروج، ولعل براق رسول الله ورفرفه كانت رقيقة هذه اللطيفة وصورة ممثلة ملكية لهذه الحقيقة ولهذا أنزلت من الجنة التي هي باطن هذا العالم، وحيث أن الموجودات نزلت في مراتب التعينات وحجبت عن جمال الجميل المحبوب جلت عظمته فيخرجها الحق تعالى بهذه النار والنور عن حجب التعينات الظلمانية والانّيّات النورانية بالاسم المبارك الهادي الذي هو حقيقة هذه الرقائق ويوصلها الى المقصد الحقيقي وجوار محبوبها في أقرب الطرق، فذاك النور نور هداية الحق تعالى وتلك النار نار التوفيق الالهي، والسلوك في الطريق الاقرب هو الصراط المستقيم والحق تعالى على ذاك الصراط المستقيم ولعله تكون الاشارة الى هذه الهداية وهذا السير وهذا المقصد الآية الشريفة: {ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم} (هود ـ 56) كما هو ظاهر لأهل المعرفة.

وليعلم أن لكل من الموجودات صراطا خاصّا به ونورا وهداية مخصوصا به والطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق، وحيث أن في كل تعيّن حجابا ظلمانيا وفي كل وجود وانيّة حجابا نورانيا، والانسان مجمع التعيّنات وجامع الموجودات فهو احجب الموجودات عن الحق تعالى ولعله الى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: {ثم رددناه أسفل سافلين} (التين ـ 5) ومن هذه الجهة فصراط الانسان أطول الصرط وأظلمها، وأيضا حيث أن رب الانسان حضرة اسم الله الاعظم ونسبة الظاهر والباطن والاول والآخر والرحمة والقهر. وبكلمة أخيرة نسبة جميع الاسماء المتقابلة له على السواء فلا بد أن يحصل لنفس الانسان في منتهى سيره مقام البرزخية الكبرى، ولهذه الجهة يكون صراطه أدق من جميع الصراط.

تنبيه ايماني:

كما ذكر وعلم ان للهداية على حسب أنواع سير السائرين ومراتب سلوك السالكين الى الله مقامات ومراتب ونحن نشير بطريق الاجمال الى بعض مقاماتها ليعلم في ضمنه الصراط المستقيم وصراط المفرطين. وصراط المفرِّطين الذين هم المغضوب عليهم ولا الضالون على حسب كل مرتبة من المراتب.

الاول: نور الهداية الفطري وقد أشير اليه في التنبية السابقة. فالصراط المستقيم في هذه المرتبة من الهداية عبارة عن السلوك الى الله بلا احتجاب بالحجب الملكية أو الملكوتية أو أنه السلوك الى الله بلا احتجاب بحجب المعاصي القالبية أو المعاصي القلبية أو أنه السلوك الى الله بلا احتجاب بالحجب النورانية أو الظلمانية، أو السلوك الى الله بلا احتجاب بحجب الوحدة أو الكثرة ولعل آية: {يضل من يشاء ويهدي من يشاء} (فاطر ـ 8) تشير الى هذه المرتبة من الهداية والاحتجاب التي قدرت في حضرة القدر وهي عندنا عبارة عن مرتبة الواحدية بالتجلي بحضرات الأعيان الثابتة، وتفصيله خارج عن مجال هذه الرسالة بل عن نطاق التحرير والبيان وهو سرّ من أسرار الله وستر من استار الله.

الثاني: الهداية بنور القرآن وفي مقابله الغلوّ والتقصير عن معرفته أو الوقوف على الظاهر والوقوف على الباطن، كما أن بعض أهل الظاهر يرون أن علوم القرآن عبارة عن المعاني العرفية العامية والمفاهيم السوقية والوضعية ولهذه العقيدة لا يتفكرون في القرآن ولا يتدبرونه، واستفادتهم من هذه الصحيفة النورانية المتكفّلة لجميع السعادات الروحية والجسمية والقلبية والقالبية

منحصرة بالمقررات الصورية الظاهرية، والآيات الكثيرة الدالة على أن التدبّر والتذكّر لازم أو راجح ويفتح أبوابا من المعرفة بالاستنارة بنور القرآن يجعلونها وراء ظهورهم فكأن القرآن نزل للدعوة الى الدنيا ومستلذاتها الحيوانية وتأكيد المقام الحيواني والشهوات البهيمية.

وبعض أهل الباطن اتباعا لظنونهم ينصرفون عن ظاهر القرآن ودعواته الصورية التي هي برنامج التأدّب بآداب المحضر الالهي وكيفية السلوك الى الله وهم عنها غافلون وينحرفون عن ظاهر القرآن بتلبيسات ابليس اللعين والنفس الأمارة بالسوء ويتشبّثون بزعمهم بالعلوم الباطنية مع أن طريق الوصول الى الباطن بالتأدب بالظاهر فهاتان الطائفتان خارجتان عن جادة الاعتدال ومحرومتان من نور الهداية الى الصراط المستقيم القرآني ومنسوبتان الى الافراط والتفريط ولكن العالم المحقق والعارف المدقق يقوم بالظاهر والباطن ويتأدب بالآداب الصورية والمعنوية، فكما أنه ينوّر الظاهر بنور القرآن ينوّر الباطن أيضا بأنوار معارفه وتوحيده وتجريده.

فليعلم أهل الظاهر أن قصر القرآن على الاداب الصورية الظاهرية ونبذة من الوظائف العملية والأخلاقية والعقائد العامية في باب التوحيد والأسماء والصفات انكار لحق القرآن واعتقاد النقص في الشريعة الختمية التي لا بد أن يتصوّر أكمل منها والا تكون خاتميته في سنّة العدل محالا، فحيث أن هذه الشريعة خاتمة الشرائع والقرآن خاتم الكتب النازلة والرابطة الأخيرة بين الخالق والمخلوق، فلا بد أن يكون في حقائق التوحيد والتجريد والمعارف الالهية التي هي المقصد الاصلي والغاية الذاتية للأديان والشرائع والكتب النازلة الالهية، في المرتبة النهائية ومنتهى أوج الكمال والا يلزم النقص في الشريعة وهو خلاف العدل الالهي واللطف الربوبي وهذا بنفسه محال فضيح وعار قبيح لا تغسل وَسْمَةَ عاره عن وجه الأديان الحقّة بسبعة أبحر والعياذ بالله.

وليعلم أهل الباطن أن الوصول الى المقصد الأصلي والغاية الحقيقية لا يمكن الا بتطهير الظاهر والباطن، وبدون التشبّث بالصورة والظاهر لا يمكن الوصول الى اللبّ والباطن، وبدون التلبّس بلباس ظاهر الشريعة لا يوجد الطريق الى الباطن، ففي ترك الظاهر ابطال لظاهر الشريعة وباطنها وهذا من تلبيسات شياطين الجن والانس، وقد ذكرنا نبذة من هذا المطلب في كتاب شرح أربعين حديثا.

الثالث: الهداية بنور الشريعة.

الرابع: الهداية بنور الاسلام.

الخامس: الهداية بنور الايمان.

السادس: الهداية بنور اليقين.

السابع: الهداية بنور العرفان.

الثامن: الهداية بنور المحبة.

التاسع: الهداية بنور الولاية.

العاشر: الهداية بنور التجريد والتوحيد، ولكل منها طرفان: افراط وتفريط وغلوّ وتقصير، وتفصيلها موجب للتطويل ولعله الى بعضها أو الى جميعها يشير الحديث الشريف للكافي: "نحن آل محمد النمط الأوسط الذي لا يدركنا الغالي ولا يسبقنا التالي". وفي الحديث النبوي صلى الله عليه وآله "خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع اليهم الغالي".

تنبيه عرفاني:

اعلم أن لكل من موجودات عوالم الغيب والشهادة والدنيا والاخرة مبدأ ومعادا وان كان مبدأ الكل ومرجعه الهوية الالهية ولكن حيث إنه ليس للذات المقدسة جلا وعلا من حيث هو بلا حجاب الاسماء تجلّ للموجودات العالية والسافلة وبحسب هذا المقام اللامقامي لا اسم له ولا رسم وغير متصف بالأسماء الذاتية والصفاتية والأفعالية وليس لأحد من الموجودات معه تناسب ولا ارتباط ولا اختلاط، أين التراب ورب الأرباب، كما ذكرت تفصيل هذه اللطيفة مستقصى في كتاب مصباح الهداية فمبدأ ذاته المقدسة ومصدريتها في الحجب الأسمائية والأسم عين الحال انه نفس المسمّى فهو حجابه ايضا، فالتجلي في عوالم الغيب والشهادة على حسب الأسماء وفي حجابها، فمن هذه الجهة للذات المقدسة وفي جلوات الأسماء والصفات تجليات في الحضرة العلمية يسمي أهل المعرفة تعيناتها بالأعيان الثابتة فبناء على هذا يلزم لكل تجلّ اسمي في الحضرة العلمية عين ثابت ولكل اسم بتعيّنه العلمي مظهر في النشأة الخارجية ومبدأ هذا المظهر ومرجعه الى الأسم الذي يناسبه ورجوع كل الموجودات من عالم الكثرة الى غيب الاسم الذي هو مصدره ومبدؤه عبارة عن الصراط المستقيم له، فلكلٍ سير وصراط مخصوص ومبدأ ومرجع مقدر في الحضرة العلمية طوعا أو كرها، واختلاف المظاهر والصرط باختلاف الظاهر وحضرات الاسماء.

وليعلم أن تقويم الانسان في أعلى علّيّين للجمع الاسمائي، فلهذه الجهة رد الى أسفل السافلين ويشرع صراطه في أسفل السافلين ويختم بأعلى عليين وهذا صراط الذين أنعم الله عليهم بالنعمة المطلقة وهي نعمة كمال الجمع الاسمائي التي هي أعلى النعم الالهية، والصراط الأخر سواء أكان صراط السعداء والمنعم عليهم أو صراط الأشقياء، فبمقدار نقصانة من فيض النعمة المطلقة داخل في أحد الطرفي الافراط والتفريط فصراط الانسان الكامل فقط صراط المنعم عليهم بقول مطلق، وهذا الصراط بالأصالة مختص بالذات المقدسة للنبي الخاتم وثابت لسائر الأولياء والأنبياء بالتبعية، وفهم هذا الكلام مع أن النبي الأكرم هو الخاتم للنبيين يحتاج الى فهم حضرات الاسماء والاعيان وكفيله رسالة مصباح الهداية، والله الهادي الى سبيل الرشاد.

نقل كلام زيادة في الأفهام:

قال الشيخ الجليل البهائي (هو شيخ الاسلام والمسلمين محمد بن الحسين بن عبدالصمد الجبعي العاملي الحارثي قال صاحب السلافة في حقه ما ملخّصه هو علامة البشر ومجدّد دين الائمة على رأس القرن الحادي عشر اليه انتهت رئاسة المذهب والملة الى أن قال مولده بعلبك عند غروب الشمس يوم الاربعاء لثلاث عشر بقين من ذي الحجة سنة 953 (ظنج) وانتقل به والده وهو صغير الى الديار العجمية فنشأ في حجرة الاقطار المحمية

وأخذ عن والده وغيره من الجهابذ حتى أذعن له كل مناضل ومنابذ. فلما أشتد كاهله وصفت له من العلم مناهله ولي بها شيخ الاسلام وفوّضت اليه امور الشريعة على صاحبها الصلاة والسلام ولم يزل آنفا من الانحياز الى السلطان راغبا في العزلة عازفا عن الاوطان يؤمل العود الى السياحة ويرجو الاقلاع من تلك الساحة فلم يقدر له حتى وافاه حِمامه وترنّم على أفنان الجنان حَمامه وأخبرني بعض ثقاة الاصحاب ان الشيخ (ره) قصد قبل وفاته زيارة المقابر في جمع من الاجلاء الاكابر فما استقرّ بهم الجلوس حتى قال لمن معه اني سمعت شيئا فهل فيكم من سمعه؟ فأنكروا سؤاله واستغربوا مقاله وسألوه عما سمعه فأوهم وعمى في جوابه ثم رجع الى داره فأغلق بابه فلم يلبث أن اصاب داعي الردى فأجابه وكانت وفاته لاثنتي عشرة خلون من شوال المكرّم سنة 1031 (غلا) باصبهان ونقل قبل دفنه الى طوس فدفن بها في داره قريبا من الحضرة الرضوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية (انتهى).

حكي عن المجلس الاول قال في ترجمة استاذه الشيخ بهاء الدين انه سمع قبل وفاته بستة أشهر صوتا من قبر بابا ركن الدين وكنت قريبا منه فنظر الينا وقال سمعتم ذلك الصوت؟ فقلنا: لا. فاشتغل بالبكاء والتضرّع والتوجّه الى الآخرة وبعد المبالغة العظيمة قال اني أُخبرت باستعداد الموت وبعد ذلك بستة أشهر تقريبا توفي وتشرفت بالصلاة عليه مع جميع الطلبة والفضلاء وكثير من الناس يقربون من خمسين ألفا (انتهى).

له مصنفات فائقة مشهورة أكثرها مطبوعة. منها: حبل المتين وشرق الشمسين والاربعين والجامع العباسي والكشكول والمخلاة والعروة الوثقى ونان وحلوا والزبدة والصمدية وخلاصة الحساب وتشريح الافلاك والرسالة الهلالية ومفتاح الفلاح. وهذه الكتب كلها مطبوعة في ايران.) قدس سره في رسالة العروة الوثقى (لم تكن الرسالة موجودة عندي. وما ذكرته ترجمة المؤلف دام ظله من رسالة العروة الوثقى) ان نعم الله سبحانه وان كانت أجلّ من أن تحصى كما قال الحق تعالى: {وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها} (ابراهيم ـ 34) لكنها جنسان النعم الدنيوية والاخروية وكل منهما اما وهبي او كسبي، وكل منهما اما روحاني او جسماني فالمجموع ثمانية أقسام:

الأول: الدنيوي الوهبي الروحاني كنفخ الروح وإفاضة العقل والفهم.

الثاني: الدنيوي الوهبي الجسماني مثل خلق الأعضاء وقواها.

الثالث: الدنيوي الكسبي الروحاني كتخلية النفس من الأمور الدنية وتحليتها بالخلق الذكية والملكات العالية.

الرابع: الدنيوي الكسبي الجسماني كالتزيّن بالهيئة الحميدة والحليّ الحسنة.

الخامس: الأخروي الوهبي الروحاني كأن يغفر الله ذنوبنا ويرضى عنّا من تاب سابقا (عبارة الشيخ في هذا المثال ما ذكر والظاهر أنه وقع سهو من الناسخ ولعل الصحيح ان الله يغفر لنا من دون سبق التوبة. فراجع...).

السادس: الأخروي الوهبي الجسماني كأنهار من لبن وعسل.

السابع: الأخروي الكسبي الروحاني كالمغفرة والرضوان مع سبق التوبة وكاللذات الروحانية التي استجلبت بفعل الطاعات.

الثامن: الأخروي الكسبي الجسماني، كاللذات الجسمانية التي استجلبت لفعل الطاعات، والمراد من النعمة هنا الأقسام الأربعة الأخيرة وما يكون وسيلة للبلوغ الى هذه الأقسام الأربعة من الأقسام الأربعة الأول.. انتهت ترجمة الشيخ قدس سره.

وهذه التقسيمات للشيخ وان كانت لطيفة ولكن الاهم من النعم الالهية وأعظم مقصد الكتاب الشريف الالهي قد سقط من قلم الشيخ الجليل واكتفى فقط بنعم الناقصين أو المتوسطين، وفي كلامه قدس سره، وان جرى ذكر من اللذة الروحانية ولكن اللذة الروحانية الأخروية التي استجلبت بفعل الطاعات حظ المتوسطين ان لم نقل بأنها حظ الناقصين، وبالجملة غير ماذكره الشيخ الجليل الراجع الى اللذات الحيوانية والحظوظ النفسانية نعم أخرى وعمدتها ثلاث:

الأولى: نعمة معرفة الذات والتوحيد الذاتي التي أصلها السلوك الى الله ونتيجتها جنة اللقاء، واذا كان السالك نظر الى النتيجة ففي

السلوك نقصان لأن هذا المقام ترك النفس ولذاتها والتوجه الى حصول النتيجة توجه الى النفس وهذا هو عبادة للنفس لا لله وتكثير لا توحيد وتلبيس لا تجريد.

الثانية: نعمة معرفة الاسماء وهذه النعمة تتشعب على حسب الكثرة الاسمائية، فإن حسبت مفرداتها فألف وان حسبت بالتركيب من الاسمين أو الاسماء فخارجة عن حد الاحصاء وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها (ابراهيم ـ 34) والتوحيد الاسمائي في هذا المقام نعمة معرفة الاسم الاعظم الذي هو مقام أحدية جمع الاسماء، ونتيجة معرفة الاسماء جنة الاسماء لكل على مقدار معرفة اسم أو اسماء فردا أو جمعا.

الثالثة: نعمة معرفة الافعال، ولهذه ايضا شعب كثيرة غير متناهية ومقام التوحيد في هذه المرتبة هو أحدية جمع التجليات الفعلية التي هي مقام الفيض الاقدس ومقام الولاية المطلقة ونتيجتها جنة الافعال التي هي تجليات أفعالية للحق تعالى لقلب السالك، ولعل التجلي لموسى بن عمران في بدء الأمر اذ قال: {انست نارا} (طه ـ 10) كان بالتجلي الافعالي والتجلي الذي اليه الاشارة في قوله تعالى : {فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّا وخرّ موسى صعقا} (الأعراف ـ 143). كان تجليا اسمائيا او ذاتيا فصراط المنعم عليهم في المقام الاول صراط السلوك الى ذات الله والنعمة في ذلك المقام التجلي الذاتي. وفي المقام الثاني صراط السلوك الى اسماء الله، والنعمة في ذلك المقام التجليات الاسمائية وفي المقام الثالث السلوك الى فعل الله و نعمته التجلي الافعالي، سواء أكانت روحانية أو جسمانية كما أثبت هذا المقام في الروايات لبعض المؤمنين أيضا.

خاتمة:

اعلم ان السورة المباركة الحمد كما أنها مشتمله على جميع مراتب الوجود، كذلك هي مشتملة على جميع مراتب السلوك، ومشتملة بطريق الاشارة على جميع مقاصد القرآن. والغور في هذه المطالب وان كان يحتاج الى بسط تام ومنطق غير هذا المنطق، ولكن الاشارة الى كل واحد منها لا تخلو من فائدة بل فوائد لأصحاب المعرفة واليقين.

فنقول في المقام الاول: أنه يمكن ان يكون بسم الله الرحمن الرحيم اشارة الى دائرة الوجود بتمامها وقوس النزول والصعود، فاسم الله مقام أحدية القبض والبسط والرحمن مقام البسط والظهور وهو قوس النزول. والرحيم مقام القبض والبطون وهو قوس الصعود.

والحمد لله يمكن ان يكون اشارة الى عالم الجبروت والملكوت الأعلى التي حقائقها المحامد المطلقه.

ورب العالمين بمناسبة التربية وبمناسبة العالمين التي هي مقام السوائية والغيرية يمكن أن يكون اشارة الى عوالم الطبيعة التي بجوهر ذاتها متحركة ومتصرمة وتحت التربية. ومالك يوم الدين اشارة الى مقام الوحدة والقهارية ورجوع دائرة الوجود.

والى هنا يختتم دائرة الوجود بتمامها نزولا وصعودا.

ونقول في المقام الثاني: أن الاستعاذة وهي مستحبة لعلها اشارة الى ترك غير الحق والفرار من السلطنة الشيطانية. وحيث أن هذه مقدمة

المقامات لا جزءها لأن التخليه مقدمه للتحليه وليست بالذات من المقامات الكماليه، ولهذه ليست الاستعاذه جزءا للسورة بل مقدمه للدخول فيها.

والتسمية لعلها اشارة الى مقام التوحيد الفعلي والذاتي والجمع بينهما.

والحمد لله رب العالمين لعلّها اشاره الى التوحيد الفعلى.

ومالك يوم الدين اشاره الى الفناء التام والتوحيد الذاتي، ومن اياك نعبد تشرع حالة الصحو والرجوع.

وبعبارة أخرى الاستعاذة هي السفر من الخلق الى الحق والخروج من بيت النفس، والتسمية اشارة الى التحقق بالحقانية بعد الخلع عن الخلقيه وعالم الكثرة.

والحمد الى رب العالمين اشارة الى السفر من الحق الى الحق في الحق.

وفي مالك يوم الدين يتم هذا السفر.

ونقول في المقام الثالث: ان هذه السورة الشريفة مشتملة على عمدة المقاصد الالهية في القرآن الشريف لأن أصل مقاصد القرآن هو تكميل معرفة الله وتحصيل التوحيدات الثلاثة والرابطة فيما بين الحق والخلق، وكيفية السلوك الى الله، وكيفية رجوع الرقائق الى حقيقية الحقائق، وتعريف التجليات الالهية جمعا وتفصيلا وفردا وتركيبا، وإرشاد الخلق سلوكا وتحققا، وتعليم العباد علما وعملا وعرفانا وشهودا. وجميع هذه الحقائق موجودة في هذه السورة الشريفة فاتحة الكتاب وام الكتاب وصوره اجمالية عن مقاصد القرآن الكريم وحيث ان جميع مقاصد الكتاب الالهي ترجع الى مقصد واحد وهو حقيقة التوحيد التى هي غاية النبوات ونهاية مقاصد الانبياء العظام عليهم السلام.

فحقائق التوحيد وسرائره منطوية في الآية المباركة بسم الله الرحمن الرحيم، فهذه الآية الشريفة أعظم الآيات الالهية ومشتملة على جميع مقاصد الكتاب الالهي كما ورد فى الحديث الشريف وحيث ان الباء ظهور التوحيد ونقطة تحت الباء سرّه فجميع الكتاب ظهورا وسرا موجودة فيها، والانسان الكامل يعني الوجود العلوي المبارك عليه الصلاة والسلام هو نقطة سرالتوحيد وليست في العالم آية أكبر من ذلك الوجود المبارك بعد الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله كما ورد في الحديث الشريف.

تتمه:

في ذكر بعض الروايات الشريفة التي وردت في فضل هذه السورة المباركة:

منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لجابر بن عبد الله الانصاري رضي الله عنه (جابر بن عبدالله بن عمرو بن خزام الانصاري. صحابي جليل القدر وانقطاعه الى أهل البيت عليهم السلام وجلالته أشهر

من أن يذكر. مات سنة 78 (عح) حكي عن أسد الغابة أنه قال في جابر (رض) انه شهد مع النبي ثمان عشرة غزوة وشهد صفين مع علي بن أبي طالب وعميَ في آخر عمره وكان يحفي شاربه وكان يخضب بالصفرة وهو اخر من مات بالمدينة ممن شهد القعبة الى أن قال وكان من المكثرين للحديث الحافظين للسنن (انتهى). قال العلامة النوري في المستدرك في ترجمة جابر الانصاري هو من السابقين الأولين الذين رجعوا الى أمير المؤمنين وحامل سلام رسول الله الى باقر علوم الأولين والأخرين وأول من زار أبى عبدالله الحسين في يوم الأربعين المنتهي اليه سند أخبار اللوح السّمائي الذي فيه نصوص من الله رب العالمين على خلافة الأئمة الراشدين الفائز بزيارته من بين جميع الصحابة عند سيدة نساء العالمين وله بعد ذلك مناقب اخرى وفضائل لا تحصى (انتهى).)

"يا جابر، ألا أعلّمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟ فقال جابر: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله علّمنيها. قال: فعلّمه الحمد أم الكتاب ثم قال: يا جابر، ألا أخبرك عنها؟ قال: بلى بأبي أنت وأمي يارسول الله أخبرني. قال: هي شفاء من كل داء الا السأم".

وعن أبن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "لكل شيء أساس وأساس القرآن الفاتحة وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم" وعنه صلىالله عليه وآله "فاتحة الكتاب شفاء من كل داء". وعن الصادق عليه السلام: "من لم تبرئه الحمد لم يبرئه شيء".

وعن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال، قال رسول الله صلى الله

عليه وآله: "ان الله تعالى قال لي يا محمد ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب وجعلها بازاء القرآن وان فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش وان الله خصّ محمدا وشرّفه بها ولم يشرك فيها احدا من انبيائه ما خلا سليمان فإنه اعطاه منها بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تراه يحكي عن بلقيس حين قالت إنّي ألقيَ إليّ كتاب كريم إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا فمن قرأها معتقدا لموالاة محمد وآله منقادا لأمرها مؤمنا بظاهرها وباطنها اعطاه الله بكل حرف منها حسنه كل واحدة منها افضل له من الدنيا بما فيها من اصناف أموالها وخيراتها ومن استمع الى قارىء يقرؤها كان له قدر ثلث ما للقارىء فليستكثر أحدكم من هذا الخير المعرّض له فإنه غنيمة لا يذهبنّ أوانه فتبقى في قلوبكم حسرة".

وعن الصادق عليه السلام: "لو قرأت الحمد على ميّت سبعين مرة ثم ردّت فيه الروح ما كان عجيبا" وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: "أيّما مسلم قرأ فاتحة الكتاب أعطي من الاجر كأنّما قرأ ثلثي القرآن وأعطي من الاجر كأنما تصدّق على كل مؤمن ومؤمنة". وروى هذا الخبر بعينه من طريق آخر الا أنه قال "كأنما قرأ القرآن".

وروي عن أبيّ ابن كعب (أبيّ بن كعب صحابي شهد العقبة مع السبعين وكان يكتب الوحي شهد بدرا والعقبة الثانية وبايع رسول الله وكان من الاثني عشر الذين أنكروا على أبي بكر خلافته وأرادوا تنزيله عن ممبر رسول الله وكفى في فضله وجلالته ان الصادق عليه السلام ينقل الحديث عنه كما في مصباح الشريعة أن الصادق عليه السلام قال حسن الظن أصله من حسن ايمان المرء وسلامة صدره الى أن قال قال أبيّ بن كعب اذا رأيتم أحد اخوانكم في خصلة تستنكرونها منه فتأوّلوا لها سبعين تأويلا فإن اطمأنت قلوبكم على أحدها والا فلوموا أنفسكم حيث لم تعذروه في خصلة سترها عليه سبعين تأويلا وأنتم أولى بالأنكار على أنفسكم.) قال: "قرأت على رسول الله فاتحة الكتاب فقال: والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها هي أمّ الكتاب وهي السبع المثاني وهي مقسومة بين الله وعبده ولعبده ما سأل". وعن حذيفة بن يمان (حذيفة بن

اليمان العنسي من أصحاب رسول الله أحد الأركان الأربعة سكن الكوفة ومات بالمدائن وعن أسد الغابة أنه كان صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بالمنافقين لم يعلمهم أحد الا حذيفة أعلمه بهم رسول الله (انتهى). قتل أبوه في أحد قتله المسلمون خطأ يحسبونه من العدو وحذيفة يصيح بهم فلم يفقهوا قوله حتى قتل فلما رأى حذيفه أن أباه قد قتل أسغفر للمسلمين فقال: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. فبلغ ذلك رسول الله فزاده عنده خيرا وحكي أن له درجة العلم بالسنّة وعن العلامة الطباطبائي أنه يستفاد من بعض الأخبار أن له درجة العلم بالكتاب ايضا وقال ايضا وعند الفريقين انه كان يعرف المنافقين بأعيانهم وأشخاصهم. عرفهم لليلة العقبة حين أرادوا أن ينفروا ناقة رسول الله في منصرفهم من تبوك وكان حذيفة تلك الليلة قد أخذ بزمام الناقة ويقودها وكان عمار من خلف الناقة يسوقها. وتوفي في المدائن بعد خلافة أمير المؤمنين (ع) بأربعين يوما سنة ست وثلاثين وأوصى أبنيه صفواناً وسعيداً بلزوم أمير المؤمنين واتباعه فكانا معه بصفين وقتلا بين يديه وفي أمالي الشيخ الصدوق (ره) عن الثمالي قال: دعا حذيفة بن اليمان ابنه عند موته فأوصى اليه وقال: يا بني أظهر اليأس عما في أيدي الناس فإن فيه الغنى واياك وطلب الحاجات الى الناس فإنه فقر حاضر وكن اليوم خيرا منك أمس واذا أنت صليت فصلّ صلاة مودّع للدنيا كأنك لا ترجع واياك وما يُعتذر منه.) رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: "ان الله تعالى يرسل العذاب الحتم المقضي الى قوم فيقرأ صبّي من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين فلما سمع الله يرفع العذاب عنهم أربعين سنة" وعن ابن عباس1 (عبدالله بن العباس بن عبد المطلب أمه لبانة بنت الحرث بن الحزن أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وآله قال العلامة كان محبا لعلي (ع) وتلميذه، حاله في الجلالة والاخلاص لأمير المؤمنين أشهر من أن يخفى وقد ذكر الكشي أحاديث تتضمن قدحا فيه وهو أجلّ من ذلك وقد ذكرناه في كتابنا الكبير وأجبنا عنه (انتهى). ذكروا أنه ولد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين ودعا له النبي صلى الله عليه وآله بالفقه والتأويل وكان حبر هذه الأمة وترجمان القرآن وكان عمر يقربه ويشاوره مع جملة الصحابة كف بصره في أواخر عمره وتوفي بالطائف سنة 68 (سح) وله تفسير مطبوع وابنه أبو محمد علي بن عبدالله بن العباس جدّ السفاح والمنصور كان شريفا وكان أصغر أولاد أبيه روي أنه لما ولد أخرجه أبوه الى أمير المؤمنين عليه السلام فحنكه ودعا له ثم ردّه اليه وقال خذ اليك أبا الأملاك قد سميته عليا وكنيته أبا الحسن.) قال: "بينما رسول الله صلى الله عليه وآله جالس وعنده جبرائيل اذ سمع نقيضا . يعني صوتا . فرفع رأسه فاذا باب من السماء قد فتح فنزل عليه ملك وقال: ان الله يبشّرك بنورين لم يعطهما نبيّا قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لا يقرأهما أحد الا أعطيته حاجته" (هذه الرواية ذكرها في المجمع وقد أشار إليها المؤلف دام ظله بأنها قريبة المضمون للرواية التي ذكر ترجمتها المؤلف في الأصل.

لفت نظر: ما ذكرته في صفحة 402 من الرواية عن باقر عليه السلام ترجمة لما ذكره المؤلف دام ظله واليك نصّ الحديث روى المحدث المجلسي في البحار عن كشف الغمة للعالم علي بن عيسى الأربلي قال جعفر (عليه السلام) فَقَدَ أبي بغلة له فقال لئِن ردّها الله تعالى لأحمدنّه بمحامد يرضاها فما لبث أن أُتي بها بسرجها ولجامها فلما استوى عليها وضمّ اليه ثيابه رفع رأسه الى السماء فقال الحمد لله فلم يزد ثم قال ما تركت ولا بقيت شيئا جعلت كل أنواع المحامد لله عز وجل فما من حمد الاّ وهو داخل في ما قلت.

أقول: قد علق على الرواية في الطبع الجديد للبحار أنه أخرج ذلك ابن طلحة في مطالب السؤول ص80 وابو نعيم في الحلية ج 3 ص186 بتفاوت. ولعل المؤلف أخذها عن غير الاربلي كما هو ظاهر).

الفصل السادس

في نبذة من تفسير السورة المباركة التوحيد:

اعلم أن هذه السورة الشريفة حيث أنها نسب الحق تعالى كما في الأحاديث الشريفة منها ما في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام): أن اليهود سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا: "أنسب لنا ربّك فلبث ثلاثا لا يجيبهم ثم نزلت: قل هو الله أحد إلى آخرها" فلهذا تعجز عقول البشر عن فهم حقائقها ودقائقها وأسرارها ولكن مع هذا الوصف فما هو نصيب أهل المعرفة منها وما هو حظ قلوب أهل الله منها لا يسعه ميزان العقل المجرّد، ولعمر الحبيب إن هذه السورة الشريفة من الأمانات التي عجزت عن حملها سماوات الأرواح وأراضي الأشباح وجبال الإنّيّات وأشفقن منها ولا يليق بحملها إلا الإنسان الكامل الذي تجاوز عن حدود الإمكانية وصار مجذوبا وبلا حواس ولكن مع ذلك هنا بشارة تقرّ بها عيون أهل آخر الزمان وتعطي الاطمئنان لقلوب أهل المعرفة وهي الحديث الذي في الكافي الشريف قال: "سئل علي بن الحسين (عليه السلام) عن التوحيد فقال: إن الله عزّ وجلّ علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى قل هو الله أحد والآيات من سورة الحديد إلى قوله وهو عليم بذات الصدور فمن رام وراء ذلك فقد هلك".

ويعلم من هذا الحديث الشريف أن فهم هذه الآيات وهذه السورة المباركة يحق للمتعمقين وأصحاب الأنظار الدقيقة. ودقائق التوحيد والمعرفة وسرائرها منطوية فيها، وأن الحق تعالى أنزل لطائف العلوم الإلهية لأهلها، والذين ليس لهم حظ من سرائر التوحيد والمعارف الإلهية فليس لهم حق النظر في هذه الآيات، وليس لهم حق أن يحملوا ويفسّروا هذه الآيات على ما يفهمونه من المعاني العامية السوقية.. وفي الآيات الأولى من السورة المباركة الحديد دقائق من التوحيد والمعارف الجليلة من الأسرار الإلهية والتجريد ما لا يوجد له نظير في شيء من المسفورات الإلهية وصحف أهل المعرفة وأرباب القلوب، ولو لم تكن لصدق النبوّة وكمال شريعة النبي الخاتم سوى هذه الآيات لكفت أهل النظر والمعرفة. وإن أعظم شاهد على أن هذه المعارف خارجة عن تحمل البشر، وفوق أن يحيط بها الفكر الإنساني، أنه من قبل أن تنزل هذه الآيات الشريفة وأمثالها من المعارف المشتمل عليها القرآن الشريف لم يكن عند البشر سابقة هذا القسم من المعارف ولم يكن لهم طريق إلى هذه السرائر، وأن الكتب والصحف لأعاظم فلاسفة العالم موجودة الآن، مع أن علومهم أيضا من منبع الوحي الإلهي ولعل أعلاها وألطفها الكتاب الشريف "أثولوجيا" التصنيف القيّم للفيلسوف عظيم الشأن والحكيم الجليل أرسطاطاليس الذي سجد في جنابه أعجوبة الدهر ونادرة الزمان الشيخ الرئيس (هو أبو علي بن عبد الله بن سينا البخاري الشيخ الفيلسوف المعروف الملقب بالشيخ الرئيس كان أبوه من بلخ في شمال أفغانستان وسكن مملكة بخارا في زمن نوح بن منصور من الدولة السامانية فولد ولده بها وكان أعجوبة في الذكاء والحفظ أفتى على مذهب ابي حنيفة وهو ابن اثنتي عشر سنة وصنف القانون وهو ابن ستة عشر فمرض نوم بن منصور الساماني فجمعوا الاطباء لمعالجته فجمعوه معهم فرأوا معالجته خيرا من معالجات كلّهم فصلح على يديه فسأله أن يوصي خازن كتبه ان يعيره كلّ كتاب طلب ففعل فرأى في خزانته كتب الحكمة من تصانيف ابي نصر طرخان الفارابي فاشتغل بتحصيل الحكة ليلا ونهارا حتى حصّلها. قال فلما انتهى عمري الى الى أربع وعشرين كنت افكّر في نفسي ما كان شيء من العلوم انّي لا أعرفه. ويحكى أنه لم يكن في آن فارغا من المطالعة والكتابة وقليلا من الليل يهجع واذا تردّد في مسألة

يتوضأ ويعزم جامع البلد ويصلّي فيه ركعتين بالخشوع ويشتغل بالدعاء والاستعانة الى أن ترتفع شبهته ومرت به طواري مختلفة وقاسى ما يقاسيه طالب العلى وله تأليفات مشهورة منها: القانون والشفا والاشارات وقد شرح القسم الالهيات من الاشارات الخواجة نصير الدين الطوسي والفخر الرازي وكتب القطب الرازي المحاكمات وهو شرح له حكم بينهما في شرحيهما على الاشارات، وله القصيدة الرائعة المشهورة العينية.

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنّع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما ألفت فلمّا واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنّها نسيت عهودا بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بعاء هبوطها من ميم مركزها بذات الاجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضع
تبكي وقد نسيت عهودا بالخمى بمدامع تهمي ولمّا تقلع
حتى اذا قرب المسير الى الحمى ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع
وغدت تغرّد فوق ذروة شاهق والعلم يرفع كل من لم يرفع
وتعود عالمة بكلّ خفيّة في العالمين فخرقها لم يرقع

القصيدة وآخرها:

فكأنها برق تألّق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع) خضوعا له وتحقيرا لنفسه، ومن رشحات فكره المنطق وتنظيم قواعده ولهذه الجهة سمّي المعلّم الأول. وقال الشيخ الرئيس: أنه منذ نظّم ذاك العظيم قواعد المنطق لم يستطع أحد أن يخدش في إحدى قواعده أو يؤسس قاعدة زائدة، ومع هذا الوصف كله ومع أن أسّس وقنّن ذلك الكتاب الشريف لمعرفة الربوبية فلاحظوه هل تجدون من أول ذلك

الكتاب الشريف إلى آخره لتعريف مقام الربوبية مثل هذه الكريمة الشريفة أول سورة الحديد أو ما يقرب من مفادها أو ما يكون فيه رائحة من هذا السر العظيم للتوحيد وهي قوله تعالى: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن} (الحديد . 3) أو أن في جميع أقوال الفلاسفة هل يوجد مثل {وهو معكم أينما كنتم} (الحديد . 4). والأقوام المتعمقون وأصحاب النظر والمعرفة يعلمون اليوم ما في هذه الآيات من الأسرار وأن الله تعالى كيف شرّف أقواما في آخر الزمان ومنّ عليهم بهذا الكلام الشريف والسرّ العظيم. ومن راجع المعارف الرائجة في أديان العالم وعند الفلاسفة الكبار للأديان وقاس المعارف في المبدأ والمعاد مع المعارف في الدين الحنيف الإسلام وعند الحكماء العظام الإسلاميين و العرفاء الشامخين لهذه الملّة ليصدّق كاملا أن هذه المعارف من نور معارف القرآن الشريف وأحاديث النبي الخاتم وأهل بيته عليهم السلام المستفادة والمصطلاة من منبع نور القرآن، فيعرف حينئذ أن الحكمة الإسلامية والعرفان الإسلامي ليست من اليونان واليونانيين بل لا تشبه حكمتهم أصلا.

نعم قد مشى بعض حكماء الإسلام على منوال الحكمة اليونانية كالشيخ الرئيس ولكن حكمة الشيخ في سوق أهل المعرفة وفي باب معرفة الربوبية والمبدأ والمعاد غير رائجة، وفي جناب أهل المعرفة لا قيمة لها.

وبالجملة، أن نسبة فلسفة حكماء الإسلام اليوم والمعارف الجليلة لأهل المعرفة إلى حكمة اليونان ناشئة من عدم الإطلاع على كتب القوم مثل الفيلسوف العظيم الشأن الإسلامي صدر المتألّهين (قدّس سره) (محمد بن ابراهيم الشيرازي الحكيم المتألّه المعروف كان عالم أهل زمانه في الحكمة متقنا لجمع الفنون له الأسفار الاربعة وشرح الكافي وتفسير بعض السور القرآنية وكسر الاصنام الجاهلية وشواهد الربوبية وغير ذلك. توفي بالبصرة وهو متوجه الى الحج سنة 1050 قال صاحب نخبة المقال في تاريخه: ثم ابن ابراهيم صدر الاجلّ في سفر الحج مريض (1050) ارتحل.

قدوة أهل العلم والصفا ثم انطوى فكأنه لم يلمع) وتلميذه الجليل الفيض الكاشاني (قدس سره) والتلميذ العظيم الشأن للفيض والعارف

الجليل الإيماني القاضي سعيد القمي (قدس سره)، وأيضا من عدم الإطلاع على معارف الصحيفة الإلهية وأحاديث المعصومين (عليهم السلام) فنسبوا كل حكمة إلى اليونان وظنّوا حكماء الإسلام تابعي حكمة اليونان، ونحن قد بيّنا نبذة من لطائف السورة الكريمة التوحيد وبعض إشارات الآيات الشريفة في كتاب شرح الأربعين وأيضا فسّرنا هذه السورة تفسيرا بالاختصار في سرّ الصلاة، وهنا نكتب مختصرا منه وعلى الله التكلان، فنقول:

إن بسم الله هذه السورة إن كانت متعلقة بنفس هذه السورة كما احتملنا ذلك في سورة الحمد فلعلّها تكون إشارة إلى أن شرح نسب الحق تعالى وبيان أسرار التوحيد لا يمكن بأنانية النفس واللسان المنسوب إلى النفس بل السالك ما لم يخرج من حجاب النفس ولم يتحقق بمقام المشيئة المطلقة وحضرة الفيض المقدّس وفانياً في الهوية المطلقة لم يدرك سرائر التوحيد.

و "قل" أمر من الحضرة الأحدية الجمعية بمقام البرزخية الكبرى ومرآة الجمع والتفصيل يعني قل يا محمد يا مرآة ظهور أحدية الجمع في مقام التدلي الذاتي أو المقام المقدس أو أدنى الذي يمكن أن يكون إشارة إلى مقام الفيض الأقدس (باللسان الفاني من نفسك الباقي ببقاء الله) هو الله أحد.

اعلم أيها السالك سبيل المعرفة والتوحيد و العارج معارج التنزيه والتجريد أن الذات المقدسة للحق تعالى من حيث هي منزّهة عن التجليات الظاهرة والباطنة ومبرّأة عن الإشارة والاسم والصفة والرسم فأيدي آمال أهل المعرفة قاصرة عن ذيل كبريائه وأرجل أصحاب القلوب في السلوك راجلة عن الوصول إلى بلاط قدسه، إن غاية معرفة الأولياء الكمل: "ما عرفناك" ونهاية سير أصحاب الأسرار: "ما عبدناك" ورئيس سلسلة أهل المعرفة وأمير أصحاب التوحيد يقول في هذا المقام الرفيع: "كمال الإخلاص نفي الصفات عنه" وأمام أهل السلوك وسيد الساجدين والعارفين يترنم في هذا الجناب المنيع: "ضلّت فيك الصفات وتفسّخت دونك النعوت" وأصحاب السلوك العلمي والاصطلاحات يسمون الذات المقدسة الغيب المصون و السر المكنون وعنقاء المغرب والمجهول المطلق، ويقولون:

إن الذات بلا حجاب الأسماء والصفات لن تتجلى في مرآة في المرائي ولن تظهر في نشأة من نشآت الوجود وفي عالم من عوالم الغيب والشهود ولكن على حسب كل يوم هو في شأن.. أن للذات المقدسة أسماء وصفات وشؤونها جمالية وجلالية ولها أسماء ذاتية في مقام الأحدية الذي هو مقام الغيب، ولابدّ أن يقال لتلك الأسماء الأسماء الذاتية، وبتعيّن الأسماء الذاتية يتجلى بالفيض الأقدس، وبهذا التجلي في كسوة الأسماء الذاتية يتعيّن

ويظهر مقام الواحدية وحضرة الأسماء والصفات ومقام الألوهية، فعلم أنه بعد الذات المقدسة من حيث هي، ثلاث مقامات ومشاهد أخر:

مقام الغيب الأحدي ومقام التجلي بالفيض الأقدس، ولعل العماء الواردة في الحديث النبوي تكون إشارة إليه، ومقام الواحدية الذي هو الاسم الأعظم بأحدية الجمع، ومقام الأسماء والصفات بالكثرة التفصيلية، وتفصيل هذه المقامات يحتاج إلى بسط خارج عن مجال هذه الأوراق.

فبعدما علمت هذه المقدمة نقول:

يمكن أن يكون (هو) إشارة إلى مقام الفيض الأقدس وهو تجلي الذات يتعيّن الأسماء الذاتية (الله) إشارة إلى مقام أحدية الجمع الأسمائية

وهو حضرة الاسم الأعظم و (أحد) إشارة إلى مقام الأحدية، وبناء على هذا فالآية الشريفة في صدد إثبات أن هذه المقامات الثلاثة مع أنها في مقام التكثير الاسمائي متكثرة لكنها في نفس الحال لفي غاية الوحدة على حسب الحقيقة، وأن التجلي بالفيض الأقدس على حسب مقام الظهور فهو الله وعلى حسب مقام البطون أحد.

ولعل (هو) يكون إشارة إلى مقام الذات، وحيث هو إشارة غيبية فهو في الحقيقة إشارة إلى المجهول والله وأحد إشارة إلى مقام الواحدية والأحدية فيعرف الذات التي هي المجهول المطلق بالأسماء الذاتية والأسماء الواحدية والصفاتية، فهو في الحقيقة إشارة إلى أن الذات هي الغيب وأيدي الآمال عنها قاصرة وصرف العمر في التفكر في الذات موجب للظلالة، وما هو مورد لمعرفة أهل الله وعلم العالمين بالله هو مقام الواحدية والأحدية، فالواحدية لعامة أهل الله والأحدية للخلّص من أهل الله.

تنبيه حكمي:

اعلم أن للحق تعالى صفات ثبوتية وصفات سلبية في نظر الحكماء وقالوا أن الصفات السلبية ترجع إلى سلب السلب أي سلب النقص، وقال بعض: أن الصفات الثبوتية هي صفات الجمال والصفات السلبية هي صفات الجلال، وذو الجلال والإكرام جامع جميع الصفات السلبية والثبوتية، وهذا الكلام في كلتا المرحلتين خلاف التحقيق أما المرحلة الأولى فالصفات السلبية ليست بصفات على التحقيق بل لا سبيل إلى ذات الحق تعالى لا للسلب ولا لسلب السلب والحق تعالى ليس متصفا بالأوصاف السلبية لأن الأتصاف بالسلب في القضايا المعدولة وعقد القضية المعدولة (موضوع القضية الحملية قد يكون شيئا (محصّلا) بالفتح أي يدل على شيء موجود أو صفة موجودة وقد يكون موضوعها أو محمولها شيئا معدولا أي داخلا عليه حرف السلب على وجه يكون جزئا من الموضوع أو المحمول مثل لا انسان، لا عالم. وعليه فالقضية باعتبار تحصيل الموضوع والمحمول وعدولهما تنقسم الى قسمين: محصّلة ومعدولة:

1. المحصلة: ما كان موضوعها ومحمولها محصلا سواء أكانت موجبة أو سالبة مثل: الهواء نقي، الهواء ليس نقيا.

2. المعدولة ما كان موضوعها أو محمولها أو كلاهما معدولا سواء أكانت موجبة أو سالبة وتسمى معدولة الموضوع أو معدولة المحمول أو معدولة الطرفين حسب دخول العدول على أحد طرفيها أو كليهما.

مثال معدولة الطرفين: كل لا عالم هو غير صائب الرأي مثال معدولة المحمول: الهواء غير فاسد، الهواء ليس هو غير فاسد.

مثال معدولة الموضوع: غير العالم مستهان غير العالم ليس بسعيد.

وتمتاز معدولة المحمول عن السالبة محصلة المحمول:

1. في المعنى: فإن المقصود بالسالبة سلب الحمل وبمعدولة المحمول حمل السلب أي يكون السلب في المعدولة جزءا من المحمول المسلوب بما هو مسلوب على الموضوع.

2. في اللفظ: فإن السالبة تجعل الرابطة فيها بعد حرف السلب لتدل على سلب الحمل والمعدولة تجعل الرابطة فيها قبل حرف السلب لتدل على حمل السلب وبالدقة فيما ذكرناه يتضح ما ذكره المؤلف دام ظله من ان الحق تعالى ليس متصفا بالاوصاف السلبية..)

للحق تعالى غير جائز لأنه مصحح للجهات الإمكانية ومستلزم للتركيب في الذات المقدسة بل الأوصاف السلبية بطريق السلب المطلق البسيط وهو سلب الصفة لا إثبات صفة سلب السلب، وبعبارة أخرى النقائص مسلوبة عن الحق تعالى بالسلب البسيط لا أن سلب النقائص ثابت له بطريق الإيجاب العدولي فالصفات التنزيهية ليست بصفات على الحقيقة وإنما الحق تعالى متصف بالصفات الثبوتية فقط.

وأما المرحلة الثانية: فإن صفات الجمال عند أهل المعرفة صفات يحصل منها الأنس والعلاقة، وصفات الجلال صفات يحصل منها الوحشة والحيرة والهيمان، فما كان متعلقا باللطف والرحمة فهو من صفات الجمال كالرحمن والرحيم واللطيف والعطوف والرب وأمثالها، وما كان متعلقا بالقهر والكبرياء فهو من صفات الجلال كالمالك والملك والقهّار والمنتقم وأمثالها، وإن كان في سر كل جمال جلال لأن كل جمال يبطن حيرة وهيمانا ويظهر للقلب بسّر العظمة والقدرة، وكل جلال في باطنه الرحمة. والقلب يأنس به باطنا، ولهذا كما أن القلب بفطرته مجذوب للجمال والجميل، فهو كذلك مجذوب للقدرة والعظمة والقادر والعظيم، فهذان النوعان من الصفات صفة ثبوتية لا سلبية، فإذا علم هذا المطلب فأعلم أن (الله) وإن كان هو الاسم الأعظم وأن صفات الجمال والجلال تحت حيطته لكن ربما يطلق على صفات الجمال كالإلهية والألوهية مقابلاً صفات الجلال، فإن الإلهية والألوهية راجعتان إلى صفات الجمال نوعا وخصوصا إذا وقعت في مقابل صفة الجلال.

وفي الآية الشريفة (قل هو الله أحد) يمكن أن يكون (أحد) إشارة لإحدى أمّهات صفات الجلال وهي مقام كمال بساطة الذات المقدسة

والله إشارة إلى اسم الجمال، ففي الآية قد عرّفت نسبة الحق تعالى على حسب مقام الأحدية والواحدية والتجلي بالفيض الأقدس، وهذه الثلاثة جميع الشؤون الإلهية.

وبناء على الاحتمال الأول الذي ذكر قبل هذا التنبيه عرفت نسبة الحق تعالى على حسب مقام الأسماء الجمالية والجلالية المحيطة بجميع الأسماء.

تنبيه عرفاني:

اعلم أن كلام كل متكلم جلوة ذاته على حسب مقام الظهور وبروز ملكاته الباطنية في مرآة الألفاظ بمقدار استعداد النسج الألفاظي، كما أنه إذا كان قلب نورانيا وصافيا من ألواث عالم الطبيعة وكدوراته يكون كلامه أيضا

نورانيا بل نورا وتتجلى تلك النورانية للقلب في كسوة الألفاظ، وقد ورد في شأن أئمة الهدى "كلامكم نور" وورد "لقد تجلى في كلامه لعباده". وفي نهج البلاغة "إنما كلامه فعله". والفعل جلوة ذات الفاعل بلا كلام منه، وإذا كان قلبا ظلمانيا ومكدرا يكون فعله وقواه أيضا ظلمانية ومكدرة مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة.. وحيث أن الذات المقدسة للحق جل وعلا على حسب كل يوم هو في شأن.. يتجلى لقلوب الأنبياء والأولياء في كسوة الأسماء والصفات وتختلف التجليات على حسب اختلاف قلوبهم، والكتب السماوية التي نزلت على قلوبهم بنعت الإيحاء بتوسط ملك الوحي جبرائيل تختلف على حسب اختلاف هذه التجليات وعلى حسب اختلاف الأسماء التي لها المبدئية للتجليات كما أن اختلاف الأنبياء وشرائعهم أيضا باختلاف

الدول الأسمائية فكل اسم تكون إحاطته أكثر وكان أجمع، تكون الشريعة التابعة له أكثر إحاطة وأدوم، وحيث أن النبوّة الختمية والقرآن الشريف وشريعة سيد البشر من مظاهر المقام الجامع الأحدي وحضرة اسم الله الأعظم ومجاليها أو من تجلياتها وظهورها فلهذا صارت أكثر النبوات والكتب والشرائع إحاطة وأجمعها، ولا يتصور أكمل وأشرف من نبوّته وكتابه وشريعته ولا يتنزل من عالم الغيب على بسيط الطبيعة علم أعلى منه أو شبيه له بمعنى أن هذا هو آخر ظهور للكمال العلمي المربوط بالشرائع وليس للأعلى منه إمكان النزول في عالم الملك، فنفس الرسول الخاتم (صلى الله عليه وآله) أشرف الموجودات ومظهر تام للاسم الأعظم، ونبوته أيضا أتمّ النبوّات الممكنة وصورة لدولة الاسم الأعظم الأزلية الأبدية والكتاب النازل إليه أيضا نزل على مرتبة الغيب بتجلي الاسم الأعظم ولهذه الجهة لهذا الكتاب أحدية الجمع والتفصيل وهو من جوامع الكلم، كما أن كلامه (صلى الله عليه وآله) أيضا من جوامع الكلم، والمراد من كون القرآن وكلامه (صلى الله عليه وآله) من جوامع الكلم ليس أن القرآن أو أنه (صلى الله عليه وآله) بينّا الكليات والضوابط الجامعة، وإن كانت أحاديثه (صلى الله عليه وآله) أيضا من الجوامع والضوابط كما أن ذلك معلوم في علم الفقه بل جامعيته عبارة عن أن القرآن نزل لجميع طبقات الإنسان في جميع أدوار العمر البشري وهو رافع لجميع حوائج هذا النوع. وحقيقة هذا النوع حيث إنها حقيقة جامعة وواجدة لتمام المنازل من المنزل الأسفل الملكي إلى أعلى مراتب الروحانية والملكوت والجبروت ولهذه الجهة تختلف أفراد هذا النوع في هذا العالم من أسفل الملكي اختلافا تاما، و الاختلاف والتفاوت الموجودان في أفراد هذا النوع لا يوجدان في أفراد سائر الموجودات، في هذا النوع الشقّي في كمال الشقاوة موجود، والسعيد في

كمال السعادة موجود وفي هذا النوع أن بعض أفراده أسفل من جميع الحيوانات وبعض أفراده أشرف من جميع الملائكة المقربين.

وبالجملة، حيث إن أفراد هذا النوع مختلفة ومتفاوتة في المدارك والمعارف، فالقرآن نزل على نحو يستفيد كل منه على حسب كمال إدراكه ومعارفه وضعفها وعلى حسب ما له من الدرجة العلمية.

فمثلا الآية الشريفة {لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا} (الأنبياء ـ 22) فأهل المعرفة وأهل الأدب واللغة يفهمون منها شيئا، وفي نفس الحال يستفيد منها علماء الكلام طوراً آخر والفلاسفة والحكماء معنى آخر و العرفاء والأولياء يستفيدون منها معنى آخر. فأهل العرف يفهمون منها بيانا خطابيا على حسب ذوقهم مثلا يقولون مملكة واحدة لا تسع لسلطانين، وإذا كان رئيسان في طائفة واحدة فذلك يوجب الفساد، ومختاران في قرية فذلك يوجب الاختلاف والتخاصم والتنازع، وهكذا إذا كان في العالم أيضا إلهان لكان فيه الفساد والتنازع والاختلاف

والتشاجر، وحيث إن هذا الاختلاف غير موجود ونظام السموات والأرض محفوظ فهذا دليل على أن مدير العالم واحد.

والمتكلمون يستفيدون منها برهان التمانع (أقول برهان التمانع المستفاد من الآية الكريمة ربما يطرح بصورة بسيطة، وحاصلها أنه لو كان المبدأ وواجب الوجود متعددا لوقع التزاحم والتمانع بين ارادتهم، فاذا تزاحمت الارادات فاما ان تغلب احدى الارادات على الاخرى واما الا تغلب ارادة من الارادات على غيرها.

أما الاول فمحال، وتكون ارادة من واجب مغلوبة لارادة أخرى لأن المغلوبية منافية للكمال ووجوب الوجود.

وأما الثاني: فيلزم منه الفساد في عالم الكون لأن المفروض أنّ شيئا من الارادات لم تكن مؤثرا، فاذا لم تكن ثمة إرادة فينقطع الرابط بين الكون والواجب ولا شكّ أن الممكن لا بدّ من الربط بالواجب ولا تقع حادثة بل لا يوجد ولا يبقى موجود وهذا معنى الفساد، ولكن هذا التقرير غير تام لأنه لا موجب لنا أن نفرض الارادات الواجبة متزاحمة بل لا بدّ لها أن تكون متعاطفة غير متزاحمة لأن المفروض أن كلها للوجود الواجب العليم الحكيم لا يعمل واجب على خلاف المصلحة والحكمة، وحيث المصلحة والحكمة ليست بأزيد من واحدة فإرادات الواجبة وان كانت أزيد من ورق الأشجار وقطر الامطار تكون متحدة لا محالة وبعبارة أخرى، تزاحم الارادات انما ينشأ اما من جلب النفع الشخصي وحب النفس أو من الجهل وكلاهما غير متصورة في حق الواجب تعالى، فبرهان التمانع ليس مبنيا على تضادّ الارادات وتخالفها بل هو مبني على امتناع وجود كل حادثة ممكنة من ناحية تعدد الارادات، بمعنى أنه لو كان واجب الوجود متعددا لكان التمانع في الوجود موجودا حتى مع فرض توافق اللارادات وعدم تخالفها وتزاحمها، وهذا البرهان مبتنى على ثلاثة أصول:

الاصل الاول: ان واجب الوجود بالذات واجب من جميع الجهات والحيثياتوتوضيحه اجمالا انه لا يمكن أن يكون في ذات الواجب حيثية الامكان والقوة بوجه من الوجوه فذات الواجب وجوب صرف فهو عالم بالوجوب لا بالامكان وقادر بالوجوب لا بالامكان، وهكذا جميع صفاته فذات الواجب فيّاضة وخلاّقة بالوجوب لا بالامكان بمعنى أنه من المحال أن يكون امكان الوجود في موجود ولا يفاض الوجود له من الواجب.

الاصل الثاني: ان حيثية وجود المعلول متحدة مع حيثية انتسابه الى العلّة وليست في المعلول حيثيان فيكون منتسبا الى الفاعل والعلة باحدى الحيثيتين وموجودا بالاخرى، وقد بيّن هذا المعنى صدر المتألهين وعبّر هذا بأنّ وجود المعلول هو عين الربط والانتساب الى العلّة.

وقد كرر هذه الدقيقة في كلام الاستاذ (دام ظله) ولهذه الجهة الايجاد متحد مع الوجود لا أن الوجود شيء والايجاد شيء آخر.

الأصل الثالث: انه من المحال الترجيح بلا مرجّح، وهذا الأصل لا يحتاج إلى توضيح زائد فإنه من الواضح انه اذا كانت نسبة شيء الى شيئين متساوية فمن المحال أن يتغير هذا التوازن والتساني من دون دخالة أمر خارجي، وكما الترجيح بلا مرجّح محال كذلك الترجّح بلا مرجح ايضا محال ولكن الاول يستعمل غالبا في مورد الفواعل والثاني في مورد الآثار.

وقد تصدى بعض المتكلمين على إمكان الترجيح بلا مرجّح من باب أن الدليل على امكان شيء وقوعه ولهذا عنون مسألتي (رغيفي الجائع وطريقي الهارب) غفلة من أن هذه الامثلة تكون مثالا للموضوع اذا أحطنا على جميع العوامل والشرائط الدخيلة على الموضوع. والحال ان العوامل الدخيلة في شعورنا الظاهر والباطن في أمثال

هذه الموارد بمقدار لا يمكننا الاحاطة بها فالبرهان العقلي لا يُردّ ولا يُمنع بهذه السوقيّة العامية فنقول نظرا الى المقدمات الثلاثة المذكورة: ان كان في الوجود واجبان أو أكثر فبحكم المقدمة الاولى وهي أن كلّ شيء يمكن تحقّق وجوده بتوفر شرايط وجوده فلا محالة يفاض الوجود عليه ومن المعلوم أن نسبة الواجبين أو أكثر الى هذا الشيء واحدة وتعلّق إرادة كل منهم اليه سواء فلا بد أن يفاض الوجود اليه من طرف الواجبين أو أكثر وبحكم المقدمة الثانية وجود كل مساو لانتسابه الى علته فالايجاد ان تستلزم وجودين وحيث أن المعلول المفروض وجوده لا يمكن له أزيد من وجود واحد فلا يمكن انتسابه الا الى واحد فحينئذ انتساب المعلول الى احد الواجبين أو أكثر منهما مع أن المفروض عدم وجود رجحان في أحدهما على الاخرين ترجّح بلا مرجح وانتسابه الى الجميع يساوي تعدد وجود المعلول بعدد الواجب وهذا أيضا محال لان المفروض أن الشيء الذي توفرت فيه شرايط ينتهي الى واحد متعددا فتكون النتيجة ان ألا يوجد شيء اصلا. فعلى فرض تعدّد وجود الواجب يلزم الا يوجد شيء لان وجوده محال فيصحّ ان يقال لو كان فيهما آلهة الا الله صدق الله العليّ العظيم) والفلاسفة والحكماء يقيمون منها البرهان المتين الحكمي من طريق (إلا الواحد والواحد لا يصدر إلا من الواحد). وأهل المعرفة أيضا من طريق أن العالم مرآة الظهور ومجلي للتجليات الحق يستفيدون الوحدانية منها بطور آخر إلى غير ذلك من المعاني التي يطول ذكر كل واحد منها.

فإذا علمت هذا المقدمة فأعلم أن السورة الشريفة قل هو الله أحد من جوامع الكلم كسائر القرآن يستفيد كل منه على طور، كما أن علماء

الأدب والظاهر يرون أن هو ضمير الشأن والله علم الذات، وأحد بمعنى الواحد أو مبالغة في الوحدة يعني أن الله واحد أو أنه لا شريك له في الإلهية أو ليس كمثله شيء أو أنه لا شريك له في الإلهية والقدم أو أن أفعاله واحدة بمعنى أن جميع أفعاله طبق الصلاح والإحسان ولا يجر نفعا لنفسه، والله الصمد يعني أنه سيد كريم إليه مرجع الناس في الحوائج أو أنه صمد بمعنى أنه لا جوف له فلا يتولد منه شيء ولا يتولد هو من شيء وليس له أحد شبيها ونظيرا. وهذا بيان عرفي عامّي مقابل الكفار الذين كانت لهم آلهة متصفة بالصفات الإمكانية فأمر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهم ليس إلهنا كإلهكم بل أوصافه هذه الأوصاف المذكورة. هذا تفسير هذه السورة بطريق العرف والعادة وهذا التفسير يختص بطائفة ولا ينافي أن يكون لها معنى أو معان أدقّ كما ذكرنا بعضها.

تفسير حكمي:

يمكن أن يكون للسورة المباركة التي نزلت للمتعمقين في آخر الزمان تفسير حكمي موافق للموازين الحكمية والبراهين الفلسفية وهذا ما استفدته عن الشيخ الجليل العرف شاه آبادي (مدّ ظلّه) فـ (هو) إشارة إلى صرف الوجود والهوية المطلقة وهو برهان على ستة براهين شامخة حكمية أثبتت في السورة المباركة للحق تعالى.

الأول : مقام الألوهية وهو مقام استجماع جميع الكمالات وأحدية جمع الجمال والجلال، فإنه قد ثبت في المقامات المناسبة من المسفورات الحكمية أن صرف الوجود والهوية المطلقة هو صرف الكمال وإلا يلزم ألا يكون صرف الوجود أيضا،

وحيث إن بيان هذا المطلب يطول ويحتاج إلى مقامات فأكتفي منه بالإشارة.

الثاني: وهو إشارة إلى البساطة التامة العقلية والخارجية والماهوية والوجودية والتنزّه عن مطلق التركيبات العقلية وسواء أكانت جنسا أو فصلا. سواء أكانت مادة وصورة عقلية أو خارجية أو مادة وصورة خارجية أو أجزاء مقدارية، و برهان هذا المطلب أيضا هو برهان صرف الوجود والهوية المطلقة لأن الصرف إذا لم يكن أحديّ الذات يلزم أن يخرج عن الصرفية وينسلخ عن ذاتيته.

الثالث: مقام الصمدية: وهو الإشارة إلى نفي الماهية وعدم الجوف له وكونه غير مجوف أيضا إشارة إلى أنه ليس له الماهية ولا النقص الامكاني لأن جميع الممكنات مرتبة ذاتها التي هي بمنزلة باطنها وجوفها مجوفة وخالية، وحيث أن الذات المقدسة صرف الوجود والهوية المطلقة ليس له النقص الإمكاني الذي أصله الماهية، لأن الماهية منتزعة من الحدود الوجودية واعتبارها من تعيّن الوجود. وصرف الوجود منزه ومبرّأ عن الحد والتعيّن لأن كل محدود هوية مقيدة ووجود مخلوط لا الوجود المطلق ولا الصرف.

الرابع: عدم انفصال شيء منه لأن انفصال شيء عن شيء مستلزم للهيولوية بل للأجزاء المقدارية وهو ينافي الهوية المطلقة وصرافة الوجود ووجود المعلولات من العلة ليس بطريق الانفصال بل بطريق التجلي والظهور والتشأن والصدور وهو بحيث أنه لا

ينقص من صدورها شيء من العلة ولا يضاف برجوعها شيء إلى العلّة.

الخامس: عدم انفصاله عن شيء وهو (أي الانفصال عن شيء) مضافا إلى المفسدة السابقة ينافي صرافة الوجود وإطلاق الهوية من طريق آخر لأنه يلزم أن يتقدم صرف الوجود شيء آخر، وقد ثبت في الفلسفة العالية أن الصرف أقدم الأشياء والمتعين متأخر عن المطلق.

السادس: عدم الكفؤ والمثل ونفي المثل والشبيه وهو أيضا ببرهان صرف الوجود ثابت لا ينكر، فلا تتصور هويتان مطلقتان وليس المقيد للمطلق صنوا ونظيرا، ولكل من هذه المطالب مقدمات وأصول تفصيلها خارج عن مجال هذا المختصر.

حكمة مشرقية:

اعلم أن هذه السورة المباركة مع كمال اختصارها مشتملة على جميع الشؤون الإلهية ومراتب التسبيح والتنزيه. وفي الحقيقة هي نسبة الحق تعالى بما يمكن أنيقع في قالب الألفاظ ونسيج العبارات كما أن هو الله أحد تمام حقائق صفات الكمال ومشتمل على جميع الصفات الثبوتية، ومن الصمد إلى آخر السورة الصفات التنزيهية وإشارة إلى سلب النقائص.

وأيضا في السورة الشريفة إثبات الخروج من الحدين حد التعطيل والتشبيه اللذين هما كلاهما خروج عن حد الاعتدال وحقيقة التوحيد، فالآية الشريفة الأولى إشارة إلى نفي التعطيل وتتمة السورة إشارة إلى نفي التشبيه.

وهي أيضا مشتملة على الذات من حيث هي ومقام الأحدية وهو التجلي بالأسماء الذاتية ومقام الواحدية وهو التجلي بالأسماء الذاتية ومقام الواحدية وهو التجلي بالأسماء والصفات كما ذكر تفصيله بما يناسب.

تتميم:

روى الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) عن أبي البختري وهب بن وهب القرشي عن أبي عبد الله الصادق جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل: "قل هو الله أحد" قال: (قل) أي أظهر ما أوحينا إليك ونبّأناك به بتأليف الحروف التي قرأنا لك ليهتدي بها من ألقى السمع وهو شهيد و "هو" اسم مكنى يشار به إلى الغائب، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت والواو إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما أن قولك "هذا" إشارة إلى الشاهد عند الحواس، وهذه الإشارة إلى الغائب لأن الكفار نبّهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك فقالوا هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار، فأشر أنت يا محمد إلى إلهك الذي تدعو عليه حتى نراه وندركه ولا نتألّهه فيه، فأنزل الله سبحانه وتعالى قل هو الله أحد فالهاء تثبيت الثابت والواو تشير إلى الغائب عن درك الأبصار ولمس الحواس والله تعالى عن ذلك بل هو مدريك الأبصار والحواس.

وقال الباقر عليه السلام: "معناه المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيته والإحاطة بكيفيته، ويقول العرب أله الرجل إذا تحيّر في الشيء فلم يحط به علما، وولّه إذا فزع إلى شيء مما يحذره أو يخافه، فالإله هو المستور عن حواس الخلق".

وقال الباقر عليه السلام: "الأحد الفرد المتفرد والأحد والواحد بمعنى واحد وهو المتفرد الذي لا نظير له، والتوحيد الإقرار بالوحدة وهو الانفراد والواحد المتباين الذي لا ينبعث من شيء ولا يتحد بشيء، ومن ثم قالوا: إن بناء العدد من الواحد وليس الواحد من العدد لأن العدد لا يقع على الواحد بل يقع على الإثنين، فمعنى قوله الله أحد أي المعبود الذي يأله الخلق عم إدراكه والإحاطة بكيفيته فرد بإلهيته متعال عن صفة خلقه". وقال الباقر عليه السلام: وحدّثني أبي زين العابدين عليه السلام عن أبيه الحسين عليه السلام أنه قال: "الصمد الذي لا جوف له والصمد الذي قد انتهى سؤدده والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب والصمد الذي لا ينام والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يزال". قال الباقر عليه السلام "كان محمد بن الحنفية رضي الله عنه يقول الصمد القائم بنفسه الغني عن غيره". وقال غيره: "الصمد المتعالي عن الكون والفساد والصمد الذي لا يوصف بالتغاير". قال الباقر عليه السلام "الصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه آمر وناه".

قال: وسئل علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام عن الصمد فقال: "الذي لا شريك له ولا يؤوده حفظ شيء ولا يعزب عنه شيء".

قال وهب بن وهب القرشي: قال زين العابدين عليّ عليه السلام "الصمد الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون والصمد الذي أبدع الأشياء فخلقها أضدادا وأشكالا وأزواجا وتفرّد بالوحدة بلا ضدّ ولا شكل ولا مثل ولا ندّ".

وقد نقل وهب بن وهب أيضا من كلام الإمام علي بن الحسين سلام الله عليهما في تفسير الصمد، ونقل أيضا كلاما في أسرار حروف الصمد عن الباقر عليه السلام ثم يقول:

ثم قال عليه السلام "لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجل حملة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد وكيف لي بذلك ولم يجد جدي أمير المؤمنين حملة لعلمه حتى كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني فإن بين الجوانح مني علما جمّا هاه هاه ألا لا أجد من يحمله" الحديث.

خاتمة:

ونختم هذا المقام بذكر بعض الأحاديث الشريفة في فضل هذه السورة المباركة وإن كانت الأحاديث في فضلها خارجة عن مجال هذا المختصر.

ففي الكافي الشريف بإسناده إلى باقر العلوم عليه السلام: "من قرأ قل هو الله أحد مرّة بورك عليه، ومن قرأها مرّتين بورك عليه وعلى أهله، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى أهله وعلى جيرانه، ومن قرأها اثنتي عشرة مرة بنى الله له اثني عشر قصرا في الجنة فيقول الحفظة اذهبوا بنا إلى قصور أخينا فلان فننظر إليها، ومن قرأها مائة مرة غفرت له ذنوب خمس وعشرين سنة ما خلا الدماء والأموال ومن قرأها أربعمائة مرة كان له أجر أربعمائة شهيد كلهم قد عقر جواده وأريق دمه، ومن قرأها ألف مرة في يوم وليلة لم يمت حتى يرى مقعده في الجنة أو يرى له". وأيضا في الكافي بإسناده إلى الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله "من قرأ قل هو الله أحد مائة مرة حين يأخذ مضجعه غفر الله له ذنوبه خمسين سنة".

وروي عن الصادق عليه السلام قال: "كان أبي صلوات الله عليه يقول قل هو الله أحد ثلث القرآن وقل يا أيها الكافرون ربع القرآن" وعن

أبي عبد الله (عليه السلام) أن النبي (صلى الله عليه وآله) صلى على سعد بن معاذ فقال: "لقد وافى من الملائكة سبعون ألفا وفيهم جبرائيل يصلّون عليه، فقلت: يا جبرائيل لم يستحق صلواتكم عليه؟ فقال: لقراءته قل هو الله أحد قائما وقاعدا وراكبا وماشيا وذاهبا وقادما".

وروي في الوسائل عن المجالس ومعاني الأخبار عن الصادق عن آبائه (عليهم السلام) في حديث عن سلمان أنه قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: "من قرأ قل هو الله أحد مرة فقد قرأ ثلث القرآن ومن قرأها مرتين فقد قرأ ثلثي القرآن ومن قرأها ثلاثا فقد ختم القرآن". وفي ثواب الأعمال: "من مضت له جمعت ولم يقرأ فيها بقل هو الله أحد ثم مات، مات على دين أبي لهب".

وروي في المستدرك أحاديث طويلة وكثيرة في فضل هذه السورة الشريفة فمن أراد فليرجع إليه وإلى الوسائل والحمد لله.

الفصل السابع

في نبذة في تفسير السورة المباركة القدر

بقدر ما يناسب هذه الأوراق

قوله تعالى: إنّا أنزلناه في ليلة القدر: وفي هذه الآية الشريفة مطالب عالية لا تخلو الإشارة إلى بعضها من الفائدة:

المطلب الأول: في أن الآية الشريفة وكثيرا من الآيات الشريفة تنسب تنزيل القرآن إلى ذاته المقدسة كقوله تعالى: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة} (الدخان . 3). {إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون} (الحجر . 9) ، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة، وفي بعضها تنسب إلى جبرائيل وهو الروح الأمين كقوله تعالى: {نزل به الروح الأمين} (الشعراء . 93).

فعلماء الظاهر يقولون في هذه المقامات: هذا مجاز من قبيل {يا هامان ابن لي صرحا} (فاطر . 36) فنسبه التنزيل إلى الحق تعالى مثلا من باب أن الذات المقدسة سبب للتنزيل وآمر به أو أن التنزيل بالنسبة إلى الحق تعالى حقيقة وينسب إلى الروح الأمين مجازا لأنه واسطته، وهذا من جهة أنهم يحسبون أن نسبة فعل الحق إلى الخلق كنسبة فعل الخلق إلى الخلق فيرون مأمورية جبرائيل وعزرائيل عن الحق تعالى كمأمورية هامان عن

فرعون والبنّائين والمعماريين عن هامان، وهذا قياس باطل كثيرا وقياس مع الفارق وأن فهم نسبة الخلق إلى الحق وفعل الخلق والخالق من مهمات المعارف

الإلهية وأمهات المسائل الفلسفية تنحل به كثير من المهمات ومن جملتها مسألة الجبر والتفويض، ومطلبنا هذا من شعبها.

وليعلم أنه من المقرر والثابت في العلوم العالية أن جميع دار التحقق ومراتب الوجود صورة الفيض المقدس الذي هو التجلي الاشراقي للحق تعالى، وكما أن الإضافة الإشراقية هي محض الربط وصرف الفقر كذلك تعيناتها وصورها أيضا محض الربط وليست لها من أنفسها حيثية واستقلال. وبعبارة أخرى جميع دار التحقق فانية في الحق ذاتا وصفة وفعلا لأنه لو استقل موجود من الموجودات في شأن من الشؤون الذاتية سواء أكان في الهوية الوجودية أم في شؤونها لخرج عن حدود بقعة الإمكان فيتبدل إلى الوجوب الذاتي وهذا واضح البطلان فإذا رسخت هذه اللطيفة الإلهية في القلب وذاقها الفؤاد كما ينبغي فيكشف له سرّ من أسرار القدر وتنكشف لطيفة من حقيقة الأمر بين الأمرين فيمكن إذاً نسبة الآثار والأفعال الكمالية إلى الخلق بنفس النسبة التي لها إلى الحق من دون أن تكون مجازا في جانب، وهذا يتحقق في نظر الوحدة في الكثرة والجمع بين الأمرين، نعم ما كان واقعا في الكثرة محضا ومحجوبا عن الوحدة ينسب الفعل إلى الخلق ويغفل عن الحق كنحن المحجوبين، ومن تجلت في قلبه الوحدة فيحجب عن الخلق وينسب جميع الأفعال إلى الحق، والعارف المحقق يجمع بين الوحدة والكثرة وفي حال أنه ينسب الفعل إلى الحق من دون شائبة مجاز ينسبه في نفس الحال إلى الخلق بلا شائبة مجاز والآية الشريفة {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} (الأنفال ـ 17) التي نفت الرمي في عين إثباته وأثبتته في عين نفيه تشير إلى هذا المشرب العرفاني الأحلى والمسلك الإيماني الدقيق، وإنما قلنا من نسبة الأفعال والآثار إلى الله سبحانه وقيّدناها بالكمالية لنخرج النقائص من هذه النسبة

لأن النقائص ترجع إلى الإعدام وهي من تعينات الوجود وليست منسوبة إلى الحق إلا بالعرض ولا يمكن شرح هذا المبحث في هذه الأوراق. فإذا علمت هذه المقدمة تعلم نسبة التنزيل إلى جبرائيل وإلى الحق والأحياء إلى إسرافيل وإلى الحق، والإماته إلى عزرائيل والملائكة الموكلة على النفوس وإلى الحق، والإشارة إلى هذا المطلب في القرآن كثيرة وهذا من إحدى معارف القرآن التي لم يكن قبل هذا الكتاب الشريف في آثار الحكماء والفلاسفة منها عين ولا أثر، والعائلة البشرية في هذه اللطيفة مرهونة لعطيّة هذه الصحيفة الإلهية كسائر المعارف الإلهية القرآنية.

المطلب الثاني: في الإشارة إلى نكتة أنه تعالى قال "إنّا" بصيغة الجمع وأنزلناه بصيغة الجمع.

اعلم أن نكتة ذلك هي تفخيم مقام الحق تعالى بمبدئيّته لتنزيل هذا الكتاب الشريف ولعل هذه الجمعية باعتبار الجمعية الأسمائية والإشارة أن الحق تعالى مبدأ لهذا الكتاب الشريف بجميع الشؤون الأسمائية والصفاتية ولهذه الجهة كان هذا الكتاب الشريف صورة أحدية جمع جميع الأسماء والصفات ومعرفا لمقام الحق المقدس بتمام الشؤون والتجليات.

وبعبارة أخرى هذه الصحيفة النورانية صورة الاسم الأعظم كما أن الإنسان الكامل أيضا صورة الاسم الأعظم بل حقيقة هذين في الحضرة الغيبية واحدة وهما في عالم التفرقة متفرقان على حسب الصورة ولكن على حسب المعنى أيضا لا يتفرقان وهذا أحد معاني لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.. وكما أن الحق تعالى خمّر طينة آدم الأول

والإنسان الكامل بيدي والجلال والجمال كذلك أنزل الكتاب الكامل والقرآن الجامع بيدي الجمال والجلال، ولعله لهذه الجهة أيضا يقال له القرآن لأن مقام الأحدية جمع

الوحدة والكثرة ولهذه الجهة ليس هذا الكتاب قابلا للنسخ والانقطاع لأن الاسم الأعظم ومظاهره أزلي وأبدي، وجميع الشرائع دعوة إلى هذه الشريعة والولاية المحمدية، ولعل الذكر في الآية الشريفة {إنّا عرضنا الأمانة} (الأحزاب . 72) بصيغة الجمع لما ذكرنا من النكتة في {إنّا أنزلنا} لأن الأمانة على حسب الباطن هي حقيقة الولاية وعلى حسب الظاهر هي الشريعة أو دين الإسلام أو القرآن والصلاة.

المطلب الثالث: في إجمال كيفية نزول القرآن:

وهذا من لطائف المعارف الإلهية ومن أسرار الحقائق الدينية التي قلما يوجد من يطلّع على نبذة منها بالطريق العلمية ولا يتيسر لأحد الإطلاع على هذه اللطيفة الإلهية بطريق الكشف والشهود إلا للكمّل من الأولياء أوّلهم نفس الرسول والخاتم وبعده سائر الأولياء وأهل المعارف وبمساعدته صلى الله عليه وآله لأن مشاهدة هذه الحقيقة لا تكون إلا بالوصول إلى عالم الوحي والخروج عن حدود العوالم الإمكانية ونحن نبيّن هنا من هذه الحقيقة بيانا بالرمز والإشارة فليعلم أن القلوب التي تسير إلى الله بطريق السلوك المعنوي والسفر الباطني وتهاجر من منزل النفس المظلم وبيت الإنّيّة والأنانية طائفتان بالطريق الكلّي.

الأولى هم الذين يدركهم الموت بعد إتمام السفر إلى الله ويبقون في هذه الحال من الجذبة والفناء والموت فقد وقع أجرهم على الله وهو الله وهؤلاء محبوبون فانون تحت قباب الله لا يعرفهم أحد ولا يرتبطون بأحد ولا يعرفون أحدا إلا الحق تعالى "أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري".

الطائفة الثانية هم الذين فيهم قابلية أن يرجعوا إلى أنفسهم بعد تمامية السير إلى الله وفي الله وتحصل لهم حالة الصحو والتنبيه هؤلاء الذين قدّر

استعدادهم على حسب تجلّي الفيض الأقدس الذي هو سر القدر وانتجبهم لتكميل العباد وتعمير البلاد وهؤلاء بعد الاتصال بالحضرة العلمية والرجوع إلى حقائق الأعيان يحصل لهم السير في الأعيان بالكشف فيتصلون بحضرة القدس ويكون سفرهم إلى الله وإلى السعادة ويخلّعون بخلعة النبوة، وهذا الكشف وحي إلهي قبل التنزّل إلى عالم الوحي الجبرائيلي وبعدما توجهوا من هذا العالم إلى العوالم النازلة يكتشفون ما في الأقلام العالية والألواح القدسية بقدر إحاطتهم العلمية ونشأتهم الكمالية المختصة بهم التابعة للحضرات الأسمائية. واختلاف الشرائع والنبوات بل جميع الاختلافات من هنا.

وفي هذا المقام تلك الحقيقة الغيبية والسريرة القدسية التي شوهدت في الحضرة العلمية والأقلام والألواح العالية تنزل إلى قلوبهم المباركة تارة عن طريق غيب النفس وسرّ روحهم الشريف بتوسط ملك الوحي وهو جبرائيل وأخرى يتمثل لهم جبرائيل تمثلا مثاليا في حضرة المثال وثالثة يتمثل تمثلا ملكيا، وبتوسّط تلك الحقيقة يظهر عن مكمن الغيب إلى مشهد عالم الشهادة ويتنزل بتلك اللطيفة الإلهية وصاحب الوحي يدركها ويشاهدها في كل نشأة على طور، ففي الحضرة العلمية على طور وفي حضرة الأعيان على طور وفي حضرات الأقلام على طور وفي حضرات الألواح على طور وفي حضرة المثال على طور وفي الحس المشترك على طور وفي الشهادة المطلقة على طور وهذه سبع مراتب من التنّزل ولعل نزول القرآن على سبعة أحرف يكون إشارة إلى هذا المعنى وهذا لا ينافي ما قال عليه السلام القرآن واحد من واحد كما هو معلوم ولهذا المقام تفصيل لا يناسب ذكره.

المطلب الرابع: في سر (هاء) في إنّا أنزلناه:

قد علم أن للقرآن قبل التنزيل إلى هذه النشأة مقامات وكينونات فمقامه الأول: كينونته العلمية في الحضرة الغيبية بالتكلم الذاتي والمقارعة الذاتية بطريق أحدية الجمع، ولعل ضمير الغائب يكون إشارة إلى ذاك المقام وقد ذكره الله تعالى بضمير الغيبة لإفادة هذا المعنى فكأنه يقول: هذا القرآن النازل في ليلة القدر هو ذاك القرآن العلمي في السرّ المكنون، والغيبي في النشأة العلمية قد أنزلناه على تلك المراتب وكان متحدا في مقام مع الذات وكان من التجليات الأسمائية وهذه الحقيقة الظاهرة ذلك السرّ الإلهي وهذا الكتاب الذي ظهر في كسوة العبارات والألفاظ هو صورة التجليات الذاتية في مرتبة الذات وعين التجلي الفعلي في مرتبة الفعل، كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه "إنما كلامه فعله".

المطلب الخامس: في بيان ليلة القدر:

وفيه مباحث كثيرة ومعارف لا تعدّ قد بحث عنها العلماء الأعلام رضوان الله عليهم على حسب مشاربهم ومسالكهم، ونحن نبيّن في هذه الأوراق بعضا منها بطريق الإشارة ونشير إلى مطالب أخرى لم يذكروها وذلك في ضمن أمور:

الأول: في وجه تسمية ليلة القدر:

إن العلماء قد اختلفوا فيه فبعضهم على أن ليلة القدر حيث أنها صاحبة شرف ومنزلة وقد نزل فيها القرآن صاحب القدر بتوسط ملك صاحب القدر على رسول صاحب القدر لأمة صاحبة القدر فلهذا سميت بليلة القدر.

وقال بعض: إن تسميتها ليلة القدر لأجل تقدير الأمور والآجال وأرزاق الناس في تلك الليلة.

وقال بعض: لأن الأرض تضيق بواسطة كثرة الملائكة فسميت ليلة القدر وهذا من قبيل "ومن قدر عليه رزقه" وهذه كلمات قيلت في المقام وفي كل من تلك الوجوه تحقيقات لا تخلو الإشارة إليها إجمالا من الفائدة.

أما المطلب الأول وهو كونها بمعنى صاحبة المنزلة والقدر.

فأعلم أن في هذا المقام كلاما وهو أن مطلق الزمان والمكان الذي بعض منه شريف وبعض غير شريف وبعض سعيد وبعض نحس فهل هذا من نفس ذات الزمان ومن تشخصاته الذاتية، وهكذا في المكان أو أنه بواسطة وقوع الوقائع وحصول الأمور الشريفة والخسيسة يكون صاحب تلك المزية بالعرض، وهذا وإن لم يكن مبحثا مهما وشريفا والبحث في أطرافه ليس له كثير فائدة ولكن نأتي بذكر منه بطريق الاختصار.

إن وجه ترجيح الاحتمال الأول هو أن ظاهر الأخبار والآيات التي أثبتت للزمان والمكان شرافة أو نحوسه إنها صفة نفس الزمان والمكان لا إنها صفة للحال المتعلق وحيث أنه لا مانع عقليا فيتعيّن حملها على ظاهرها.

ووجه ترجيح الاحتمال الثاني إن حقيقة كل من الزمان والمكان حقيقة واحدة بل شخصية كل منهما أيضا شخصية واحدة فلهذه الجهة لا يمكن أن يكون شخص واحد متجزيا ومختلفا في الحكم. فبناء على هذا فلا بد أن يحمل ما ورد في شرفهما أو نحوستهما على الوقائع والقضايا الحاصلة فيهما، وهذا الوجه ليس برهانيا لأن الزمان وإن كان شخصا واحدا ولكن حيث أنه متدرج وممتد وحقيقة مقدارية لا مانع من أن يكون بعض أجزائه مع بعض آخر مختلفا في الحكم والأثر ولم يقم برهان بأن الشخص كيفما كان لا

يكون له حكمان وأثران بل خلافه ظاهر، فمثلا أفراد الإنسان مع أن كل واحد منهما شخص واحد فلهم مع ذلك في الصورة الجسمية اختلافات كثيرة مثل الجليدية والدماغ والقلب أشرف وألطف من الأعضاء الأخر وكذلك القوى

الباطنية والظاهرة منه بعضها أشرف من بعض وهذا لأن الإنسان لم يظهر في هذا العالم بنعت الوحدة التامة وإن كان شخصا واحدا ولكن حيث إنه ظهر بنعت الكثرة فأحكامه أيضا تختلف.

وأما وجه ترجيح الاحتمال الأول فليس أيضا وجها صحيحا مرضيا لأن مرجع هذا الوجه إلى أصالة الظهور وأصالة الحقيقة مثلا وقد علم في الأصول أن أصالة الحقيقة وأصالة الظهور لتعيين المراد في مورد الشك في المراد لا أنها بعد معلومية المراد لتعيين الحقيقة فتأمل (وجه التأمل انه يمكن أن يقرر هذه الدعوة بوجه آخر وهو أن الظاهر في نسبة موضوع إلى محمول هو أن الموضوع واجد للحكم وتمام الموضوع له كما أن شيخنا وأستاذنا في العلوم النقلية كان يثبت بهذا البيان الاطلاق في باب الاطلاق من دون حاجة الى مقدمات الاطلاق منه عفي عنه: أي من المؤلف دام ظله).

فبناء على هذا فكلا الوجهين محتمل، ولكن الثاني أرجح في النظر. فبناء عليه أن ليلة القدر صارت صاحبة قدر لأنها ليلة وصال النبي الخاتم وليلة وصول العاشق الحقيقي إلى محبوبه، وقد علم في المباحث السابقة أن تنزل الملائكة ونزول الوحي يكون بعد حصول الفناء والقرب الحقيقي.

ويستفاد من الأخبار الكثيرة والآيات الشريفة أيضا أن شرف الأزمنة والأمكنة ونحوستها بسبب الوقائع فيها وهذا يعلم بمراجعتها وإن كان يستفاد من بعضها الشرف الذاتي أيضا.

أما الاحتمال الآخر وهو أنها تسمى بليلة القدر لتقدير أمور أيام السنة فيها فأعلم أن حقيقة القضاء والقدر وكيفيتها ومراتب ظهورها من أجلّ العلوم الإلهية وأشرفها، وقد نهي عامة الناس عن الغور في أطرافها ولأنه يوجب الحيرة والضلالة لكمال دقتها ولطافتها ولهذا لا بد أن تعد هذه الحقيقة من

أسرار الشريعة وودائع النبوة ويصرف النظر عن البحث الدقيق في أطرافها، ونحن نشير إلى مبحث منه يناسب هذا المقام.

وهو أن تقدير الأمور مع أنها كانت في علم الحق تعالى في أزل الآزال وليس من الأمور التدريجية بالنسبة إلى مقام العلم الربوبي المنزه فما معنى التقدير في كل سنة في ليلة معينة؟

اعلم أن للقضاء والقدر مراتب تتفاوت أحكامه على حسب تلك المراتب:

المرتبة الأولى من تلك المراتب عبارة عن الحقائق التي تتقدر وتتحدد في حضرة العلم بالتجلي بالفيض الأقدس تبعا لظهور الأسماء والصفات وبعده تقدر وتحكم في الأقلام العالية والألواح العالية على حسب الظهور بالتجلي الفعلي ولا تقع التغيرات والتبديلات في هذه المراتب، والقضاء الحتم الذي لا يبدل هو الحقائق المجردة الواقعة في حضرات والنشأة العلمية والنازلة في الأقلام والألواح المجردة ثم تظهر الحقائق بالصور البرزخية والمثالية في الألواح الأخر والعالم الأنزل وهو عالم الخيال المنفصل وخيال الكل الذي يقال له عالم المثل المعلقة على طريقة حكماء الإشراق، وفي هذا العالم يمكن وقوع التغيرات والاختلافات بل هي واقعة.

ثم يكون التقديرات والتحديدات بتوسط الملائكة الموكلين بعالم الطبيعة، وفي لوح القدر هذا تغييرات دائمية وتبديلات أبدية، بل هو نفسه الصورة السيالة والحقيقة المتصرمة والمتدرجة والحقائق في هذا اللوح قابلة للشدة والضعف والحركات قابلة للسرعة والبطءِ والزيادة والنقيصة ومع ذلك فالوجهة التي تلي الله والوجهة الغيبية لهذه الأشياء التي هي جهة

التدلي بالحق وصورة ظهور الفيض المنبسط والظل الممدود وحقيقة العلم الفعلي للحق لا مجال فيها للتغيير والتبديل بوجه.

وبالجملة، فجميع التغيرات والتبدلات وزيادة الآجال وتقدير الأرزاق تقع عند الحكماء في لوح القدر العلمي وهو عالم المثال، وعند الكاتب تقع في لوح القدر العيني الذي هو محل نفس التقديرات على أيدي الملائكة الموكلين بها فبناء على هذا فلا مانع من أن تقع التغيرات والتبديلات في عالم الطبع في ليلة القدر بما أنه ليلة التوجه التام للولي الكامل وليلة ظهور سلطنته الملكوتية بتوسط النفس الشريفة للولي الكامل وأمام كل عصر وقطب كل زمان وهو اليوم حضرة بقية الله في الأرضين سيدنا ومولانا وإمامنا وهادينا الحجة بن الحسن (أرواحنا لمقدمه الفداء) فما أراد عليه السلام من جزئيات الطبيعة يبطئ حركته، وما أراد سرعته يسرعه وما أراد من رزق يوسعه وما أراد يضيقه، وهذه الإرادة إرادة الحق وظل الإرادة الأزلية وشعاعها وتابعة للفرامين الإلهية كما أن ملائكة الله أيضا لا يتصرفون من عند أنفسهم. وتصرفات جميعهم بل تصرفات جميع ذرات الوجود تصرف إلهي وهي من تلك اللطيفة الغيبية الإلهية {فاستقم كما أمرت} (هود ـ 112).

وأما ما ذكر من الاحتمال في وجه تسمية ليلة القدر من أن الأرض تضيق بواسطة الملائكة ولهذا سميت ليلة القدر، فهذا الوجه وإن كان بعيدا وإن كان القائل به أعجوبة الزمان الخليل بن أحمد رضوان الله عليه ولكن ما يمكن أن يقع موردا للبحث هو أن ملائكة الله ليست من سنخ عالم الطبيعة والمادة فما معنى ضيق الأرض بهم؟

فاعلم أنه قد ورد نظير هذا المطلب في الروايات الشريفة مثل قضية تشييع سعد بن معاذ رضي الله عنه (في الكافي: صلة ى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ على سعد بن معاذ مع تسعين ألف ملك فيهم جبرائيل (الحديث)) ومثل بسط الملائكة أجنحتهم لطالب العلم، فهذا إما من باب تمثل الملائكة بالصور المثالية وتنزلها من عالم الغيب إلى عالم المثال وتضييق ملكوت الأرض أو من باب تمثلهم الملكي في ملك الأرض وإن كانت الأبصار الطبيعية الحيوانية لا تراها. وبالجملة التضييق باعتبار التمثلات المثالية أو الملكية.

الأمر الثاني في حقيقة ليلة القدر:

اعلم أن لكل رقيقة ولكل صورة ملكية باطناً ملكوتياً وغيبيّاً وأهل المعرفة يقولون أن مراتب نزول حقيقة الوجود باعتبار احتجاب شمس الحقيقة في أفق تعينات الليالي ومراتب الصعود باعتبار خروج شمس الحقيقة من آفاق تعينات الأيام وإن شرافة الأيام والليالي ونحوستها تتضح على حسب هذا البيان.

وباعتار قوس النزول، فليلة القدر المحمدية وباعتبار قوس الصعود فيوم القيامة الأحمدية لأن هذين القوسين مدّ النور المنبسط الذي هو الحقيقة المحمدية وجميع التعيينات هي من التعين الأولى للاسم الأعظم.

ففي نظر الوحدة، العالم ليلة القدر ويوم القيامة وليس أكثر من ليلة واحدة ويوم واحد وهذا تمام دار التحقق أي وليلة القدر المحمدية ويوم القيامة الأحمدية، ومن تحقق بهذه الحقيقة فهو دائما في ليلة القدر ويوم القيامة وهذان يجتمعان.

وباعتبار نظر الكثرة تظهر الليالي والأيام، فبعض الليالي صاحبة القدر وبعضها ليست بصاحبة القدر وبين جميع الليالي البنية الأحمدية والتعين المحمدي صلى الله عليه وآله التي غرب في أفقها نور حقيقة الوجود بجميع شؤونه وكذلك الأسماء والصفات بكمال نوريتها وتمام حقيقتها قد غربت فيها

هي ليلة القدر المطلقة كما أن اليوم المحمدي يوم القيامة وأما سائر الليالي والأيام فهي ليال وأيام مقيّدة ونزول القرآن في هذه البنية الشريفة والقلب المطهّر نزول في ليلة القدر، فالقرآن كما أنه نزل جملة في ليلة القدر بطريق الكشف المطلق الكلي كذلك نزل نجوما في خلال ثلاث وعشرين سنة نجوما في ليلة القدر، والشيخ شاه آبادي دام ظله كان يقوليلة القدر هي الدورة المحمدية، وهذا أمّا باعتبار أنّ جميع الأدوار الوجودية هي الدورة المحمدية وأما إن في هذه الدورة الأقطاب الكمّل المحمدية والأئمة الهداة المعصومين ليالي القدر.

ويدل على هذا ما ذكرنا من حقيقة ليلة القدر الحديث الشريف المطوّل في تفسير البرهان نقله عن الكافي الشريف، وفي ذلك الحديث: "إن نصرانيا قال لموسى بن جعفر عليه السلام ما تفسير باطن حم والكتاب المبين إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّا كنّا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم؟ فقال علية السلام: إما حم محمد وإما الكتاب المبين أمير المؤمنين علي وأما الليلة فاطمة عليها السلام".

وفي رواية فسرت ليال عشر بالأئمة الطاهرين من الحسن إلى الحسن وهذه إحدى مراتب ليلة القدر قد ذكرها موسى بن جعفر عليه السلام ومما يشهد بأن ليلة القدر تمام الدورة المحمدية.. الرواية التي في تفسير البرهان عن الباقر عليه السلام وهذه الرواية حيث أنها رواية شريفة وتشير إلى معارف عديدة وتكشف أسرارا مهمّة ننقلها نصّا تيمّنا.

قال رحمه الله وعن الشيخ أبي جعفر الطوسي عن رجاله عن عبد الله بن عجلان السكوني قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: "بيت علي وفاطمة حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسقف بيتهم عرش رب العالمين وفي قعر بيوتهم فرجة مكشوطة إلى العرش معراج الوحي. والملائكة تنزل عليهم بالوحي صباحا ومساء وكل ساعة وطرفة عين والملائكة لا تنقطع أفواجهم، فوج ينزل وفوج يصعد وإن الله تبارك وتعالى كشف لإبراهيم عليه السلام عن السماوات حتى أبصر العرش وزاد الله في قوّة ناظره وإن الله زاد في قوة ناظر محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وكانوا يبصرون العرش ولا يجدون لبيوتهم سقفا غير العرش، فبيوتهم مسقفة بعرش الرحمن ومعارج الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام.. قال: قلت: من كل أمر سلام؟ قال: بكل أمر، فقلت: هذا التنزيل؟ قال: نعم".

والتدبر في هذا الحديث الشريف يفتح أبوابا من المعرفة لأهلها فتنكشف له نبذة من حقيقة الولاية وباطن ليلة القدر.

الأمر الثالث:

اعلم كما أن لليلة القدر حقيقة وباطنا قد أشرنا إليهما، كذلك لها صورة ومظهر، بل مظاهر في عالم الطبع وحيث أنه من الممكن أن تكون في المظاهر من جهة النقص والكمال فروق كثيرة فمن هذه الجهة يمكن أن يجمع بين الأقوال والأخبار التي وردت في تعيين ليلة القدر بأن الليالي الشريفة التي وردت في الروايات كلها من مظاهر ليلة القدر إلا أنه يفرق بعضها في الشرافة وكمال المظهرية والليلة الشريفة التي لها تمام ظهور ليلة القدر وليلة الوصول التام الختمي والوصول الكامل الخاتمي مختفية في ليالي جميع السنة أو شهر رمضان المبارك أو في العشر الأخير أو في الليالي الثلاثة منه، وفي الروايات للعامة والخاصة أيضا اختلافات، وفي روايات الخاصة ذكر بالترديد في ليلة التاسع عشر والحادي والعشرين والثالث والعشرين وفي بعضها الترديد بين الحادي والعشرين والثالث والعشرين.

قال شهاب بن عبد ربّه: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني بليلة القدر. قال (ع) "هي ليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين". وعن عبد الواحد بن المختار الأنصاري قال: سألت أبا جعفر عن ليلة القدر، قال: "في ليلتين ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين. فقلت افرد لي أحدهما. قال: وما عليك أن تعمل في ليلتين هي إحداهما".

وعن حسان بن أبي علي قال: سألت أبا عبد الله عن ليلة القدر فقال: "اطلبها في تسع عشرة وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين".

وقال السيد العابد الزاهد رضي الله عنه في الإقبال: اعلم أن هذه الليلة الثالثة والعشرين من شهر رمضان وردت أخبار صريحة بأنها ليلة القدر على الكشف والبيان فمن ذلك ما رويناه بإسناده إلى سفيان السمط قال: قلت لأبي عبد الله: "افرد لي ليلة القدر، قال: ليلة ثلاث وعشرين". ومن ذلك ما رويناه بإسناده إلى زرارة عن عبد الواحد بن المختار الأنصاري قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن ليلة القدر فقال "أخبرك والله ثم لا أعمي عليك هي أول ليلة من السبع الآخر". ثم يروي عن زرارة أنه قال كان ذلك الشهر تسعة وعشرين ثم يروي روايات أخر أن ليلة القدر هي ليلة ثلاث وعشرين منها قضية الجهني المعروفة (أقول: قال السيد بن طاووس قدس سره: ومن ذلك ما رويناه.. باسنادنا أيضا الى حماد بن عيسى عن محمد بن يوسف عن أبيه قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول أن الجهني أتى الى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال يا رسول الله إن لي إبلا وغنما وغلمة فأحب أن تأمرني ليلة أدخل فيها فأشهد الصلاة وذلك في شهر رمضان فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسارّه في أذنه قال: فكان الجهني اذا كانت ليلة ثلاث وعشرين دخله بإبله وغنمه وأهله وولده وغلمته فكان تلك الليلة ليلة ثلاث وعشرين بالمدينة فاذا أصبح خرج بأهله وغنمه وإبله الى مكانه واسم الجهني عبد الرحمن بن أنيس الأنصاري).

تنبيه عرفاني

كما ذكرنا في السورتين المباركتين المذكورتين الأظهر أن بسم الله في كل سورة متعلق بتلك السورة فلهذا يكون المعنى في السورة المباركة القدر إنّا أنزلنا الحقيقة الشريفة القرآنية واللطيفة المقدسة الإلهية في ليلة القدر المحمدية باسم الله الذي هو الحقيقة الجمعية الأسمائية والاسم الأعظم الربوبي والمتعين بالرحمة المطلقة الرحمانية والرحيمية بمعنى أن ظهور القرآن بتبعية الظهور الجمعي الإلهي والقبض والبسط الرحيمية والرحمانية بل حقيقة القرآن هي مقام ظهور اسم الله الأعظم بظهور الرحمانية والرحيمية وجامع للجمع والتفصيل. فهذا الكتاب لهذه الجهة قرآن وفرقان. كما أن روحانية الرسول الخاتم ومقام ولايته المقدس أيضا قرآن وفرقان ومقام أحدية الجمع والتفصيل.

فعلى هذا الاحتمال كأن الذات المقدسة تقول:

إنّا بالتجلي بمقام الاسم الأعظم وهو مقام أحدية الجمع والتفصيل بظهور رحمة الرحمانية والرحيمية نزّلنا القرآن في ليلة القدر المحمدية، وحيث أن في عالم الفرق بل فرق الفرق حصلت الفرقانية بين القرآنين يعني القرآن المكتوب المنزل والقرآن المنزل عليه يعني الكتاب الإلهي والحقيقة المحمدية فواصلنا بين القرآنين وجمعنا بين الفرقانين في ليلة الوصال، وبهذا الاعتبار أيضا هذه الليلة ليلة القدر ولكن لا يعرف أحد قدرها كما ينبغي غير نفس خاتم النبيين صاحب ليلة القدر بالأصالة وأوصيائه المعصومين أصحابها بالتبعية.

تتمة: في ذكر بعض روايات التي وردت في فضل ليلة القدر:

منها: ما رواه العارف بالله السيد ابن طاووس في كتاب الإقبال

الشريف، قال: وجدت في كتاب كنز اليواقيت تأليف أبي الفضل أبي محمد الهروي أخبارا في ليلة القدر إلى أن قال عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: "قال موسى: إلهي أريد قربك قال: قربي لمن استيقظ ليلة القدر. قال: إلهي أريد رحمتك، قال: رحمتي لمن رحم المساكين ليلة القدر. قال: إلهي أريد الجواز على الصراط، قال: ذلك لمن تصدّق في ليلة القدر. قال: إلهي أريد من أشجار الجنة وثمارها قال: ذلك لمن سبّح تسبيحة في ليلة القدر. قال: إلهي أريد النجاة، قال: النجاة من النار؟ قال: نعم، قال: ذلك لمن استغفر في ليلة القدر. قال: إلهي أريد رضاك، قال: رضائي لمن صلى ركعتين في ليلة القدر".

ومن الكتاب المذكور عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: "تفتح أبواب السماء في ليلة القدر فما من عبد يصلى فيها إلا كتب الله تعالى له بكل سجدة شجرة في الجنة لو يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها وبكل ركعة بيتا في الجنة من در وياقوت وزبرجد ولؤلؤ، وبكل آية تاجا من تيجان الجنة وبكل تسبيحة طائرا من العجب وبكل جلسة درجة من درجات الجنة وبكل تشهّد غرفة من غرفات الجنة وبكل تسليمة حلّة من حلل الجنة، فإذا انفجر عمود الصبح أعطاه الله من الكواعب المؤلفات والجواري المهذبات والغلمان المخلّدين والنجائب المطيرات والرياحين المعطرات والأنهار الجاريات والنعيم الراضيات والتحف والهديات والخلع والكرامات ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون".

ومن هذا الكتاب عن الباقر عليه السلام "من أحيا ليلة القدر غفرت له ذنوبه ولو كانت ذنوبه عدد نجوم السماء ومثاقيل الجبال ومكاييل البحار". والأخبار في فضائلها أكثر من أن تكتب في هذه الأوراق.

قوله تعالى: وما أدراك ما ليلة القدر:

هذا التركيب للتفخيم والتعظيم وعظمة المطلب وعظمة الحقيقة خصوصا بملاحظة المتكلم والمخاطب، فمع أن الحق تعالى جلّت قدرته هو المتكلم والرسول الأكرم هو المخاطب، مع هذا الوصف ربما يكون المطلب ذا عظمة بمقدار لا يمكن إظهاره في نسج الألفاظ وتركيب الحروف والكلمات فكأنه تعالى يقول: لا تدري ما ليلة القدر في حقيقتها العظيمة ولا يمكن بيان حقيقتها ونسج الحروف والكلمات ونظمها لا يليق بتلك الحقيقة.

ولهذا مع أن كلمة ما لبيان الحقيقة فقد صرف النظر عن بيانها وقال ليلة القدر خير من ألف شهر فعرّفها بخواصها وآثارها لأن بيان حقيقتها غير ممكن، ومن هنا أيضا يحتمل بحدس قوي أن تكون حقيقة ليلة القدر وباطنها غير هذه الصورة والظاهر، وإن كان هذا الظاهر أيضا ذا أهمية وعظمة ولكن ليس بمثابة يعبّر هذا النحو من التعبير بالنسبة إلى رسول الله الولي المطلق والمحيط على كل العوالم.

إن قلت: بناء على ما ذكر من أن باطن ليلة القدر حقيقة الرسول المكرم وبنيته التي احتجبت فيها شمس الحقيقة بتمام شؤونها فالإشكال يكون أعظم لأنه لا يمكن أن يقال له ـ صلى الله عليه وآله ـ نفسه ما أدرك ما ليلة القدر التي هي صورة الملكية لك.

قلت أن لهذا المطلب وهذه اللطيفة باطنا وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

فأعلم أيها العزيز.. حيث إن في باطن ليلة القدر الحقيقيّة يعني في

البنية المحمدية والصورة الملكية أو في العين الثابتة المحمدية جلوة الاسم الأعظم والتجلي الأحدي الجمعي الإلهي فلهذه الجهة ما دام العبد السالك إلى الله يعني الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله في حجاب نفسه فإنه لا يتمكن من مشاهدة ذلك الباطن وتلك الحقيقة كما ورد في القرآن الشريف في حق موسى بن عمران لن تراني يا موسى.. مع أن التجلي الذاتي أو الصفاتي قد حصل له عليه السلام بدليل: {فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكّا وخرّ موسى صعقا} (الأعراف ـ 143). وبدليل فقرات الدعاء الشريف العظيم الشأن السمات كما هو واضح جدا، والنكتة في هذا أيضا أنه يا موسى ما دمت في الحجاب الموسوي والاحتجاب النفسي لا يمكنك المشاهدة لأن مشاهدة جمال الجميل لمن خرج عن نفسه، فإذا خرج عن نفسه فيرى بعين الحق وعين الحق ترى الحق لا محالة فجلوة الاسم الأعظم التي هي الصورة الكمالية لليلة القدر لا ترى مع الاحتجاب بالنفس، فهذا التعبير بناء على هذا التحقيق يكون صحيحا وفي مورده.

فإن قلت: إن ليلة القدر هي نفس البنية الأحمدية باعتبار احتجاب شمس الحقيقة فيها لا نفس الشمس حتى يصحّ هذا التوجيه. قلت: في لسان أهل النظر شيئية الشيء بصورته الكمالية والأشياء ذوات الأسباب وخصوصا السبب الإلهي لا تعرف بحقيقتها إلا بمعرفة أسبابها.

وفي لسان أهل المعرفة نسبة الظاهر والباطن والجلوة والمتجلي ليسا أمرين مفترقين بل الحقيقة الواحدة تتجلى بالتجلي الظهوري حينا وبالتجلي البطوني حينا آخر، كما يقول العارف المعروف:

ماعد مهائيم هستيها نما تو وجود مطلق وهستي ما (البيت للعارف الرومي يقول:

نحن اعدام نتظاهر بالوجود وأنت الوجود المطلق وأنت وجودنا).

وفي هذا الكلام كما يقول العارف الرومي لا انتهاء له (قد تكررت في أشعار العارف الرومي جملة (إين سخن بايان ندارد) أي هذا الكلام لانتهاء له فمقصود الامام دام ظلّه من نقل القول هذه الجملة فقط لا أصل المطلب فتنبّه "المترجم") وصرف النظر عنه أولى.

قوله تعالى: ليلة القدر خير من ألف شهر:

إذا لاحظنا الصورة الظاهرة الملكية لليلة القدر فكونها خيرا من ألف شهر بمعنى أنها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، أو أنها والعبادة والطاعة فيها خير من ألف شهر حمل اليهود فيها سلاح ليقاتلوا في سبيل الله.

أو أن ليلة القدر خير من ألف شهر سلطنة بني فلان كما في الروايات الشريفة.

وإذا لوحظت حقيقة ليلة القدر فيمكن أن يكون ألف شهر كناية عن جميع الموجودات باعتبار أن ألف العدد الكامل، والمراد من الشهر أنواعها، يعني أن البنية الشريفة المحمدية وهي الإنسان الكامل خير من ألف نوع وهي جميع الموجودات كما قال بعض أهل المعرفة.

وقد لاح في نظر الكاتب احتمال آخر وهو أن تكون ليلة القدر إشارة إلى مظهر الاسم الأعظم يعني المرآة التامة المحمدية صلى الله عليه وآله وألف شهر عبارة عن مظاهر الأسماء الأخر، وحيث أن للحق تعالى واحدا وألف اسم. واحد من الأسماء مستأثر في علم الغيب فلهذه الجهة ليلة القدر أيضا مستأثرة وليلة قدر البنية المحمّدية أيضا مستأثرة ولا يطلّع عليها غير الذات المقدسة للرسول الخاتم صلى الله عليه وآله.

تنبيه عرفاني:

وليعلم كما أن الولي الكامل والنبي الخاتم صلى الله عليه وآله ليلة

القدر باعتبار بطون الاسم الأعظم فيه واحتجاب الحق فيه بجميع شؤونه كذلك هو يوم القدر أيضا باعتبار ظهور شمس الحقيقة وبروز الاسم الجامع من أفق تعيّنه كما هو نفسه صلى الله عليه وآله يوم القيامة أيضا.

وبالجملة، ذاته المقدسة ليلة القدر ويومه، ويوم القيامة أيضا يوم القدر، فبناء على هذا لعل النكتة في التعبير عن سائر المظاهر بالشهر وعن هذا المظهر المقدس التام بالليلة هي أن مبدأ الشهور والسنين هو اليوم والليلة كما أن الواحد مبدأ للعدد وهو صلى الله عليه وآله بباطن الحقيقة ـ وهو الاسم الأعظم ـ مبدأ لسائر الأسماء وبتعينه وعينه الثابتة أصل الشجرة الطيبة ومبدأ التعينات، وتدبر، تعرف، واغتنم.

قوله تعالى: {تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر}

وفي هذه الآية الشريفة مطالب نذكر بعضها بطريق الإجمال:

الأمر الأول

في ذكر صنوف ملائكة الله والإشارة إلى حقيقتها على الإجمال:

اعلم أن بين المحدثين والمحقّقين اختلافا في تجرّد ملائكة الله وتجسّمها، وكافة الحكماء والمحققين وكثير من الفقهاء يقولون بتجردها وبتجرد النفس الناطقة، وأقاموا لذلك براهين متينة، ويستفاد التجرد من كثير من الروايات والآيات الشريفة كما قال المحدث المحقق مولانا محمد تقي المجلسي (هو والد المولى محمد باقر المجلسي كان وحيد عصره وفريد دهره اورع أهل زمانه وأزهدهم وأعبدهم استفاد العلم من شيخ الاسلام والمسلمين الشيخ بهاء الدين العاملي والعلامة الزاهد المقدس الورع المولى عبدالله الشوشتري وبعد فراغه من التحصيل أتى النجف الاشرف واشتغل بالرياضات وتهذيب الاخلاق وتصفية الباطن وله مكاشفات ومنامات حسنة ليس هاهنا مقام ذكرها ومصنفاته كثيرة منها شرحاه العربي والفارسي على كتاب من لا يحضره الفقيه كل منها يزيد على مئة ألف بيت وأرتحل إلى جوار رحمة الله تعالى في سنة 1070 (غع)). الوالد الماجد للمرحوم المجلسي في شرح الفقيه في ذيل بعض الروايات: أن هذا يدّل على تجرّد النفس الناطقة.

وقال بعض الأكابر من المحدثين بعدم التجرد، وغاية ما استدلّوا به أن القول بالتجرد مناف للشريعة وصرّحوا بأن المجرد ليس سوى ذات الحق

تعالى وتقدس. وهذا الكلام ضعيف في الغية لأن نظرهم في هذا لعلها كانت معطوفة على أمرين:

الأول قضية حدوث العالم زمانا فتوهم أن تجرد شيء سوى الحق ينافيه.

والثاني: كون الحق تعالى فاعلا باختيار، فتوهموا أنه يخالف تجرّد عالم العقل والملائكة، وكلا المسألتين من المسائل المعنونة في العلوم العالية وقد اتضح فيها عدم تنافي المسائل من هذا القبيل مع الوجود المجردّ بل القول بعدم تجرد النفوس الناطقة وعالم العقل وملائكة الله ينافي كثيرا من المسائل الإلهية وكثيرا من العقائد الحقة وليس الآن مجال لبيانه، والحدوث الزماني للعالم على نحو توهمته هذه الطائفة مناف لأصل مسألة الحدوث الزماني فضلا عن أنه مخالف لكثير من القواعد الإلهية والحق الموافق للعقل النقل عند الكاتب أن لملائكة الله أصنافا كثيرة وكثير منها مجرد وكثير منها جسماني برزخي ولا يعلم جنود ربك إلا هو.. وأصنافها على حسب التقسيم الكلي ما قالوا أن الموجودات الملكوتية على قسمين:

قسم لا تعلّق به بعالم الأجسام لا تعلقا حلوليّا ولا تعلقا تدبيريا. والقسم الآخر ما له التعلق بأحد هذين الوجهين.

والطائفة الأولى قسمان: قسم يقال له الملائكة المهيمنة وهم المستغرقون في جمال الجميل والمتحيرون في ذات الجليل وعن سائر الخلق غافلون لا يتوجهون إلى سائر الموجودات.

ففي أولياء الله أيضا طائفة بهذه الصفة، فكما أننا مستغرقون في البحر الظلماني للطبيعة وعن عالم الغيب وذات ذي الجلال غافلون مع أن الحق تعالى ظاهر بالذات وكل ظهور شعاع ظهوره كذلك هو غافلون عن العالم وما فيه ومشغولون بالحق وجمال الجميل. وفي الرواية: "أن لله خلقا لا يعلمون أن الله خلق آدم وإبليس".

والقسم الثاني: طائفة جعلها الله تعالى وسائط رحمته وجوده وهي مبادئ سلسلة الموجودات وغاية أشواقها، ويقال لهذه الطائفة أهل الجبروت ويقدمها ويرأسها الروح الأعظم، ولعل الآية الشريفة، {تنزّل الملائكة والروح} (القدر ـ 4). أيضا تكون إشارة إلى هذه الطائفة من الملائكة واختصاص الروح بالذكر مع أنه من الملائكة لعظمته، كما في الآية الشريفة: {يوم يقوم الروح والملائكة صفا} (النبأ ـ 38) أيضا إشارة إلى ذلك.

ويقال للروح باعتبار القلم الأعلى كما قال صلى الله عليه وآله وسلم "أول ما خلق الله القلم".

ويقال له باعتبار آخر العقل الأول كما قال صلى الله عليه وآله وسلم "أول ما خلق الله العقل". وقال بعض: أن الروح هو جبرائيل.. وعند الفلاسفة جبرائيل آخر الملائكة الكروبيين وأنه الروح القدس ويعتقدون أن الروح أول الملائكة الكروبيين. وفي الروايات الشريفة أيضا "أن الروح أعظم من جبرائيل" كما في الكافي الشريف عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل: {يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي} (الاسراء ـ 85) قال: "خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله وهو مع الأئمة وهو من الملكوت".

وفي بعض الروايات أن الروح ليس من الملائكة بل أعظم من الملائكة، ولعل للروح في لسان القرآن، والأحاديث إطلاقين كما أن له في لسان أهل الإصطلاح إطلاقات، فروح من صنوف الملائكة كما قال عليه السلام "أنه من الملكوت" وروح هو روح حضرات الأولياء وليس من

الملائكة وأعظم منها. فبناء على هذا يمكن أن يكون الروح في السورة الشريفة القدر باعتبار التنزّل في ليلة القدر عبارة عن الروح الأمين أو الروح الأعظم، وفي الآية الشريفة {يسألونك عن الروح} (لاسراء ـ 85) عبارة عن الروح الإنساني الذي هو مرتبة الكمال أعظم من جبرائيل وسائر الملائكة وهو من عالم الأمر بل ربما يتحد مع المشيئة التي هي الأمر المطلق.

والقسم الآخر من ملائكة الله هو الملائكة الموكلة بالموجودات الجسمانية والمدبرات فيها ولها صنوف كثيرة وطوائف لا تعدّ لأن لكل موجود علوي أو سفلي فلكي أو عنصري وجهة ملكوتية ينتقل بتلك الوجهة إلى عالم ملائكة الله ويتصل بجنود الحق، كما أن الحق تعالى يشير إلى ملكوت الأشياء بقوله {فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون}.

وقال النبي صلى الله عليه وآله في كثرة الملائكة كما في الروايات "أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع". وقد ذكر في الروايات الشريفة الكثيرة ما يرجع إلى كثرة الملائكة وكثرة صنوفها.

الأمر الثاني

في بيان كيفية نزول الملائكة على ولي الأمر

اعلم أن الروح الأعظم وهو خلق أعظم من ملائكة الله بمعنى أنه واقع في الرتبة الأولى من ملائكة الله وأشرف وأعظم من الكل وملائكة الله المجردة قطان عالم الجبروت ولا يتجافون عن مقامهم والنزول والصعود لهم بالمعنى الذي للأجسام مستحيل لأن المجرد مبرأ ومنزه عن لوازم الأجسام

فتنزلهم أعم من أن يكون في مرتبة القلب أو الصدر أو الحس المشترك للولي أو أن يكون في بقاع الأرض والكعبة وحول قبر رسول الله أو في البيت المعمور بطريق التمثّل الملكوتي أو الملكي كما قال تعالى في شأن تنزل الروح الأمين على مريم. فتمثل لها بشرا سويا (مريم . 17) كما إن للأولياء الكمَّل أيضا يمكن أن يكون تمثل ملكوتي وتروح جبروتي فلملائكة الله استطاعة الدخول في الملك والملكوت وقدرته وقوته على نحو التمثل، وللكمّل من الأولياء قدرة الدخول في الملكوت والجبروت على طور التروّح، والرجوع من الظاهر إلى الباطن، وتصديق هذا المعنى لمن فهم حقائق المجردات سهل سواء المجرد الملكوتي أو الجبروتي أو النفوس الناطقة التي هي أيضا من المجردات الجبروتية أو الملكوتية وتصور مراحل الوجود ومظاهر ونسبة الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر.

وليعلم أنه لا يمكن تمثل الجبروتيّين والملكوتيّين في قلب البشر وصدره وحسه المشترك إلا بعد خروجه من الجلباب البشري وحصول المناسبة بينه وبين تلك العوالم، وإلا فما دامت النفس مشتغلة بالتدبيرات الملكية وغافلة عن تلك العوالم لا يمكن أن تحصل لها هذه المشاهدات أو التمثلات، نعم ربما يمكن أن يحصل للنفس انصراف عن هذه العوالم بإشارة من أحد الأولياء وتدرك إدراكا معنويا أو صوريا من عوالم الغيب بمقدار لياقتها وربما يكون للنفس انصراف عن الطبيعة بواسطة بعض الأمور الهائلة فتدرك انموذجة عن عالم الغيب كما ينقل الشيخ الرئيس قضية رجل صافي الضمير أنه أخذ براءة من النار في حج بيت الله. وينقل ما يشبهها الشيخ العارف محي الدين فجميع هذه الأمور أيضا من انصراف النفوس من الملك وتوجهها إلى الملكوت وربما يمكن أن نفوس الأولياء الكمل بعد انسلاخها عن العوالم

ومشاهدة الروح الأعظم أو سائر ملائكة الله تصحو وتحفظ حضرات الغيب والشهادة بواسطة قوتها، وفي هذه الصورة تشاهد حقائق الجبروتيين في جميع النشآت في آن واحد وربما يحصل تنزل الملائكة بقدرة الولي الكامل بنفسه والله العالم.

الأمر الثالث

اعلم أن ليلة القدر حيث أنها ليلة مكاشفة رسول الله وأئمة الهدى عليهم السلام فلهذا تنكشف لهم جميع الأمور الملكية عن غيب الملكوت وتظهر لهم الملائكة الموكلة بكل أمر من الأمور لحضراتهم في نشأة الغيب وعالم القلب وتنكشف وتعلم لهم جميع الأمور التي قدرت للخلائق في مدة السنة وكتبت في الألواح العالية والسالفة على نحو الكتابة الملكوتية والاستجنان الوجودي، وهذه المكاشفة مكاشفة ملكوتية محيطة بجميع ذرات عالم الطبيعة ولا يخفي لولي الأمر شيء من أمور الرعية.

ولا ينافي أن ينكشف لهم في ليلة واحدة أمر السنة وفي حالة جميع الأمور وفي لحظة جميع المقدرات الملكية والملكوتية.

وتنكشف أيضا بالتدريج في أيام السنة الأمور اليومية على طريق الإجمال والتفصيل.

فمثلا ورد في كيفية نزول القرآن في الحديث أنه نزل جملة واحدة في البيت المعمور ونزل في طول ثلاث وعشرين سنة على رسول الله، والورود في البيت المعمور أيضا نزول على رسول الله.

وبالجملة ربما يتصل ولي الأمر بالملأ الأعلى والأقلام العالية والألواح المجردة فتحصل له المكاشفة التامة لجميع الموجودات أزلا وأبدا، وربما يتصل

بالألواح السافلة فيكتشف مدة مقدرة. وتمام صفحة الكون حاضرة في محضرة الولوي وكل أمر يقع يكون منظورا لهم عليهم السلام وقد ورد في روايات عرض الأعمال على ولي الأمر أنه كان في كل خميس وأثنين تعرض الأعمال على رسول الله وأئمة الهدى عليهم السلام.

وفي بعض الروايات أنها تعرض في صبيحة كل يوم. وفي بعضها تعرض عليهم أعمال العباد صباحا ومساء وهذه كلها أيضا على حسب الإجمال والتفصيل والجمع والتفريق، وقد وردت في هذه الأبواب روايات شريفة عن أهل بيت العصمة والطهارة مذكورة في كتب التفاسير كتفسير البرهان والصافي.

قوله تعالى: سلام هي حتى مطلع الفجر:

هذه الليلة المباركة هي السلامة من الشرور والبليات والآفات الشيطانية حتى مطلع الفجر أو أنها سلام على أولياء الله وأهل الطاعة، أو أن ملائكة الله التي تلاقيهم لتسلم عليهم من الله تعالى إلى طلوع الفجر.

تنبيه عرفاني

كما ذكر سابقا في بيان حقيقة ليلة القدر أنها تعبّر عن مراتب الوجود وتعينات الغيب والشهود بالليل باعتبار احتجاب شمس الحقيقة في أفقهم وبناء عليه فليلة القدر هي ليلة احتجب فيها الحق تعالى بجميع الشؤون وأحدية جمع الأسماء والصفات التي هي حقيقة الاسم الأعظم وهي التعين والبنية للولي الكامل وهو في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه المقدسة وبعده أئمة الهدى واحدا بعد واحد، فبناء على هذا ففجر ليلة القدر هو وقت ظهور آثار شمس الحقيقة من خلف حجب التعينات،

وطلوع الشمس من أفق التعينات فجر يوم القيامة أيضا وحيث أنه من مدة الغروب واحتجاب شمس الحقيقة في أفق تعينات هؤلاء الأولياء الكمل إلى وقت طلوع الفجر وهو مدّة ليلة القدر تلك الليلة صاحبة الشرف سالمة من التصرفات الشيطانية مطلقا، وكما احتجبت الشمس من دون كدورة وبلا تصرفات شيطانية تطلع بهذه الصفة فقال تعالى: {سلام هي حتى مطلع الفجر} وأما سائر الليالي فهي: فإما أن السلامة ليست فيها أصلا وهي ليالي بني أميّة وأمثالهم أو أنها فاقدة للسلامة بمجموع معانيها وهي ليالي سائر الناس.

خاتمة:

قد علم من البيانات العرفانية والمكاشفات الإيمانية التي ظهرت بتأييد من الأولياء العظام على القلوب المنيرة لأهل المعرفة إن السورة المباركة التوحيد كما أنها نسبة الذات المقدسة للحق جل وعلا كذلك السورة الشريفة القدر نسبة أهل بيت العظام عليهم السلام، كما ورد في روايات المعراج مثل ما رواه محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في صلاة النبي صلى الله عليه وآله في السماء في حديث الإسراء قال عليه السلام "ثم أوحى

الله عز وجل إليه اقرأ يا محمد نسبة ربك تبارك وتعالى الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وهذا في الركعة الأولى ثم أوحى الله عز وجل إليه اقرأ بالحمد لله فقرأها مثلما قرأ أولا ثم أوحى الله إليه: اقرأ: إنّا أنزلناه فإنها نسبتك ونسبة أهل بيتك إلى يوم القيامة".

والروايات الشريفة في فضل السورة المباركة القدر كثيرة منها ما في الكافي الشريف عن أبي جعفر عليه السلام قال "من قرأ إنّا أنزلناه في ليلة القدر يجهر بها صوته كان كالشاهر سيفه في سبيل الله ومن قرأها سرّا كان كالمتشحط بدمه في سبيل الله، ومن قرأها عشر مرات غفرت له على نحو ألف ذنب من ذنوبه". وفي خواص القرآن روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله "من قرأ هذه السورة كان له أجر من قاتل في سبيل الله" والحمد لله أولا وآخرا.

اعتذار:

مع أنه كان في نية الكاتب في هذه الرسالة أن يكفّ عن المطالب العرفانية غير مأنوسة النوع، ويكتفي بالآداب القلبية فقط للصلاة.. والآن أرى أن القلم قد طغى وفي خصوص تفسير السورة الشريفة قد تجاوزت عن الموضوع المقرّر عندي فلا بدّ لي من أن أعتذر للأخوة الإيمانيين والاخلاّء الروحانيين، وفي ضمن الاعتذار أقول:

إذا رأيتم في هذه الرسالة مطلبا غير مطابق لذوقكم فلا ترموه بالباطل بلا تأمّل لأن كل علم له أهل ولكل طريق سالك رحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعدّ طوره.. ويمكن أن يغفل بعض عن حقيقة الحال ولعدم اطّلاعهم على المعارف القرآنية ودقائق السنن الإلهية يظنّون أن بعض مطالب هذه الرسالة تفسير بالرأي وهذا الظنّ خطأ محض وافتراء فاحش لأنه:

أولا: أن هذه المعارف واللطائف كلها مستفادة من القرآن الشريف والأحاديث الشريفة ولها شواهد سمعية كما ذكر بعضها في خلال المباحث ولم يذكر أكثرها رعاية للاختصار.

وثانيا: جميع تلك المعارف أو أكثرها موافقة للبراهين العقلية أو العرفانية، والأمر بهذه الصفة لا يكون تفسيرا بالرأي.

وثالثا: أن ما ذكرنا من المطالب أم نذكره في بيان الآيات الشريفة فهو من قبيل بيان مصاديق المفاهيم غالبا وبيان المصداق ومراتب الحقائق ليس بتفسير أصلا حتى يكون تفسيراً بالرأي.

ورابعا: بعد جميع المراحل ذكرنا المطالب في الموارد غير الضرورية على سبيل الاحتمال وبيان أحد المحتملات رعاية لغاية الاحتياط في الدين مع أنه ليس هنا محل للاحتياط، ومن المعلوم أن باب الاحتمال ليس مسدودا على أحد وليس مربوطا بالتفسير بالرأي وهنا مطالب أخرى كففنا عنها رعاية للاختصار.

الباب الخامس

في نبذة من آداب الركوع وأسراره

وفيه

خمسة فصول

الفصل الأول

في التكبير قبل الركوع

والظاهر أن هذا التكبير من متعلقات الركوع ولأجل تهيّؤ المصلي للدخول إلى منزل الركوع. وأدبه أن ينظر المصلي إلى مقام عظمة الحق وجلاله وعزة الربوبية وسلطنتها ويجعل ضعف العبودية وعجزها وفقرها وذلّها نصب عينه. وفي هذا الحال يكبر الحق تعالى عن التوصيف بمقدار معرفته عن الربوبية وذل العبودية، ويلزم أن يكون توصيف العبد السالك الحق تعالى وتسبيحه وتقديسه إيّاه لإطاعة الأمر محضا ولأذن الحق تعالى في التوصيف والعبادة وإلا فليس له تلك الجسارة أن يجازف بالتوصيف والتعظيم في المحضر الربوبي، عبد ضعيف مثله وهو في الحقيقة لا شيء. وما فيه فهو أيضا من المعبود العظيم الشأن.

في مقام يقول علي بن الحسين بلسانه الولوي الأحلى الذي هو لسان الله "أفبلساني هذا الكالّ أشكرك؟". (فما يتأتى من بعوضة ضئيلة) (مصراع بيت لشعر معروف كمثل رايج:

جتئي كه عقاب بربريزد از بيشه لاغري جه خيزد

في مكان يسقط جناح العقاب ويعجز عن الطيران فماذا يتأتى من بعوضة ضئيلة.) فإذا أراد العبد السالك أن يرد منزل الركوع الخطير فلا بد له من التهيّؤ لذاك المقام وأن يلقي بيده توصيفه وتعظيمه وعبادته وسلوكه على قفاه ويرفع يده إلى حذاء الأذن ويقلب كفيه الخاليتين حذاء القبلة ويرد منزل

الركوع صفر اليدين وخالي الكفين ويقلب مملوء بالخوف والرجاء. خوف التقصير عن القيام بمقام العبودية والرجاء الواثق بمقام الحس المقدس حيث شرّفه وأذن له بالدخول إلى هذه المقامات التي هي للخلّص من الأولياء والكمّل من الأحبّاء.

ولعل الرفع بهذه الكيفية هو ترك لمقام القيام وترك الوقوف إلى ذاك الحدّ وإشارة إلى عدم التزوّد من منزل القيام. والتكبير إشارة إلى التعظيم والتكبير عن التوصيفات التي صدرت في منزل القيام. وعند أهل المعرفة حيث أن الركوع منزل توحيد الصفات فتكبير الركوع تكبير عن هذا التوحيد، ورفع اليد إشارة إلى رفض صفات الخلق.

الفصل الثاني

في آداب الانحناء الركوعي

اعلم أن عمدة أحوال الصلاة ثلاثة، وسائر الأعمال والأفعال مقدّماتها ومهيئات لها، الأول: القيام. والثاني: الركوع. والثالث: السجود. وأهل المعرفة يرون هذه الثلاثة إشارة إلى التوحيدات الثلاثة، ونحن ذكرنا تلك المقامات في كتاب (سر الصلاة) على حسب الذوق العرفاني والآن نبين هذه المنازل بلسان آخر يناسب العامة فنقول:

بما أن الصلاة معراج كمالي للمؤمن مقرّب لأهل التقوى فهي متقوّمة بأمرين أحدهما مقدمة للآخر:

الأول: ترك رؤية النفس الذي هو باطن التقوى.

الثاني: حبّ الله وطلب الحق وهو حقيقة المعراج والقرب، ولهذا ورد في الروايات الشريفة: الصلاة قربان كل تقيّ كما أن القرآن أيضا نور الهداية ولكن للمتقين: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين} (البقرة ـ 3).

وبالجملة هذان المقامان، يحصلان في هذه المقامات الثلاثة بالتدريج، ففي حال القيام ترك لرؤية النفس على حسب مقام الفاعلية ورؤية فاعلية الحق وقيّومية الحق المطلق، وفي الركوع ترك لرؤية النفس على حسب

مقام الصفات والأسماء ورؤية لمقام أسماء الحق وصفاته، وفي السجود ترك لرؤية النفس مطلقا وحب لله وطلب لله مطلقا وجميع منازل السالكين من شؤون هذه المقامات الثلاثة كما هو واضح لأصحاب البصيرة ولأهل العرفان والسلوك، فإذا توجّه السالك في هذه المقامات بأن سرّ هذه الأعمال والتوحيدات الثلاثة لكل مقام هو أدقّ وألطف، فمن الضروري للسالك أن يراقبه مراقبة أكثر لأن خطر المقام أشدّ والزلل فيه أكثر، ففي مقام الركوع حيث أن للسالك دعوى أنه ليس في دار الوجود علم ولا قدرة ولا حياة ولا إرادة سوى من الحق تعالى، وهذه الدعوى دعوة عظيمة والمقام دقيق للغاية ولا ينبغي هذه الدعاوى لأمثالنا فلا بد أن نتوجه بباطن ذاتنا إلى جناب الحق المقدّس بالتضرّع والمسكنة و الذلّة ونعتذر عن القصور والتقصير ونجد نقصاننا بعين العيان وشهود الوجدان، فلعله يصدر عن هذا المقام المقدس توجّه وعناية ويصير حال الاضطرار سببا للمساعدة من الذات المقدسة: أمّن يجيب المضّطر إذا دعاه ويكشف السوء.

الفصل الثالث

تعظيم وتنبيه وتحقيق

قد ورد في صلاة المعراج لرسول الله صلى الله عليه وآله وأنه خاطبه العزيز "فانظر إلى عرشي". قال رسول الله: "فنظرت إلى عظمة ذهبت لها نفسي وغشي عليّ فألهمت أن قلت سبحان ربي العظيم وبحمده لعظم ما رأيت. فلما قلت ذلك تجلّى الغشي عني حتى قلتها سبعا ألهم ذلك فرجعت إليّ نفسي كما كانت".

فأنظر أيها العزيز إلى مقام عظمة سلوك سيد الكلّ وهادي السبل صلى الله عليه وآله أنه رأى في حال الركوع وهو حال النظر إلى ما دون نفسه نور العرش، وحيث أن نور العرش في نظر الأولياء عبارة عن تجلي الذات بلا مرآة، فالتعين النفسي يرتفع وتحصل حالة الغشي والصعق فساعدت الذات المقدسة بالعنايات الأزلية وجوده الشريف ولقّن سبحانه الذات النبوية المقدسة التسبيح والتعظيم و التحميد بالإلهام الحبّي حتى سرى عنه الصعق بعدما قالها سبعا بعدد الحجب وعدد مراتب الإنسان وحصلت له حالة الصحو. وهذه الأحوال كانت تداومه في جميع صلاة المعراج. وحيث أنه لا سبيل لنا إلى خلوة الأنس ولا مكان لنا في مقام القدس

فالجدير أن نجعل رأس مالنا للوصول إلى المقصد و عروتنا لحصول المطلوب عجزنا و ذلّتنا (ولا نرفع اليد عن ذيل المقصود حتى نحصل ما يأمله القلب من اللذة) (لا أظن أن أحدا يستطيع أن يترجم هذه الجملة بما لها من الرقة والجمال لأنه روحي فداه ركّبها من جملة كنائية لطيفة ومن قطعة من شعر الحافظ الشيرازي وهي (تاكام دل برآيد) فأصبحت ذات جمال وحسن لا يوصف ولها في نفس الحال من الوزن والموسيقى ما تهتز به أوتار وجود القارئ إن كان له قلب "المترجم" وإذا لم نكن من رجال هذا الميدان فلعله تستشم أرواحنا رائحة من المعارف ويهبّ نسيم لطف لقالبنا الميّت وذلك لأن عادة الحق تعالى الإحسان وشيمته التفضّل والأنعام وليعلم أن الركوع مشتمل على تسبيح الرب جلّ وعلا وتعظيمه وتحميده، فالتسبيح تنزيه عن التوصيف وتقديس عن التعريف.. وإن التعظيم و التحميد خروج عن حدّي التشبيه والتعطيل لأن التحميد يفيد الظهور في المرائي الخلقية والتعظيم يرى سلب التحديد فهو الظاهر وليس في العالم أظهر منه وفي الوقت نفسه ليس متلبّسا بلباس التعيّنات الخلقية.

الفصل الرابع

أدب الركوع

عن مصباح الشريعة، قال الصادق عليه السلام "لا يركع عبد لله ركوعا على الحقيقة إلا زيّنه الله بنور بهائه وأظلّه في ظلال كبريائه وكساه كسوة أصفيائه، والركوع أول والسجود ثان فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني، وفي الركوع أدب وفي السجود قرب ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب، فأركع ركوع خاضع لله بقلبه متذلل وجِلٍ تحت سلطانه خافض له جوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين. وحكي أن الربيع بن خيثم كان يسهر بالليل إلى الفجر في ركعة واحدة فإذا هو أصبح رفع" يزفر "وقال آه سبق المخلصون وقطع بنا، واستوف ركوعك باستواء ظهرك وانحط على همتك في القيام بخدمته إلا بعونه وفرّ بالقلب من وساوس الشيطان و خدائعه ومكائده فإن الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له ويهديهم إلى أصول التواضع والخضوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم".

وفي هذا الحديث الشريف إشارات وبشارات وآداب ووظائف، كما أن التزين بنور بهاء الله بشارات للوصول إلى مقام التعلم الأسمائي: وعلّم آدم الأسماء كلها.. والتحقق بمقام الفناء الصفاتي وحصول حالة الصحو من ذلك المقام لأن تزيين الحق تعالى العبد بمقام نور البهاء هو تحقيق الله

العبد بمقام الأسماء الذي هو حقيقة تعليم الأسماء وإظلاله في ظلّ الكبرياء وهو من الأسماء القهرية وتمكين الله العبد في فنائها إفناء العبد عن نفسه وبعد هذا المقام إكساؤه بكسوة الأصفياء إبقاؤه بعد الإفناء. ومن هنا يعلم أن السجود فناء ذاتي كما قال أهل المعرفة لأن الركوع أول وهو هذه المقامات، والسجود ثان فليس هو إلا مقام الفناء في الذات، ويعلم أيضا أن القرب المطلق الذي يحصل في السجود لا يتيسّر إلا بحصول الركوع على الحقيقة، ومن أراد أن يصلح للثاني لا بد أن يحصّل القرب الركوعي وأدب الركوع، ثم أنه عليه السلام بعد بيان لطائف الركوع والسجود وسرائرهما أشار إلى آدابه القلبية للمتوسطين وهي أمور بعضها من الأمور العامة ذكرناها في المقدمات وبعضها خاص بالركوع. وحيث أنّا بيّنّا أكثر هذه الأمور أغمضنا النظر عن تفصيلها.

الفصل الخامس

في رفع الرأس من الركوع

وسرّه الرجوع عن الوقوف في الكثرات الأسمائية، كما قال عليه السلام: وكمال التوحيد نفي الصفات عنه لأن العابد السالك بعدما حصلت له حالة الصحو من الفناء الأسمائي يشاهد قصوره وتقصيره وذلك لأن مبدأ الخطيئة الآدمية التي على الذرّية أن تجبرها هو التوجه إلى الكثرات الأسمائية التي هي باطن الشجرة فإذا عرف العبد لنفسه وهي ذرية آدم خطيئتها ولآدم وهو الأصل خطيئته فيطلع على مقام تذلّله ونقصانه ويتهيأ لرفع خطيئته بخفض الجناح في حضرة الكبرياء ويقيم صلبه عن هذا المقام ويرفع الكثرات الأسمائية بعد رفع الرأس بالتكبير ويتوجّه إلى منزل الذلّة والمسكنة وأصل الترابية صفر اليد. وآدابه المهمّة هي عرفان عظم خطر المقام وإذاقته القلب بالتذكر والمجاهدة في التوجّه إلى حضرة الذات وترك التوجّه إلى النفس حتى إلى مقام ذلّة نفسه.

واعلم أيها العزيز أن التذكر التام لحضرة الحق والتوجّه المطلق بباطن القلب إلى تلك الذات المقدسة موجب لانفتاح العين الباطنية للقلب ويحصل به لقاء الله وهو قرّة عين الأولياء {الذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا} (العنكبوت . 69).

الباب السادس

في الإشارة الإجمالية إلى أسرار السجود وآدابه

وفيه

أربعة فصول

الفصل الأول

في سرّه الإجمالي

وهو عند أصحاب العرفان وأرباب القلوب ترك النفس وغمض العين عمّا سوى الحق والتحقيق بالمعراج اليونسي الذي حصل بالنزول والدخول في بطن الحوت بالتوجّه إلى أصله بلا رؤية الحجاب، وفي وضع الرأس على التراب إشارة إلى رؤية جمال الجميل في باطن قلب التراب وأصل عالم الطبيعة وآدابه القلبية عرفان حقيقة النفس وأصل جذر وجوده ووضع أم الدماغ وهي مركز سلطان النفس وعرش الروح على أدنى عتبة مقام القدس ورؤية عالم الأرض والتراب عتبة لمالك الملوك، فسرّ الوضع السجودي غمض العين عن النفس وأدب وضع الرأس على التراب إسقاط أعلى مقامات نفسه عن عينه ورؤيتها أقل من التراب واذا كان في القلب شائبة في الدعاوى التي تكون الأوضاع الصلاتية اشارة اليها فهو نفاق عند أرباب المعرفة، وحيث أن خطر هذا المقام أعظم الأخطار فيلزم السالك إلى الله أن يتمسّك بذيل عناية الحق جلّ وعلا بجبلته الذاتية وفطرته القلبية ويسأله العفو عن التقصيرات بالذلّة و المسكنة لأن هذا المقام مقام خطير خارج عن عهدة أمثالنا وحيث ذكرنا في رسالة سر الصلاة هذه المقامات بالتفصيل فنكفّ عن التفصيل ها هنا ونكتفي في آدابه بالرواية الشريفة لمصباح الشريعة.

الفصل الثاني

آداب السجود عند الصادق (ع)

عن مصباح الشريعة، قال الصادق عليه السلام: "ما خسر والله من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرّة واحدة وما أفلح من خلا بربّه في مثل ذلك الحال تشبيها بمخادع نفسه غافلا لاهيا عمّا أعده الله للساجدين من أنس العاجل وراحة الأجل. ولا بعد عن الله أبدا من أحسن تقرّبه في السجود ولا قرب إليه أبدا من أساء أدبه وضيّع حرمته بتعلّق قلبه بسواه في حال سجوده فاسجد سجود متواضع لله تعالى ذليل علم أنه خلق من تراب يطؤه الخلق وأنه اتخذك (ركب) من نطفة يستقذرها كل أحد وكوّن ولم يكن وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسرّ والروح فمن قرب منه بعد من غيره، ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء والاحتجاب عن كل ما تراه العيون، كذلك أمر الباطن فمن كان قلبه متعلقا في صلاته بشيء دون الله تعالى فهو قريب من ذلك الشيء بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته، قال عز وجل: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى: لا أطلّع على قلب عبد

فاعلم فيه حب الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي إلا توليت تقويمه وسياسته ومن اشتغل بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ومكتوب اسمه في ديوان الخاسرين".

ففي هذا الحديث الشريف قد جمع عليه السلام بين الأسرار والآداب، والتفكر فيه يفتح للسالك طرقا من المعرفة ويهدم تأبّي المفكرين وجحودهم ويؤيد ويشيد أولياء العرفان وأصحاب الإيقان ويقرع السمع بحقيقة الأنس والخلوة مع الحق وترك غير الحق (لقد ترجم المؤلف دام ظله بعد كلامه هذه الرواية الشريفة بالفارسية تركنا الترجمة حذرا من التكرار "المترجم").

الفصل الثالث

في ذكر السجود

في الحديث الشريف أنه لما نزلت فسبّح باسم ربّك العظيم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت: سبّح اسم ربك الأعلى، قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله: اجعلوها في سجودكم.

وفي الحديث الشريف في الكافي: فأول ما اختار لنفسه العلّي العظيم "الحديث". ولعل العلّي هو الأول من الأسماء الذاتية، والعظيم الأول في الأسماء الصفاتية.

واعلم أن في السجود كسائر الأوضاع الصلاتية هيئة وحالة وذكراً وسرّاً وهذه الأمور للكمّل على نحو، وقد بيّنت في هذه الرسالة إشارة وأما بيانها تفصيلا فغير مناسب وأما للمتوسطين فهيئته إراءة المتربة وترك الاستكبار والعجب وكذلك إرغام الأنف وهو من المستحبات المؤكدة بل تركه خلاف الاحتياط إظهارا لكمال التخضع والتذكّر والتواضع، وأيضا هو التوجّه إلى أصله والتذلل لنشأته. ووضع رؤساء الأعضاء الظاهرة على أرض الذلّة والمسكنة وتلك الأعضاء هي محال الإدراك، وظهور التحريك والقدرة وهي الأعضاء السبعة أو الثمانية علامة التسليم التام وتقديم جميع القوى

والخروج عن الخطيئة الآدمية فإذا قوي تذكر هذه المعاني في القلب فينفعل القلب بها تدريجا فتحصل حالة هي حالة الفرار من النفس وترك رؤية النفس، ونتيجة هذه الحالة حصول حالة الأنس وتعقبها الخلوة التامة وتظهر المحبة الكلية.

وأما ذكر السجدة فمتقوّم بالتسبيح وهو التنزيه عن التوصيف وعن القيام بالأمر أو التنزيه عن التكثير الأسمائي أو التنزيه عن التوحيد لأن التوحيد تفعيل وهو الذهاب من الكثرة إلى الوحدة وهذا لا يخلو عن شائبة التكثير والتشريك كما أن التوصيف بالعلو الذاتي والتحميد أيضا ليس خاليا عن شائبة هذه المعاني، والعلّي من الأسماء الذاتية وعلى رواية الكافي هو أول اسم هو أول اسم اتخذه الله لنفسه يعني هو أول تجلي الذات لنفسه، والعبد السالك إذا فني عن نفسه في هذا المقام وترك العالم وما فيه فينالله الفخر بهذا التجلي الذاتي.

واعلم أن الركوع حيث إنه أول والسجود ثان فيفترق التسبيح والتحميد فيها بفروق وأيضا يفرق الرب في المقامين لأن الرب كما قاله أهل المعرفة من الأسماء الذاتية و الصفاتية والأفعالية بالإعتبارات الثلاثة، فبناء على ذلك فالرب في الحمد لله رب العالمين لعله من الأسماء الفعلية بمناسبة مقام القيام وهو مقام التوحيد الأفعالي وفي الركوع من الأسماء الصفاتية بمناسبة أن الركوع مقام توحيد الصفات وفي السجود من الأسماء الذاتية بمناسبة أن السجود مقام توحيد الذات. والتسبيح والتحميد الواقعان في كل مقام يكونان مرتبطين بذلك المقام.

تنبيه عرفاني:

نقل القيصري (كتب المؤلف دام ظلّه في الهامش أن هذا التنبيه زائد يمحى) في مقدمات شرح الفصوص عن إنشاء الدوائر للشيخ الكبير ما معناه: أن الأسماء تنقسم بنوع من القسمة إلى أسماء الذات وأسماء الصفات وأسماء الأفعال وأن كانت كلها أسماء الذات ولكن باعتبار ظهور الذات فيها تسمى أسماء الذات وباعتبار ظهور الصفات فيها تسمى أسماء الصفات وبظهور الأفعال تسمى أسماء الأفعال وأكثر الأسماء جامعة للاعتبارين أو الاعتبارات الثلاثة لأن فيها ما يدلّ على الذات باعتبار ويدل على الصفات باعتبار ثان ويدل على الأفعال باعتبار ثالث مثل الرب فهو بمعنى الثابت من الأسماء الذاتية وبمعنى المالك من الأسماء الصفاتية وبمعنى المصلح من الأسماء الأفعالية.. "انتهى كلامه". ونحن ذكرنا في سالف الأيام في حاشية الفصوص أن الميزان في تمييز الأسماء ليس ما يستفاد من ظاهر كلام الشيخ بل ما يقضيه الذوق الأحلى العرفاني.

إن السالك إلى الله إذا فني عن فعله بالقدم العرفانية وحصلت له حالة التوحيد الإفعالي والمحو في المجال الفعلي. فالحق تعالى يتجلى لقلبه على ما يناسبه وكل تجلّ يحصل له في هذه الحالة فهو تجلّ إفعالي، ومن الأسماء الإفعالية فإذا تجاوز عن التجليات الإفعالية وأمّحى في حضرة الأسماء والصفات وحصل له الفناء الصفاتي فتجليات الحق تعالى لقلبه تجليات بأسماء الصفات وإخباراته أيضا من الأسماء الصفاتية. فإذا حصل له مقام المحو الذاتي والفناء الذاتي يتجلى الحق تعالى لقلبه بالأسماء الذاتية وتكون مشاهداته مشاهدات الأسماء الذاتية وإخباراته تكون عن هذا المقام.

والآن نقول: إن تجليات الحق في حضرة الأحدية تجلّ بالأسماء الذاتية وتجلّيه في الحضرة الواحدية تجلّ بأسماء الصفات وتجلّيه في حضرات الأعيان الخارجية تجلّ بأسماء الأفعال، ولعل الآيات الشريفة في آخر سورة الحشر من: هو الله الذي لا إله إلا هو.. إلى آخر السورة تكون إشارة إلى المقامات الثلاثة والله العالم.

وعلى السالك أن يكون منظوره نظره في الأكوان الثلاثة في الصلاة وهي: الكون القيامي والكون الركوعي والكون السجودي حصول هذه المقامات وهذا يحصل من التذكر الذي هو مبدأ السلوك (كتب المؤلف دام ظلّه في الهامش أن هذا التنبيه زائد يمحى).

الفصل الرابع

في بعض أسرار السجدة وذكرها ورفع الرأس منها

سجدة الغشي والصعق كما في حديث المعراج نتيجة مشاهدة أنوار العظمة للحق فإذا صار العبد بلا حواس عن نفسه وحصلت له حالة المحو والصعق فتشمله العناية الأزلية ويلهم بالإلهام الغيبي وذكر السجود وتكراره لحصول حالة الصحو والإفاقة، فإذا أفاق تشتعل في قلبه نار اشتياق مشاهدة نور الحق ويرفع الرأس عن السجدة فيرى في نفسه بقايا من الأنانية فيشير باليد إلى رفضها فتتجلى له نور العظمة ثانيا ويحرق بقية الأنانية ويفنى من الفناء وتحصل له حالة المحو الكلي المطلق والصعق التام الحقيقي وهو يكبّر الله فالمساعد الغيبي بإلهامه الأذكار يمكنه في المقام وتعرض له حالة الصحو في هذا المقام وهو صحو الولاية ومنزه عن كل احتجاب واختلاط خلقي وحالة

التشهد والسلام وهما من أحكام الكثرة، تحصل له أيضا في هذا الصحو بعد المحو وعند الوصول إلى هنا تتم وتكمل دائرة السير الإنساني.

الباب السابع
في الإشارة الإجمالية إلى آداب التشهُّد

وفيه
فصلان

الفصل الأول
في التشهُّد

اعلم أن الشهادة بالوحدانية والرسالة في الأذان والإقامة وهما من متعلقات الصلاة ومهيّئات الورود فيها، وفي التشهد وهو الخروج من الفناء إلى البقاء ومن الوحدة إلى الكثرة. وفي آخر الصلاة تذكّر العبد السالك أن حقيقة الصلاة حصول التوحيد الحقيقي والشهادة بالوحدانية من مقاماتها الشاملة التي تكون مع السالك من أول الصلاة إلى آخرها وفيها أيضا سرّ أولية الحق جل وعلا و آخريته، و فيها أيضا سرّ عظيم وهو أن سفر السالك من الله وإلى الله كما بدأكم تعودون.. فللسالك أن يتوجّه في جميع المقامات إلى هذا المقصد ويوصل إلى القلب حقيقة وحدانية الحق وألوهيته ويصنع القلب إلهيا في هذا السفر المعراجي لتكون شهادته حقيقية وتتنزّه عن النفاق والشرك، وفي الشهادة بالرسالة أيضا لعلها إشارة إلى أن مساعدة الوليّ المطلق والنبي الخاتم في هذا المعراج السلوكي من المقامات الشاملة التي لا بدّ للسالك أن يتوجه إليها في جميع المقامات ويتضح سرّ الأولية والآخرية الذي هو من مقامات الولاية لأهلها وليعلم أن ثمة فرقا بين الشهادة في أول الصلاة والشهادة في التشهّد، لأن الشهادة في أولها شهادة قبل السلوك وهي شهادة

تعبدية أو تعقلية وهذه التي في آخرها شهادة بعد الرجوع وهي شهادة تحققية أو تمكّنيّة فللشهادة في التشهد خطر عظيم لأنها دعوى التحقق والتمكن ودعوى الرجوع إلى الكثرة بلا احتجاب وحيث أن هذا المقام الشامخ غير حاصل لأمثالنا بل ليس من المتوقع أيضا حصوله ونحن في هذه الحال، فالأدب في حضرة الباري أن ننظر إلى قصورنا وذلّتنا ونقصنا وعجزنا ومسكنتنا ونتوجّه إلى جنابه المقدس بحالة الانفعال ونقول: إلهنا ليس لنا من مقامات الأولياء و مدارج الأصفياء وكمال المخلصين وسلوك السالكين حظ سوى ألفاظ معدودة، واقتنعنا عن جميع المقامات بقيل وقال ولا تحصل منه كيفية ولا حال (اشارة الى البيت المعروف ممن الشيخ البهائي قدس سره:

علم رسمي سر بسر قيل است وقال
نه ازاو كيفيّتي حاصل نه حال) ، إلهنا عن حب الدنيا و تعلقاتها حجبنا عن حضرة القدس ومحفل الأنس إلا أن تساعدنا نحن الساقطين بلطفك الخفيّ وتجبر ما سبق منا فلعلنا نستيقظ من نوم الغفلة ونجد طريقا إلى محضر القدس.

الفصل الثاني

آداب التَشهُّد عند الصادق (ع)

عن مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام: "التشهّد ثناء على الله فكن عبدا له في السرّ خاضعا له في الفعل كما أنك عبد له بالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء سرك فإنه خلقك عبداً وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك وأن تحقق عبودتك له بربوبيته لك وتعلم أن نواصي الخلق بيده فليس لهم نفس ولا لحظ إلا بقدرته ومشيئته وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلا بإذنه وإرادته. قال الله عز وجل: وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة من أمرهم سبحان الله وتعالى عمّا يشركون فكن عبداً شاكراً بالفعل كما أنك عبد ذاكر بالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء سرّك فإنه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشيئة لأحد إلا بسابق إرادته ومشيئته فاستعمل العبودية في الرضا بحكمه وبالعبادة في أداء أوامره وقد أمر بالصلاة على نبيه (حبيبه) صلى الله عليه وآله فأوصل صلاته بصلاته وطاعته بطاعته وشهادته بشهادته وانظر لا يفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم فائدة صلاته وأمره بالاستغفار لك والشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب وتعلم جليل مرتبته عند الله عز وجل".

وفي هذا الحديث الشريف إشارات إلى الآداب القلبية للعبادات وحقائقها وأسرارها فيقول: التشهّد ثناء على الحق جل وعلا بل قد أشرنا سابقا أيضا أن مطلق العبادات ثناء على الحق إما باسم أو بأسماء أو بتجل من التجليات وإما بأصل الهوية، ويشير عليه السلام إلى عمدة الأدب وهي انه كما أنك تعبد الله في الظاهر وتدّعي العبودية فاعبده في السر أيضا حتى تسري العبودية السريّة القلبية إلى الأعمال الجوارحية أيضا ويكون العمل والقول خارطة الباطن والسر وتسري حقيقة العبودية إلى جميع أجزاء الوجود أعم من الأجزاء الظاهرية والأجزاء الباطنية ويحظى كل من الأعضاء بحظّ من التوحيد ويوصل اللسان الذاكر الذكر إلى القلب ويفيد القلب الموحّد المخلص التوحيد والإخلاص إلى اللسان ويطلب العبد الربوبية من حقيقة العبودية (اشارة الى الحديث المشهور: العبودية جوهرة كنهها الربوبية "الحديث") ويخرج عن عبادة النفس ويوصل ألوهية الحق إلى القلب وليعلم أن ناصية العباد بيد الحق ولا يقدرون على التنفس والنظر إلا بقدرة الحق تعالى ومشيئته وانهم عاجزون عن التصرف في مملكة الحق بجميع أنواع التصرفات وإن كان تصرفا تافها إلا بإذن وإرادة من ذاته المقدسة كما قال تعالى: وربك يخلق ما يشاء (القصص ـ 68) ويختار كل ما أراد ليس لأحد اختيار في أمره استقلالا والله منزه عن الشريك في التصرف في مملكة الوجود فإذا أوصلت هذه اللطيفة إلى القلب يكون شكرك للحق على الحقيقة ويسري الشكر إلى أعضائك وأعمالك، فكما أن اللسان والقلب لا بد أن يكونا مترافقين في طريق العبودية ففي هذا التوحيد الفعلي أيضا لا بدّ أن يكون صدق اللسان موصولا بصفاء سرّ القلب لأن الحق جل وعلا هو الخالق ولا مؤثر غيره. وجميع الإرادات والمشيئات ظلّ إرادته ومشيئته الأزلية السابقة.

ثم أن العبد بعد آداب الشهادة بوحدانية الحق وألوهيته يتوجّه إلى

المقام المقدس للعبد المطلق والرسول الخاتم. وعلى المصلّي أن ينتبه من تقدّم مقام العبودية على الرسالة إن قدم العبودية مقدمة لجميع مقامات السالكين.. والرسالة شعبة من العبودية، وبما أن الرسول الخاتم عبد حقيقي

فانٍ في الحق فإطاعته إطاعة الحق والشهادة بالرسالة موصولة بالشهادة بالوحدانية، والعبد السالك لا بد أن يراقب نفسه ألا يقصّر في طاعة الرسول التي هي طاعة الله لئلا يحرم من مساعدة الولّي المطلق في بركات العبادة وهي الوصول إلى جناب القدس ومحل الأنس إلا بمساعدة ولّي النعم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

الباب الثامن
في آداب السلام

وفيه
فصلان

الفصل الأول
آداب السلام

اعلم أن العبد السالك إذا رجع عن مقام السجود الذي سره الفناء وحصلت له حالة الصحو والشعور ورجع من حالة الغيبة عن الخلق إلى حال الحضور فيسلم على الموجودات سلام من رجع من السفر والغيبة ففي ابتداء الرجوع من السفر يسلم على النبي الأكرم لأنه بعد الرجوع من الوحدة إلى الكثرة، فالحقيقة الأولية هي تجلي حقيقة الولاية "نحن الأولون السابقون" ثم يتوجّه إلى أعيان سائر الموجودات على طريق التفصيل والجمع ومن لم يكن في صلاته غائبا عن الخلق ولم يسافر إلى الله فالسلام بالنسبة إليه بلا حقيقة وليس إلا لقلقة لسان فالأدب القلبي للسلام مرتبط بالأدب في جميع الصلاة وإذا لم يحصل له في هذه الصلاة التي هي حقيقة المعراج عروج ولم يخرج عن بيت النفس فلا سلام له، وأيضا إذا كان له السلامة من تصرفات الشيطان وتصرفات النفس الأمّارة ولم يكن للقلب علة في طول هذا المعراج الحقيقي فسلامه حقيقي وإلا فلا سلام له. نعم السلام على النبي صلى الله عليه وآله بناء على ذلك سلام حقيقي لأنه صلى الله عليه وآله في هذا السفر المعراجي وفي هذا السير إلى الله صعودا ونزولا متصف بالسلامة وفي جميع السير عار وبريء من تصرفات غير الحق كما أشرنا إليه في السورة المباركة {إنّا أنزلناه} (القدر _ 1).

الفصل الثاني
آداب السلام عند الصادق (ع)

عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام "معنى السلام في دبر كل صلاة الأمان أي من أدّى أمر الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله خاشعا منه قلبه فله الأمان من بلاء الدنيا وبراءة من عذاب الآخرة والسلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإضافات وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم وصحة معاشرتهم، وإذا أردت أن تضع السلام موضعه وتؤدي معناه فلتتق الله وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ولا تدنسها بظلمة المعاصي ولتسلم حفظتك من ألا تبرمهم (تبرُمهم: تضجرهم.) ولا تملّهم وتوحشهم منك

بسوء معاملتك معهم ثم صديقك ثم عدوكّ فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا تسليم (سلّم) وكان كاذبا في سلامه وإن أفشاه في الخلق".

يقول عليه السلام: معنى السلام عقيب الصلاة هو الأمان بمعنى أم من أدّى الأوامر الإلهية والسنن النبوية بالخشوع القلبي فيأمن من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة، أي يأمن من التصرفات الشيطانية في الدنيا لأن أداء الأوامر بالخشوع القلبي موجب لقطع تصرف الشيطان: إن الصلاة تنهى

عن الفحشاء والمنكر.. ثم يشير عليه السلام إلى سرّ من أسرار السلام ويقول: السلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه وهذه إشارة إلى مظهرية الموجودات للأسماء الإلهية ولا بد للعبد السالك أن يظهر هذه اللطيفة الإلهية التي أودعت واختفت في باطن ذاته وخميرته ويستعملها في جميع المعاملات والمعاشرات والأمانات والإرتباطات ويشير بها إلى مملكة باطنه وظاهره ويستعملها في المعاملات مع الحق ودين الحق تعالى لئلا يخون الوديعة الإلهية فتسري حقيقة السلام إلى جميع قواه الملكية والملكوتية وفي جميع عاداته وعقائده وأخلاقه وأعماله لتسلم نفسه من جميع التصرفات، وعرّف عليه السلام التقوى طريقا لتحصيل هذه السلامة.

وليعلم أن للتقوى مراتب ومنازل، فتقوى الظاهر هي حفظ الظاهر عن القذارات وظلمة المعاصي القالبية وهذه هي تقوى العامة.. وتقوى الباطن هي حفظه وتطهيره عن الإفراط والتفريط وعن التجاوز عن حد الاعتدال في الأخلاق والغرائز الروحية وهذه تقوى الخاصة. وتقوى العقل حفظه وتطهيره عن الصرف في العلوم الإلهية، والمراد من العلوم الإلهية ما يكون مرتبطا بالشرائع والأديان الإلهية وهذه تقوى أخصّ الخواص، وتقوى القلب حفظه عن مشاهدة غير الحق ومذاكراته وهذه تقوى الأولياء..

والمقصود من الحديث الشريف الذي يقول الحق تعالى فيه أنا جليس من جالسني.. هذه هي الخلوة القلبية. وهذه الخلوة هي أفضل الخلوات، والخلوات الأخر مقدمة لحصول هذه الخلوة. فمن اتصف بجميع مراتب التقوى يسلم دينه وعقله وروحه وقلبه وجميع قواه الطاهرة والباطنة وتسلم حفظته الموكلة به ولا تمل ولا تضجر ولا تتوحش منه، ومن كان بهذه الصفة تكون معاملاته ومعاشرته مع صديقه وعدوه بطريق السلامة بل ينقطع

جذر العداوة عن باطن قلبه وإن كان الناس يعادونه، ومن لم يكن سالما في جميع المراتب فهو محروم من فيض السلام بمقدار عدم سلامته وقريب من أفق النفاق بمقدار ذلك نعوذ بالله منه والسلام.

خاتمة الكتاب

في آداب بعض الأمور الداخلة والخارجة للصلاة

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول
في التسبيحات الأربعة التي تقرأ في الركعة الثالثة والرابعة
من الصلاة وأسرارها وآدابها القلبية بالمقدار المناسب
وهي متقومة بأركان أربعة

الركن الأول: في التسبيح

التسبيح هو التنزيه عن التوصيف بالتحميد والتهليل. وهو من المقامات الشاملة، والعبد السالك لا بد أن يتوجّه إليه في جميع العبادات ويحفظ قلبه عن دعوى التوصيف والثناء على الحق ولا يظنن أن في إمكان العبد القيام بحق العبودية فضلا عن القيام بحق الربوبية الذي انقطعت عنه أعين آمال الكمل وتقاصرت عن ذيله أيدي الأكابر من أصحاب المعرفة (عنقا شكاركس نشود دام بازكير) (مصراع بيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي والمصراع الثاني "كانجا هميشة بادبه دست است دام را" يقول:

ليبست العنقاء تصطاد فخذ فخك واذهب

انه ليس له حظ سوى هب الرياح) فلهذه الجهة قالوا إن كمال المعرفة لأهل المعارف عرفان عجزهم. نعم حيث أن الرحمة الواسعة للحق جل وعلا شاملة لنا نحن العباد الضعاف فرخّص لنا نحن المساكين بالدخول إلى جناب خدمته بسعة رحمته. وتفضل بإجازة الورود في مثل هذا المقام المقدّس المنزّه الذي انقصمت ظهور الكروبيين عن الدنّو منه. وهذا من أعظم التفضلات والأيادي للذات المقدسة لولي النعمة على عباده يعرف قدره أهل المعرفة والأولياء الكمّل وأهل الله على قدر معرفتهم

وأمّا نحن المحجوبين المتأخرين عن كل مقام ومنزلة والمحرومين المهجورين من كل كمال ومعرفة فعنه غافلون بالكلية. والأوامر الإلهية . وهي في الحقيقة أفضل النعم العظيمة غير المتناهية نحسبها من التكلف والكلفة ونقوم بها بالضجر والكسالة. ومن هذه الجهة حرمنا وحجبنا عن نورانيته بالكلية.

وليعلم أن التحميد والتهليل حيث إنهما متضمنان للتوحيد الفعلي وفيهما شائبة التحديد والتنقيص بل شائبة التشبيه والتخليط فيلزم العبد السالك أن يجعل نفسه في حصن التسبيح والتنزيه الحصين ليتهيأ للورود فيه ويفهّم باطن قلبه أن الحق جلّت عظمته منزّه عن التعينات الخلفية والتلبس بملابس الكثرات كي يتنزّه وروده في التحميد عن شائبة التكثير.

الركن الثاني: التحميد

وهو مقام التوحيد الفعلي الذي يناسب حال القيام ويناسب القراءة أيضا. فلهذا كانت هذه التسبيحات في الركعتين الأخيرتين قائمة مقام الحمد والمصلي مختار أن يقرأ الحمد مكانها. ونستفيد التوحيد الفعلي كما ذكرنا في الحمد من حصر الحمد بالحق تعالى، وتقصر يد العبد عن المحامد بالكلية ونوصل إلى سامعة القلب: هو الأول والآخر والظاهر والباطن، ونذيق ذائقة الروح حقيقة {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} ونضع رؤية النفس وحبها تحت قدمي السلوك كي نصل إلى مقام الحمد ونخلّص القلب من مشقة تحمل ثقل منّة الخلق.

الركن الثالث: التهليل وله مقامات

أحدها، مقام نفي الألوهية الفعلية وهو عبارة أخرى عن لا مؤثر في الوجود إلا الله، وهذا يؤكد حصر التحميد بل يوجب الحصر ويسبب له،

لأن مراتب الوجود الإمكانية ظلّ حقيقة وجود الحق جلت قدرته وربط محض وليس لشيء منها بوجه من الاستقلال والقيام بنفسه فلهذا لا يصح أن ينسب التأثير الإيجادي إليها بوجه لأن اللازم في التأثير الاستقلال في الإيجاد والاستقلال في الإيجاد مستلزم الاستقلال في الوجود، وبعبارة أهل الذوق حقيقة الوجودات الظلّية ظهوره قدرة الحق في المرائي الخلقيّة. ومعنى لا إله إلا الله مشاهدة فاعلية الحق وقدرته في الخلق ونفي التعينات الخلقيّة وإفناء مقام فاعلية الخلق في الحق وإفناء تأثيرهم فيه تعالى.

ومن مقامات التهليل نفي المعبود غير الحق ولا إله إلا الله أي لا معبود سوى الله. وبناء على هذا مقام التهليل نتيجة لمقام التحميد لأنه إذا انحصرت المحمدة في ذات الحق المقدسة فالعبودية أيضا تنزل حملها في ذلك المقام المقدس وتنتفي جميع عبوديات الخلق للخلق وكلها لرؤية المحمدة ويكون هذا هو المعبود وتنكسر الأصنام بأجمعها.. وللتهليل مقامات أخر لا تناسب هذا المقام.

الركن الرابع: التكبير

وهو أيضا التكبير عن التوصيف، فكأن العبد في بدء وروده في التحميد والتهليل ينزّه الله عن التوصيف وبعد الفراغ منه أيضا ينزهّه ويكبّره عن التوصيف حتى يكون تحميده وتهليله محفوفا بالاعتراف بالتقصير والتذلل، ولعل التكبير في هذا المقام هو التكبير عن التحميد والتهليل لأن فيه شائبة الكثرة كما ذكر. ولعل في التسبيح تنزيها عن التكبير، وفي التكبير تكبيرا عن التنزيه لتسقط دعاوى العبد بالكلية ويتمكن في التوحيد الفعلي ويكون مقام القيام بالحق ملكة لقلبه ويخرج عن التلوين وتحصل له حالة

التمكين. والعبد السالك لا بد أن يحصّل لقلبه في هذه الأذكار الشريفة، وهي روح المعارف حالة التبتّل والتضرّع والانقطاع والتذلّل ويعطى لباطن القلب صورة الذكر بكثرة المداومة، ويمكّن في باطن القلب حقيقة الذكر حتى يكون القلب متلبّسا لباس الذكر وينزع عن نفسه لباسها وهو لباس البعد. فيصير القلب إلهيا حقانيا وتتحقق فيه حقيقة الآية: {أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم} (التوبة . 111) وروحها.

الفصل الثاني

في الآداب القلبية للقنوت

اعلم أن القنوت من المستحبات المؤكدة لا ينبغي تركه بل الأحوط الإتيان به لأن بعض الأصحاب قال بوجوبه، وظاهر بعض الروايات أيضا الوجوب وإن كان الأقوى في الصناعة الفقهية عدم الوجوب كما هو المشهور بين العلماء الأعلام وهو على هذه الكيفية الخاصة المتعارفة بين الإمامية رضوان الله عليهم بمعنى أنه متقوم برفع اليد حذاء الوجه وبسط باطن الكفين نحو السماء والدعاء بالمأثور أو غير المأثور ويجوز الدعاء بكل لسان عربيا

كان أم غير عربي والعربي أحوط وأفضل وقال الفقهاء أفضل الأدعية فيه دعاء الفرج، ولم ير الكاتب دليلا فقهيا معتدا به للأفضلية ولكن مضمون الدعاء دالّ على أفضليته التامة لأنه مشتمل على التهليل والتسبيح والتحميد وهي روح التوحيد كما ذكرنا. وهو مشتمل أيضا على الأسماء العظيمة الإلهية كالله والحليم والكريم والعليّ والعظيم والرب، وهو أيضا مشتمل على ذكر الركوع والسجود وهو مشتمل أيضا على أسماء الذات والصفات والأفعال، وهو مشتمل أيضا على تجليات الحق جل وعلا، وهو مشتمل أيضا على السلام على المرسلين، وإن كان الأحوط تركه ولكن الأقوى جوازه، وهو مشتمل أيضا على الصلاة على النبي وآله عليهم السلام. فكان هذا الدعاء

باختصاره مشتملا على جميع الوظائف الذكرية للصلاة، ويمكن اثبات أفضليته. بقول الفقهاء رضوان الله عليهم، إما بالتسامح في أدلّة السنن، وإن كان للكاتب فيه تأمّل وأمّا بالكشف عن دليل معتبر خفي عنّا كما هو مبنى الإجماع في نظر المتأخرين.

وعن الأدعية الشريفة التي لها فضل عظيم. وهو مشتمل أيضا على آداب مناجاة العبد الحق. ومشتمل على تعداد العطايا الكاملة الإلهية الذي يناسب حال القنوت وهو حال المناجاة والانقطاع إلى الحق مناسبة تامة وبعض المشايخ العظام رحمه الله كان مواظبا ومداوما عليه تقريبا، وهو دعاء "يا من أظهر الجميل". وهو من كنوز العرش وتحفة الحق تعالى لرسول الله ولكل من فقراته فضائل وثواب كثير كما في توحيد الشيخ الصدوق رحمه الله.

ومع أن الصلاة جميعها إظهار للعبودية وثناء على الله فإن الذات المقدسة للحق جل وعلا فتح باب المناجاة والدعاء للعبد بالخصوص في حال القنوت وهو حال المناجاة والانقطاع إلى الحق، وشرّفه بهذا التشريف، فالأفضل في أدب عبودية العبد السالك أيضا أن يراعي أدب المقام المقدس الربوبي ويراقب أدعيته لتكون مشتملة على تسبيح الحق تعالى وتنزيهه، وتتضمن ذكر الحق وتذكّره ويكون ما يسأل الحق تعالى في هذه الحالة الشريفة من سنخ المعارف الإلهية وطلب فتح باب المناجاة والأُنس والخلوة والانقطاع إليه ويحترز عن سؤال الدنيا والأمور الخسيسة الحيوانية والشهوات النفسانية فيصيبه الخجل في محضر الأطهار ويصير بلا حرمة ووقار في محضر الأبرار.

أيها العزيز.. إن القنوت هو قطع اليد عن غير الحق والإقبال التام

على عزّ الربوبية ومدّ يد السؤال خالية الكف إلى الغني المطلق والكلام عن البطن والفرج وذكر الدنيا في هذا الحال، حال الانقطاع كمال النقصان وتمام الخسران.

أيا روحي.. حيث إنك الآن بعدت عن وطنك وهجرت مجاورة الأحرار وابتليت بهذه الدار المظلمة ذات التعب والمحن الكثيرة فلا تنسج على نفسك كدود القزّ.

أيا عزيزي.. إن الله الرحمن قد خمّر فطرتك بنور المعرفة ونار العشق، وأيّدها بأنوار كالأنبياء وعشاق كالأولياء فلا تطفئ هذه النار بتراب الدنيا الدنيّة ورمادها، ولا تكدّر ذاك النور بكدورة التوجّه إلى الدنيا وظلمتها وهي دار الغربة، فإنك إذا توجّهت إلى الوطن الأصلي وطلبت الانقطاع إلى الحق من الحق وعرضت عليه حالة هجرانك وحرمانك بقلب موجع وأظهرت حال مسكنتك واضطرارك ووجعك فيدركك الإمداد الغيبي وتساعد مساعدة باطنية وتجبر النقائص إذ من عادته الإحسان ومن شيمته التفضّل، وإذا قرأت في القنوت من فقرات المناجاة الشعبانية لإمام المتقين وأمير المؤمنين وأولاده المعصومين عليهم السلام وهو أئمة المعارف والحقائق وخصوصا قوله عليه

السلام: "إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك." إلى آخره.. ولكن تقرؤه بحال الاضطرار والتبتّل والتضرّع، لا بقلب ميّت كقلب الكاتب فهو أنسب لهذه الحال.

وبالجملة، مقام القنوت في نظر الكاتب كمقام السجود، فذاك توجّه وإقبال على ذلّ العبودية وتذكّر مقام عزّ الربوبية، وهذا إقبال على العز الربوبي وتذكّر عجز العبودية وذلّها وهذا على حسب مقام المتوسطين، وأمّا على حسب مقام الكمّل فكما أن السجود مقام فناء العبد وترك الغير

والغيرية، فالقنوت مقام الانقطاع إلى الحق وترك الاعتماد على الغير وهو روح مقام التوكل.

وبالجملة، حيث إن القيام مقام التوحيد الإفعالي وهذا التوحيد يتمكن من الركعة الثانية ففي القنوت تظهر نتيجته فيقدم العبد كشكول (الكشكول: وعاء يجمع فيه المتسول رزقه) السؤال إلى الحق وينقطع عن الخلق ويفرّ منهم.

الفصل الثالث

في التعقيب

وهو من المستحبات المؤكدة ويكره تركه أيضا، ويتأكد الاستحباب في الصبح والعصر، والتعقيبات المأثورة كثيرة: منها التكبيرات الثلاثة الاختتامية والمشايخ العظام يواظبون بأن يرفعوا أيديهم في كل تكبيرة منها إلى حذاء الأذن ويبسطون باطن كفهم حذاء القبلة كالتكبيرات الافتتاحية، واثباتها مشكل، وإن أمكن استفادة رفع اليد ثلاث مرات من بعض الروايات ولعله يكفي رفع اليد والتكبير ثلاثا وقراءة دعاء "لا إله إلا الله وحده" إلى آخره..

وإذا كان رفع اليد مستحبا كما يواظب عليه المشايخ فهو تمكين للأسرار التي ذكرناها.

ولعله إشارة إلى طرد صلاته وعباداته لئلا يتطرق العجب ورؤية النفس إلى قلبه. والتكبيرات الثلاثة لعلها إشارة إلى التكبير عن التوحيدات الثلاثة التي هي مقومة روح جميع الصلاة، فالأدب القلبي لهذه التكبيرات هو أن يطرد المصلي في كل رفع لليدين توحيدا من التوحيدات الثلاثة ويكبر وينزه الحق جل وعلا عن توصيفات نفسه وتوحيداته ويعرض عجزه وذلّته وقصوره

وتقصيره في المحضر المقدّس للحق جل وعلا، ونحن ذكرنا في رسالة سرّ الصلاة الأسرار الروحية لهذه التكبيرات، وذكرنا رفع اليد على نحو لطيف في تلك الرسالة وهو من ألطاف الحق تعالى لهذا المسكين وله الشكر والحمد.

ومن جملة التعقيبات الشريفة، التسبيحات للصديقة الطاهرة سلام الله عليها التي علّمها رسول الله صلى الله عليه وآله لتلك المعظمة وهي أفضل التعقيبات. وفي الحديث "أنه لو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله فاطمة عليها السلام".

وعن أبي خالد القماط قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: "تسبيح فاطمة عليها السلام في كل يوم في دبر كل صلاة أحب إلي من صلاة ألف ركعة في كل يوم". والمعروف عند الأصحاب في ترتيبها التكبير أربعا وثلاثين مرة والتحميد ثلاثا وثلاثين مرة والتسبيح ثلاثا وثلاثين مرة، ولا يبعد أن يكون هذا الترتيب أفضل لا المتعين، بل الإنسان مخير في التأخير والتقديم في التحميد والتسبيح، بل لعله مخير في تأخير التكبير وتقديم

التسبيح أيضا، ولكن الأفضل والأحوط هو الترتيب المشهور، وآدابها القلبية هي التي ذكرت في التسبيحات الأربعة والزائد عليها أن هذه الأذكار حيث أنها وردت بعد الصلاة والتسبيح فيها هو التكبير والتنزيه عن القيام بحق العبودية، وفي التكبير أيضا تنزيه وتكبير عن اللياقة للعبادة لمحضر قدسه، وأيضا تنزيه وتكبير عن المعرفة وهي غاية العبادة، فعلى العبد السالك أن يتفكر في تعقيب الصلاة في نقصه وعبادته وغفلانه في حال الحضور وهي بنفسها ذنب في مذهب العشق والمحبة ويتوجه إلى حرمانه من حظوظ الحضور والمحضر المقدس للحق جل جلاله ويجبره بالمقدار الميسور في التعقيبات التي هي فتح باب آخر الرحمة من الحق تبارك وتعالى،

ويوصل هذه الأذكار الشريفة إلى القلب ويحيي بها قلبه فلعله تختم خاتمته بالحسن والسعادة.

وفي التحميد لتسبيحات الصديقة عليها الصلاة والسلام ثبت هذه المحمدة . وهي القيام بالعبودية . يثبتها للهوية الإلهية ويراها ويعدّها من تأييد الذات المقدسة وحولها وقوّتها ويوصل حقائق هذه الأمور إلى سر القلب ويذيق الفؤاد سر هذه اللطائف ليحيي القلوب بذكر الحق ويجد القلب الحياة الدائمة بالحق، وحيث أن الصبح افتتاح الاشتغال بالكثرات والورود على الدنيا، والإنسان مواجه لمخاطرة الاشتغال بالخلق والغفلة عن الحق فينبغي للإنسان السالك اليقظان أن يتوسّل إلى الحق تعالى في ذلك الوقت الدقيق للورود في هذه الدار المظلمة وينقطع إلى حضرته، فإذا رأى نفسه غير وجيه في ذلك المحضر الشريف فيتوسل بأولياء الأمر وخفراء الزمان وشفعاء الأنس والجان يعني الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، ويجعل تلك الذوات الشريفة شفيعا وواسطة، وحيث إن لكل يوم خفيرا ومجيرا فيتعلق يوم السبت بالوجود المبارك لرسول الله صلى الله عليه وآله، ويوم الأحد لأمير المؤمنين عليه السلام ويوم الاثنين للإمامين الهمامين السبطين عليهما السلام، ويوم الثلاثاء للحضرات السجاد والباقر والصادق عليهم السلام، ويوم الأربعاء للحضرات الكاظم والرضا والتقيّ والنقيّ عليهم السلام، ويوم الخميس للعسكري عليه السلام، ويوم الجمعة لوليّ الأمر عجّل الله فرجه الشريف (هؤلاء الأئمة الاثنا عشر الواردة على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الخبر المتواتر أو المستفيض عن طرق العامة أن الخلفاء من بعدي او الأئمة من بعدي اثني عشر كلهم من قريش وقد استقصينا البحث عن هذه الروايات في رسالتنا اولي الأمر.)، فيناسب أن يتوسل بعد صلاة الصبح للورود في هذا البحر المهلك الظلماني والمصيدة المهيبة الشيطانية بخفراء ذلك اليوم ويسأل الحق تعالى رفع شر الشيطان والنفس الأمارة بالسوء بشفاعتهم فإنهم مقربون لجناب القدس والمحارم لخلوة

الانس ويجعلهم وسائط في الإتمام وقبول العبادات الناقصة والمناسك غير اللائقة، فالحق تعالى شأنه كما جعل محمدا صلى الله عليه وآله وأهل بيته وسائط الهداية وعيّنهم الهداة لنا ونجّى الأمة ببركاتهم من الضلالة والجهل فيرمّم بشفاعتهم قصورنا ويتمم نقصنا ويقبل إطاعتنا وعباداتنا غير اللائقة إنه وليّ الفضل والإنعام.

والتعقيبات المأثورة مذكورة في كتب الأدعية فلينتخب كل ما يناسب حاله ويتم هذا السفر الشريف بالخير والسعادة.

اختتام ودعاء

كان من المناسب أن نتمم هذه الرسالة بذكر الموانع المعنوية للصلاة من قبيل الرياء والعجب وأمثالهما ولكن بما أنّا ذكرنا في كتاب الأربعين في شرح بعض الأحاديث شرحا لهذه الموضوعات.

والآن بسب كثرة الاشتغال وتشتت القوى الفكرية نعتذر عن هذه الخدمة، فلذا نختم هذه الأوراق مع الاعتراف بالنقص والتقصير ونطلب من أرباب الأنظار النقية العفو عن الخطأ ونحتاج إلى دعاء الخير منهم والنفس الكريم لهم.

إلهنا أنت الذي ألبستنا نحن العبيد الضعفاء لباس الوجود بالتفضل والعناية ومحض الرحمة والكرامة من دون أن تسبقنا خدمة وطاعة أو نحتاج إلى عبودية وعبادة، وشرّفتنا بأنواع النعم الروحانية والجسمانية وأصناف الرحمات الباطنية والظاهرية من دون أن يتطرق من عدمنا خلل في قدرتك وقوّتك أو أن يزيد بوجودنا شيء على عظمتك وحشمتك، فالآن وقد فاز منبع رحمانيتك وتشعشعت عين شمس جمالك الجميل وأغرقتنا في بحار رحمتك ونوّرتنا بأنوار الجمال فأجبر أيضا نقائصنا وخطيئاتنا وذنوبنا وتقصيراتنا بنور التوفيق الباطني، والمساعدة والهداية السرية وأخلص قلوبنا التي هي كلها تعلّق من التعلقات الدنيوية وزيّنها بالتعلق بعز القدس.

إلهنا إنه لا يحصل من طاعتنا نحن الأقلّين بسط في مملكتك، ولا يعود إليك نفع من عذاب المذنبين وإيلامهم، ولا يحصل من العفو والرحمة للساقطين نقصان في قدرتك فالعين الثابتة للخاطئين طالبة للرحمة وفطرة الناقصين طالبة لتماميتهم، فعاملنا باللطف العميم ولا تنظر إلى سوء استعدادنا..

إلهي إن كنت غير مستأهل لرحمتك فأنت أهل أن تجود علي بفضل سعتك.. إلهي قد سترت عليّ ذنوباً في الدنيا وأنا أحوج إلى سترها عليّ منك في الآخرة.. إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة.

ها هنا أختتم كلامنا بتقدير الله حامدا شاكرا على نعمائه مصليّا على محمد وآله الطاهرين في تاريخ يوم الاثنين من ربيع الثاني سنة ألف وثلاثمئة وإحدى وستين 1361 هـ. ق.

خاتمة المعرِّب

أقول وقد وفّقني المولى المنعم لتعريب هذا السفر الجليل من اللغة الفارسيّة في بلدة دمشق وقد تمّت ترجمته في صبيحة يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال سنة ألف وأربعمئة وثلاث من الهجرة النبوية على هاجرها الصلاة والسلام، والحمد لله أولا وآخرا، وأنا العبد المفتاق إلى رحمة ربه.

السيد أحمد الفهري.